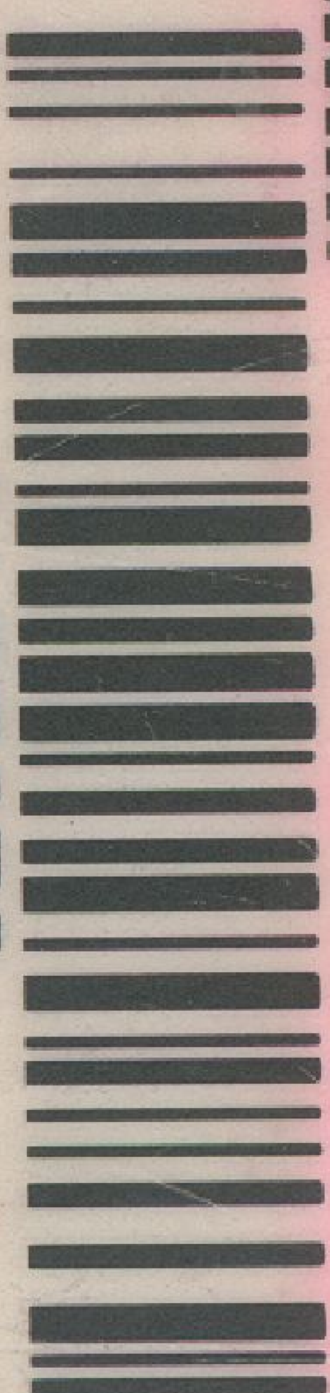



اقرأ

الكعبة على مرّ العصور



الدكتور علي حسني الخربوطلي

دار المعارف بمصر

الكعبة

على مرّ العصور

الدكتور علي حسني الخربوطلي

الكعبة

على مرّ العصور

اقرأ ٢٩١
دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٩١ .. مارس سنة ١٩٦٧

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.ع.م.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذه هي دراسة علمية منهجية لتاريخ الكعبة المقدسة ، التي يقدسها المسلمون فى أرجاء الأرض ، ويحجون إليها فى كل عام ، لتأدية فريضة الحج التي هى ركن من أركان الإسلام ، حيث يجتمعون بين يدى الله عز وجل ، فيتوجهون إليه بالدعاء ، ويلتمسون الغفران والبركات . وقد اعتمدنا فى هذه الدراسة على القرآن الكريم وكتب السيرة النبوية والمصادر العربية الإسلامية الأصلية ، ودرسنا تاريخ الكعبة منذ قيامها ، وفصلنا تاريخها على مر العصور المختلفة ، حتى اليوم .

فتحدثنا عن قيام الكعبة على يد إبراهيم وولده إسماعيل بأمر من الله سبحانه وتعالى . وقد أصبحت الكعبة بيتاً لله ومركزاً لعقيدة التوحيد . ثم درسنا الأحداث التاريخية التى أدت إلى ظهور الوثنية ، وتناولنا بالحديث حركة الحنيفية التى عملت على إحياء دين التوحيد الذى دعا إليه إبراهيم عليه السلام ، ودعت إلى تطهير الكعبة من الأوثان . ودرسنا دور الكعبة فى تطور مدينة مكة وحضارتها ، وارتفاع شأن قريش فى الجزيرة العربية .

ثم شهدنا شروق شمس الإسلام ، التى أنارت أرجاء الجزيرة العربية ، والعالم أجمع ، بأنوار الهداية والحق ، فبدأت الكعبة تدخل فى دور جديد وعادت كما كانت بيت الله الحرام ، ومقصد الحجاج المسلمين .

وتحدثنا عن الكعبة فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد اشترك الرسول فى تجديد بناء الكعبة ، وقام بدور كبير فى حسم النزاع الذى ثار بين القبائل ، وقام بوضع الحجر الأسود بيديه الكريمتين فى موضعه .

وشهدنا دعوة الرسول أهل مكة إلى الإسلام عند الكعبة ، وصلاة المسلمين عندها ، ثم خروج الرسول من المدينة إلى مكة لأداء العمرة ، ثم قدومه ليحج حجة الوداع ، التى لقن فيها المسلمين مناسك الحج .

كما درسنا اهتمام المسلمين بتجديد بناء الكعبة ، وصيانتها ، وكسوتها ، على مرّ العصور التاريخية وانتهينا من دراستنا عند تاريخنا المعاصر ، واهتممنا بتزويد القارئ بصورة وصفية مفصلة للكعبة .

ونرجو أن يكون التوفيق قد حالفنا فى هذه الدراسة الجديدة لتاريخ الكعبة المعظمة ، والله سبحانه وتعالى دائماً ولى التوفيق .

المؤلف

١ ـ روايات حول الكعبة قبل إبراهيم

قام إبراهيم وابنه إسماعيل ببناء الكعبة، بعد نزوحهما من فلسطين إلى بلاد الحجاز، بأمر من الله سبحانه وتعالى. وهو ما يؤكده القرآن الكريم، ويجمع عليه المؤرخون. ولكن يحلو لبعض المؤرخين أن يذكروا بعض الروايات التى تدور حول تاريخ بناء الكعبة، فيجعلون لتاريخ الكعبة أصولا وجذوراً تمتد إلى ما قبل عهد إبراهيم وإسماعيل، ويصبح الخيال الواسع عنصراً بارزاً فى بعض الروايات. واختلاف بعض الروايات وتناقضها، وعدم موافقتها للكتب السماوية، يجعلنا لا نؤمن بصحتها. ولكننا ونحن ندرس تاريخ الكعبة المعظمة، لا نرى بأساً من أن نذكر بعض هذه الروايات التى حوتها كتب بعض المؤرخين الأقدمين، فقد أصبحت جزءاً من تواريخهم، وهى محط أنظار القراء فى كل زمان، وحتى يمكننا أن نناقش هذه الروايات ونحكم عليها حكماً تاريخياً منهجياً.

فهناك من المؤرخين القدماء من ينسب بناء البيت إلى الملائكة قبل أن يبرأ الله عز وجل الأرض، ومنهم من نسب بناءها إلى آدم عليه السلام أو إلى ابنه (شيث). ولكن هذه الروايات لا تستند إلى مصدر أصلى قديم. وجميع الشواهد تؤكد أن وادى مكة قبل نزوح إبراهيم وإسماعيل كان غير ذى زرع، لا يسكنه أحد، لعدم توافر وسائل الحياة.

أما المؤرخون الذين ينسبون بناء البيت إلى الملائكة، فيذكرون أن الله عز وجل غضب على الملائكة حين قال لهم: (إنى جاعل فى الأرض خليفة، قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح

بحمدك ونقدس لك) . وغضب الله سبحانه وتعالى على الملائكة وأعرض عنهم ، فلاذ الملائكة بالعرش ورفعوا رءوسهم وأشاروا بالأصابع يتضرعون ويبكون إشفاقاً من هذا الغضب ، وطافوا بعرش الله سبعاً كما يطوف الناس بالبيت الحرام وهم يقولون : « لبيك اللهم لبيك ، ربنا معذرة إليك ، نستغفرك ونتوب إليك » . فنظر الله عز وجل إليهم ، ونزلت الرحمة عليهم ، ووضع الله سبحانه وتعالى تحت العرش بيتاً هو البيت المعمور ، ثم قال للملائكة : طوفوا بهذا البيت ، ودعوا العرش . فكان طوافهم بهذا البيت أيسر عليهم من طوافهم بعرش الخالق .

ثم أمر الله سبحانه وتعالى الملائكة ، كما يذكر المؤرخون ، من سكان الأرض ، أن يبنوا في الأرض بيتاً على مثال البيت المعمور ، وأمر من في الأرض أن يطوفوا به ، كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور .

فبنته الملائكة قبل خلق آدم بألفي عام ، وكانوا يحجون إليه . فلما حج آدم إلى هذا البيت قالت الملائكة له : « بر حجك يا آدم ، حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام » .

وروى العمري في كتابه « مسالك الأبصار »[1] عن عبد الله ابن عمرو بن العاص أنه قال : « خلق الله البيت قبل الأرض بألفي سنة ، وكان عرشه على الماء على زبدة بيضاء ، فدحيت الأرض من تحته » وأسند العمري هذه الرواية أيضاً إلى مجاهد وقتادة والسدّي .

وأسند العمري إلى قتادة أنه قال : « ذكر لنا أن البيت هبط مع آدم ، وحين أهبط قال الله : أهبط معك بيتي يطاف به كما يطاف حول عرشي . فطاف حوله آدم ومن كان بعده من المؤمنين ، حتى إذا كان زمن الطوفان ، رفعه الله وطهره من أن تصيبه عقوبة أهل الأرض ،

---

(١) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار جـ ١ ص ٩٣ (طبعة دار الكتب ١٩٢٤) .

فصار معموراً فى السماء . ثم إن إبراهيم تتبع منه أثراً بعد ذلك ، فبناه على أساس قديم كان قبله »[١] .

وقال عطاء بن أبى رباح : وجه آدم إلى بكة[٢] حين استوحش ، فشكا ذلك إلى الله عز وجل فى دعائه . فلما انتهى إلى بكة ، أنزل الله ياقوتة من ياقوت الجنة ، فكانت على موضع البيت الآن. فلم يزل يطوف به حتى أنزل الله الطوفان ، فرُفعت تلك الياقوتة ، حتى بعث الله عز وجل إبراهيم فبناه ، فذلك قوله تعالى: (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت) . ويسند العمرى هذه الرواية إلى أبى عروبة .

وروى أبو الوليد الأزرقى بسنده عن علىّ بن الحسين بن على بن أبى طالب ، قال : إن الله تبارك وتعالى بعث ملائكة ، فقال ابنوا لى بناء فى الأرض تمثال البيت وقدره . وأمر الله منْ فى الأرض من خلقه أن يطوفوا به ، كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور . قال : وكان هذا قبل خلق آدم ، عليه السلام ، والله أعلم[٣] .

ومن الروايات التى تدور حول بناء آدم البيت ، رواية تفرد ابن لهيعة فى نسبتها إلى الرسول ، أنه قال : « بعث الله جبريل إلى آدم وحواء فقال لهما : ابنيا لى بيتاً ، فخط لهما جبريل ، فجعل آدم يحفر ، وحواء تنقل ، حتى إذا أجابه الماء ، نودى من تحته : حسبك يا آدم . فلما بنيا أوحى الله تعالى إليه أن يطوف به ، وقيل له : أنت أول الناس وهذا أول بيت . ثم تناسخت القرون حتى رفع إبراهيم القواعد فيه » .

وينسب ابن قتيبة فى كتابه « المعارف »[٤] بناء الكعبة إلى شيث

(١) مسالك الأبصار جـ ١ ص ٩٣ .

(٢) أى مكة .

(٣) مسالك الأبصار جـ ١ ص ٩٤ .

(٤) المعارف ص ١٠ (المطبعة الحسينية ١٩٣٤) .

ابن آدم ، فروى : « كان شيث بن آدم أجل ولد آدم وأفضلهم وأشبههم به وأحبهم إليه، وكان وصى أبيه وولى عهده، وهو الذى ولد البشر كلهم ، إليه انتهى أنساب الناس ، وهو الذى بنى الكعبة بالطين والحجارة، وكان هناك خيمة لآدم وضعها الله له من الجنة » . ويروى العمرى[1] : « وقيل إن آدم أول من بناها — أى الكعبة — وقيل شيث ابن آدم ، وكانت قبل بنائه خيمة من ياقوتة حمراء ، يطوف بها آدم » . ولكن العمرى بعد أن عدّد روايات كثيرة لا يجزم إذا كان بناء الكعبة قبل إبراهيم كان على يد الملائكة أو على يد آدم ، أو على يد ابنه شيث .

وهناك روايات كثيرة يذكرها مؤرخون أقدمون، ولا نرى بأساً من ذكر بعضها ، فيذكر المؤرخ المسعودى أن قوم عاد لما أصابهم القحط « وفدوا إلى مكة يستسقون ، وكانوا يعظمون موضع الكعبة قبل أن يشيد بناءها إبراهيم ، وكان ربوة حمراء » ، وتتعدد الروايات عند بعض المؤرخين ، فيذهبون إلى أنه كان فى مكان الكعبة معبد قديم للعماليق ، اندثر واختفى ، قبل قدوم إبراهيم إلى بلاد الحجاز ، مما جعل هذه البلاد موضع تقديس ، حتى إن المصريين القدماء سموا بلاد الحجاز « البلاد المقدسة » .

قبل الكعبة ، كان لبعض الأنبياء بيوت ، فقد عرف نوح البيوت وسكنها قبل إبراهيم ، وكان لإبراهيم بيوت فى وطنه ، ولكن الكعبة كانت أول بيت وضع للناس لعبادة الله الواحد الأحد ، وفيه آيات بينات .

---

(١) مسالك الأبصار جـ ١ ص ٩٤ .

٢ ــ بناء إبراهيم وإسماعيل الكعبة

قدوم إبراهيم وإسماعيل إلى الحجاز :

يرتبط تاريخ بناء الكعبة بقصة إبراهيم وابنه إسماعيل ، عليهما السلام ، وزوجهما من فلسطين إلى مكة ببلاد الحجاز ، مما يجعلنا نشير إلى قصتهما فى إيجاز .

نشأ إبراهيم فى بلاد العراق ، وكان أبوه نجاراً تخصص فى صناعة الأصنام التى كان يعبدها مواطنوه ، وكان اشتراك إبراهيم مع أبيه فى تشكيل الأوثان دافعاً على العزوف عن عبادتها . حتى إذا أصبح شاباً ، تسلل إلى المعبد وحطم الأصنام عدا كبيرها ، وسأله مواطنوه (أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون) [١] . وعاقب الوثنيون إبراهيم على تحطيمه أوثانهم بأن ألقوه فى النار ، ولكن الله عز وجل جعلها برداً وسلاماً . وخرج إبراهيم إلى فلسطين ناجياً بنفسه وبزوجه سارة .

ثم رحل إبراهيم إلى مصر حيث كان يحكمها ملوك الهكسوس (العماليق) ، وكان أحد ملوكهم ينتزع الزوجات الجميلات بعد أن يقتل أزواجهن . وأعلن إبراهيم بين الناس أن سارة أخته حتى ينجو من القتل . وانتزع الملك سارة من إبراهيم ، ولكن العناية الإلهية كانت تحيط بإبراهيم ، فرأى الملك فى نومه أن سارة ما هى إلا زوجة إبراهيم ، فندم

---

(١) سورة الأنبياء آية ٦٢ و ٦٣ .

وأعادها إلى زوجها ، ومنحه كثيراً من الهدايا ومن بينها جارية تدعى هاجر.

وكانت سارة لم تنجب لإبراهيم ، ودفعتها عاطفة الأمومة إلى أن تطلب من إبراهيم الدخول بهاجر حتى تنجب له غلاماً يقر الله به عيونهما فأنجب إبراهيم من هاجر ولداً أسموه إسماعيل . وبعد فترة أنجبت سارة ابنها إسحاق .

وتساوى عطف إبراهيم على ولديه ، إسماعيل وإسحاق ، ولكن سارة غضبت من أن يساوى زوجها بين ابن جاريتها وابنها ، وهى الحرة . وأصرت سارة على أن يخرج إبراهيم بهاجر وإسماعيل بعيداً عنها . فخرج بهما من فلسطين إلى الحجاز ، وانتهى إلى الوادى الذى قامت فيه مكة فيما بعد . وكان وادياً قفراً غير ذى زرع ، تتخذه بعض القوافل محطة تستريح فيه خلال رحلاتها التجارية . وفى ذلك يقول الطبرى [1] : « وأوحى الله الى إبراهيم أن يأتى مكة وليس يومئذ بمكة بيت » . وترك إبراهيم ابنه إسماعيل وأمه هاجر ، بعد أن ترك لهما اليسير من الطعام والماء ، وعاد إلى فلسطين حيث ترك سارة وإسحاق .

تحدث المؤرخ المسعودى [2] عن المكان الذى نزل فيه إبراهيم وهاجر وإسماعيل ، فقال : « ولما أسكن إبراهيم ولده إسماعيل مكة مع أمه هاجر ، واستودعهما خالقه على حسب ما أخبر الله عنه أنه أسكنه بواد غير ذى زرع ، وكان موضع البيت ربوة حمراء ، أمر إبراهيم هاجر أن تتخذ عليها عريشاً يكون لها مسكناً » .

وفرغ الطعام والماء ، وتعالت صيحات الطفل ، وخشيت هاجر على ابنها من الموت عطشاً وجوعاً ، وغادرت مكانها لتبحث عن الماء ، مما

---

(١) الطبرى ج ١ ص ١٧٩ (المطبعة التجارية ١٩٤٩) .

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٤٦ (المطبعة التجارية) .



يدفع عنهما الهلاك . وأخذت تهرول بين الصفا والمروة ، حتى إذا أتمت السعى سبع مرات ، عادت إلى إسماعيل ، فإذ به يفحص الأرض بقدمه ، حيث نبع الماء من الأرض ، وظهرت بئر زمزم ، وكتب الله لإسماعيل وأمه النجاة .

ويروى الطبرى أن الله عز وجل أنزل جبريل ففجر هذه البئر ، وقد بشر جبريل هاجر بعودة إبراهيم فى يوم ما وبنائه الكعبة ، قال الطبرى [١] : « وقال لها الملك : لا تخافى الظمأ على أهل هذا البلد ، فإنها عين لشرب ضيفان الله ، إن أبا هذا الغلام سيجىء فيبنيان لله بيتاً هذا موضعه » .

وصادف أن مرّت قبيلة جرهم بهذا المكان ، فشاهدت طيوراً تحلق فى السماء ، فأدركوا أن هناك ماء ، وعجبوا من ذلك ، فقد كانوا يمرون بالمكان فيجدونه قفراً جدباً ، وعثرت جرهم على هاجر وابنها ، واستأذنوا منها فى الإقامة إلى جانب هذه البئر ، فأذنت لهم . وشب إسماعيل فى قبيلة جرهم ، وتعلم منهم اللغة العربية ، فيقول المسعودى [٢] : « وأذنت لهم فى النزول ، فتلقوا من كان وراءهم من أهليهم ، وأخبروهم خبر الماء ، فنزلوا الوادى مطمئنين ، مستبشرين بالماء ، مما أضاء الوادى من نور النبوة وموضع البيت الحرام ، فرحين ، وعيل إسماعيل ، وتكلم إسماعيل بالعربية خلاف لغة أبيه » .

مقدّمات بناء الكعبة :

مرّت السنون ، وماتت هاجر وهى فى التسعين من عمرها . وأصبح إسماعيل شاباً يافعاً ، وتزوج إحدى فتيات قبيلة جرهم ، وتدعى الجداء

(١) الطبرى جـ ١ ص ١٧٩ .

(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٧ .

بنت سعد . وفى يوم اشتاق إبراهيم لرؤية ابنه إسماعيل ، فاستأذن من زوجته سارة فى الرحيل ، فأذنت له . وقصد إبراهيم إلى دار إسماعيل ، وكان حينئذ غائباً فى رحلة صيد ، وطرق إبراهيم الباب ، فخرجت له الحذاء ، فقال لها إبراهيم : أين صاحبك ؟ قالت : ليس هاهنا ، ذهب يتصيد . فقال إبراهيم : هل عندك ضيافة ، هل عندك طعام أو شراب ؟ قالت : ليس عندى ، وما عندى أحد . فقال إبراهيم : إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولى له فليغير عتبة بابه . وعاد إسماعيل من رحلته ، وعلم بالقصة ، فطلق زوجته ، وتزوج من فتاة جرهمية أخرى تدعى سامة بنت مهلهل [1] .

ودفع الشوق إبراهيم إلى القدوم مرّة أخرى إلى مكة ليرى ابنه إسماعيل ، وأذنت له سارة بذلك واشترطت عليه أن لا ينزل عن جواده « فجاء إبراهيم حتى انتهى إلى باب إسماعيل ، فقال لامرأته : أين صاحبك ؟ قالت : ذهب يتصيد وهو يجيء الآن إن شاء الله ، فانزل يرحمك الله . قال لها : هل عندك ضيافة ؟ قالت : نعم . قال : هل عندك خبز أو برّ أو شعير أو تمر ؟ فجاءت باللبن واللحم . فدعا لهما بالبركة . فلو جاءت يومئذ بخبز أو برّ أو تمر أو شعير لكانت أكثر أرض الله برًّا أو شعيراً أو تمراً [2] » .

ويروى المسعودى [3] رواية عن تبشير إبراهيم ببناء الكعبة ، فروى : « وألحت الجرهمية على إبراهيم فى النزول ، فأبى ، فقدّمت إليه لبناً وشرائح من لحم الصيد ، فدعا فيه بالبركة ، وجاءته بحجر كان فى البيت ، فمال عن ركابه ، وجعلته تحت قدمه اليمنى ، ثم رجّلت شعره

---

(١) الطبرى ج ١ ص ١٨١ .
(٢) الطبرى ج ١ ص ٤٨ .
(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٤٨ .

ودهنته ، ثم حوّلت الحجر إلى شماله ، فوضع رجله اليسرى عليه أيضاً ، ومال برأسه نحوها ، فرجلته ودهنته ، فأثرت قدماه فى الحجر على ما وصفنا من ترتيب اليمين والشمال ، فلما رأت الجرهمية ذلك أكبرت ما شاهدته ، وهذا الحجر هو مقام إبراهيم ، فقال لها إبراهيم : ارفعيه فسيكون له شأن ونبأ بعد حين . ثم قال لها : إذا جاءك إسماعيل فقولى له : إن إبراهيم يقرأ عليك السلام ويقول لك : احتفظ بعتبة بيتك ، فنعمت العتبة هى ، وسار إبراهيم راجعاً نحو الشام » .

تطورت مكة ، وزاد عدد سكانها ، فقد علمت بطون جرهم والعماليق بحلول الماء والخصب فى مكة ، فأقبلوا على النزول بها ، وأصبح الحارث ابن مضاض بن عمرو الجرهمى زعيم أهل مكة (١) .

بناء الكعبة :

قدم إبراهيم مرة أخرى إلى مكة ، وكان إسماعيل حينئذ فى الثلاثين من عمره . وفى هذه المرّة أمر الله عز وجل إبراهيم ببناء الكعبة ، وتعاون الأب والابن على تنفيذ أمر المولى سبحانه وتعالى .

وروى المؤرخون كثيراً من الروايات حول بناء الكعبة . ومن أدق هذه الروايات وأوجزها ، ما رواه الطبرى (٢) عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : « جاء إبراهيم فوجد إسماعيل يصلح نبلا له من وراء زمزم . فقال إبراهيم : يا إسماعيل إن ربك قد أمرنى أن أبنى له بيتاً . فقال له إسماعيل : فأطع ربك فيما أمرك . فقال إبراهيم : قد أمرك أن تعيننى عليه . قال : إذاً أفعل . فقام معه ، فجعل إبراهيم يبنيه وإسماعيل يناوله الحجارة ويقولان : (ربنا

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٤٧ .
(٢) الطبرى ج ١ ص ١٨٢ .

تقبل منا إنك أنت السميع العليم) ، فلما ارتفع البنيان وضعف الشيخ عن رفع الحجارة ، قام على حجر، وهو مقام إبراهيم ، فجعل يناوله ويقولان : تقبل منا إنك أنت السميع العليم. فلما فرغ إبراهيم من بناء البيت الذى أمره الله عز وجل ببنائه أمره الله أن يؤذن فى الناس بالحج فقال له : (وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) » .

ولكن الطبرى روى روايات أخرى كثيرة لا تختلف عن الرواية الأولى فى جوهرها ، ولكنها تزيد عليها فى بعض التفاصيل . وتعددت الروايات ، واختلفت فى بعض عناصرها وتفاصيلها . وتختلف الروايات حول من دل إبراهيم إلى المكان الذى أقام فيه الكعبة ، وهل هى ريح السكينة أو جبريل عليه السلام ؟ من هذه الروايات : « أن رجلا قام إلى على بن أبى طالب فقال : ألا تخبرنى عن البيت ، أهو أول بيت وضع فى الأرض ؟ فقال : لا ولكنه أول بيت وضع فى البركة مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمناً ، وإن شئت أنبأتك كيف بنى ، إن الله عز وجل أوحى إلى إبراهيم أن ابن لى بيتاً فى الأرض ، فضاق إبراهيم بذلك ذرعاً ، فأرسل عز وجل السكينة وهى ريح خجوج ولها رأسان فاتبع أحدهما صاحبه حتى انتهت إلى مكة ، فتطوت على موضع البيت كتطوى الحية ، وأمر إبراهيم أن يبنى حيث تستقر السكينة ، فبنى إبراهيم »(١) .

ويروى الطبرى عن ابن إسحاق أن جبريل صحب إبراهيم من الشام إلى الحجاز ليدله على مكة التى ستقام فيها الكعبة ، وأسند هذه الرواية إلى ابن إسحاق فقال : « عن مجاهد وغيره من أهل العلم ، أن الله عز وجل لما بوأ لإبراهيم مكان البيت ومعالم الحرم ، خرج وخرج معه جبرائيل ، يقال كان لا يمر بقرية إلا قال : بهذه أمرت يا جبرائيل ؟

---

(١) الطبرى جـ ١ ص ١٧٦ .

فيقول جبرائيل : أمضه . حتى قدم به مكة ، وهى إذ ذاك عضاة سلم وسمر وبها أناس يقال لهم العماليق خارج مكة وما حولها والبيت يومئذ ربوة حمراء مدرة . فقال إبراهيم لجبرائيل : أهاهنا أمرت أن أضعهما ؟ قال نعم »[١] .

وروى العمرى[٢] عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة أنه قال : « ذكر لنا أن قواعد البيت من حراء ، وذكر لنا أن البيت من خمسة أجبل : حراء ولبنان والجودىّ وطورسينا وطور زيتا » . كما روى العمرى أيضاً عن السهيل : « أن الملائكة كانت تأتى إبراهيم عليه السلام بالحجارة » .

الحجر الأسود :

مضى إبراهيم وإسماعيل فى بناء الكعبة كما أمرهما الله عز وجل ، وأوشك البناء أن ينتهى ، وبقى حجر واحد « فذهب الغلام يبنى شيئاً ، فقال إبراهيم : لا ، ابغ حجراً كما آمرك ! فانطلق الغلام يلتمس له حجراً ، فأتاه به ، فوجده قد ركب الحجر الأسود فى مكانه فقال : يا أبت من أتاك بهذا الحجر ؟ فقال : أتانى به من لم يتكل على بنائك ، أتانى به جبرائيل من السماء »[٣] .

ويروى الطبرى[٤] رواية أخرى لا تختلف فى جوهرها عن الرواية السابقة ، ولكنها تزيد عليها فى بعض التفاصيل ، وقد أسندها الطبرى إلى على بن أبى طالب ، فقال : « فوضع إبراهيم الأساس ورفع البيت هو

---

(١) الطبرى جـ ١ ص ١٧٨ .
(٢) مسالك الأبصار جـ ١ ص ٩٤ .
(٣) الطبرى جـ ١ ص ١٧٦ .
(٤) الطبرى جـ ١ ص ١٧٧ .

وإسماعيل حتى انتهيا إلى موضع الركن . قال إبراهيم لإسماعيل : يا بنى ابغ لى حجراً أجعله علماً للناس . فجاءه بحجر ، فلم يرضه . وقال : ابغنى غير هذا . فذهب إسماعيل ليلتمس له حجراً ، فجاءه ، فقد أتى بالركن فوضعه فى موضعه ، فقال : يا أبت من جاءك بهذا الحجر ؟ قال : من لم يكلنى إليك يا بنى ! » .

والحجر الأسود حجر صقيل بيضى ، غير منتظم ولونه أسود يميل إلى الاحمرار ، وفيه نقط حمراء ، وتعاريج صفراء . ويقول أحد الكتاب [1] « هذا الحجر قد يكون من نوع النيازك بدليل وصفه أنه كان يتلألأ نوراً فأضاء شرقاً وغرباً وشاماً ويمناً إلى منتهى أنصاب الحرم . وتلألؤه الموصوف دليل على أنه كان ذا لون غير السواد ، ولكن بعض المؤرخين يعلل سواده بأنجاس الجاهلية وأرجاسها . وبعض النيازك يتغير لونها بمجرد مرور الزمن عليها ، ومنها ما يتلألأ ويلمع . والكلمة من أصل فارسى " ينزه " وهو أحد أقسام الشهب ، والشهاب ما يرى كأنه كوكب انقض من السماء وتكثر فى شهر آب » .

ويرى كاتب آخر [2] أن تقديس الحجر الأسود نجم من ارتباطه بشىء مقدس محترم ، فهذا الحجر الذى وضعه إبراهيم عليه السلام فى الكعبة إما أن يكون قد وضعه تذكاراً لصدعه بأمر ربه حين أمره برفع قواعد هذا البيت المعظم ، وإما أن يكون رمزاً للعهد الذى أخذه إبراهيم على نفسه وولده بجعله هذا البيت مثابة للناس وأمناً ، وإما أن يكون قد أقامه إبراهيم عليه السلام حجة عليه وعلى ولده بأن هذا البيت قد انتقل

---

(١) لطفى جمعة : ثورة الإسلام ص ٥٩ .

(٢) المجرسى : كتاب الحج ص ٢٥ .

من ملكيتهم إلى الله تعالى ليكون للناس مصلى ومسجداً للطائفين والعاكفين والركع السجود . ولذا وضعه فى الركن الأقرب إلى الباب ليكون أول حدود هذا البيت المكرم ، الذى يبتدئ منه الطائفون ، واختار له اللون الأسود لسهولة تعيينه وتحديد مكانه ، لذلك كان الحجر الأسود محترماً من إبراهيم ، محترماً من ولده ، مقدساً عند المسلمين إلى اليوم وإلى الغد .

روى الإمام أحمد والبخارى ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم وقف عند الحجر الأسود فقال : « إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع » . ثم قبله . ولما حج أبو بكر وقف عند الحجر وقال : إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك . وكذلك فعل عمر بن الخطاب عند حجه بالناس .

وصف الرحالة ابن بطوطة [1] الحجر الأسود كما شاهده خلال رحلته إلى مكة ، فقال : « وأما الحجر الأسود ، فارتفاعه عن الأرض ستة أشبار ، فالطويل من الناس يتطامن لتقبيله ، والصغير يتطاول إليه ، وهو ملصق فى الركن الذى إلى جهة المشرق ، وسعته ثلثا شبر ، وطوله شبر وعقد ، ولا يعلم قدر ما دخل منه فى الركن ، وفيه أربع قطع ملصقة . وجوانب الحجر مشدودة بصفيحة من فضة ، يلوح بياضها على سواد الحجر الكريم ، فتجتلى منه العيون حسناً باهراً . ولتقبيله لذة ينعم بها الفم ، ويود لاثمه ألا يفارق لثمه ، خاصة مودعة فيه ، وعناية ربانية به . وكفى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه يمين الله فى أرضه . (نفعنا الله باستلامه ومصافحته ، وأوفد عليه كل شيق إليه) . وفى القطعة الصحيحة من الحجر الأسود ، مما يلى جانبه الموالى ليمين مستلمه ، نقطة بيضاء

---

(١) رحلة ابن بطوطة جـ ١ ص ١٠٧ (المطبعة الأميرية ١٩٣٩) .

صغيرة مشرقة ، كأنها خال فى تلك الصحيفة البهية ، وترى الناس إذا طافوا بها يتساقط بعضهم على بعض ازدحاماً على تقبيله ، فقلما يتمكن أحد من ذلك إلا بعد المزاحمة الشديدة ، وكذلك يصنعون عند دخول البيت الكريم . ومن عند الحجر الأسود ابتداء الطواف ، وهو أول الأركان التى يلقاها الطائف ، إذا استلمه تقهقر عنه قليلا ، وجعل الكعبة الشريفة عن يساره ، ومضى فى طوافه ، ثم يلقى بعده الركن العراقى ، وهو إلى جهة الشمال ، ثم يلقى الركن الشامى وهو إلى جهة الغرب ، ثم يلقى الركن اليمانى وهو إلى جهة الجنوب ، ثم يعود إلى الحجر الأسود وهو إلى جهة الشرق » .

الكعبة بعد تمام بنائها :

أتم إبراهيم واسماعيل بناء الكعبة . ووصف المؤرخ المسعودى[1] البيت الحرام بعد تمامه فقال : « . . . وطوله ثلاثون ذراعاً ، والحجر فيه وهو سبعة أذرع ، وعرضه اثنان وعشرون ذراعاً ، وسمكه سبعة أذرع ، وعرضه اثنان وعشرون ذراعاً ، وسمكه سبعة أذرع ، وجعل له باباً ، ولم يسقف . ووضع الركبة موضعه ، وألصق المقام بالبيت ، وذلك قوله عز وجل : (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) — الآية . وأمر الله تعالى إبراهيم أن يؤذن فى الناس بالحج » .

ووصف صاحب كتاب « تاريخ الكعبة المعظمة » بيت الله الحرام بعد انتهاء إبراهيم وإسماعيل من بنائه وصفاً مفصلا فقال : إن إبراهيم جعل ارتفاع البيت إلى اليسار تسع أذرع ، وطوله من الشمال إلى الجنوب مما يلى الجهة الشرقية اثنتين وثلاثين ذراعاً ، ومن الشمال إلى الجنوب مما يلى الجهة الغربية أيضاً إحدى وثلاثين ذراعاً ، ومن الشرق إلى الغرب مما يلى

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٩ .

الجهة الجنوبية ، أى من الحجر الأسود إلى الركن اليمانى عشرين ذراعاً ، ومن الشرق إلى الغرب أيضاً مما يلى الجهة الشمالية ، أى من جهة حجر إسماعيل اثنتين وعشرين ذراعاً ، وجعل له بابين ملاصقين للأرض ، أولهما فى الجهة الشرقية مما يلى الحجر الأسود ، والآخر من الجهة الغربية مما يلى الركن اليمانى ، على سمت الباب الشرقى ، وحفر فى داخله بئراً تكون خزانة له ، ولم يجعل عليه سقفاً ، ولا وضع على بابيه أبواباً تفتح وتغلق .

ويعلق أحد الكتاب [١] على حفر إبراهيم هذه البئر لتكون خزانة للكعبة فيقول : وقد ظهر حرص إبراهيم فى البناء وقصده إلى أن يكون البيت معبداً لله فحسب حساب النذور فحفر فى بطن البيت على يمين من دخله حفرة تكون خزانة للبيت يوضع فيها ما يهدى إلى البيت .

خلد القرآن الكريم بناء الكعبة . ففى سورة آل عمران : (إن أول بيت وضع للناس ، للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين) .

إبراهيم يؤذن بالحج إلى الكعبة :

بعد الفراغ من بناء الكعبة ، أمر الله عز وجل إبراهيم أن يؤذن فى الناس بالحج ، كما جاء فى الآية الكريمة : (وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) . وروى الطبرى [٢] عن ابن عباس أن إبراهيم قال : يارب وما يبلغ صوتى . فقال عز وجل : أذن وعلى البلاغ . فنادى إبراهيم : يا أيها الناس كتب عليكم الحج إلى

---

(١) لطفى جمعة : ثورة الإسلام ص ٥٩ .

(٢) الطبرى جـ ١ ص ١٨٢ .

البيت العتيق ، فسمعه ما بين السماء والأرض .

وروى الطبرى[١] أيضاً أن عبد الله بن الزبير سأل عبيد بن عمير الليثى عما بلغه عن دعوة إبراهيم الناس إلى الحج ، فقال : « بلغنى أنه لما رفع هو وإسماعيل قواعد البيت وانتهى إلى ما أراد الله من ذلك ، وحضر الحج ، استقبل اليمن فدعا إلى الله وإلى حج بيته ، فأجيب أن لبيك اللهم لبيك ، ثم إلى المغرب فدعا إلى الله وإلى حج بيته فأجيب أن لبيك اللهم لبيك » .

وروى الطبرى[٢] أيضاً أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « أتى جبرائيل إبراهيم يوم التروية فراح به إلى منى فصلى به الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة والفجر بمنى ، ثم غدا به إلى عرفات فأنزله الأراك ، أو حيث ينزل الناس ، فصلى به الصلاتين جميعاً ، الظهر والعصر ، ثم وقف به حتى إذا كان كأعجل ما يصلى أحد من الناس المغرب أفاض حتى أتى به جمعاً فصلى به الصلاتين جميعاً المغرب والعشاء ، ثم أقام حتى إذا كان كأعجل ما يصلى أحد من الناس الفجر صلى به ، ثم وقف حتى إذا كان كأبطأ ما يصلى أحد من المسلمين الفجر أفاض به إلى منى ، فرمى الجمرة ثم ذبح وحلق ، ثم أفاض إلى البيت ، ثم أوحى الله عز وجل إلى محمد صلى الله عليه وسلم : (أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) » .

وبعد بناء الكعبة ، عاد إبراهيم إلى بلاد الشام ، وترك وراءه ابنه إسماعيل ، وقد أصبح رجلا ، وخليفة أبيه فى أمانته وملته الحنيفية . ثم كان تطور مدينة مكة ، وقد قامت فى واد رملى شديد الضيق ، حتى ليبلغ

---

(١) الطبرى جـ ١ ص ١٨٢ .

(٢) الطبرى جـ١ ص ١٨٤ .

أقصى اتساع منه نحو سبعمائة خطوة ، وأما أضيق مكان فيه فلا يزيد على مائة خطوة ، تكتنفه جبال عارية مقفرة يتراوح ارتفاعها بين مائتى قدم وخمسمائة قدم .

٣ ــ الكعبة بعد إسماعيل

تقديس العرب والهنود والفرس والصابئة للكعبة :

كان العرب فى بداية الأمر يقدسون الكعبة باعتبارها بيت الله الحرام الذى بناه إبراهيم وابنه إسماعيل بأمر من الله عز وجل . وامتد تقديس العرب للكعبة إلى تقديس مكة والمناطق المجاورة لها ، حتى أصبحت الأراضى الممتدة حولها إلى عدة فراسخ حراماً لا يجوز فيها الاعتداء على إنسان أو حيوان .

روى ابن الكلبى (١) : « أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم ، تعظيما للكعبة ، وصبابة بمكة ، فحيثما حلوا وضعوه ، وطافوا به كطوافهم بالكعبة تيمناً منهم بها ، وصبابة بالحرم وحبا له ، وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ويحجون ويعتمرون على إرث أبيهم إسماعيل من تعظيم الكعبة والحج والاعتمار » .

وكان العرب يرحلون من كل مكان فى الجزيرة العربية فى موسم الحج من كل عام ، إلى مكة ، لتأدية فريضة الحج ، ولحضور الأسواق التجارية التى كانت تعقد دائماً فى مواسم الحج ، وتشهد نشاطاً اقتصادياً وثقافياً .

---

(١) ابن الكلبى : كتاب الأصنام .

بل امتد تقديس الكعبة إلى بعض الأمم الأخرى كالهنود والفرس . فقد كان الهنود يعتقدون أن روح « شبوه » أحد آلهتهم قد تقمصت فى الحجر الأسود حين زارهو وزوجته بلاد الحجاز ، ويسمون مكة (مكشيشا) أو (موكشيشا) أو (موكشيشانا) أى بيت شيشا أو شيشانا ، وهما من آلهتهم.

وكان الفرس أيضاً يقدسون الكعبة ويعتقدون أن روح (هرمز) حلت فيها ، ولذا كانوا يحجون إلى الكعبة . ويذكر المؤرخ المسعودى أن الفرس كانت تعتقد أنها من ولد إبراهيم الخليل عليه السلام ، وقد كانت أسلافهم تقصد البيت الحرام وتطوف به تعظيماً لجدهم إبراهيم ، وكان آخر من حج منهم ساسان بن بابك . ويذكر ياقوت الحموى[1] أن بئر زمزم سميت بهذا الاسم لأن الفرس كانت تحج إليها فى الزمن الأول ، فزمزمت عليها ، والزمزمة صوت تخرجه الفرس من خياشيمها عند شرب الماء . وكان ساسان إذا أتى البيت طاف به وزمزم على هذه البئر ، وفى ذلك يقول الشاعر القديم :

زمزمت الفرس على زمزم   وذاك فى سالفها الأقدم

وقد افتخر بعض شعراء الفرس بعد ظهور الإسلام ، بتقديسهم الكعبة وحجهم إليها ، فأنشد أحدهم :

وما زلنا نحج البيت قدما   ونلقى بالأباطح آمنينا
وساسان بن بابك سار حتى   أتى البيت العتيق بأصيدينا
وطاف به وزمزم عند بئر   لإسماعيل تروى الشاربينا

وكانت الصابئة ، وهم عباد الكواكب من الفرس والكلدانيين يعدونها أحد البيوت السبعة المعظمة . وكان اليهود يحترمون الكعبة ويعبدون الله فيها على دين إبراهيم .

---

(١) معجم البلدان جـ ١ ص ١٤٩ .

الكعبة بعد إسماعيل :

كانت زوجة إسماعيل الثانية هي ابنة زعيم قبيلة جرهم مضاض بن عمرو ، وقد رزق منها اثنى عشر ولداً هم : نابت وقيدار ، وإدبيل ، ومبسم ، ومشمع ، ودوما ، ودوام ، ومسا ، وحداد ، وتيما ، ويطور ، ونافش [١] ثم مات وعمره ١٣٧ سنة ، ودفن فى المسجد الحرام فى الحجر حيال الموضع الذى كان فيه الحجر الأسود ، على مقربة من قبر أمه هاجر [٢] .

وبعد وفاة إسماعيل ، قام بالإشراف على الكعبة ابنه نابت ، ثم انفرد بالإشراف عليها بعض زعماء جرهم الذين نجحوا فى التغلب على أولاد إسماعيل . تحدث ابن هشام فى سيرته عما حدث لأولاد إسماعيل وجرهم بعد ازدياد عددهم فقال : « ثم نشر الله ولد إسماعيل بمكة ، وأخوالهم من جرهم ، ولاة البيت والحكام بمكة ، لا ينازعهم ولد إسماعيل فى ذلك لخئولتهم وقرابتهم ، وإعظاماً للحرمة أن يكون بها بغى أو قتال . فلما ضاقت مكة على ولد إسماعيل انتشروا فى البلاد فلا يناوئون قوماً إلا أظهرهم الله عليهم بدينهم ، فوطئوهم » .

كان أول من تولى شئون الكعبة من جرهم ملكها الحارث بن مضاض ، وكان ينزل مكاناً على مشارف مكة يدعى « قيقعان » ، وكان كل من دخل مكة بتجارة أخذ عشرها . فى حين كان ملك العماليق يدعى السميدع ابن هوبر ، وكان ينزل فى أسفل مكة ، يستولى على أعشار التجارة التى تدخل إلى مكة من جهته ، وثار النزاع بين الملكين ، ونشب القتال فترة ثم جنحوا إلى السلم ، واتفقوا على أن يتولى العماليق الإشراف على الكعبة ،

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٩ .

(٢) الطبرى جـ ١ ص ٢٢١ .

وظلوا يتولون ذلك حتى نجح الجرهميون فى استعادة نفوذهم ، وظلوا يشرفون على الكعبة ثلثمائة سنة ، وكان آخر ملوكهم الحارث بن مضاض الأصغر ، وزادوا فى بناء البيت ورفعته على ما كان عليه من بناء إبراهيم عليه السلام[١] .

ثم طغت قبيلة جرهم وتجبرت ، وتهاونت فى المهمة الكبرى الموكولة إليهم ، فاستولوا على أموال الكعبة ونذورها ، وأساءوا إلى الحجاج ، وتعالت أصوات الحجاج بالشكوى والاحتجاج ، وكانت العناية الإلهية تحيط ببيت الله الحرام ، فعاقب المولى عز وجل جرهماً على طغيانها وتجبرها « فبعث الله على جرهم الرعاف والنمل وغير ذلك من الآفات ، فهلك كثير منهم »[٢] .

ونجح أولاد إسماعيل فى أن يجمعوا شملهم ويوحدوا صفوفهم ونجحوا فى التغلب على قبيلة جرهم ، وأخرجوهم من مكة ، فلحقوا بجهينة ، فأتاهم السيل فى بعض الليالى فذهب بهم ، وكان الموضع الذى يقيمون فيه يسمى « إضم » ، ووصف أمير جرهم ، الحارث بن مضاض الأصغر ما حل به وبقومه فأنشد[٣] :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا	أنيس ، ولم يسمر بمكة سامر
بل نحن كنا أهلها فأبادنا	صروف الليالى والجدود العواثر
وكنا لإسماعيل صهراً ووصلة	ولما تدر فيها علينا الدوائر
وكنا ولاة البيت من بعد نابت	نطوف بذاك البيت والخير ظاهر
فبدلنا ربى بها دار غربة	بها الذئب يعوى والعدو المحاصر

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٥٠ .

(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٥٠ .

(٣) المصدر السابق .

ثم صارت ولاية الكعبة في ولد إياد بن نزار بن معد ، ولكن قامت حروب عنيفة طويلة بين مضر وإياد ، انتهت بانتصار مضر ورحيل إياد عن مكة إلى بلاد العراق [١] .

ولاية خزاعة على الكعبة :

كانت قبيلة خزاعة تنزل تهامة ، حتى ثارت الحرب بين إياد ومضر ، ابني نزار ، وشعرت إياد بضعفها وقرب هزيمتها ، فخلعت الحجر الأسود من مكانه ودفنته في بعض المواضع . ورأت ذلك امرأة من خزاعة ، فأخبرت قومها ، فأعلموا مضراً أنهم يعلمون المكان الذى أخفت فيه إياد الحجر الأسود ، وأنهم يشترطون لإخبارهم بمكانه أن يعترفوا لهم بولاية أمور الكعبة ، ونزلت مضر على رأيهم ، وأصبح الإشراف على الكعبة منذ ذلك الحين لخزاعة [٢] .

يروى المؤرخون أن عمرو بن لحيّ الخزاعى هو الذى أدخل عبادة الأوثان فى مكة ، فيروون أنه لما ساد قومه فى مكة وأصبحت له الولاية على الكعبة ، رحل إلى مدينة البلقاء بالشام ليستشفى من مرض أصابه ، فرأى أهلها يعبدون الأصنام ، فقال لهم : ما هذه الأوثان الذى أراكم تعبدون ؟ قالوا : هذه أصنام نعبدها نستنصرها فتنصرنا ، ونستسقى بها فنسقى . فقال : ألا تعطونى منها صنما ، فأسير به إلى أرض العرب عند بيت الله الذى تفد إليه العرب ؟ فأعطوه صنما ، يقال له هبل ، فقدم به مكة فوضعه عند الكعبة [٣] .

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٥١ .

(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٥٦ .

(٣) اليعقوبى جـ ١ ص ٢١١ .

كان عمرو بن لحي ثمرة زواج خزاعة وجرهم ، فقد تمت مصاهرة بين القبيلتين ، فتزوج أمير من خزاعة بأميرة من جرهم ، فولد لهما عمرو ابن لحي الذى أصبح أميراً لمكة ، واتسع نفوذه إلى حد كبير ، ولم يبلغ هذا النفوذ فى العصر الجاهلى سوى قصى بن كلاب وعبد المطلب ، وخضعت كثير من القبائل العربية لطاعة عمرو .

وكان العرب بمكة وما حولها قد تهاونوا فى عقيدتهم الحنيفية ، دين التوحيد ، الذى دعا إليه إبراهيم وإسماعيل ، وأراد عمرو أن يدعم سلطته ونفوذه بأن يبتدع عقيدة جديدة ، تحل محل الدين القديم . وقد رأى تساهل قومه فيه ، بعد تقادم الزمن ومرور السنوات العديدة . وكان عمرو كثيراً ما رحل إلى الدول المجاورة فى الشام والعراق ، واطلع على أحوالها ، وشاهد عقائدها الوثنية ، ورأى فيها وسيلة لإيجاد سند دنيوى مادى يعتمد عليه فى تدعيم نفوذه السياسى .

ولذا تخلى عمرو عن الحنيفية دين إبراهيم وإسماعيل ، وأقام الأوثان عند الكعبة ، ونصب كبيرها هبل فى بطن الكعبة . وتعالت أصوات احتجاج من بعض العرب ، وخاصة عرب جرهم ، يحتجون على هذه البدعة الوثنية الجديدة التى ابتدعها زعيمهم ، فأنشد رجل من جرهم كان يتمسك بدين الحنيفية [١] :

يا عمرو لا تظلم بمكـ ـة إنها بلد حرام
سائل بعاد أين هم وكذاك تخترم الأنام
وبنى العماليق الذ ين لهم بها كان السوام

ولما أسرف عمرو بن لحي فى نصب الأصنام حول الكعبة ، وأجبر العرب على عبادتها ، مما هدد دين الحنيفية ، أنشد شحنة بن خلف

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٥٦ .

الجرهمى (١) :

يا عمرو ، إنك قد أحدثت آلهة شتى بمكة حول البيت أنصابا
وكان للبيت رب واحد أبداً فقد جعلت فى الناس أربابا
لتعرفن بأن الله فى مهل سيصطفى دونكم للبيت حجاجا

ولكن عمرو بن لحى نجح فى إخماد أصوات الاحتجاج ، بما كان يتمتع به من سلطة سياسية وعسكرية واقتصادية واسعة واستمرت قبيلة خزاعة تلى شئون الكعبة وتمارس الوثنية حوالى خمسة قرون .

نكسة الوثنية :

كانت دعوة إبراهيم هى الفتح الجديد فى تاريخ العقيدة . فلم يبدأ إبراهيم عقيدة التوحيد ، ولم يبدأ عقيدة البقاء ، ولكنه بدأ بالدعوة النبوية فاصطبغت العقائد بصبغتها ، حتى كأنها لم تسمع قط قبل ذلك فى عهد الكهانات والهياكل . وكان توحيد إبراهيم إيماناً بإله يعلو على ملوك الأرض ونجوم السماء ، ويتساوى عنده الخلق جميعاً .

وقد أصابت النكسة كل عقيدة نادى بها الخليل قومه فى عصره ، فانقلبوا إلى عبادة الأصنام وجهلوا سرّ الفداء ، وسرّ البقاء ، ولكن البداءة قد بدئت وسارت فى طريقها ، ولولا أنها بدئت لما تبين أحد موضع النكسة فيها بعد ذلك (١) .

عفا الزمان على دين إبراهيم الحنيف ، وعلى تقديس الكعبة ، وبدأ عصر الوثنية وتقديس الأصنام . ويذكر بعض المؤرخين أنه لما كانت بعض الأحجار البركانية يخال الناس أنها ساقطة من السماء ، منحدرة

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٥٦ .
(٢) العقاد : أبو الأنبياء ص ٢٤١ .

لذلك من بعض النجوم ، فقد اتخذت أول أمرها مظاهر لهذه الآلهة الرفيقة وقدست بهذه الصفة ، ثم قدست لذاتها ، ثم كانت عبادة الأحجار ، حتى كان العربى لا يكفيه أن يعبد الحجر الأسود بالكعبة ، بل كان يأخذ معه فى أسفاره أى حجر من أحجار الكعبة يصلى إليه ويستأذنه فى الإقامة والسفر ويؤدى إليه كل ما يؤدى للنجوم وخالق النجوم من طقوس العبادة ، ومن ثم استقرت الوثنية وقدست التماثيل وقدم العرب لها القرابين [١] .

قامت عبادة الأوثان فى الجزيرة العربية على فكرة عبادة مظاهر الطبيعة كالأرض والسماء والنجوم والكواكب . ولما كان العرب يعتقدون بوقوعهم فى حياتهم تحت تأثيرها ، لذلك حرصوا على إرضائها اجتلاباً لخيرها . فاتخذوا لها أشكالا مختلفة من بيوت وأشجار وأحجار مصورة تمثل إنساناً أو حيواناً ، وأخرى غير مصورة ، وصاروا ينظرون إليها على أنها رمز للقوة الطبيعية ، ومن ثم أصبحت معبودات لهم . وكانوا يطوفون حولها ويتاجرون عندها ، ويعتبرون المكان الذى فيه المعبود حرماً ، يحرم الإتيان فيه بأشياء معينة [٢] .

وصف المؤرخ المسعودى [٣] مطلع الوثنية فى مكة فقال : « ووليت خزاعة أمر البيت ، وكان أول من وليه منهم عمرو بن لحى ، فغير دين إبراهيم وبدله ، وبعث العرب على عبادة التماثيل، حين خرج إلى الشام ورأى قوماً يعبدون الأصنام ، فأعطوه منها صنما فنصبه على الكعبة ، وقويت خزاعة ، وعم الناس ظلم عمرو بن لحى » .

و « التماثيل» و « الأصنام» كلمتان مترادفتان ، وهى أحجار ومعادن

---

(١) هيكل : حياة محمد ص ٥٤ .

(٢) جمال سرور : قيام الدولة العربية ص ٤٨ .

(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٥٦ .

كانت تنحت نحتاً ، وتصنع صناعة على أشكال وصور ، وهذا يعنى أن العرب كانوا يطلقون اسم الأصنام أو التماثيل على ما هو مخلوق من الأوثان وأنهم كانوا يعرفون مسميات اللفظين. وقال البعض إن الأنصاب هى الأحجار المنصوبة للعبادة، كما قال بعضهم إنها مرادفة للأصنام . ومن المرجح أنها تعنى المنصوبة للعبادة والطقوس سواء كانت مخلقة أم غير مخلقة .

لم يكن العرب ليكتفوا بالأصنام الكبرى يقدمون إليها صلواتهم وقرابينهم . بل كان أكثرهم يتخذ له صنما أو نصبا فى بيته، يطوف به حين خروجه وساعة أوبته، ويأخذه معه عند سفره إذا أذن له هذا الصنم فى السفر . وهذه الأصنام جميعاً سواء منها ما كان بالكعبة أم حولها وما كان فى مختلف جهات بلاد العرب وبين مختلف قبائلها ، كانت تعتبر الوسيط بين عبادها وبين الإله الأكبر . وكانت العرب لذلك تعتبر عبادتها إياها زلفى تتقرب بها إلى الله ، وإن كانت قد نسيت عبادة الله لعبادتها هذه الأصنام[1] .

وكان العرب يدركون أن هذه الأوثان لا تعتمد على رسالة أو نبوة ، ولكنهم اعتبروها ديانة تقليدية وراثية وجزءاً من عاداتهم المتوارثة ، فكانوا يقولون عنها إنها ديانة الآباء والأجداد . قال الله تعالى فى سورة الأنبياء: (إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين) .

وكان لطبيعة بلاد العرب تأثير كبير فى العادات التى ورثها العرب عن آبائهم وأجدادهم ، وتمسكوا بها طوال تاريخهم الجاهلى ، ولم يجهدوا أنفسهم لمعرفة حقيقتها .

---

(١) هيكل : حياة محمد ص ٤٤ .

٤ ـ الكعبة فى العصر القرشى

ولاية قريش الكعبة :

ظلت خزاعة تتولى شئون الكعبة ، حتى برزت قبيلة قريش واستطاعت أن تجمع شملها وتوحد صفوفها . وقريش هم ولد النضر بن كنانة ، وقد سموا قريشاً حين جمعهم قصى بن كلاب إلى الحرم بعد أن نفى خزاعة ، من القرش وهو التجمع .

وقد أجمع المؤرخون على أن قريشاً ، الذين منهم قصى بن كلاب ، الجد الرابع للرسول صلى الله عليه وسلم ، هم من ولد كنانة ، الذى يرجع نسبه إلى عدنان ، وينتهى إلى إسماعيل عليه السلام . وإلى ذلك يشير الحديث النبوى الكريم : « اختار الله من إسماعيل كنانة ، واختار قريشاً من كنانة ، واختار بنى هاشم من قريش ، واختارنى من بنى هاشم ، فأنا خيار من خيار » .

كان قصى رجلا حازماً طموحاً ، تزوج من حبى ابنة حليل بن حبشية زعيم خزاعة ، وكان يتولى أمر الكعبة ومكة ، وبدأ قصى يعمل على أن يكون الرجل الأول فى مكة ، فيروى الطبرى[1] : « فرأى قصى أنه أولى بالكعبة وأمر مكة من خزاعة وبنى بكر ، وأن قريشاً فرعة إسماعيل ابن إبراهيم وصريح ولده ، فكلم رجالا من قريش وبنى كنانة ودعاهم إلى إخراج خزاعة وبنى بكر من مكة ، فلما قبلوا منه ما دعاهم إليه وبايعوه عليه كتب إلى أخيه من أمه رزاح بن ربيعة بن حرام وهو ببلاد

---

(١) الطبرى ج ٢ ص ١٥ .

قومه يدعوه إلى نصرته والقيام معه » .

واستجاب رزاح لدعوة أخيه وقدم مع قومه إلى مكة. ودار قتال عنيف بين الفريقين ، ثم تداعوا إلى الصلح ، وإلى تحكيم رجل من العرب ، فقضى هذا الرجل بأن قصياً أولى بالكعبة وأمر مكة من خزاعة « وتملك قصى على قومه وأهل مكة فملكوه ، فكان قصى أول ولد كعب بن لؤى أصبح ملكاً أطاع له به قومه ، فكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء فحاز شرف مكة كله ، وقطع أرباعاً بين قومه ، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التي أصبحوا عليها »[١] .

وهكذا بدأت مكة تأخذ شكلها وطابعها . ويذهب بعض المؤرخين إلى أن مكة لم يكن بها بناء غير الكعبة إلى أن تولى قصى أمرها . ويعللون ذلك بأن خزاعة وجرهماً قبلها لم يريدوا أن يكون إلى جوار بيت الله بيت غيره ، وأنهم لم يكونوا يقيمون ليلهم بالحرم ، بل يذهبون إلى الحل . فلما تم الأمر لقصى فى مكة جمع قريشاً وأمرهم أن يبنوا دورهم فى مكة ، وابتدأ هو فبنى دار الندوة وفيها « كانت قريش تقضى أمورها »[٢] وكانت قريش أكثر قدرة من خزاعة على الإشراف على الكعبة وحكم مكة ، واضطرت خزاعة إلى أن تقنع بالمرتبة الثانوية فى مكة .

لم تعرف القبائل العربية فى بلاد العرب الرئاسة المطلقة كما عرفتها قريش ، وإنما كان فى كل قبيلة نفر من « السادة » يعترف أفراد القبيلة لهم بسلطان أدبى ، ولم تكن واجبات السيد أو حقوقه محددة . أما فى مكة فقد أخذت السيادة معنى حقيقياً بسبب الاستقرار وانتظام أمور الجماعة ووجود الكعبة وضرورة وجود من يتولى شئونها ، ومن هنا كان تنافس

---

(١) الطبرى جـ ٢ ص ١٨ .

(٢) الطبرى جـ ٢ ص ١٨ .

القبائل وشيوخها على سدانة الكعبة حتى انتهت إلى قريش على يد زعيمهما قصى بن كلاب [1] .

اتخذت قريش من الأرض المجاورة للكعبة حرماً أولوه احترامهم واعتبروه مقدساً وحرّموا فيه القتال ، وأخذوا على عاتقهم حمايته ، فأمنوا بذلك أذى غيرهم من القبائل . وكان لمكة مركز خاص لوجود الكعبة بها ، كما ارتفع شأن قريش بين سائر القبائل العربية . وعملت قريش على توثيق الصلات الطيبة بين القبائل التى تفد كل عام إلى الكعبة للحج أو للتجارة . وزاد مجد قريش أنها فى مكة ، وأن الكعبة فى مكة .

أثر الكعبة فى تطور مكة وحضارتها :

كتب الله لمكة بعد بناء الكعبة المجد والخلود ، فقد أصبحت مكة موطن الكعبة ومقصد الحجاج . وبدأ ظهور مكة كمدينة كبيرة فى عهد قصى بن كلاب ، فقد نجح فى تنظيم مكة ، والسمو بقبيلة قريش .

وكانت مكة مدينة كبيرة مستطيلة ذات شعاب واسعة ، لها مبدأ ونهايتان ، مبدؤها المصلاة ، ومنتهاها من ناحية جدة « الشبيكة » ، ومن ناحية اليمن « بازان » ، وشكلها كالسلحفاة الرابضة ، وبها جبلان اسمهما الأحبشان ، وهما جبل أبى قبيس وهو المشرف على الصفا والجبل الأحمر أو الأعرف ، وهو المشرف على قعقعان . وكان المسجد الحرام يقع فى وسط مكة بين هذين الجبلين ، كما تقع الكعبة وسط المسجد الحرام . وكانت منازل أهل مكة تحيط بدارة الكعبة وتقترب منها أو تبتعد عنها تبعاً لما لكل أسرة وفخذ من جليل مقام ، فكان القرشيون أقربهم إليها داراً وأكثرهم بها اتصالا ، كما كانت لهم سدانتها وسقاية زمزم . وفيما وراء

---

(١) انظر الحاشية بكتاب تاريخ التمدن جـ ١ ص ٣٦ .

منازل قريش كانت تجيء منازل القبائل التى تليها فى الأهمية ، ثم تلى هذه منازل من دونهم . أما القرشيون داخل مكة فهم بنو كعب بن لؤى ، وعلى مقربة من مكة يعيش بنو عامر بن لؤى .

ولم تكن مكة تستطيع أن تنافس مدن الجزيرة العربية فى خيراتها أو ثرائها ، فقد كانت تقع فى أجدب بقاع الجزيرة العربية ، ولكنها كانت تستطيع أن تفخر عليها بوجود الكعبة المقدسة بين ظهرانيها .

وأقبلت القبائل على سكنى مدينة مكة ، فهى مدينة عريقة فى قدسيتها ، إذ هى موطن الكعبة ، وهى سوق زاخرة بأنواع التجارة المختلفة التى تفد عليها من أرجاء العالم . فكانت هذه القبائل تنزل مكة ، وتبنى بيوتها من الحجارة والآجر ، وبرغم فقر مكة فى الماء والإنتاج الزراعى ، كانت مكانتها الدينية تعوض هذا النقص .

أصبحت مكة مركزاً للحياة الدينية فى الجزيرة العربية بفضل وجود الكعبة بها ، كما أصبحت مركزاً للنشاط الاقتصادى وملتقى التجارة العالمية ، وأصبحت مكة تعج بالحجاج والتجار من مختلف الأجناس والألوان والأديان ، وتدفقت على مكة الثروات وألوان من الثقافة والنظم الاجتماعية .

نهجت قريش نهجاً ديموقراطياً ، وكانت دار الندوة المقامة على مقربة من الكعبة تشبه البرلمانات المعاصرة ، تتشاور قريش فيها فى مهام أمورها . ولم تشهد مكة حروباً قبلية مثل الحروب التى شهدتها أرجاء الجزيرة العربية فى تاريخها الجاهلى . فقد عملت قريش على تحقيق السلام فى مكة ، وحفظت التوازن بين القبائل المختلفة ، ولم تقحم نفسها فى الصراع القبلى . كما اهتمت بسوق عكاظ التى كانت تنعقد فى موسم الحج ، وجعلتها قريش مسرحاً للأدب والشعر ، تتسابق فيها القبائل إلى إظهار نوابغها من الشعراء والخطباء ، فيتناشدون ويتحاجون ويفتخرون ،

ومن كان له أسير سعى إلى فدائه . وكان لعكاظ فى أيام الموسم رجل يولونه الحكومة ، أى الفصل فى ما يقع من خلاف . ومتى فرغ الناس من سوق عكاظ ، وقفوا فى عرفة ، ثم يأتون مكة فيقضون مناسك الحج ويعودون إلى موطنهم فى سلام .

الأوثان عند الكعبة :

كانت الكعبة مصدر رزق أهل مكة ، ولولاها لما استطاعوا المقام فى ذلك الوادى الجدب . ولما كانت أوثان الكعبة هى التى تجذب القبائل العربية إلى مكة ، ولذا اهتم القرشيون بشئونها ، ويسروا قدوم الحجاج إليها ، وأنشأوا فى مكة أماكن للسقاية ، ووفروا الطعام ، وجعلوا المنطقة المجاورة للكعبة حرماً لا يجوز فيه القتال ، وتولى وجوه قريش سقاية ورفادة الحجاج ، ونصبت قريش أصنام جميع القبائل عند الكعبة ، فكان لكل قبيلة أوثانها ، تقدم فى الموسم لزيارتها وتقديم القرابين لها ، وزاد عدد الأصنام عند الكعبة على ثلثمائة صنم ، وفيها الكبير والصغير ، ومنها ما هو على هيئة الآدميين أو على هيئة بعض الحيوانات أو النباتات (١) .

ونجح سدنة الكعبة فى الاستفادة من هذه الأصنام ، وجعلوها تدر عليهم أرباحاً طائلة ، واقتبسوا فى ذلك بعض النظم الوثنية التى كانت سائدة حينئذ فى مصر واليونان والهند وبابل ، فكان كل من يأتى ليستقسم بالأزلام أو ليستشير الأوثان يدفع رسوماً محددة ، كما كان الوافدون يشترون حاجتهم من الطعام والماء الملابس إلى جانب نفقات إقامتهم ، مما أدى إلى رواج تجارى فى مكة . ووفر أهل مكة للحجاج والتجار الحماية والأمن والسلام .

---

(١) جورجى زيدان : تاريخ التمدن جـ ١ ص ٣٧ .

قدست بعض القبائل أصناماً معينة ، عرفت بالأصنام الخاصة لانفرادهم بعبادتها ، منها : ود، وسواع ، ويغوث، ويعوق، ونسر. وكان يعبد هذه الأصنام الخمسة قوم نوح ، وقد جاء ذكرها فى القرآن الكريم : (قال نوح ربّ إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً ومكروا مكراً كباراً وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرنّ ودًّا ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسرا وقد أضلوا كثيراً ولا تزد الظالمين إلا ضلالا) [١] .

وكان هناك أصنام عامة تشترك معظم القبائل فى تقديسها ، وأشهرها : اللات والعزى ومناة . وقد تحدث القرآن الكريم عنها فى هذه الآية الكريمة : (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك إذاً قسمة ضيزى) [٢] .

أما اللات ، فهى صخرة مربعة بالطائف وعليها بناء ولها حىّ وحرم يقصده العرب ويقدمون لها الذبائح ، وكان حجابها من بنى مغيث من ثقيف . وكان الثقفيون يحاولون أن ينافسوا باللات كعبة قريش بمكة . أما العزّى ، فهى شجرة بوادى نخلة إلى الشرق من مكة ، وكانت من أعظم الأصنام عند القريشيين ، فكانوا يزورونها ويقدمون لها الذبائح ، كما خصصوا لها موضعاً على مثال حرم الكعبة ، فقد كانت الكعبة هى المثل الأعلى ، وبلغ من تعظيم العرب وقريش أن كانوا يسمون أبناءهم عبد العزى [٣] . أما « مناة » فهى حجر أسود أقيم له معبد فى قديد على الطريق بين مكة ويثرب ، وهى إلهة القضاء ولا سيما قضاء الموت .

أما أصنام قريش فكان « هبل » أعظمها ، وهو صنم على صورة إنسان ، وكان مصنوعاً من العقيق ، وقد كسرت ذراعه فأبدله القرشيون

---

(١) سورة نوح آية ٢١ .

(٢) سورة النجم آية ١٩ .

(٣) ابن الكلبى : الأصنام ص ١٣ — ١٥ .

بذراع من ذهب . ومن أصنام قريش « أساف » و « نائلة » ، وقد وضع القرشيون كل واحد منهما على ركن من أركان بيت الله الحرام ، فكان الطائف إذا طاف بدأ بأساف فقبله وختم طوافه به .

قال المسعودى(١) عن أساف ونائلة : « وبغت جرهم فى الحرم وطغت حتى فسق رجل منهم فى الحرم بامرأة ، وكان الرجل يدعى بإساف والمرأة نائلة ، فمسخهما الله عز وجل حجرين صيرا بعد ذلك وثنين وعبدا تقرباً بهما إلى الله تعالى ، وقيل بل هما حجران نحتا ومثلا بمن ذكرنا وسميا بأسمائهما » .

كذلك نصب القرشيون على جبل الصفا صنما يقال له « مجاور الريح » كما نصبوا « مطعم الطير » على جبل المروة . فكانت العرب إذا حجت إلى الكعبة سألت قريشاً عن تلك الأصنام ، فيقولون لهم : نعبدها لتقربنا إلى الله زلفى .

انتشرت الأصنام فى مكة وسائر مدن الجزيرة العربية ، على شكل بيوت وأشجار مصورة وغير مصورة ، حتى قيل إنه كان حول الكعبة ثلثمائة وستون صنما . فقد رأت قريش أن تنتفع من قدوم القبائل العربية فى موسم الحج ، فوضعت أصنام القبائل الشهيرة حول الكعبة ، حتى إذا أتوا مكة وزاروا الحرم وجدوا معبوداتهم فأولوها احترامهم وتقديسهم .

ولم يكن العرب ليكتفوا بالأصنام الكبرى يقدمون إليها صلواتهم وقرابينهم . بل كان أكثرهم يتخذ له صنما أو نصباً فى بيته ، يطوف به حين خروجه وساعة أوبته ، واعتبروا الأوثان وسطاء وشفعاء لهم عند ربهم .

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٥٠ .

فلسفة الوثنية العربية :

كان بعض العرب ضعيفي الإيمان بهذه الأوثان ، ويعلمون تماماً أنها لا تضر ولا تنفع ، ولكن لم يكن في استطاعتهم أن يحدثوا انقلاباً أو تغييراً ، فقد مضت أجيال والأوثان قائمة عند الكعبة ، واشتهر أمرها بين العرب جميعاً ، وأصبحت عبادة تقليدية وراثية .

والبدوي العربي لا يكترث كثيراً للدوافع الروحية ، بل كان يقف منها موقفاً سلبياً ، وكان في ممارسته للطقوس الدينية الوثنية إنما كان يحترم تقاليدها المتوارثة .

وكان سائر العرب يعتبرون هذه الأوثان وسطاء بينهم وبين الله ، أو شفعاء لهم لديه . فإن أذهان كثير من العرب في العصر الجاهلي ما كانت لتسيغ أن دعاءهم إلى الله عز وجل إذا وجه منهم إليه مباشرة يكون مقبولا . وأنه لا بد لهم من وسطاء يتوسلون بهم إلى الله ، ويقومون نحوهم ببعض العبادات . وأصبحت فكرة الشفاعة جزءاً رئيسياً من عقائدهم وعباداتهم ، وتطور الأمر بهم حتى آمنوا بقدرة الشفعاء على النفع والضرر .

ويرى المؤرخ العربي المعاصر محمد دروزة[1] أن العرب قبل الإسلام ، أو فريقاً منهم ، كانوا يعترفون بوجود الله كإله أعظم ، خالق السموات والأرض وما فيهما ، وأنه مدبر الكون وربه ، وأنه هو الذي يسيطر على قوى الطبيعة ، ويحيي ويميت ويرزق الناس ويرسل الأنبياء . وكان فريق منهم يعتقد أن ما هم عليه من عقائد وتقاليد وطقوس وتحليل وتحريم ، إنما هو متصل بأوامر الله ومستمد من إلهامه ووحيه ، وأنه راض عنهم وعن ما اتخذوه من شركاء وشفعاء . أي أنهم يعترفون بالله مع

---

(١) عصر النبي عليه السلام وبيئته ص ٣٩٦ .

اتخاذهم شركاء وشفعاء ، وإشراكهم معه عز وجل فى العبادة والدعاء والاتجاه .

وهذه الأفكار تمثل حلقة وسطى بين تفكير دينى قديم، وتفكير دينى جديد . فقد كان العرب فى أطوارهم الأولى وثنيين ، يعبدون المادة والقوى الطبيعية ، ويؤمنون بوجود أرواح خفية وشريرة ، ولم يكونوا قد تصوروا وجود الإله الأعظم بالصفات الواجبة له أو ما يقرب منها ، ثم أخذوا يسمعون ذكره وصفاته ، وأخذت معانيه تدخل فى أذهانهم شيئاً فشيئاً، حتى دخلوا فى طورهم الأخير الذى كانوا عليه عند نزول القرآن الكريم ، وهو التسليم بوجود إله أعظم له ملك السموات والأرض، بيده الأكوان وتسخير القوى الطبيعية ، وهو ملجأ الناس، ومصدر الخير . غير أنهم لم يكونوا بعد قد وصلوا إلى إساغة فهم إله واحد غير مادى وغير مرئى فهماً تصورياً مجرداً عن الرموز والشفعاء والشركاء والوسطاء إساغة تامة .

فكانوا مع اعترافهم بالله، لم يروا غنى عن معبوداتهم الأولى التى كانوا بها وبرموزها أكثر اتصالا ومشاهدة فى العبادة والاتجاه وطلب العون ، والاستشفاع والاستعداء على قوى الشر والأذى .

ولم ينفرد العرب فى العصر الجاهلى بعبادة الأوثان ، فقد كان كثير من الأمم المعاصرة لهم مغرقة فى الوثنية. والوثنية هى الطور الذى تمرّ به كل أمة فى بداوتها ، قبل أن تنتقل إلى التوحيد وعبادة إله واحد ، واختلفت صور الوثنية باختلاف البيئات والأزمنة. وعاش معظم العرب فى جزيرتهم منعزلين عن أجزاء العالم الذين ارتقى أهلها من الوثنية إلى أديان التوحيد .

تبابعة اليمن يحاولون هدم الكعبة :

اختص الله بلاد اليمن بالأمطار الوفيرة وخصوبة الأرض ، مما هيأ الظروف لإنتاج زراعي كبير ، أدّى إلى انتشار الحضارة وقيام دول زاهرة، حتى عرفت هذه البلاد باسم « بلاد العرب السعيدة » ، ونجحت بلاد اليمن فى أن تستفيد من موقعها على طرق التجارة العالمية بين الإقليم الموسمى فى الجنوب ، وإقليم البحر المتوسط فى الشمال .

ونجح أهل مكة أيضاً فى الاستفادة من وجود الكعبة فى موطنهم ، فأصبحت مقصد آلاف من الحجاج والتجار . وقامت الأسواق العامرة حول مكة ، وخشى أهل اليمن على تجارتهم ونشاطهم الاقتصادى ، وشعروا بمنافسة أهل مكة ، ورأى تبابعة اليمن أن يعملوا على الخلاص من الكعبة ، إما بهدمها أو الاستحواذ عليها ، ولكنهم كانوا يترددون كثيراً فى الإقدام على هذه المغامرة ، لمنزلة الكعبة الكبرى بين سائر القبائل العربية ، وما سيجره ذلك على التبابعة من لوم وسخط ، أو مقاومة حربية .

ونقل قوم من هذيل من بنى لحيان إلى تبع باليمن أن بمكة بيتاً تعظمه العرب جميعاً وتفد إليه ، وتنحر عنه ، وتحج إليه ، وأن قريشاً تتولى أموره ، وقد ارتفع شأنها وعظم ذكرها نتيجة ولايتها الكعبة ، وأخذوا يحرضونه على هدم الكعبة وبناء بيت آخر مما ثل له فى اليمن فقالوا إنه أولى « أن يكون ذلك البيت وشرفه وذكره لك ، فلو سرت إليه وخربته وبنيت عندك بيتاً ثم صرفت الحاج إليه كنت أحق به منهم » .

وخرج تبع من اليمن قاصداً مكة ليهدم الكعبة ، ولكنه حاد عن عزمه ، وتأثر بقدسية البيت العتيق فكساه ونحر عنده . ويعلل المؤرخون هذا العدول من تبع بهبوب رياح وعواصف عنيفة أطاحت بخيام الجيش

اليمنى ، ورأى تبع أن ذلك من مظاهر سخط الله عليه فخشى العواقب ، بل رأى أن يعاقب بنى هذيل الذين أشاروا عليه بهدم الكعبة فقتلهم .

وكان تبع أول من كسا الكعبة كسوة كاملة ، ويروى العمرى[1] أنه رأى فى نومه أنه يكسوها ، فحقق رؤياه ، وكساها بالملاء والوصائل ، وهى ثياب مصنوعة فى اليمن . كما جعل تبع للكعبة باباً يغلق بضبة فارسية .

الأحباش والكعبة :

عجز الفرس والروم عن بسط نفوذهم السياسى على بلاد الحجاز نتيجة لظروفها الجغرافية وقسوة طبيعتها ، فاتجهوا نحو بلاد اليمن التى اشتهرت بأمطارها وخصوبتها وثروتها الاقتصادية . وأصبحت الدولة العربية الحميرية باليمن موضع تنافس بين الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية . ورأى الروم أن ينشروا المسيحية لتمهد لنفوذهم السياسى ، واعتنق بعض أهل اليمن المسيحية وألفوا جالية مسيحية قوية النفوذ فى مدينة نجران . ورأى الفرس أن يعتمدوا على يهود اليمن فى مقاومة النفوذ الرومانى المتزايد .

وحدث أن اعتنق الملك الحميرى ذو نواس الدين اليهودى ، وأخذ يضطهد المسيحيين واعتبرهم عملاء سياسيين للدولة الرومانية ، وهاجم مدينة نجران ، وخير المسيحيين بين اعتناق اليهودية أو القتل ، فاختاروا الاستشهاد من أجل عقيدتهم ، فقتلهم حرقاً فى الأخاديد .

وثارت ثائرة الإمبراطور الرومانى جستن الأول ، إذ كان يعتبر نفسه حامى المسيحيين فى أرجاء العالم ، ورأى تأديب هذا الملك . ولما كانت الدولة الرومانية بعيدة عن بلاد اليمن ، فقد طلب من حليفه نجاشى الحبشة غزو اليمن وعقاب ذى نواس . واستجاب النجاشى لنداء الإمبراطور ،

---

(١) مسالك الأبصار ج ١ ص ١٠١ .

وبعث جيشاً حبشياً كثيفاً بقيادة أرياط، قضى على الدولة الحميرية وقتل الملك ذا نواس، وبدأ الاحتلال الحبشي لبلاد اليمن.

تولى أبرهة حكم اليمن بعد مصرع أرياط، وبدأ يعمل على نشر المسيحية في أرجاء اليمن، وشيد في عاصمته صنعاء كنيسة كبرى فخمة، وأمده الإمبراطور الروماني بالعمال ومواد البناء. وأراد أبرهة أن ينافس بكنيسته كعبة مكة ويجتذب إليها الحجاج العرب، فتعود عليه الفوائد المادية التي كانت تجنيها قريش، ولكن جهود أبرهة لم تلق نجاحاً كبيراً، فقد كانت للوثنية جذور طويلة، وقد تأصلت في عقول العرب ونفوسهم وأصبح من العسير محوها. كما كان أبرهة يمثل في أنظار العرب الاستعمار الحبشي الروماني، ولذا انصرفوا عن كنيسته.

استأذن أبرهة نجاشي الحبشة في العمل على اجتذاب الحجاج العرب إلى كنيسته بصنعاء بدلا من حجهم إلى كعبة مكة، وأن يحول تجارة قريش إلى مكة، وجاء في رسالة أبرهة إلى النجاشي: «بنيت لك بصنعاء بيتاً لم تبن العرب ولا العجم مثله، ولن أنتهي حتى أصرف حاج العرب إليه ويتركوا الحج إلى بيتهم». وغضب العرب، فخرج رجل من بني مالك بن كنانة إلى صنعاء، وعبث بأثاث الكنيسة وانتهك حرمتها. وثارت ثائرة أبرهة، وأقسم على أن يهدم الكعبة، ويرغم العرب على الحج إلى كنيسته «وسمعت بذلك العرب، فأعظموه وقطعوا به، ورأوا جهاده حقاً عليهم حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة، بيت الله الحرام»[١].

الغزو الحبشي للكعبة:

عمل أبرهة على وضع قسمه موضع التنفيذ، فخرج من عاصمته

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٤٥.

صنعاء على رأس جيش حبشى كبير ، تتقدمه الأفيال ، وقد امتطى ظهر فيل ضخم . وحاولت بعض القبائل العربية اعتراض طريق الجيش وصده عن مكة المدينة المقدسة ، وكعبتهم المعظمة ، ولكنها عجزت عن ذلك ، فقد حشد أبرهة عدداً ضخماً من الجند وزودهم بالعتاد والمؤن التى جلبها من بلاد الحبشة .

توقف الجيش الحبشى عند مدينة الطائف ، وهى على مقربة من مكة ، وكان يتولى شئونها قبيلة ثقيف العربية . وكانت تحسد قريشاً وتشعر بالغيرة منها لما حازته من مجد وسؤدد ، وما تجنيه من أرباح طائلة نتيجة قدوم الحجاج والتجار سنوياً إلى مكة . وكانت قوافل قريش التجارية تنافس قوافل ثقيف ، فلا عجب أن تمنت ثقيف زوال مجد قريش ، ولذا أبدت ارتياحها لقدوم الجيش الحبشى وتمنت نجاحه فى مهمته التى خرج من اليمن من أجلها ، ألا وهى هدم الكعبة . وكانت ثقيف قد حاولت أن تنافس كعبة مكة ، فبنت فى الطائف بيت اللات وحاولت عبثاً أن تجذب إليه الحجاج دون جدوى .

ولذا خرج زعماء ثقيف يرحبون بمقدم أبرهة ، ويحثونه على التقدم إلى مكة ويرشدونه إلى الطريق ، ويعرضون عليه خدماتهم ، فقالوا له : « أيها الملك ، إنما نحن عبيدك ، سامعون لك مطيعون ، ليس عندنا لك خلاف ، وليس بيتنا هذا البيت الذى تريد — أى بيت اللات — إنما تريد البيت الذى بمكة — أى الكعبة — ونحن نبعث معك من يدلك عليه »[1] .

عسكر الجيش الحبشى على مشارف مكة ، وبعث أبرهة بنفر من جنده استولوا على كثير من أموال وأنعام قريش ، فكان مما استولوا عليه

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٤٧ .

مائتى بعير لزعيم قريش ومكة حينئذ ، عبد المطلب بن هاشم ، جدّ الرسول صلى الله عليه وسلم . وكأن أبرهة يريد بذلك إرهاب قريش وأهل مكة . وثارت ثائرة أهالى مكة وأرادوا قتال الأحباش ، ولكنهم أدركوا استحالة ذلك لكثرة عدد الأحباش ووفرة أسلحتهم وعتادهم .

ركز أبرهة هدفه من الغزو فى هدم الكعبة ، فقد كانت مكة فقيرة من الناحية الاقتصادية مما لايحقق أطماع الغزاة . ولذا بعث أبرهة برسول إلى قريش وقال له : « سل عن سيد هذا البلد ، ثم قل له إن الملك يقول لكم إنى لم آت لحربكم ، إنما جئت لهدم البيت ، فإن لم تعرضوا دونه بحرب ، فلا حاجة لى بدمائكم ، فإن لم يرد حربى فأتنى به » .

وقاد أهل مكة هذا الرسول إلى زعيمهم عبد المطلب ، فنقل الرسول إليه حديث أبرهة ، فقال عبد المطلب : والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله و بيت خليله إبراهيم . وطلب الرسول من عبد المطلب أن يرافقه ليلتقى بأبرهة .

وتم اللقاء ، وسأل أبرهة عبد المطلب عن حاجته ، فأجاب : حاجتى إلى الملك أن يرد علىّ مائتى بعير أصابها لى . وأبدى أبرهة تعجبه من هذا الطلب فقال : كنت قد أعجبتنى حين رأيتك ، ثم زهدت فيك حين كلمتنى ، أتكلمنى فى مائتى بعير قد أصبتها لك ، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمنى فيه ؟ !

وكان عبد المطلب مؤمناً بأن الله سيحمى بيته الحرام ، فقال لأبرهة : إنى أنا رب الإبل وإن للبيت رباً سيمنعه . ولكن أبرهة أصرّ على تنفيذ ما قدم من أجله فقال : ما كان ليمتنع عنى : فقال عبد المطلب فى ثقة : أنت وذاك . وعرض عبد المطلب على أبرهة ثلث أموال إقليم تهامة ، وهو أخصب أقاليم الحجاز ، على أن يجلوا عن مكة ولا يهدم الكعبة ، ولكن أبرهة رفض العرض وأصرّ على هدم بيت الله الحرام .



ورأى عبد المطلب استحالة قتال الأحباش ، فطلب من أهل مكة أن يحتموا ببطون الأودية وقمم الجبال ، وكان عبد المطلب قد استرد المائتى بعير التى استولى الأحباش عليها ، فقدمها هدياً للكعبة ، ووقف بباب الكعبة ينشد[١] :

يا رب لا أرجو لهم سواكا   يا رب فاصنع منهم حماكا
إن عدو البيت من عاداكا   فامنعهم أن يخربوا قراكا

ثم بدأ غزو الأحباش للكعبة ، وبرك الفيل (محمود) الذى كان يمتطيه أبرهة ، وبذل الأحباش جهودهم لينهضوه ، فكان ينهض ، حتى إذا وجهوه نحو مكة برك مرة أخرى ، وإذا وجهوه نحو الشام أو اليمن أسرع فى العدو[٢] .

وكانت العناية الإلهية تحيط بالكعبة ، فهى بيت الله الحرام ، وللبيت رب يحميه . وانتهى الغزو بمأساة تاريخية ، فروى ابن هشام فى سيرته[٣] أن الله عز وجل قد أرسل عليهم طيراً من البحر ، أمثال الخطاطيف والبلسان ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها ، حجر فى منقاره ، وحجران فى رجليه ، فى حجم الحمص والعدس ، وتوالت ملايين الأحجار حتى هلك الجيش . وروى المسعودى[٤] : « فأرسل الله عليهم الطير الأبابيل أشباه اليعاسيب ترميهم بحجارة من سجيل ، وهو طين خلط بحجارة ، خرجت من البحر ، مع كل طير ثلاثة أحجار ، فأهلكهم الله عز وجل » .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٢٨ .
(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٤٦ .
(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٥٢ .
(٤) مروج الذهب ج ٢ ص ١٨٨ .

وذكر القرآن الكريم هذا الحدث التاريخي فى سورة الفيل : (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول) .

وانتهت المأساة بهلاك معظم الجند الأحباش ، وعاد أبرهة مع نفر قليل من جنده إلى اليمن ، فى فزع وخوف ، يروون ما حدث لهم ، وما لبث أن مات أبرهة بعد قليل بعد أن ظهر على جسمه بلاء عظيم .

ارتفع شأن قريش وزعيمها عبد المطلب بعد إخفاق هذا الغزو ، وقال العرب : « الله قاتل عنهم وكفاهم مئونة عدوّهم » . وأدت هذه الهزيمة التى لحقت بالأحباش فى مكة إلى نهاية احتلالهم لبلاد اليمن ، فقد قامت حركة تحرير وطنية تزعمها سيف بن ذى يزن الحميرى ، ونجح سيف بمعاونة الفرس فى إجلاء الأحباش عن اليمن .

أصبح العرب يؤرخون أحداثهم بعام الفيل حتى خلافة عمر بن الخطاب ، كما شهد هذا العام مشرق نور الهداية والحق ، فقد ولد فى هذه السنة محمد صلى الله عليه وسلم .

٥ ـ الحج إلى الكعبة قبل الإسلام

الحج فى الأشهر الحرم :

كان العرب قبل الإسلام يحجون إلى الكعبة من جميع أرجاء الجزيرة العربية ، وشاركهم فى الحج أمم أخرى كالهنود والفرس والصابئة وبعض اليهود . وكانت أشهر الحج عندهم حرماً ، وكانوا يحرّمون الشهر الذى يكون فيه الحج ، وهو ذو الحجة ، والذى قبله والذى بعده . وكانوا يحرمون شهر رجب أيضاً ويسمونه شهر الله الأصم ، أى الذى لا تسمع

فيه قعقعة السلاح . فكانوا فى هذه الشهور الأربعة يلقون السلاح ولا يغزو بعضهم بعضاً (١) .

وحكمة جعل ثلاثة أشهر للحج ، مع أن موسمه وأسواقه لا تستغرق إلا شهراً وأياماً واضحة ، فالمسافات الشاسعة التى يضطر الحاج إلى قطعها من الأنحاء القاصية تحتاج إلى مدة كافية للإياب والذهاب ، ولعل فى هذا دليلا على اشتراك العرب من مختلف أرجاء الجزيرة العربية وأطرافها فى الحج وشهودهم موسمه وأسواقه ، وعدم اقتصار ذلك على عرب الحجاز .

لم يكن الذين يشهدون موسم الحج ويؤدون مناسكه ويفدون إلى أسواقه مقصورين على منطقة مكة أو بلاد الحجاز ، أو على الوثنيين من العرب ، بل قدم كثير من عرب الأرجاء النائية ، كعرب اليمن ونجد ومشارف الشام ، كما كان منهم الموحدون الحنفاء ، أو الصابئة ، والنصارى واليهود . منهم من كان يأتى لأداء مناسك الحج ، ومنهم من كان يجمع بين الحج والتجارة ، ومنهم من كان يأتى للتبشير بدينه ، أو يأتى للمفاخرة والخطابة وإنشاد القصائد ، أو لحل مشاكل لا يمكن حلها إلا فى ظروف مثل ظروف الحج وموسمه وأمنه .

وفى العصر الجاهلى ، ساد نظام « الحمس » ، ولفظ الحمس جمع مفرده الأحمس ، ومعناه ابن البلد ، وابن الحرم ، والوطنى المقيم ، والذى ينتمى إلى الكعبة والمقام . فهو امتياز لأبناء الوطن وأهل الحرمة وولاة البيت وقطان مكة وساكنيها ، أشبه الأشياء بحق « حرية المدينة »

---

(١) تذكر بعض الروايات أن الأشهر الحرم هى : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ويذهب بعض المفسرين أن أشهر الحج هى شوال وذو القعدة وذو الحجة ، ونحن نميل إلى تأييد الرأى الأول .

الذى يمنح فى بلاد العرب للأضياف الشرفاء ، تمييزاً لهم واعترافاً بمكانتهم ، كما أنه إظهار لشرف الانتساب إلى البلد الذى يمنح أهلوه ذلك اللقب. فقال المكيون المتميزون : « ليس لأحد من العرب حق كحقنا ولا منزلة كمنزلتنا » .

وعلامة الأحمس أن لا يعظم شيئاً من الحل (أى الأرض التى وراء الحرم) كما يعظم الحرم ، فإذا فعل ذلك استخفت العرب بحرمته ، فترك الحمس الوقوف على عرفة ، لأنه خارج عن الحرم والإفاضة منها ، مع إقرارهم بأنها من مناسك الحج . ويرون لسائر العرب أن يقفوا على عرفة وأن يفيضوا منها إلا أنهم قالوا : « نحن أهل الحرم فلا ينبغى لنا أن نخرج من الحرمة ولا نعظم غيرها » .

تحدث ياقوت الحموى (١) عن مذهب الحمس فقال : « كان من سنة الحمس ألا يخرجوا أيام الموسم إلى عرفات ، إنما يقفون بالمزدلفة ، وكانوا لا يشتكون ولا يأقطون ، ولا يربطون عنزاً ولا بقرة ، ولا يغزلون صوفاً ولا وبراً ، ولا يدخلون بيتاً من الشعر والمدر ، وإنما يكتفون بالقباب الحمر فى الأشهر الحرم » .

فأظهروا بذلك شدة تعصبهم لبقعة من الأرض ، وترفعوا عن أن يخرجوا منها ، ولو كان فى خروجهم إتمام لمشاعر الحج . وفى القوانين الدولية الخاصة الحديثة من يكسب حق الوطنية بالدم ، ومن يكسبه بالميلاد فى أرض الوطن ، ومنهم من يناله بطول الإقامة . ففكرة الحمس إقرار لحق الوطنية بالانتساب للبقعة ، وامتياز لمن له هذا الحق .

وكانت فكرة الحمس صائبة لأنها ترمى إلى إعزاز جانب أهل الحرم ، وتضمن سلامة القاصدين إليها وتحجز ما بين الأعداء ، وتشل أيدى

---

(١) معجم البلدان (طبعة وستنفلد) جـ ٤ ص ٦٢٠ .

المنتقمين والمتربصين ، فنشأ حق الالتجاء من حق الحمس[1] .

لم تكن الكعبة محرمة أو مقدسة فى نظر قبيلة قريش فحسب ، بل فى نظر جميع القبائل العربية ، وتجلت تلك القداسة فى كل عام فى سلسلة الاحتفالات والأعياد والأسواق التى كانت تقام حول مكة فى بطحائها وظواهرها ، وفيها تمتزج المواسم الدينية ذات الشعائر والرسوم بالتجارة والمساومة والبيع والشراء وكان للأدب عند العرب نصيبه من الاهتمام ، فطالما خطب الخطباء وأنشد الشعراء ونطق الحكماء فى تلك الأسواق التى كانت فيها أركان ومواقف أشبه بمجامع العلم والأدب فى عصورنا الحديثة .

وأراد المكيون أن تقع مواسم الحج والأعياد والأسواق فى فصل الشتاء ، وطرف من الربيع ، وآخر من الخريف ، فوضعوا نظام النسىء ، ليجعلوا من السنة القمرية والتاريخ الهلالى سنة شمسية ، ويحتفظوا بحلول الموسم فى الوقت الذى يرغبونه . ولم يختر المكيون هذا الوقت من العام عبثاً ، ولم يفضلوه على غيره لطيب هوائه أو خفة حرارة القيظ على الوافدين ، إنما اختاروه لأنه الوقت الذى يكون فيه الأدم والثمرات وغيرها من الإنتاج الزراعى والبضائع معدّة للعرض فى الأسواق ، مما يحقق الفائدة المادية لبدو الجزيرة العربية الذين يعتمدون على التجارة فى إنتاجهم الاقتصادى فى مواردهم وحياتهم .

اهتمام قريش بالحج :

تطورت مدينة مكة وأصبحت مدينة كبرى ، وخاصة بعد سقوط الدولة الحميرية فى بلاد اليمن ، ونالت المنزلة الكبرى لوجود الكعبة بها ، ولازدهار تجارتها ، ولموقعها الجغرافى ، ويضيف المؤرخ الألمانى « ولهاوزن»

---

(١) ثورة الإسلام ص ٨٢ .

عاملا آخر ، هو تفوق سكان مكة من قريش ، ذلك أن نهضة أهل مكة الثقافية تأثرت بالعلاقات الطيبة مع الساميين الشماليين . فالمقطوع به أن التجارة التي امتدت إلى سوريا والحيرة وجنوب بلاد العرب قد حملت مؤثرات ومطامح جديدة [١] .

وسعت قريش إلى تحقيق السلام في مكة ، بل في أرجاء بلاد الحجاز ، لتشجيع الحجاج والتجار على الرحيل في أمان واطمئنان ، وابتعدت قريش عن الحروب القبلية ، ونجحت في السيطرة على سائر القبائل العربية . وارتبطت قريش بالدول المعاصرة بكثير من الصلات الاقتصادية والسياسية ، واقتبسوا منها ألواناً مختلفة من الحضارة والثقافة ، وتأثروا بنظمها السياسية والاجتماعية .

اهتمت قريش بشئون مكة لتسهيل الحج ، فنظمت الخدمات البلدية ، وتوفير المياه للحجاج ، وتمهيد طرق مكة ونظافتها ، ووقاية مدينة مكة من السيول التي كثيراً ما يشهدها المكيون ويعانون منها ، كما اهتمت قريش بإضاءة طرقات مكة ، وإقامة النيران فوق الجبال العالية المحيطة بمكة لإرشاد قوافل الحجاج والتجار .

في الأشهر الحرم ، يتوقف القتال ، ويشد العرب رحالهم من كل مكان إلى مكة ، وينزلون عند مشارفها وقرب الآبار الكثيرة المحيطة بها ، حيث يقضون أياماً يبيعون ويشترون ، ويتعارفون ويتسامرون . ثم يقصدون سوق عكاظ التي أصبحت ميداناً للمباراة في الشعر والخطابة ، ومحكمة يفصل وجوه العرب فيها في الخصومات ، وسوقاً عالمية تعج بأنواع السلع المختلفة المجلوبة من دول العالم القديم . حتى إذا افرغ الناس من سوق عكاظ ، وقفوا في عرفة ، ثم قدموا إلى مكة ، فأدوا شعائر الحج ، ثم يعودون إلى بلادهم .

---

(١) هل : الحضارة العربية ص ١٧ .

وأثر الحج فى الحياة الاجتماعية فى الجزيرة العربية ، فقد كانت القبائل تختلط وتمتزج فى سلام ، وتتناسى العداء والخصام ، فيلتقون ويتعارفون ، ويبيعون ويشترون ، ويتزاوجون ، ويتناشدون الأشعار ، ويحلون مشاكلهم ، مما يخفف من حدة العصبية القبلية ويوجد مظهراً لحياة اجتماعية راقية متماسكة .

السدانة والسقاية والرفادة :

أدرك وجوه قريش خاصة ، وأهل مكة عامة ، ما عليهم من واجبات نحو الكعبة والحجاج . فقد كانوا يرون لأنفسهم حق الحرمة والاختيار على العرب بسبب اختصاصهم بكرامة جوار البيت الحرام ، ويعتبرون أنفسهم أهله وأولياءه . كما كانوا يدركون مركز بلدهم وما أنعم الله عليهم من كرامته وقدسيته . ولذا تضامنوا فى القيام بواجبهم نحو وفود الحجاج من ترحيب وإكرام ، باعتبارهم ضيوف بيت الله الذى فى بلدهم ، والذين هم سدنته .

وكانت المناصب فى قبيلة قريش خمسة عشر منصباً ، قسمتها قريش بين بطونها المختلفة ، لتحفظ التوازن بينها ، وتمنع تنافرها أو تنازعها ، ولتحفظ لقريش وحدتها وتماسكها ، ولتوفر لمكة الهدوء والسلام اللازمين . لتشجيع الحجاج والتجار على الرحيل فى كل عام إلى مكة . وكانت أشرف هذه المناصب ، السدانة والسقاية والرفادة .

أما السدانة ، أو الحجابة ، فصاحبها يحجب الكعبة وبيده مفتاحها ، يفتح بابها للناس ويغلقه ، ومنصب السدانة أبرز المناصب على الإطلاق ، والمنصب الثانى هو السقاية ، ويتولى مناصبها توفير المياه للحجاج ، ولم تكن هذه المهمة يسيرة ، لقلة المياه فى مكة ، فكان من يتولى المنصب

ينشئ حياضاً من الجلد ، يضعها فى فناء الكعبة ، وينقل إليها المياه العذبة من الآبار على الإبل فى المزاود والقرب . وكانت السقاية فى بنى هاشم ابن عبد مناف . أما المنصب الثالث فهو الرفادة ، فكانت قريش تجمع من وجوهها بعض الأموال فى موسم الحج ليقوم صاحب المنصب بإعداد الطعام لفقراء الحجاج ، باعتبارهم ضيوف الكعبة . وكان أول من قام بالرفادة قصى بن كلاب ، وأصبحت فى بنى نوفل ، ثم فى بنى هاشم . ومن المناصب الكبرى التى تتعلق بالكعبة والحج منصب « العمارة » ويراد بها أن لا يتكلم أحد فى المسجد الحرام بهجر ولا رفث ولا يرفع فيه صوته [١] . وعملت قريش على تشجيع الحجاج ، فبذلت كل جهد لإنصاف المظلوم ، ونشر العدل ، وعقدت من أجل ذلك « حلف الفضول » ، « فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أوغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه [٢] حتى ترد عليه مظلمته » .

استنّ قصى بن كلاب ، مؤسس قريش ، سنة الرفادة ، وتوارثها أبناؤه من بعده ، فأصبحت سنة تقليدية متوارثة . وقد عرف ابن هشام [٣] الرفادة فقال : « وكانت الرفادة خرجاً تخرجه قريش فى كل موسم من أموالها ، إلى قصى بن كلاب ، فيصنع به طعاماً للحجاج ، فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد . وذلك أن قصيا فرضه على قريش ، فقال لهم حين أمرهم به : يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم ، وإن الحاج ضيف الله وزوار بيته ، وهم أحق الضيف بالكرامة فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج ، حتى يصدروا عنكم . ففعلوا فكانوا يخرجون لذلك كل

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ١ ص ٣٨ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٤١ .

(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٣٠ .

عام من أموالهم خرجاً ، فيدفعونه إليه ، فيصنعه طعاماً للناس أيام منى » .

تولى قصى بن كلاب الحجابة والسقاية والرفادة ودار الندوة واللواء . وبنت قريش بأمر قصى حول الكعبة دورها ، وتركوا مكاناً كافياً للطواف بالبيت ، وتركوا بين كل بيتين منفذاً ينفذ منه إلى المطاف.

أنجب قصى ثلاثة أولاد هم : عبد الدار ، وعبد مناف ، وعبد العزى. وكان عبد الدار أكبرهم سناً ، ولكن عبد مناف كان أكثر شهرة وأرفع شأناً ، فكسب احترام قومه وعظمت مهابته بينهم . ورأى قصى أن يعوض عبد الدار عما افتقده ، فأسند إليه بعض المناصب ليعتز بها على أخيه ، فقال قصى لعبد الدار : « أما والله لألحقنك بالقوم وإن كانوا قد شرفوا عليك ، لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تفتحها ، ولا يعقد لقريش لواء لحربهم إلا أنت بيدك ، ولا يشرب رجل بمكة ماء إلا من سقايتك ، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاماً إلا من طعامك ، ولا تقطع قريش أمورها إلا فى دارك » .

وبعد وفاة قصى ، تولى عبد الدار هذه المهام ، وورثها أبناؤه عنه . ولكن سرعان ما نازعهم عليها أبناء عبد مناف بن قصى ، وهم : عبد شمس وهاشم ، والمطلب ، ونوفل . فقد رأوا أنهم أجدر وأقدر من أبناء عبد الدار ، وأدى هذا التنافس إلى انقسام قريش ، وكادوا يقتتلون ، ثم جنحوا إلى السلم ، واتفقوا على أن يتولى بنو عبد مناف بن قصى السقاية والرفادة ، وأن تكون الحجابة واللواء ورياسة دار الندوة لبنى عبد الدار بن قصى .

تولى هاشم بن عبد مناف السقاية والرفادة ، وحدث أن مرت فترة جدب وقحط بمكة ، وعانت منها قريش ، فرحل هاشم إلى فلسطين حيث اشترى كمية كبيرة من الدقيق ، فقدم به إلى مكة ، حيث صنع منه خبزاً ، ثم قام بذبح الذبائح ، وصار يهشم الخبز لقومه فأطلقوا عليه اسم

« هاشم » ، بدلا من اسمه الأصلى « عمرو » . وارتفع شأن هاشم فى أرجاء الجزيرة العربية .

وتولى المطلب السقاية والرفادة بعد أخيه هاشم . حتى إذا شب عبد المطلب بن هاشم ، نازع عمه فى مناصبه ، واستعان بأخواله من بنى النجار فى يثرب ، ونجح فى استرداد مناصب أبيه . ووصف ابن هشام[1] ما حازه عبد المطلب من مجد وسؤدد فقال : « ثم ولى عبد المطلب ابن هاشم السقاية والرفادة بعد عمه المطلب ، فأقامها للناس وأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون من قبله لقومهم من أمرهم وشرف فى قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه ، وأحبه قومه وعظم خطره فيهم » .

تولى عبد المطلب منصبى السقاية والرفادة ، ولقى مشقة كبيرة فى توفير المياه اللازمة للحجاج والوافدين على مكة ، وخاصة أن مكة مرت بفترة ندرت فيها الأمطار ، وكادت تجف مياه الآبار ، فى حين أشرف موسم الحج ؛ ثم كانت الرؤيا التى دلت عبد المطلب على مكان بئر زمزم التى عفت عليها الأيام . وخرج عبد المطلب وابنه الحارث ، ونجحا فى كشف مكانها وإعادة حفرها ، وتدفق الماء من جديد من هذه البئر المقدسة ، تروى الزرع والثمار ، وتضمن توافر الماء للحجاج وأهل مكة .

وجد عبد المطلب فى بئر زمزم نفائس وذخائر ، كانت لمضاض الجرهمى وقد أخفاها فى البئر وردم عليها عند اضطراره للجلاء عن مكة ، وحتى لا يعثر أعداؤه عليها ، وكان قد عجز عن حملها معه إلى منفاه ، وتراكمت الرمال عبر السنين فأخفت هذه النفائس عن العيون والأيدى . ونازع القرشيون عبد المطلب فيما وجد وطالبوه بأن يشاركوه فى هذه الذخائر ، ولجأ إلى القداح لحسم النزاع .

كان فى مقدمة هذه النفائس غزالان من الذهب وأسياف وأدرع .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٤٢ .

وانتهت عملية ضرب القداح إلى أن أصبح الغزالان من نصيب الكعبة ، والأسياف والأدرع من نصيب عبد المطلب، فضرب عبد المطلب الأسياف بابا للكعبة ، وضرب فى الباب الغزالين الذهبيين ، ولكن بريق الذهب جعل بعض اللصوص يطمعون فيه ، فتسللوا فى جنح الظلام إلى الكعبة وجردوها مما كانت تتحلى به من نفائس ذهبية .

أصبح عبد المطلب بعد اكتشاف بئر زمزم ، ينقل الماء منها إلى الحياض المحيطة بالكعبة ، ويحلى الماء بالتمر والزبيب وكان ابنه العباس يملك بساتين عنب فى الطائف ، وهى مدينة على مقربة من مكة ، فكان يمد والده بحاجته من الزبيب .

هدى الكعبة :

الهدى هو الحيوان الذى يسوقه الحاج ليذبحه بعد أداء مناسكه قربان شكر لله . وإذا كان الحيوان من البقر والإبل سمّى بدناً . وكلمة الهدى مشتقة من الإهداء على اعتبار أن القربان هدية من الحجاج إلى الله أو إلى الكعبة . وجرت عادة العرب فى العصر الجاهلى على ذبح هديهم عند الأوثان والأنصاب فى فناء الكعبة ، ويتركونها بعد الذبح . وعادة ذبح القرابين للمعبودات عادة قديمة يشترك فيها البشر فى بعض أدوارهم وأطوارهم ومختلف بيئاتهم . غير أن الروايات ذكرت أن العرب الجاهليين كانوا يرجعون تقليدهم فى ذبح القرابين إلى إبراهيم الذى امتحن بذبح ولده ففداه الله بذبح عظيم . ويرجح البعض أن العرب كانوا يعرفون أخبار هذه الأحداث ويتناقلونها ويرجعون إليها أو يعللون بها ذبح الضحايا . كما كانوا يرجعون قيامهم بالحج إلى دعوة إبراهيم للناس ليحجوا ، وكانوا يدركون صلة إبراهيم بالكعبة ومقامه فى فنائها .

وكان العرب قبل الإسلام يعتبرون العمرة إلى مكة واجباً مقدساً . فكانت تقدم الذبائح لبعض الأصنام فى وادى عرفة على مسافة بضعة أميال من الشمال الشرقى لمكة ، وفى المزدلفة على مسيرة ساعتين من عرفة ، وفى منى بعد مسيرة ساعتين أخريين عن المكان السابق . ثم غدت عبادة هذه الأصنام والحج إليها ، هى العبادة السائدة فى وسط بلاد العرب فقامت آلاف عديدة من العرب بالحج والعمرة فى الأشهر الحرم ، مما جعل الحجاز أيام الجاهلية مركز حياة العرب الدينية[1] .

وأصبحت تقاليد تقديم الهدى تعين صاحب منصب « الرفادة » فى القيام بمهمته ، فقد كان فقراء الحجاج يأكلون من لحوم الهدى ، ولذا كان العرب يحترمون الحيوانات التى تهدى إلى الكعبة ، فكانت تترك سائمة فلا يتعرض لها أحد . واعتاد الحجاج العرب تقليد الهدى ، أى وضع قلادة من سيور الجلد أو ألياف الشجر فى عنقه إعلاناً بأنه هدى ، فيصبح محرماً مقدساً . واعتاد الحجاج فى العصر الجاهلى أن يلطخوا جدران الكعبة بدماء الهدى ، ظناً منهم أن فى هذا تقرباً إلى الله والكعبة . وكانوا لا يأكلون لحوم هديهم ، ويتبرعون بها للحجاج الفقراء .

٦ ـ الكعبة قبيل الإسلام

ضعف الوثنية العربية :

فقدت الوثنية العربية قبيل ظهور الإسلام ، معناها الأول ، وقوتها السالفة ، ودب فيها الفساد ، وتغير جوهرها وأصبحت مجموعة من الخرافات

---

(١) هل : الحضارة العربية ص ١٦ .

والأوهام . ولكن ، وبرغم ذلك، احتفظ أهل مكة وزعماؤها بالأوثان عند الكعبة ، لما كانت تعود به عليهم من فوائد مادية ، فقد كانت تجذب آلاف الحجاج فيتحملون مشقات السفر من أجل الحج ، ويصبح موسم الحج موسم أسواق تجارية كبرى ، وتصبح مكة مركزاً تجارياً عظيما . ويتنافس الحجاج فى تقديم القرابين ، وهذه الضحايا تباع وتشترى فى قريش ، ويتوزعها فقراء مكة وقريش . ولذا أصبحت الوثنية بالنسبة لهم مسألة اقتصادية مادية .

تحدث المؤرخ الهندى المسلم « خودابخش » فى كتابه الذى قمنا بترجمته بعنوان « الحضارة الإسلامية »[1] عن ضعف الوثنية فى أواخر عصر الجاهلية فقال : كان العرب يقدسون آلهتهم ، فيحجون إلى أماكنها المقدسة ، ويقدمون الأضحيات فى معابدها ، ويخضبون بدماء هذه الأضحيات الهياكل المصنوعة من الأحجار أو الخشب ، ويستجيرون بكهنتها فى وقت الشدة ، ويسألونهم عما يخبئه المستقبل . ولكن كان هذا كله تظاهراً وتصنعاً ، فلم يكن هناك شعور بإيمان حقيقى ، ولكن كان العربى يبدى غضبه ، لأقل شيء على الآلهة ، ويخاطبهم وكأنه يعرف حقيقتهم ، فيسخر منهم .

وهذه الحقائق — كما يقول خودابخش — توضح أن عرب ما قبل الإسلام كانوا فى حالة قلق دينى قبل ظهور الإسلام ، فقد كانوا غير راضين عن نظامهم الدينى وعاجزين عن الوصول إلى ما هو أحسن بحيث يرضى حاجاتهم ومطالبهم ، وكانوا فى اختلافات دينية . كانوا يمارسون عبادة الأوثان ، ولكن بدون شعور بإيمان حقيقى .

كان العرب فى ظاهر أمرهم يمجدون هذه الأرباب ، ويحجون إلى

---

(١) خودابخش : الحضارة الإسلامية ص ٢٩ .

محرابها ويحتفلون بمواسمها السنوية ، ويذبحون القرابين فى هيا كلها ، ويريقون دماءها على تلك الآلهة التى يعبدونها ، سواء أكانت من الحجر أم الخشب ، بل لقد كانوا يلجأون إليها كلما حزمهم أمر يلتمسون منها البركة ، ويتكشفون بواسطتها مستقبل أمرهم الغامض . ولكن عقيدتهم فيها لم تزد على هذا القدر من المظاهر ، أما فيما عدا ذلك ، فقد كانوا لا يترددون فى تحطيم آلهتهم إذا لم تتحقق نبوءتها .

دعوة إلى تخليص الكعبة من الأوثان :

قبيل ظهور الإسلام ، أبدى بعض وجوه العرب ، من الشخصيات المستنيرة ، سخطهم على الوثنية ، وأملوا فى دين أسمى من أديان وطنهم . فروى ابن هشام[1] : « اجتمعت قريش يوماً فى عيد لها عند صنم من أصنامهم ، كانوا يعظمونه وينحرون له ، ويعكفون عنده ، ويديرون به ، وكان ذلك عيداً لهم فى كل سنة يوماً ، فخلص منهم أربعة نفر نجيا ، ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض . قالوا : أجل . . . فقال بعضهم لبعض : تعلموا والله ما قومكم على شىء ، لقد أخطأوا دين إبراهيم ، ما حجر نطيف به ، لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ؟ يا قوم ، التمسوا لأنفسكم ديناً ، فإنكم والله ما أنتم على شىء . فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم » .

نقرأ فى المصادر القديمة عن أبى أنس قيس بن صرماح ، وقد نادى بنبذ الأوثان ، كما نقرأ أيضاً عن الوليد بن المغيرة ، وعثمان بن مدهون اللذين نهيا عن شرب الخمر زمن الجاهلية .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٧ .

استعرض المسعودى أديان العرب فى العصر الجاهلى فقال : « كانت العرب فى جاهليتها فرقاً : منهم الموحد المقر بخالقه ، المصدق بالبعث والنشور ، موقناً بأن الله يثيب المطيع ، ويعاتب العاصى ،، وقد تقدم ذكرنا فى هذا الكتاب وغيره من كتبنا من دعا إلى الله عز وجل ونبه أقوامه على آياته فى الفترة ، كقس بن ساعدة الإيادى ورئاب الشنى ، وبحيرا الراهب ، وكان من عبد القيس .

« وكان من العرب من أقر بالخالق ، وأثبت حدوث العالم وأقر بالبعث والإعادة ، وأنكر الرسل ، وعكف على عبادة الأصنام ، وهم الذين حكى الله عز وجل قولهم : (ما نعبدهم إلاّ ليقربونا إلى الله زلفى) الآية . وهذا الصنف هم الذين حجوا إلى الأصنام وقصدوها ، ونحروا لها البدن ، ونسكوا لها النسائك ، وأحلوا لها وحرّموا .

« ومنهم من أقرّ بالخالق، وكذّب بالرسل والبعث ، وما إلى قول أهل الدهر ، وهؤلاء الذين حكى الله إلحادهم وخبر عن كفرهم بقوله تعالى: (وقالوا ما هى إلاّ حياتنا نموت ونحيا وما يهلكنا إلاّ الدهر) فردّ الله عليهم بقوله: (وما لهم بذلك من علم إن هم إلاّ يظنون) .

« ومنهم من مال إلى اليهودية والنصرانية ، ومنهم المار على عنجهيته الراكب لهجمته . وقد كان صنف من العرب يعبدون الملائكة ، ويزعمون أنها بنات الله، فكانوا يعبدونها لتشفع لهم إلى الله ، وهم الذين أخبر الله عز وجلّ عنهم بقوله تعالى: (ويجعلون لله البنات ولهم ما يشتهون) وقوله تعالى: (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك إذاً قسمة ضيزى) » .

أفرد ابن قتيبة فصلا فى كتابه « المعارف» [1] جعل عنوانه « قصة

---

(١) ابن قتيبة : المعارف ص ٢٧ — ٢٩ .

من كان على دين قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم» ، فذكر عدة أسماء ومن هذه الأسماء زيد بن عمرو بن نفيل ، وهو ابن عم عمر بن الخطاب ، وكان زيد قد رغب عن عبادة الأوثان وطلب الدين فقتله النصارى بالشام ، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم إنه يبعث أمة وحده . ومنهم أيضاً أمية ابن أبي الصلت وكان قد قرأ الكتب ورغب عن عبادة الأوثان ، وكان يخبر بأن نبيا يبعث قد أظل زمانه . ومنهم أيضاً أسعد أبو كرب الحميري ، ويذكر ابن قتيبة أنه آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث بسبعمائة سنة وقال :

شهدت على أحمد أنه — رسول من الله بارئ النسم
فلو مد عمري إلى عصره — لكنت وزيراً له وابن عم
وألزم طاعة كل من — على الأرض من عرب أو عجم

ومن هؤلاء قس بن ساعدة الإيادي ، وهو حكيم العرب ، وذكر الرسول أنه رآه يخطب في سوق عكاظ وهو على جمل أحمر . ومنهم أيضاً أبو قيس صرمة بن أبي أنس ، وهو من بني النجار ، وكان قد ترهب ولبس المسوح وفارق الأوثان ، ودخل بيتاً له فاتخذه مسجداً وقال : أعبد رب إبراهيم . فلما قدم الرسول عليه الصلاة والسلام المدينة أسلم وحسن إسلامه .

وآخر من عددهم ابن قتيبة هو خالد بن سنان بن غيث وهو من بني عبس بن بغيض ، وروى أن رسول الله قال : ذلك نبي أضاعه قومه . ويروى ابن قتيبة أن ابنته قدمت على الرسول فسمعته يقرأ : قل هو الله أحد . فقالت : كان أبي يقول ذا .

ويذكر المؤرخ الألماني «جوزيف هل»(١) أن أناساً في بلاد العرب ،

---

(١) هل : الحضارة العربية ص ١٩ .

ولا سيما فى مكة ، كانوا ساخطين على الديانة القائمة بينهم ، وتلمسوا الهداية فى المسيحية واليهودية ، أو انتقوا نوعاً من العبادة كان جديداً وتقدمياً فى نفس الوقت . ويصف المؤرخ « ويتلف نيلسن » فى مقال له بعنوان « الديانة العربية القديمة »[١] الأصنام قبيل ظهور الإسلام بأنها « آلهة عهد الاضمحلال والتدهور الذى سبق الإسلام » .

الكعبة مركز الدعوة الحنيفية :

قبيل ظهور الإسلام ، ظهرت حركة إصلاحية تهدف إلى العودة إلى دين إبراهيم الحنيف ، وتخليص الكعبة من الأوثان ، وإصلاح أحوال العرب . فقد ظهرت مدرسة جديدة ذات عقيدة تدعى الحنيفية . فقد كان من بين العرب أناس مستنيرون فطنوا إلى سوء حالتهم الدينية ، وحاولوا الارتقاء من الوثنية إلى اعتقادات أرقى منها ، ودعوا إلى دين التوحيد وإلى إحياء ملة إبراهيم ، ونبذ عبادة الأوثان والتخلص من عادات الجاهلية . وكانوا يعتقدون فى البعث وبوجود إله واحد يحاسب ويجازى الناس على أعمالهم من خير أو شر ، ويطلق على هذه النزعة التحنف ، وعلى أصحابها الحنفاء .

وقد ورد هذا اللفظ فى القرآن الكريم فى سورة آل عمران[٢] : (ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً . ولكن كان حنيفاً مسلماً . وما كان من المشركين) ، وقال الله تعالى فى هذه السورة أيضاً[٣] : (قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) .

---

(١) التاريخ العربى القديم .
(٢) آية ١٧٧ .
(٣) آية ٦٧ .

كان كعب بن لؤى بن غالب ، أحد أجداد الرسول ، من الحنفاء ، فكان يجمع قريشاً ويطلب منهم التفكير فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، ويذكرهم بالموت وأهواله واليوم الموعود وأحواله ، ويبشرهم بظهور نبى .

والحنفاء هم من احتفظوا بدين إبراهيم من الجاهليين ، فلم يشركوا بربهم أحداً ، ولم يعتنقوا اليهودية ولا المسيحية ، كما نبذوا الوثنية . وقد كان العرب جميعاً قبل عهود الوثنية فى عهد عمرو بن لحى الخزاعى يدينون بدين التوحيد الذى بشر به إبراهيم .

عدّ بعض المستشرقين الحنفاء شيعة من شيع النصارى ، واستدلوا على ذلك بما ورد فى بعض المصادر القديمة من اعتناق بعض من نبذوا الوثنية الدين المسيحى ، مثل ورقة بن نوفل . غير أن القرآن الكريم قد نص نصاً صريحاً على أن الحنفاء لم يكونوا يهوداً ولا نصارى ، وأنهم يعتنقون دين إبراهيم ، ولم يكن إبراهيم يهودياً ولم يكن نصرانياً ، كما كان الرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة النبوية حنيفاً مسلماً يؤمن بالتوحيد .

لم ينتظم الحنفاء فى طائفة ، ولم يرتبطوا برباط واحد ، ولم يشتركوا فى عبادة واحدة معينة ، ولكننا نعتقد أن هؤلاء الحنفاء ، أو المتعبدين على ملة إبراهيم ، لم يكونوا عدداً قليلا ، فلو لم يكونوا كثرة محسوسة لما عدّهم القرآن الكريم فئة خاصة وأشار إليهم بهذه الحفاوة وسلكهم مع أهل الكتاب والمؤمنين ، ثم مع أهل الأديان المستقلة عامة فى سلك واحد وتحت اسم مستقل . وقد ذكرت لنا كثير من المصادر القديمة أسماء عديدة لهؤلاء الحنفاء (١) .

كما أن ظهور هؤلاء الحنفاء المستنيرين فى غير مكان واحد ، وفى غير وقت واحد ، يدل على ظهور فكرة جديدة مستنيرة دارت فى أذهان

---

(١) دروزة : عصر النبى ص ٤٣٢ .

المفكرين المستنيرين من العرب قبيل ظهور الإسلام ، وهى فكرة نبذ عبادة الأوثان والتخلص من العادات السيئة الجاهلية ، والرقى بالعقيدة ، والسمو بالإنسانية ، - وهى حلقة فى سلسلة التطور الدينى والفكرى فى تاريخ العرب .

نظر هؤلاء الحنفاء إلى الحياة نظرة أكثر سمواً ، ولكن لم يكن لهم من القوى المادية ومن السلطة السياسية ما يمكنهم من أن يصارعوا التعاليم والعادات القديمة ، والطقوس الدينية والشعائر المقدسة التى كانت قد تشابكت مع حياة العرب . ولا يمكن القضاء عليها إلا بهدم المجتمع العربى من أساسه ، وهذا ما نجح الإسلام فيما بعد فى تحقيقه ، إذ خلق مجتمعاً إسلامياً نقياً متماسكاً .

كافح الحنفاء من أجل القضاء على الوثنية ورذائل الجاهلية ، ولكن جهودهم لم تنجح فى التخلص من الماضى ، والقضاء على التقاليد المتوارثة عن الآباء والأجداد ، وكانت حركة الحنيفية تفتقر إلى سند دنيوى يظاهرها وترتكز عليه (١) .

كان محمد ، صلى الله عليه وسلم ، قبل نزول الوحى ، يؤمن أن الوقت قد حان لقيام حركة إصلاحية كبرى ، فقد انحدر العالم إلى الوثنية العمياء ، وابتعد الناس عن الطريق القويم ، كما رأى أن تعود الكعبة إلى ما كانت عليه زمن جده إبراهيم . وكانت هذه الأفكار تتوارد على ذهنه دائماً وأثرت فى أعماله وأفعاله . فقد كان كثيراً ما ينعزل عن المجتمع وينفرد بنفسه فى جبل حراء على بعد ثلاثة فراسخ من مكة حيث يقضى عدة أيام فى الصلاة والتعبد ، وكان يمضى شهر رمضان فى الغار ، وكان لا يشغل ذهنه إلا بموضوع واحد هو الروح .

---

(١) خودابخش : الحضارة الإسلامية ص ٣٣ .

وقد اعتاد بعض الحنفاء أن ينقطعوا للعبادة زمناً فى كل عام يقضونه بعيداً عن الناس فى خلوة ، يتقربون إلى الله بالزهد والدعاء . ويلتمسون عنده الخير والحكمة . وكانوا يسمون هذا الانقطاع التحنف أو التحنث .

وكان محمد ، صلى الله عليه وسلم ، قبل ظهور الإسلام ، من الحنفاء ، حتى إذا بلغ الأربعين من عمره نزل عليه الوحى وأصبح رسول الله . وكان محمد فى غار حراء يعبد الله وحده ، فنزل عليه جبريل عليه السلام يبلغه اختيار المولى عز وجل له ليكون رسوله الصادق الأمين .

وإن كانت جهود الحنفاء لم يكتب لها النجاح التام ، فإنها قد فتحت آفاقاً جديدة من التفكير ، ونجد آثار ذلك واضحة فى ظهور عقيدة توحيد الله ، ويقظة الضمير ، والشعور بالمسئولية ، وصحب ذلك ظهور بعض المشاعر الإنسانية صورها الشعراء فى القرن السادس الميلادى فى شعرهم .

٧ ــ الرسول والكعبة

تصدّع الكعبة :

حينما كان الرسول فى الخامسة والثلاثين من عمره[1] ، اشترك فى حادث جليل أثار اهتمام جميع العرب فى أرجاء الجزيرة العربية ، وهو إعادة بناء الكعبة .

وكانت قريش تفكر منذ سنوات كثيرة فى أمر الكعبة ، فقد كانت

---

(١) ابن هشام جـ ١ ص ٢٠٤ . وذكر العمرى « مسالك الأبصار » جـ ١ ص ٦٤ أن عمر الرسول كان ٢٥ سنة أو ٣٥ سنة .

بدون سقف ، منخفضة الارتفاع ، مما جعلها نهباً للصوص ، الذين أقدموا على سرقة بعض كنوز الكعبة التى كان القرشيون يحتفظون بها فى جوفها.

كان ارتفاع الكعبة تسع أذرع أى نحواً من سبعة أمتار ، ولم يكن لها سقف ، وكان بابها بمستوى الأرض فيدخلها من شاء ، ويلقى فيها الناذرون نذورهم من حلىّ ومتاع وطيب ونقود فتقع فى خزانة الكعبة التى كانت بمثابة صندوق للنذور ، وهى بئر عند بابها على يمين الداخل .

تعرّضت مكة لعدّة سيول فى أوقات متفاوتة ، وحدث أن نزل سيل جارف من الجبال المحيطة بمكة ، فانحدر نحو الكعبة وصدّع جدرانها . وأصبحت قريش مضطرة إلى الإقدام على إصلاح ما أفسدته السيول ، وكانت من قبل تجد حرجاً فى إعادة بنائها أو إدخال إصلاحات عليها . وكانت الظروف مهيأة لقريش لتقوم بإصلاح الكعبة ، فقد رمى البحر بسفينة إلى جدّة ، كانت لأحد تجار الروم . وكانت هذه السفينة قد بعث بها ملك الروم من مصر إلى الحبشة ليقوم ركابها ببناء كنيسة هناك[1] . وخرج وفد قرشى برياسة الوليد بن المغيرة إلى جدّة لشراء هذه السفينة .

وكان فى مكة رجل نجار مسيحى يدعى ياقوم (أو باقول فى بعض الروايات) ، ورأت قريش أن تستعين بخبرته . ويروى ابن هشام[2] . أنه « كانت حية تخرج من بئر الكعبة التى كان يطرح فيها ما يهدى لها كل سنة ، فتتشرّق على جدار الكعبة ، وكانت مما يهابون ، وذلك أنه

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٧٨ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٠٥ .

كان لا يدنو منها أحد إلا احزوزأت وكشت وفتحت فاها ، وكانوا يهابونها . فبينا هى ذات يوم تتشرق على جدار الكعبة ، كما كانت تصنع ، بعث الله إليها طائراً فاختطفها فذهب بها ، فقالت قريش : إنا لنرجو أن يكون الله قد رضى ما أردنا. عندنا عامل دقيق ، وعندنا خشب ، وقد كفانا الله الحية » .

بدأت قريش عملية الهدم والبناء ، وكان أول من بدأ الهدم عائذ ابن مروان بن مخزوم ، فتناول من الكعبة حجراً ، فوثب بين يديه ، حتى رجع إلى موضعه – كما يروى ابن هشام[1] – فقال عائذ : يا معشر قريش ، لا تدخلوا فى بنائها من كسبكم إلا طيباً ، لا يدخل فيها مهر بغى ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد من الناس .

اقتسمت قريش جوانب الكعبة الأربعة ، على أن يتولى كل فريق الهدم والبناء . ولكنهم ترددوا فى الإقدام على الهدم خشية أن يلحقهم الأذى ، فقال الوليد بن المغيرة : أنا أبدؤكم فى هدمها . ثم أخذ المعول ، وبدأ الهدم وهو يقول : اللهم إنا لا نريد إلا الخير . ثم هدم من ناحية الركنين . وانتظر الناس ليلة وقالوا : ننظر ، فإن أصيب لم نهدم منها شيئاً ورددناها كما كانت ، وإن لم يصبه شىء ، فقد رضى الله صنعنا ، فهدمنا .

عاود القرشيون الهدم فى اليوم التالى ، وانتهى الهدم بهم إلى الأساس ، أى أساس إبراهيم عليه السلام ، وهى أحجار خضراء ، فضربوا عليها بالمعاول فارتدت عنها ، فرأوا أن يتخذوا هذه الأحجار أساساً للبناء الجديد .

ويروى ابن هشام[2] أن قريشاً وجدت فى الركن كتاباً بالسريانية ، فلم يدروا ما هو مكتوب فيه ، وعهدوا بذلك إلى رجل يهودى ، فكان

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٠٦ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٠٨ .

المكتوب: (أنا الله ذو بكة ، خلقتها يوم خلقت السموات والأرض ، وصورت الشمس والقمر ، وحففتها بسبعة أفلاك حنفاء ، لا تزول حتى يزول أخشبانها[١] ، مبارك لأهلها في الماء واللبن » .

الرسول وإعادة بناء الكعبة :

ثم بدأ بناء الكعبة من جديد ، فرأوا تعليتها ، وكان بابها لاصقاً بالأرض منذ عهد إبراهيم . فقال أبو حذيفة بن المغيرة : يا قوم ، ارفعوا باب الكعبة حتى لا يدخلها أحد إلا بسلم ، فإنه لا يدخلها حينئذ إلا من أردتم ؛ فإن جاء أحد ممن تكرهونه رميتم به فسقط وصار نكالا لمن يراه[٢] .

جمعت بطون قريش أحجاراً من الجرانيت الأزرق من الجبال المحيطة بمكة ، وبدأت البناء ، حتى بلغ البناء موضع الركن ، أي الحجر الأسود ، وأصبح ارتفاع البناء حينئذ إلى قامة الرجل ، وأرادوا وضع الحجر الأسود في مكانه في الجانب الشرقي ، فاختلفت بطون قريش على من يحوز شرف إعادة الحجر الأسود إلى مكانه ، واشتدت حدة الخلاف وكاد القتال ينشب بين بطون قريش ، وتحالف بنو عبد الدار وبنو عدى بن كعب على الموت ، وأعدوا جفنة مملوءة دما ، وأدخلوا أيديهم في هذا الدم ، ولذا سموا « لعقة الدم » . واستمر النزاع أربع ليال أو خمساً ، ثم رأوا الاجتماع للتشاور وحسم النزاع .

وقف أبو أمية بن المغيرة ، وكان أسن قريش ، فقال : يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا

---

(١) الأخشبان : جبلان في مكة .

(٢) العمري : مسالك الأبصار جـ ١ ص ٩٤

المسجد يقضى بينكم فيه ، ففعلوا .

وكان أول داخل هو محمد ، صلى الله عليه وسلم ، وكان قد اشترك معهم من قبل فى نقل الأحجار « وكانوا يعرفونه بالأمين لوقاره وهديه ، وصدق لهجته ، واجتنابه القاذورات والأدناس ، فحكموه فيما تنازعوا فيه ، وانقادوا إلى قضائه»[١] .

قال محمد : هلم إلىّ ثوباً . حتى إذا أتى له بثوب ، أخذ الحجر الأسود فوضعه فيه بيده ، ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوا جميعاً . فحملوه جميعاً إلى ما يحاذى موضع الحجر من البناء ، ثم قام محمد بوضعه بيده فى موضعه .

أكملت قريش البناء حتى أصبح ارتفاع الكعبة ثمانى عشرة ذراعاً ، ورفعوا بابها عن الأرض حتى لا يدخلها إلا من سمحوا له بذلك . وجعلوا فى داخلها ست دعائم فى صفين ، وجعلوا فى ركنها الشامى من داخلها درجاً يصعد بها إلى سطحها . ووضع هبل فى داخل الكعبة ، كما وضعت فى داخلها الذخائر التى تعرّضت من قبل بنائها وسقفها للسرقة .

وهكذا نجح محمد ، عليه الصلاة والسلام ، فى حسم الخلاف والنزاع ، وجنب القرشيين القتال . فقال قائل من قريش : واعجبا لقوم أهل شرف ورياسة وشيوخ وكهول عمدوا إلى أصغرهم سناً ، وأقلهم مالا ، فجعلوه عليهم رئيساً وحاكماً ، أما واللات والعزى ليفوقنهم سبقاً ، وليقسمن بينهم حظوظاً وجدوداً ، وليكونن له بعد هذا اليوم شأن ونبأ عظيم[٢] .
واستمع أبو طالب ، عم الرسول ، إلى هذه العبارات فأنشد :

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٧٩ .
(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٧٩ .

إن لنا أوله وآخره في الحكم العدل الذى لاننكره
وقد جهدنا جهدنا ليغمره وقد عهدنا أوله وآخره
فإن يكن حقاً ففينا أكثره

وأعادت قريش الصور والأصنام كما كانت ، فقال المسعودى[١] : « كان فى حيطانها صور كثيرة بأنواع من الأصباغ عجيبة : منها صورة إبراهيم الخليل فى يده الأزلام ، ويقابلها صورة إسماعيل ابنه على فرس يجيز الناس مفيضاً ، والفاروق قائم على وفد الناس ، يقسم فيهم ، وبعد هذه الصور صور كثير من أولادهم إلى قصى بن كلاب وغيرهم ، فى نحو من ستين صورة مع كل واحد من تلك الصور إله وصاحبها كيفية عبادته وما اشتهر من فعله » .

اختلف فى سن محمد حين بناء الكعبة وحين حكمه بين قريش فى أمر الحجر الأسود ، فقيل كان ابن خمس وعشرين ، وقال ابن إسحاق كان ابن خمس وثلاثين . وسواء أصحت الأولى أم الأخرى من هاتين الروايتين فإن إسراع قريش إلى الرضا بحكمه أوّل ما دخل من باب الصفا ، وتصرّفه هو فى أخذ الحجر ووضعه على الثوب ، وأخذه من الثوب لوضعه مكانه من جدار الكعبة ، يدلّ على ما كان له من مكانة سامية من نفوس أهل مكة ومن تقدير جمّ لما عرف عنه من سموّ النفس ونزاهة القصد[٢] .

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٨ .
(٢) هيكل : حياة محمد ص ١٢٤ .

الكعبة عند ظهور الإسلام :

قبل ظهور الإسلام ، نبذ البعض — كما فعل محمد صلى الله عليه وسلم — عبادة الأوثان ، ونظروا إلى الكعبة على اعتبارها بيت الله الحرام ولذا يجب تخليصها من الأوثان ومظاهر الشرك بالله عز وجل . كما نظروا إلى الحياة نظرة أكثر سموّاً ، ولكن لم يكن لهم من القوى المادية مايمكنهم من أن يصارعوا التعاليم والعادات القديمة التى امتدت جذورها إلى أعماق حياة العرب ولا يمكن القضاء عليها إلا بهدم المجتمع العربى من أساسه .

شعر بعض العرب بحاجتهم إلى الإصلاح ، وإلى إنقاذ الكعبة من أدران الوثنية ، ولكنهم ترددوا فى انتزاع أول حجر من أسس ذلك الدين ، ولذا كانت جهودهم محدودة ، فلم تنجح فى التخلص من الماضى ، والقضاء على التقاليد البالية التى كانت تنتقص من شأن العرب وأهميتهم فى العصور القديمة .

ولم يكن هناك غير محمد ، صلى الله عليه وسلم ، الذى كانت تحيط به العناية الإلهية ويشعر بالغيرة الدينية وكانت روحه العالية لا تقبل تعدد الآلهة فى بلاد العرب ، وانتشار الأوثان حول الكعبة وداخلها ، وانصراف العرب إلى حياة الترف والشهوات ، وأصبح يفكر دائماً فى تحطيم هذا النظام القائم ، ونجح محمد فى أن يخلق مجتمعاً نقياً عظيماً قوياً سليماً[١] .

ومن هذه الوثنية الحاطة للقدر ، سما النبى الكريم ببلاد العرب كلها ، فى فترة وجيزة من الزمن ، قدرها عشرون عاماً ، ولم تقتلع جذور الوثنية

---

(١) خودابخش : الحضارة الإسلامية ص ٦ .

من أرض العرب وحدهم ، بل إن بارقة الحماس لعبادة إله واحد ، قد اشتعلت فى أفئدة هؤلاء العرب أنفسهم ، فحملتهم إلى أقصى حدود ما عرف من العالم وقتئذ ، لرفع اسم الأحد الصمد .

ولم تفت سعة المسافة فى عضد الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، الذى قام بدعوته ، فانتشلت بلاداً شاسعة لا تقل مساحتها عن مليون وربع مليون من الأميال المربعة من لعنة الوثنية ، انغمس فيها الناس انغماساً ميئوساً من مقاومته ، لقدم العهد بتقاليد متوارثة ، ومحمد بهذا يستحق لقب محطم الأصنام ، ومزيل الوثنية (١) .

وصف ابن حزم (٢) أثر الإسلام فى تقدم العرب وتخليصهم من مفاسد الجاهلية فقال : « وكانت العرب بلا خلاف قوماً لقاحاً لا يملكهم أحد كربيعة ومضر وإياد وقضاعة ، أو ملوكاً فى بلادهم يتوارثون الملك كابراً عن كابر . . . . فانقادوا كلهم لظهور الحق وآمنوا برسول الله ، وهم آلاف ، وصاروا إخوة كبنى أب أو أم ، وانحل كل من أمكنه الانحلال عن ملكه منهم إلى رسوله طوعاً بلا خوف غزو ولا إعطاء مال ولا بطمع فى عز . . . بل كلهم أقوى جيشاً من جيشه ، وأكثر مالا وسلاحاً منه ، وأوسع بلداً من بلده » .

ووصف « فون كريمر » أثر الإسلام فى توحيد العرب فقال : جمعت فكرة الدين المشترك تحت زعامة واحدة شتى القبائل فى نظام سياسى واحد. ذلك النظام الذى سرت مزاياه فى سرعة تبعث على الدهش والإعجاب و إن فكرة واحدة قد حققت هذه النتيجة ، تلك هى مبدأ الحياة القومية فى جزيرة العرب الوثنية .

---

(١) مولاى محمد على : محمد رسول الله ص ١٥ .

(٢) ابن حزم : الفصل فى الملل .

الرسول والكعبة :

ظل الرسول ثلاث سنوات يدعو إلى الإسلام سراً كل من يثق فيه أو يرى منه قبولا للدين الجديد ، وكان يصلى هو والمسلمون خفية فى شعاب مكة[١] ، إلى أن أمره الله بإظهار دينه ، فقد نزلت عليه هذه الآيات الكريمة : (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزئين)[٢] . وجهر الرسول بالإسلام ، وأعلن الدعوة إلى وحدانية الله ، ونبذ الوثنية . ولجأ فى ذلك إلى طريقة عربية متبعة وقتئذ ، وهى طريقة النداء ، فسار إلى جبل الصفا بظاهر مكة ، ونادى كل بطن من بطون قريش حتى إذا اجتمعوا إليه قال لهم : إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين ، وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا لا إله إلا الله . فقال له أبو لهب : تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله تعالى فى أبى لهب وزوجته : (تبت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى ناراً ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد) .

بدأت عداوة قريش بعد ذلك تظهر ظهوراً واضحاً ، فقد كان جهر الرسول بالدعوة إلى وحدانية الله ، وغضبه من شأن الأوثان ، كل ذلك جعل قريشاً تؤمن بأن انتصار الدين الجديد معناه تحطيم دين العرب الموروث و « العبادة القومية »[٣] ، وضياع ما كان يتمتع به سدنة الكعبة المقدسة من ثروة ونفوذ .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٧٥ .

(٢) سورة الحجر ، آية ٩٤ — ٩٥ .

(٣) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٣٧ .

كانت قريش إذا اتبعت الدين الإسلامى سقطت قيمة أصنامها وضاعت قدسيتها ، وبذلك تفقد قريش ما كانت تستفيده من قدوم القبائل العربية للحج إلى مكة وتقديم القرابين إلى الأوثان التى نصبتها قريش حول الكعبة . كما كان عزوف قريش عن عبادة الأصنام يفقدها احترامها بين العرب ويجعل تجارتها عرضة للخطر كسائر تجارات القبائل الأخرى بعد أن كانت فى أمان لا يعتدى عليها أحد لئلا يعرض نفسه لنقمة الآلهة وغضبها .

وكان الإسلام يساوى بين الجميع ، حينما كانت قريش تدين بنظام الطبقات ، فكان سراتهم يأنفون من مخالطة السوقة أو مجالستهم ، وكان الإسلام يحرّم الموبقات ورذائل الجاهلية ، وهذه أحب الأشياء إلى زعماء قريش .

اشتد عذاب قريش للمسلمين ، فسمح الرسول لهم بالهجرة إلى الحبشة ، واستمر الرسول يدعو الناس إلى الإسلام ، حتى إذا أسلم حمزة بن عبد المطلب ، وكان شخصية لها شأن كبير كف القرشيون عن المسلمين بعض أذاهم ، حتى إذا أسلم عمر بن الخطاب دخل الإسلام فى دور جديد ، فكان المسلمون قبل إسلامه لا يستطيعون الصلاة عند الكعبة ، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عندها وصلى معه المسلمون ، وجهر المسلمون بتلاوة القرآن الكريم ، كما اعتنق الإسلام كثير من الناس اقتداء بحمزة وعمر (١) .

كانت هجرة المسلمين إلى الحبشة فراراً من أذى قريش ، وإسلام حمزة وعمر ، ضربتين أصابتا قريشاً فى الصميم ، فرأى القرشيون أن يتخذوا أمراً حاسماً ، فاتفقوا على مقاطعة بنى هاشم وبنى عبد المطلب ،

---

(١) المقريزى : إمتاع الأسماع جـ ١ ص ٢٥ .

وعاهدوا أنفسهم على ألا يتعاملوا معهم فى بيع أو شراء أو زواج ، ولا يجالسوهم ولا يكلموهم ، حتى يسلموا إليهم محمداً صلى الله عليه وسلم ليقتلوه ، وكتبوا بذلك صحيفة علقوها فى جوف الكعبة[١] .

ظل بنو هاشم وبنو عبد المطلب مهجورين فى شعب من شعاب مكة ثلاث سنين لا يصلهم القوت الضرورى إلا خفية ، وكانوا لا يخرجون إلا فى الأشهر الحرم حيث حرّم القتال فى جميع أرجاء بلاد العرب ، وعقد حلف بين الفريقين حتى يتمكن الحجاج من زيارة الكعبة بمكة التى كانت تعتبر مركز ديانة العرب حينئذ .

ولكن بعض القرشيين رثوا لحال إخوانهم فى العروبة بنى هاشم وبنى عبد المطلب . وعبر زهير بن أمية عن رأيهم فقال : يا أهل مكة ، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكى لا يبيعون ولا يبتاعون ؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة[٢] .

وتروى المصادر العربية أن الرسول صلى الله عليه وسلم رأى فى حلمه أن الله قد سلط الأرضة على الصحيفة ، فمحت كل ما فيها من ظلم أو قطيعة رحم ، وبقى بها اسم الله . وأخبر الرسول عمه برؤياه ، فقدم أبو طالب على المشركين وقال : « هلموا إلى صحيفتكم ، فإن كانت كما قال ابن أخى فانتهوا من قطيعتنا وانزلوا عما فيها . وإن كانت كذباً دفعت إليكم ابن أخى » فوافقوه ، وإذا بالصحيفة قد تآكلت وانمحت عباراتها عدا عبارة « باسمك اللهم » ، وحاول أبو جهل أن ينقض الاتفاق ، ولكن هبّ فى وجهه بعض رجالات قريش الذين أحزنتهم القطيعة فأرغموا على نقض الصحيفة . وعاد المسلمون إلى الصلاة عند الكعبة .

عاود الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، نشر الإسلام بين أهل مكة ،

---

(١) ابن هشام جـ ١ ص ٣٧٥ .

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ ١ ص ١٩٤ .

وكان كل اعتماده فى نشر الدعوة فى موسم الحج ، فكان يلتقى بالقبائل عند الكعبة ، ويدعوها إلى الإسلام ، ولكن عمه أبا لهب كان يصدّهم عن سماعه فيقول : « إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزّى من أعناقكم إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه » ، ولكن كثيراً من القبائل رأت فى الإسلام خير دين يخلصهم من الوثنية ورذائل الجاهلية .

وبعد فترة وجيزة ، أسرى بالرسول من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، حيث عرج به إلى السموات السبع ، وفى تلك الليلة فرض الله على المسلمين الصلوات الخمس (١) .

خروج الرسول والمسلمين للعمرة :

هاجر الرسول والمسلمون إلى يثرب (المدينة المنورة) ، واستمر الصراع بين المسلمين وقريش ، واتخذ هذا الصراع شكل حروب متصلة تسمى « الغزوات» أشهرها غزوة بدر ، وغزوة أحد ، وغزوة الخندق .

وفى ذى العقدة سنة ٦ هـ رأى الرسول أن يدخل مكة معتمراً ، لا غازياً ، ليعلن للعرب أن دينه الإسلامى يحترم الكعبة كما يحترمونها ، فيقرب بينه وبينهم ، ويزيل شيئاً من جفوتهم له . وخرج الرسول لأداء العمرة ومعه ألف وأربعمائة من المهاجرين والأنصار ليس معهم سلاح إلاّ السيوف فى أغمادها ، وكان معهم هدى كثير ، يسوقونه إلى فقراء أهل مكة .

علم أهل مكة بخروج الرسول والمسلمين ، فأصابهم الذعر ، وأجمعت قريش وحلفاؤها على صدّه عن المسجد الحرام ، وبعثت خالد بن الوليد على رأس مائتى فارس لمنعه من دخول مكة . فقال الرسول : ويح قريش ،

---

(١) ابن هشام جـ ٢ ص ٥ — ١٠ .

لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لوخلوا بيني وبين سائر العرب[١] ؟ ثم أمر الرسول أصحابه أن يبتعدوا عن طريق خالد، ثم نزل فى الحديبية.

أرسلت قريش بعض رسلها يطلبون من الرسول العدول عن دخول مكة ، وعاد أحدهم إلى قريش ، وهو عروة بن مسعود الثقفى يقول : إنى قد جئت كسرى فى ملكه ، وقيصر فى ملكه ، والنجاشى فى ملكه ، وإنى والله ما رأيت ملكاً فى قومه مثل محمد فى أصحابه . ورأى الرسول أن يفاوض قريشاً فى السماح للمسلمين بالعمرة ، لكنهم أبوا ذلك عليهم . وبعثت قريش بعض رجالها يهاجمون المسلمين على غرّة لكن المسلمين هزموهم .

لم تجد قريش مفراً من التفاوض مع الرسول فى الصلح ، فاتفقوا على : (١) أن تضع الحرب أوزارها بين الفريقين لمدة عشر سنين . (٢) أن يرد الرسول من يأتيه من قريش مسلماً بدون إذن وليه ، ولاتلزم قريش برد من يأتى إليها من عند محمد . (٣) من أراد الدخول فى عهد قريش فله ذلك ، ومن أراد الدخول فى عهد محمد من غير قريش جاز له ذلك . (٤) أن يرجع الرسول هذا العام دون أن يؤدى العمرة ، فإذا كان العام القادم دخل مكة بعد أن تخرج منها قريش ليس معه إلاّ سلاح المسافر[٢] .

كسب الرسول بهذا الصلح كسباً سياسياً عظيما ، إذ انتزع قريشاً من القبائل العربية التى كانت تقودها لقتاله ، وقد أراد الرسول منها أن تخلى بينه وبين غيرها من العرب ، فكنته بهذه الموادعة مما أراد ، وفتحت أمامه الأبواب لنشر رسالته على نطاق واسع ، واعترفت بحق المسلمين فى

---

(١) الطبرى ج ٢ ص ٢٧٨ .

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ٣٦٦ .

القدوم إلى الكعبة وأداء العمرة .

كما أخذت قريش ، بعد صلح الحديبية ، تغير نظرها إلى الرسول ، فأصبحت ترى أنه قرشي على الرغم من العداوة بينها وبينه ، يجمعه وإياها نسب واحد ، وصارت تعجب بعلو شأنه الديني والسياسي ، مما حمل بعض رجالاتها مثل عمرو بن العاص وخالد بن الوليد على الهجرة إلى المدينة واعتناق الإسلام .

وكان هذا الصلح بمثابة اعتراف من قريش بقوة الجماعة الإسلامية ، وإيذاناً بنهاية عهد الوثنية ، وتحرير الكعبة من أوثانها ، وهو ما حدث فعلا حينما تقدم الرسول من المدينة إلى مكة على رأس عشرة آلاف من المسلمين ، ودخل مكة دخول الفاتح ، وحطم أصنام الكعبة .

استفاد الرسول من صلح الحديبية ، فقد بدأ نشاطاً عظيما فى ميدانى السياسة والحرب ، فجاوز بدعوته حدود بلاد العرب ، فدعا ملوك الروم والفرس والحبشة وأمراء العرب إلى الإسلام ، كما أخذ يضم إليه قبائل العرب قبيلة بعد قبيلة ، ثم وجه ضربة قاضية إلى ألد أعدائه فى جزيرة العرب وهم يهود خيبر .

غضبت القبائل العربية على قريش لأنها انفردت بالصلح مع المسلمين ، فتخلت عن نصرتها ، وعمل الرسول على ضم هذه القبائل إلى الجماعة الإسلامية واحدة بعد أخرى . أما قريش فقد ظلت على عزلتها وجمودها فى الدين والسياسة ، وما لبثت أن أدركت عجز سياستها بعد هذا الصلح ، فرأت أن تترك أمرها ومصيرها فى يد القضاء والقدر .

حان الوقت الذى حددته معاهدة الحديبية لقيام الرسول والمسلمين بأداء العمرة فى مكة وقضاء ثلاثة أيام عند الكعبة . رحل الرسول مع عدد كبير من المسلمين يبلغ نحو ألفين ، وصحبوا معهم ستين من الإبل ليضحوا بها عند الكعبة . وكم تمنى أعداؤه من المشركين أن يمنعوا تقدمه نحو مكة

لولا ما بينهم من تعاهد ، فتركوه يتقدم نحو التلال المجاورة . وعندما أصبح الرسول قريباً من مكة ترك المسلمون أسلحتهم ، وقام بحراستها مائتان من الجند المسلمين ، وقال الرسول : لا ندخل عليهم الحرم بالسلاح ، ولكن نكون قريباً منه ، فإذا رأينا من المشركين الغدر كان السلاح قريباً منا .

جلت قريش عن مكة ، وصعدت إلى التلال المجاورة ، وتقدم الرسول عليه الصلاة والسلام ممتطياً ظهر ناقته القصواء ، يحيط به كبار الصحابة ، ومن خلفهم تقدم المسلمون ، وهم جميعاً ينادون : لبيك لبيك. حتى إذا بلغ الرسول المسجد اضطجع بردائه وأخرج عضده اليمنى ، ثم قال : اللهم ارحم امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة . ثم استلم الركن عند الحجر الأسود وهرول ، وهرول أصحابه معه ، فلما استلم الركن اليمانى مشى حتى استلم الحجر الأسود مهرولا من جديد ثلاثة أطواف ومشى سائرها ، ومن خلفه المسلمون يحتذون حذوه . ولما أتم المسلمون الطواف بالكعبة ، انتقل محمد على رأسهم إلى الصفا والمروة فسعى بينهما سبعاً ، كما كان يفعل العرب من قبل ، ثم نحر الهدى عند المروة وحلق رأسه، وأتم بذلك فرائض العمرة .

وفى اليوم التالى ، دخل الرسول إلى الكعبة ، وبقى بها حتى صلاة الظهر . ولقد كانت الأوثان لا تزال تحيط بالكعبة . واعتلى بلال ، مؤذن الرسول ، سقف الكعبة وأذن فى المسلمين لصلاة الظهر عندها ، وأم الرسول الألفين من المسلمين . وأقاموا جميعاً فى مكة ثلاثة أيام ، كما نصت معاهدة الحديبية ، زاروا فيها أهلهم وأصدقاءهم ، واطمأنوا على مصالحهم .

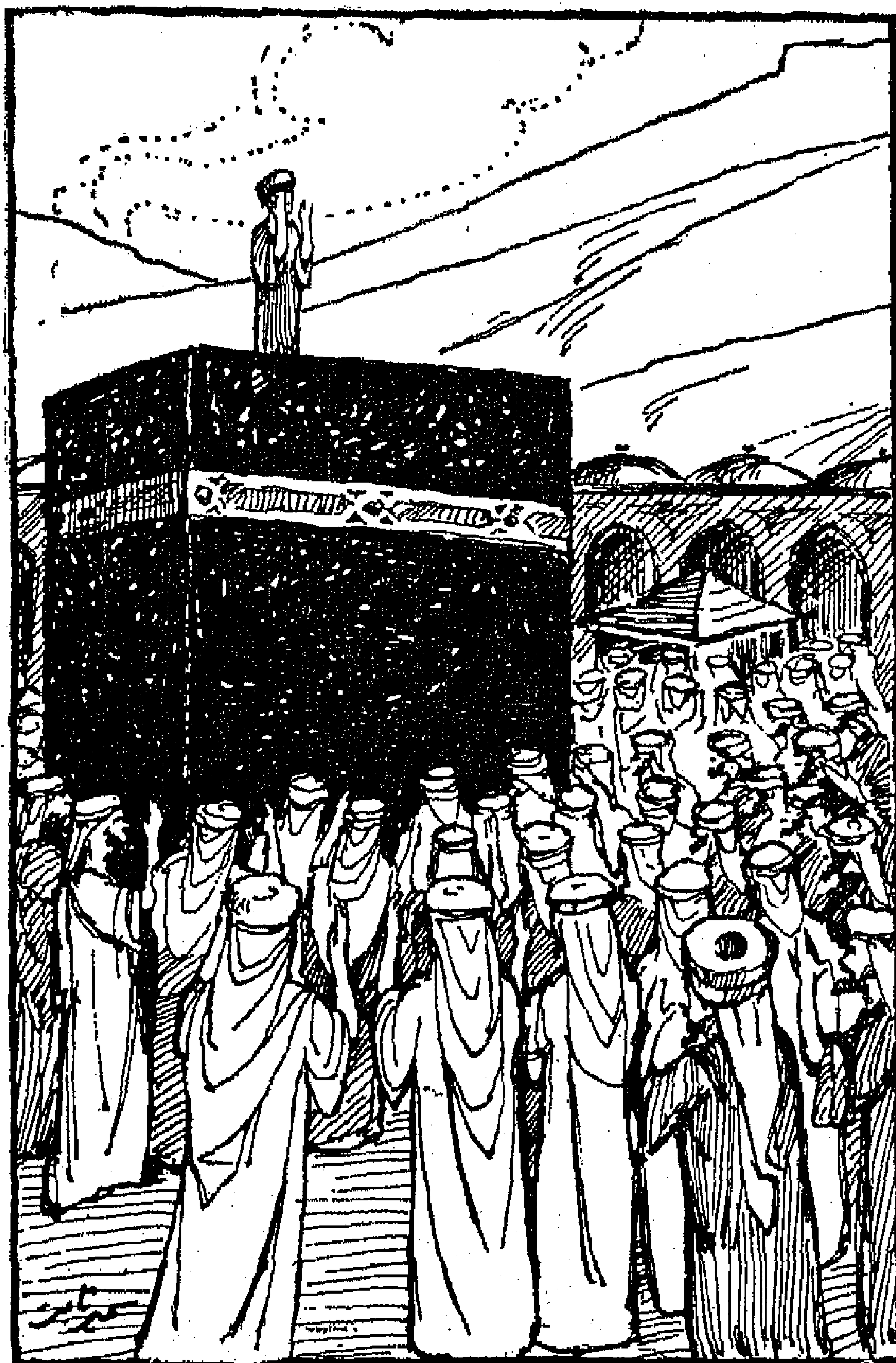
الكعبة بعد فتح مكة :

انتشر الإسلام فى معظم أرجاء الجزيرة العربية . وجالت خواطر كثيرة فى نفس محمد صلى الله عليه وسلم ، جعلته يفكر فى القيام بمشروع كبير . فقد تذكر وطنه الأصلى ، وتذكر أسرته وأقاربه ، والسنوات السعيدة التى قضاها فى مكة التى ما زالت فى أيدى أعدائه المشركين ، وتذكر أن الكعبة التى يحج إليها أولاد إسماعيل لا تزال تحت سيطرة الوثنيين ، وعزم على أن يخلص بيت الله الحرام من أيدى المشركين ، فيجعله مكاناً لعبادة الله وحده ، ومقصداً للمسلمين .

نقض القرشيون معاهدة الحديبية ، فقد باغتوا خيام بنى خزاعة المسلمين وقتلوا عشرين مسلماً فبدأ المسلمون يستعدون للقتال فقد شعر القرشيون بالخوف من ازدياد قوى المسلمين المستمر ، ورأوا أن يتجنبوا الدخول معهم فى حروب ومعارك ، فبعثوا بقائدهم أبى سفيان إلى المدينة كسفير للسلام ، فقد كانوا يعرفون صلته بالرسول ، فقد كان الرسول متزوجاً من ابنته أم حبيبة .

وكانت مهمة أبى سفيان صعبة ، فقد كان عليه أن يذهب ليلتمس السلام ممن كان يقف بالأمس منه موقف العداء . والتمس أبو سفيان وساطة أبى بكر ثم على بن أبى طالب ، وابنته أم حبيبة ، دون جدوى وعاد أبو سفيان إلى مكة خائباً ، واستقبله القرشيون بالسخرية والاستهزاء .

أعد الرسول حملة عسكرية لفتح مكة ، وتحرير الكعبة من الأوثان ثم خرج الرسول على رأس عشرة آلاف مسلم ، وقاد عمر بن الخطاب الجيش عبر دروب بين الجبال غير مطروقة ، ونهى المسلمون عن إصدار صوت أو دق طبول حتى لا يعرف المشركون شيئاً عن تحركاتهم . وخلال الرحلة ، قدم على الرسول عمه العباس ومعه أسرته ، معلناً إسلامه . وقابله



الرسول بترحاب وحفاوة ، وكان العباس يتولى السقاية بمكة . وأرسل العباس أسرته إلى المدينة ، وصحب هو الجيش الإسلامى . ووصل الجيش إلى مرّ الظهران دون أن يكتشف المشركون أمره . وكان وصوله عند ما خيم الظلام ، فأقاموا خيامهم ، وسمح عمر لهم لأول مرّة أن يشعلوا النيران للإضاءة .

اعتنق أبو سفيان ، زعيم المشركين ، الإسلام ، وأراد أن يؤمن أهل مكة على مصيرهم ، وكان الرسول رحيما كريماً فقال : « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن » . قال الرسول للعباس فى أمر أبى سفيان : احبسه بمضيق الوادى حتى يرى جنود الله تمرّ . وقف أبو سفيان مع العباس فى واد ضيق ، يشاهد كتائب المسلمين وأسلحتهم المختلفة ، وكان العباس يذكر له أسماء القبائل ، فكان أبو سفيان يبدى تعجبه من كثرة عددها ، ودقة نظامها ، وحماسة جندها ، فقد كان المسلمون قد تقدموا كثيراً فى الفنون الحربية .

ثم مر الرسول فى كتيبته الخضراء ، وفيها المهاجرون والأنصار ، فقال أبو سفيان : سبحان الله ، يا عباس من هؤلاء ؟ فقال العباس : هذا رسول الله فى الأنصار . قال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل ، لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً . فقال العباس : يا أبا سفيان إنها النبوة . ثم نصحه العباس قائلا : النجاة إلى قومك .

أسرع أبو سفيان إلى مكة ليخبر أهلها بما شاهده من قوة الرسول والمسلمين ، وما عرضه الرسول عليهم من أمان ويبين لهم عبث المقاومة ، فصاح فيهم : يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن . ولما كان أبو سفيان ألد أعداء الرسول ، فقد كان لكلماته أثرها فى نفوس أهل مكة ، فلم يفكروا فى

المقاومة ، وباتوا ينتظرون قدوم محمد إلى مكة .

تقدم الرسول إلى أبواب مكة ، ممتطياً ظهر ناقته ، وعن يمينه سار أبو بكر ، وسار خلفه أسامة بن زيد . دخل محمد أبواب مكة عند شروق الشمس ، لا كدخول المنتصر الفائز ، بل دخول حاج ورع فى ملابس الإحرام ، وهو يرتل الآيات القرآنية الكريمة : (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ، ويهديك صراطاً مستقيما ، وينصرك الله نصراً عزيزاً) .

اتجه الرسول نحو الكعبة ، حيث تذكر أحداث الماضى ، وكيف كانت الكعبة مكاناً مقدساً عند الأجداد ، وبيت الله الحرام ، وطاف الرسول حول هذا المكان المقدس سبع مرات ، وفى كل مرّة يلمس الحجر الأسود . وأراد الرسول أن يدخل الكعبة ، ولكن عثمان بن طلحة كان قد أغلق أبوابها . وأراد علىّ بن أبى طالب أن ينتزع المفاتيح من عثمان ، ولكن الرسول أمره بإعادتها إلى عثمان ، وكان يتولى حجابة الكعبة ، وتأثر عثمان من عطف الرسول ، فأعلن اعتناقه الإسلام واستمر يتولى الحجابة .

تفرغ الرسول لتطهير الكعبة مما حولها من أوثان ، وكان عددها يبلغ ثلثمائة وستين صنما ، فقام المسلمون بتحطيمها . وكان هبل أكبر هذه الأوثان ، وكان المشركون قد جلبوه من البلقاء فى سوريا يؤمنون أنه قادر على إنزال المطر ، الذى كان يهتم بنزوله سكان الصحراء القاحلة . كما كان هناك أوثان تمثل إبراهيم وإسماعيل ، وفى أيديهما الأزلام ، وقال الرسول عن تمثال إبراهيم : « قاتلهم الله حيث جعلوه شيخاً يستقسم بالأزلام » . وكانت هناك لوحات تصوّر الملائكة على صور نساء جميلات ، فحطم الرسول هذه اللوحات . وعثر الرسول على صورة لحمامة منحوتة على الخشب ، فحطمها بيديه وألقى بها على الأرض ، باعتبارها من مظاهر الوثنية .

وحطم صحابة الرسول باقى التماثيل والأصنام ، وهو يقول : (وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً)[1] .

ومن الكعبة اتجه الرسول نحو بئر زمزم ، وكان العرب يقدسونها ، فقد فجّر المولى عز وجل هذه البئر لينقذ هاجر وابنها إسماعيل من الموت عطشاً ، وتوارث العرب تقديس هذه البئر . حتى إذا اقترب الرسول من البئر قدّم له العباس شربة ماء من البئر ، حتى إذا شربها أصبح ذلك سنة يتبعها المسلمون . وولى الرسول عمه أبا العباس منصب السقاية .

وعند الظهر ، أمر الرسول أحد المسلمين بأن يؤذن للصلاة من فوق الكعبة ، واتبع المسلمون هذه السنة ، واتجه الرسول بصلاته إلى الكعبة ، قبلة جميع المسلمين فى كل مكان وزمان .

تحدث الرسول إلى أهل مكة ، فأبدى رحمة وعطفاً ، وشرح لهم تعاليم العقيدة الإسلامية ، وأعلن انتصار المسلمين ، وتعالت صيحات المسلمين « الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلاّ الله ، محمد رسول الله » .

وبعد أن انتهى الرسول من الشعائر الدينية ، نزل من على جبل الصفا ، وقدم إليه أهل مكة ، رجالا ونساء ، يمرّون أمامه ، يعلنون اعتناقهم الإسلام ونبذهم الوثنية .

وكان الرسول رحيما عطوفاً ، فقد قدم إليه زعماء قريش ينتظرون حكمه عليهم ، فقال لهم الرسول : يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم ؟ فقالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم . فقال الرسول : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

ودلت تصرفات الرسول فى مكة على أنه نبى مرسل لا على أنه قائد مظفر . فقد أبدى رحمة وشفقة على مواطنيه برغم أنه أصبح فى مركز

---

(١) سورة الإسراء آية ٨١ .

قوى ، ولكن توّج نجاحه وانتصاره بالرحمة والعفو[١] .

ولم يكتف الرسول بتطهير الكعبة ومكة من الأصنام ، بل أرسل بعض القواد المسلمين على رأس فرق من الجند ليقضوا على الوثنية بين القبائل المختلفة فى المدن والقرى المجاورة وينشروا الإسلام .

كان فتح مكة واستيلاء المسلمين على الكعبة من أكبر العوامل التى ساعدت على نجاح الدعوة الإسلامية ، فقد اعتقدت القبائل العربية التى رفضت الدعوة بادئ ذى بدء ، أن المسلمين تلحظهم عناية إلهية لا قبل لغيرهم بها ، فسارعوا إلى الإسلام ، ودخلوا فيه أفواجاً ، وعرفت سنة تسع الهجرية بعام الوفود لأن عدداً كبيراً من القبائل العربية وسكان المدن ، أخذت تفد فى هذه السنة وفوداً على الرسول تعلن اعتناقها الإسلام فى حضرته ، ثم عادوا إلى بلادهم بالجوائز التى اعتاد الرسول أن يمنحها لوفود القبائل العربية[٢] .

حج أبى بكر بالمسلمين إلى الكعبة :

كانت الوفود لا تزال تقدم إلى المدينة ، تعلن إسلامها ، ويلقنها الرسول تعاليم الإسلام . واقترب موعد الحج ، ولم يستطع الرسول أن يخرج بالمسلمين إلى الحج ، فالوفود تقدم تباعاً ، ولا يزال فى شبه الجزيرة العربية من لم يؤمن بعد بالله ورسوله . وما يزال بها بعض الكفار واليهود . والكفار على ما كانوا عليه فى الجاهلية ما يزالون يحجون إلى الكعبة فى الأشهر الحرم ، والكفار نجس . فليبق الرسول إذاً بالمدينة حتى يتم الله كلمته

---

(١) أرفنج : حياة محمد (من ترجمتنا) ص ٢٢٩ .

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ ٢ ص ٩٤ — ٩٥ .

وحتى يأذن الله له بالحج إلى بيته ، وليخرج أبو بكر فى الناس حاجاً [1] .

كان المشركون لا يزالون يحجون إلى بيت الله الحرام ، وكان لا بدّ أن تتخلص الكعبة من قدوم هؤلاء المشركين كما تخلصت بالأمس من الأصنام ومظاهر الوثنية .

خرج أبو بكر أميراً للحج ، على رأس ثلثمائة حاج ، يصحبون عشرين من الإبل للتضحية بها عند الكعبة وبعد فترة قصيرة ، أمر رسول الله على بن أبى طالب أن يمتطى ظهر « الأضحى » إحدى الإبل السريعة ، وأن يسرع فى طريقه إلى مكة ، حتى يصل إليها قبل قدوم الحجاج من جميع أرجاء بلاد العرب ، ليبلغهم سورة من القرآن الكريم نزل بها الوحى.

وقام علىّ بن أبى طالب بالمهمة خير قيام ، فوصل إلى مكة قبل الوقوف على عرفة . وحينما اجتمع المسلمون فى منى ، وقف علىّ يعلن أن الرسول قد بعثه ليبلغهم سورة التوبة التى نزل بها الوحى ، وهى تبدأ بهذه الآيات الكريمة : (براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين. فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير مُعجزى الله وأن الله مخزى الكافرين . وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير مُعجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم . إلاّ الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يُظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يُحب المتقين . فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كلّ مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم . وإنْ أحدٌ من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه

---

(١) هيكل : حياة محمد ص ٤٥٤ .

ذلك بأنهم قوم لا يعلمون . كيف يكون للمشركين عهد عند الله ورسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين)[١] .

وجاء فى السورة نفسها : (يأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم)[٢] .

قال على بن أبى طالب : أيها الناس ، إنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فهو إلى مدته . وأجل على الناس أربعة أشهر بعد ذلك ليرجع كل قوم إلى بلادهم . ومن يومئذ لم يحج مشرك ، ولم يطف بالكعبة عريان .

حجة الوداع :

أبدى الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، رغبته فى الحج ، ولم يكن الرسول قد حج بعد الحج الأكبر وإن يكن قد اعتمر فأدى الحج الأصغر قبل ذلك مرتين . وأسرع المسلمون من جميع أرجاء بلاد العرب يلبون نداء الرسول . وامتلأت طرقات المدينة بالقبائل العربية التى قدمت من سائر المدن والقرى والجبال ، وامتلأت الوديان المجاورة بخيامهم ، وكان هذا مظهراً رائعاً لانتصار العقيدة الإسلامية .

خرج الرسول مع آلاف من المسلمين ، وصحبوا عدداً كبيراً من الإبل ، وقد زينوها بالأزهار ليذبحوها عند الكعبة . وكان الرسول فى طريقه من المدينة إلى مكة يتوقف عند كل مسجد ليؤدى الصلاة ، وهو يرفع

(١ ، ٢) سورة التوبة .

صوته بالدعاء والشكر لله .

قضى المسلمون الليلة الأولى بعد رحيلهم من المدينة فى قرية ذى الحليفة حيث أحرم الرسول والمسلمون وتركوا سلاحهم . وفى الصباح الباكر من اليوم التالى ، بعد أداء صلاة الفجر ، امتطى الرسول ظهر ناقته (القصواء) حتى إذا وصل إلى وادى بيضة توجه الرسول إلى ربه ونادى ملبيا ، والمسلمون من ورائه : « لبيك اللهم لبيك . لا شريك لك لبيك . الحمد والنعمة والشكر لك لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك » .

وهذا الدعاء ، كما تذكر الروايات ، هو الذى توجه إبراهيم به من أعلى جبل أبى قبيص ، قرب مكة ، مبشراً بالدين الصادق . وتذكر الروايات أيضاً أن صوت إبراهيم كان من القوة بحيث سمعه كل كائن حى فى العالم ، بل سمعه الجنين فى الرحم فقال : لبيك اللهم لبيك .

ولما بلغ المسلمون سرف ، وهى محلة فى الطريق بين المدينة ومكة ، قال محمد لأصحابه : من لم يكن منكم معه هدى فأحب أن يجعلها عمرة فليفعل ، ومن كان معه هدى فلا .

مضى الحجاج فى طريقهم ، وقد انتشروا فى مساحة كبيرة تبلغ عدة أميال فوق الجبال والوديان ، يتردد فيها نداؤهم وصلاتهم ، ولم يعد هناك أعداء يرهب المسلمون جانبهم ، فقد انتشر الإسلام فى كل مكان فى الجزيرة العربية . واتخذ الرسول نفس الطريق الذى اتبعه عند فتح مكة ، وما لبث أن دخلها من باب بنى شيبة .

أراد الرسول أن تكون مناسك الحج مثلا يحتذيه المسلمون فى السنوات التالية . وقد وصل الحجاج إلى مكة فى اليوم الرابع من ذى الحجة ، وتقدم الرسول والمسلمون إلى الكعبة . فاستلم الرسول الحجر الأسود فقبله ، وطاف بالبيت سبعاً ، هرول فى الثلاث الأولى منها على نحو ما فعل فى عمرة القضاء . وبعد أن صلى عند مقام إبراهيم عاد فقبل الحجر الأسود مرة

أخرى ، ثم خرج من المسجد إلى ربوة الصفا ، ثم سعى بين الصفا والمروة.

وبعد أيام قليلة من وصول الرسول إلى مكة ، لحق به علىّ بن أبى طالب بعد عودته من اليمن ، ويذكر الطبرى أن عليا لم يكن معه هدى يضحى به فأشركه فى هديه ونحر الرسول الهدى عنهما .

وفى الثامن من ذى الحجة ، يوم التروية ، ذهب محمد صلى الله عليه وسلم إلى منى ، فأقام بخيامه فيها ، وصلى فروض يومه ، وقضى الليل حتى مطلع فجر يوم الحج ، فصلى الفجر وركب ناقته القصواء حين أشرقت الشمس ، وتوجه بها نحو جبل عرفات ، يتبعه المسلمون . حتى إذا غربت الشمس ، اتجه الرسول إلى بطن الوادى من أرض عرفة ، وهناك نادى فى الناس : « أيها الناس ، اسمعوا قولى فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً » .

فقد شعر الرسول بقرب منيته ، وأن هذه الحجة هى حجة الوداع ، فرأى أن يثبت تعاليم الإسلام فى عقول وقلوب المسلمين . ولم يكتف الرسول بأن لقن المسلمين تعاليم الإسلام ، بل لقنهم قواعد السلوك والأخلاق ومعاملة الناس .

ختم الرسول خطبته بقوله : « فاعقلوا أيها الناس قولى فإنى قد بلغت وتركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً أمراً بيناً : كتاب الله وسنة رسوله . أيها الناس ، اسمعوا قولى واعقلوه . تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين إخوة فلا يحل لامرئ من أخيه إلاّ ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم ، اللهم هل بلغت ؟ » .

فأجاب المسلمون : « اللهم نعم » . فقال الرسول : « اللهم اشهد » .

حتى إذا انتهى الرسول من خطابه ، نزل عن ناقته القصواء ، وأقام حتى صلى الظهر والعصر ، ثم امتطاها حتى بلغ الصخرات ، حيث تلا على المسلمين الآية الكريمة : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم

نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) (١) . وأدرك أبو بكر وبعض المسلمين أن الرسول موشك على لقاء ربه ، مما أثار حزنهم .

غادر الرسول عرفات ، وقضى ليلة بالمزدلفة ، وصلى بها الرسول العشاء ثم الفجر فى اليوم التالى ، ثم امتطى ناقته وبلال يقودها ، وأسامة على عجزها رافعاً ثوباً يظلله به من الحر . واتجه الرسول نحو وادى منى ، ليرمى بحصيات سبع كلا من الأعمدة الثلاثة القائمة هناك والمعروفة بالجمرات إحياء لذكرى إبراهيم الذى رمى بحصيات الشيطان الذى حاول ثلاثاً أن يوقفه فى هذا المكان .

أعتق الرسول ثلاثة وستين عبداً ، ونحر بيده ثلاثة وستين بعيراً ، وأمر على بن أبى طالب أن يوزع لحومها وجلودها على فقراء الحجاج . وقام معمر بن عبد بحلق رأس الرسول ، وبدأ بالشق الأيمن وانتهى بالشق الأيسر ثم طاف الرسول بالكعبة مرة أخرى ، وقدم له عمه العباس بن عبد المطلب ، الذى كان يتولى السقاية ، شربة ماء من بئر زمزم . ثم بدأ الرسول والمسلمون رحلتهم إلى المدينة المنورة ، مغادراً مكة موطنه الأصلى على رأس قافلة الحجاج .

حتى إذا اقترب الرسول صلى الله عليه وسلم من المدينة المنورة صاح : « الله أكبر ، لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، مالك الملك له الحمد والشكر ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » . وهكذا انتهت حجة الوداع ، وهى آخر مرة يحج فيها الرسول .

(١) سورة المائدة .

٨ ــ ابن الزبير يعيد بناء الكعبة

تهدم الكعبة :

أعلن الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير معارضتهما لتولي يزيد الخلافة الأموية بعد وفاة أبيه معاوية بن أبي سفيان إذ تحولت الخلافة من نظام الشورى والانتخاب إلى النظام الملكي الوراثي . وأمر الخليفة يزيد بن معاوية واليه بالمدينة أن يأخذ البيعة له بالخلافة من الحسين وابن الزبير باعتبار أنهما في مقدمة زعماء المسلمين حينئذ ، ورفض الزعيمان البيعة وخرجا إلى مكة . ووجد ابن الزبير في مكة الأمن والطمأنينة التي افتقدها في المدينة ، واستطاع أن يكتسب عطف المسلمين وتأييدهم حينما قال لهم : « إني عائذ بالبيت » .

لاذ ابن الزبير بالكعبة ، وسمى نفسه العائذ بالبيت ، وقام يصلي بجوار الكعبة ليلا ونهاراً ، فيطيل السجود ، ويكثر من التسبيح وذكر الله ، فأحبه المسلمون وأعجبوا بصلاحه وتقواه . وكان وجود ابن الزبير إلى جوار الكعبة يتيح له فرصة اجتماعه بالمسلمين الذين يقدمون إلى الكعبة للطواف والتبرك بها وأداء العمرة ، حيث يبث دعوته السياسية فيهم ، ويثير فيهم روح السخط على يزيد والخلافة الأموية .

استفحلت حركة عبد الله بن الزبير ، ورأى الخليفة الأموي أن يقف منها موقفاً حاسما . فبعث جيشاً بقيادة الحصين بن نمير لغزو الكعبة والقضاء على ابن الزبير . وتحصن ابن الزبير وأنصاره بالكعبة ، بعد أن

أحكموا مراصد مكة . وأبدى المسلمون جميعاً سخطهم لإقدام الجيش الأموى على غزو الكعبة ومكة .

حاصر الجيش الأموى ابن الزبير فى الكعبة ، وقذفها الحصين بالمنجنيق ، فتهدمت أجزاء كثيرة منها ، ثم امتدت إليها ألسنة من اللهب فحرقت أجزاء أخرى منها .

أذاع الأمويون أن ابن الزبير هو المسئول عما أصاب الكعبة ، على حين ألقى ابن الزبير وأنصاره التبعة على عاتق الأمويين . واختلف المؤرخون فيمن يقع عليه الاتهام .

أما المؤرخون الذين ألقوا بالمسئولية على عاتق جند الشام ، ففى مقدمتهم المسعودى[1] الذى ذكر أن جند الشام هم سبب تهدم وحرق الكعبة ، فوصف ما حدث فقال : « فتواردت أحجار المنجنيق والعرّادات على البيت ، ورمى الأحجار بالنار والنفط ومشاقات الكتان وغير ذلك من المحرقات ، وانهدمت الكعبة ، واحترقت البنية » . ويوجه كل من اليعقوبى[2] وابن عساكر[3] وابن طباطبا[4] الاتهام أيضاً إلى جند الشام .

أما المؤرخون الذين وجهوا الاتهام إلى جند ابن الزبير ، فمنهم الطبرى[5] فروى أن أصحاب ابن الزبير كانوا يوقدون حول الكعبة ناراً تطاير منها الشرر ، فاحترقت ثياب الكعبة وخشب البيت . ويتهم المؤرخ البلاذرى[6]

---

(١) مروج الذهب جـ ٣ ص ١٩ .
(٢) تاريخ اليعقوبى جـ ٢ ص ١٢٤ .
(٣) تاريخ ابن عساكر جـ ٤ ص ٣٧٣ .
(٤) الفخرى ص ١٠٢ .
(٥) الطبرى جـ ٤ ص ٣٨٣ .
(٦) أنساب الأشراف جـ ٤ ص ٥٣ .

أتباع ابن الزبير بأنهم تسببوا فى حرق الكعبة . ولكن الطبرى والبلاذرى قصرا اتهامهما لجند ابن الزبير على اتهامهم بالتسبب فى حرق الكعبة ، أما تهدمها فكان نتيجة قذف جند الشام لها بأحجار المنجنيق .

ووقف بعض المؤرخين موقفاً محايداً . ومنهم ابن الأثير [١] الذى ذكر روايتين عن احتراق الكعبة . فيقول فى إحداهما إن بعض الناس ذهبوا إلى أن سبب حرق الكعبة يرجع إلى ما كان من قذف جند الشام لها بالمجانيق ، على حين زعم آخرون أن « الكعبة قد احترقت من نار كان يوقدها أصحاب عبد الله حول الكعبة ، وأقبلت شرارة هبت بها الريح فاحترقت ثياب الكعبة واحترقت ثياب البيت » . ولكن ابن الأثير يميل إلى تأييد الرواية الأولى .

وروى ابن كثير [٢] ثلاث روايات دون أن يرجح إحداها فقال : « فلما كان يوم السبت ثالث ربيع الأول سنة ٦٤ نصبوا المجانيق على الكعبة ورموها بالنار ، فاحترق جدار البيت فى يوم السبت . وقيل : إنما احترقت لأن أهل المسجد جعلوا يوقدون النار وهم حول الكعبة فعلقت النار فى بعض أستار الكعبة فسرت إلى أخشابها وسقوفها فاحترقت . وقيل : إنما احترقت لأن ابن الزبير سمع التكبير على بعض جبال مكة فى ليلة ظلماء فظن أنهم أهل الشام ، فرفعت نار على رمح لينظروا من هؤلاء الذين على الجبل ، فعلقت النار فى أستارها وأخشابها فاحترقت ، واسودّ الركن ، وانصدع فى ثلاثة أمكنة منها » .

أما العمرى [٣] فلا يتهم ابن الزبير أو القائد الأموى على السواء ،

---

(١) الكامل جـ ٤ ص ٥٢ .

(٢) البداية والنهاية جـ ٨ ص ١٢٥ .

(٣) مسالك الأبصار جـ ١ ص ٩٥ .

فيقول إن سبب حرق الكعبة « أن امرأة أرادت أن تجمر الكعبة ، فطارت شرارة من المجمرة فى أستارها فاحترقت » .

وقد حفظ التاريخ لنا رواية عبد الله بن الزبير عن سبب حرق الكعبة ، فيروى ابن قتيبة[1] أنه حين طلب الحصين ابن نمير من ابن الزبير ، بعد موت يزيد ، أن يسمح لجند الشام بالطواف بالبيت ، قال ابن الزبير له : وهل تركتم من البيت إلا مدرة ، وكانت المجانيق قد أصابت ناحية البيت فهدمته ، مع الحريق الذى أصابه . ونحن نميل إلى الرأى القائل أن قذف الكعبة بأحجار المنجنيق قد نتج عنه اشتعال النيران بالكعبة .

ابن الزبير يعيد بناء الكعبة :

رحل القائد الحصين بن نمير بجيشه الأموى إلى الشام بعد موت الخليفة يزيد بن معاوية ، تاركاً الكعبة وقد تهدمت معظم أجزائها ، فأصبح أمر إعادة أبنائها من شأن عبد الله بن الزبير الذى أعلن نفسه خليفة فى بلاد الحجاز . فهدم ما تبقى منها سليما وأعاد بناءها من جديد . وقد عاد ذلك عليه بالفائدة والضرر فى وقت واحد .

فقد غضب المسلمون على جند الشام أن تسببوا فى تهدم الكعبة ، كما انتهكوا حرمتها إذ قذفوها بالأحجار ، وحمدوا لعبد الله بن الزبير قيامه بإعادة بنائها . فروى المؤرخ ابن الأثير [2] : « لما احترقت الكعبة حين غزا أهل الشام عبد الله بن الزبير أيام يزيد تركها ابن الزبير يشنع بذلك على أهل الشام » . ثم أعاد ابن الزبير بناء الكعبة ، ولكن بعض المسلمين لم يرضوا عن أن ابن الزبير قد أحدث تغييرات على البناء الأول .

---

(١) الإمامة والسياسة جـ ٢ ص ٨ .

(٢) الكامل جـ ٤ ص ٨٧ .

أثارت رغبة ابن الزبير فى إعادة بناء الكعبة مشكلة كبرى له ، فقد حار فى الطريقة التى يتبعها فى بنائها من جديد : أيهدم الكعبة تماماً ثم يعيد البناء من جديد ؟ أم يحاول إصلاحها وترميمها ؟ وروى العمرى[١] حوار ابن الزبير مع أصحابه حينما حاولوا حل هذه المشكلة المعقدة ، فقال : « فشاور ابن الزبير من حضره فى هدمها ، فهابوا ذلك ، وقالوا : نرى أن يصلح ما وهى منها ولا تهدم . فقال : لو أن بيت أحدكم احترق لم يرض له إلا بأكمل إصلاح ، ولا يكمل إصلاحها إلا بهدمها . فهدمها حتى أفضى إلى قواعد إبراهيم ، فأمرهم أن يزيدوا فى الحفر ، فحركوا حجراً منها فرأوا تحته ناراً وهولا أفزعهم ، فبنوا على القواعد . . . وتم بناءها وألصق بابها بالأرض ، وعمل لها خلفاً أى باباً من ورائها وأدخل الحجر فيها » .

وبذل ابن الزبير جهده فى تجميل الكعبة حتى تبدو فى أجمل مظهر . وعدد المسعودى[٢] جهود ابن الزبير فى ذلك فقال : « وحمل إلى ابن الزبير من صنعاء الفسيفساء التى كان بناها أبرهة الحبشى فى كنيسته التى اتخذها هنالك ، ومعها ثلاث أساطين من رخام فيها وشى منقوش ، قد حشى النقش السندروسى وأنواع الألوان من الأصباغ ، فمن رآه ظنه ذهباً » .

عاب الأمويون على ابن الزبير هدمه الكعبة ، وزعموا أنه كان بوسعه ترميمها وإصلاحها . ولكننا لا نوافق على ما ذهبوا إليه ، فقد « كانت قد مالت حيطانها من حجارة المنجنيق »[٣] . مما يجعل ترميمها عسيراً ، إذ

---

(١) مسالك الأبصار جـ ١ ص ٢٥ – ٢٦ .

(٢) مروج الذهب جـ ٣ ص ٣٩ .

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ٨٧ .

قد تنهار جدران الكعبة فى أى وقت على من فيها . وكان من الضرورى ضمان سلامة هذه الجدران ، فقد كانت الكعبة مقصد آلاف المسلمين كل عام ، حيث يتوافدون ويتزاحمون للطواف والتبرك بها . كما أن العمرى يذكر أنه سبق هدم وإعادة بناء الكعبة قبل ابن الزبير ثلاث مرات .

انتقد الأمويون ابن الزبير لأنه أحدث تغييرات فى بناء الكعبة ، فقد زاد فى ارتفاعها تسعة أذرع فأصبح ارتفاعها سبعة وعشرين ذراعاً ، كما جعل للكعبة بابين بعد أن كان لها باب واحد . وضرب عليها السور وأدخل فيها الحجر . وعابوا عليه أنه كان « أول من كسا الكعبة الديباج وكانت كسوتها المسوح والأنطاع ، وقد كان يطيبها حتى يوجد ريحها من داخل الحرم »[١] . ولكننا لا نوافق هؤلاء على بعض ما عابوه على ابن الزبير . فإن وجود بابين يسهل الدخول إلى الكعبة والخروج منها. كما أن المصادر القديمة تذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يريد أن يزيد من ارتفاع الكعبة إلى الحدّ الذى وصل إليه ابن الزبير . كما أن ابن الزبير لم يكن يدفعه فيما فعل سوى مرضاة الله والرسول والمسلمين .

وقد سوّغ المؤرخ المسعودى[٢] زيادات ابن الزبير فى الكعبة ، فقال : « وشرع ابن الزبير فى بناء الكعبة ، وشهد عنده سبعون شيخاً من قريش أن قريشاً حين بنت الكعبة عجزت نفقتهم فنقصوا من سعة البيت سبعة أذرع من أساس إبراهيم الخليل الذى أسسه هو وإسماعيل عليهما السلام ، فبناه ابن الزبير وزاد فيه الأذرع المذكورة ، وجعل فيه الفسيفساء والأساطين ، وجعل له بابين : باباً يدخل منه ، وبابا يخرج منه » .

---

(١) تاريخ ابن عساكر جـ ٧ ص ٤١٣ .

(٢) مروج الذهب جـ ٣ ص ٢٩ — ٣٠ .

ويذكر العمرى(١) أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يريد أن يزيد فى بناء الكعبة ما زاده ابن الزبير ، فقال : « وذلك لأن خالته عائشة ، رضى الله عنها ، حدثته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ألم تر أن قومك قصرت بهم النفقة حين بنوا الكعبة فاقتصروا على قواعد إبراهيم . ثم قال : لولا حدثان قومك بالجاهلية لهدمتها وجعلت لها خلفاً وألصقت بابها بالأرض وأدخلت فيها الحجر . فقال ابن الزبير : فليس بنا عجز عن النفقة . فبناها على مقتضى حديث عائشة » .

ومهما يكن من أمر ، فقد احتفظت الكعبة بالشكل الذى أعاد ابن الزبير بناءها عليه ، حتى حاصر الحجاج بن يوسف الثقفى الكعبة الحصار الثانى فى عهد عبد الملك بن مروان .

الحجاج الثقفى والكعبة :

انتشرت دعوة ابن الزبير فى أرجاء الدولة الإسلامية ، ونجح فى السيطرة على جميع أمصارها عدا بلاد الشام التى احتفظت بولائها للخلافة الأموية . ونجح الخليفة الأموى مروان بن الحكم فى انتزاع مصر من ولاة ابن الزبير . ثم نجح ابنه عبد الملك فى الاستيلاء على بلاد العراق وقتل مصعب بن الزبير ، ثم بعث بقائده المشهور الحجاج بن يوسف الثقفى على رأس جيش كبير إلى بلاد الحجاز للقضاء على عبد الله بن الزبير .

بدأ الحجاج فى مناوشة عبد الله بن الزبير ليقف على قوته الحقيقية ، وليبث الرهبة والخوف فى نفوس أنصار ابن الزبير « فكان يبعث البعوث إلى عرفة فى الحل ، ويبعث ابن الزبير بعثاً فيقتتلون هنالك ، فى كل ذلك

(١) مسالك الأبصار جـ ١ ص ٩٥ .

تهزم خيل ابن الزبير وترجع خيل الحجاج بالظفر »[١] .

أدرك الحجاج ضعف جند ابن الزبير ، ولذا عزم على المسير إليه ، فبعث إلى الخليفة عبد الملك بن مروان يستأذنه فى قتال ابن الزبير وحصار الكعبة ويخبره بضعف ابن الزبير وتفرق أصحابه ويطلب منه الأمداد[٢] . فلما وصل كتاب الحجاج إلى عبد الملك كبر وكبر معه من كان فى داره. ثم كتب عبد الملك إلى طارق بن عمرو يأمره بأن يلحق بمن معه من الجند بالحجاج فسار فى خمسة آلاف من أصحابه حتى لحق به .

تقدم القائدان نحو مكة ، فبلغوها فى ذى القعدة سنة ٧٢ هـ فى الوقت الذى كان المسلمون يستعدون فيه لأداء فريضة الحج. فنزل بقرب بئر ميمون ، وحج بالناس ، ولكنه لم يستطع الطواف بالكعبة أو السعى بين الصفا والمروة حيث منعه عبد الله بن الزبير من ذلك، كما لم يستطع ابن الزبير وأنصاره أداء فريضة الحج . حتى إذا قارب موسم الحج من الانتهاء ، بدأ الحجاج يقذف الكعبة بالأحجار .

بعث عبد الله بن عمر بن الخطاب إلى الحجاج الثقفى ينهاه عن قذف الكعبة بالأحجار ويقول : اتق الله واكفف هذه الحجارة عن الناس ، فإنك فى شهر حرام وبلد حرام، وقد قدمت وفود الله من أقطار الأرض ليؤدوا فريضة الله ويزدادوا خيراً. وإن المنجنيق قد منعهم عن الطواف، فاكفف عن الرمى حتى يقضوا ما يجب عليكم بمكة[٣] . ورأى الحجاج أن ينتظر حتى ينتهى الناس تماماً من الحج .

فرغ موسم الحج ، فنادى الحجاج فى الناس أن ينصرفوا إلى بلادهم

---

(١) الطبرى جـ ٥ ص ٢٠ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل جـ ٤ ص ١٤٦ .

(٣) المصدر السابق .

التماساً للسلامة والنجاة من الأحجار التى يعزم الحجاج أن يقذفها على ابن الزبير . ثم بدأ الحجاج ينفذ وعده . وكان الوقت حينئذ شتاء ، فأخذت السماء تبرق وترعد ، ونزلت صاعقة على جيش الحجاج فقتلت عدداً كبيراً منهم . وشعر جند الشام بالخوف ، فقد اعتبروا هذه الصاعقة مظهراً لغضب السماء لانتهاكهم حرمة بيت الله الحرام ، ولذا أمسك الشاميون عن قذف الأحجار ، وخشى الحجاج من عواقب تخاذل جنده ، فأقبل عليهم يشجعهم ويثير حماستهم ، وأخذ يقذف الأحجار بنفسه . وشاءت المقادير أن تعين الحجاج ، فنزلت صاعقة على جند ابن الزبير فقتلت كثيراً منهم ، فخطب الحجاج فى هذه فقال : ألا ترون أنهم يصابون ، وأنتم على الطاعة وهم على خلاف الطاعة[1] ؟ !

أخذت الأحجار تتكاثر على الكعبة حيث اعتصم عبد الله بن الزبير وأصحابه ، فكانت تصيب مقتلا من كثير من رجاله ، فرأوا أنه لا طائل من وراء المقاومة ، وأن مصيرهم الموت إذا استمروا فى القتال ، فخرج كثير منهم إلى الحجاج بن يوسف يطلبون منه الأمان ، فأجابهم إلى طلبهم ليشجع غيرهم على نبذ القتال .

واستمر عبد الله بن الزبير فى مقاومة هجوم الجيش الأموى ، ولكن ما لبث أن أصابه حجر فى جبينه ، فأنشد[2] :

يا ربّ إن جنود الشام قد كثروا
وهتكوا من حجاب البيت أستارا
يا ربّ إنى ضعيف الركن مضطهد
فابعث إلىّ جنوداً منك أنصارا

---

(١) الطبرى جـ ٥ ص ٣٠ .

(٢) المسعودى : مروج الذهب جـ ٣ ص ٥٧ .

وسرعان ما تكاثر جند الشام على عبد الله بن الزبير وأنصاره من كل باب ، فسقط ابن الزبير صريعاً ، وتفرّق أنصاره يبتغون السلامة والنجاة ، وكان مصرعه فى ١٤ جمادى الأولى سنة ٧٣ هـ .

أعاد الحجاج بناء الكعبة وجعلها كما كانت قبل التجديد الذى أحدثه عبد الله بن الزبير بعد حصار الكعبة الأول . وجعل الحجاج للكعبة باباً واحداً كما أمره الخليفة عبد الملك بن مروان[1] . ووصف العمرى[2] موقف عبد الملك والحجاج من إعادة بناء الكعبة فقال : « ولما قام عبد الملك بن مروان فى الخلافة ، قال : لسنا من تخليط أبى خبيب بشىء (يعنى عبد الله بن الزبير) . فهدمها (أى الكعبة) وأعادها على ما كانت عليه فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا فى ارتفاعها . ثم جاءه الحارث بن أبى ربيعة المخزومىّ ومعه رجل آخر ، فحدثاه عن عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديث المتقدم ، فندم وجعل ينكت بمخصرة فى يده الأرض ، ويقول : وددت أنى تركت أبا خبيب وما تحمل من ذلك . وتولى البناء فى زمن عبد الملك بن مروان ، الحجاج ابن يوسف الثقفى ، وهو البناء الخامس الموجود الآن (أى فى زمن العمرى) والذى هدمه الحجاج هو الزيادة وحدها . وأعاد الركنين ، وسدّ الباب الذى فتحه ابن الزبير ، وسدّه بين إلى الآن . وجعل فى الحجر من البيت دون سبعة أذرع . وعلامة ذلك فى داخل الحجر لوحان من مرمر منقوشان متقابلان فى الجانبين . وصار عرض وجهها ، وهو الذى فيه الباب ، أربعة وعشرين ذراعاً » .

---

(١) الطبرى جـ ٥ ص ٣٥ .

(٢) مسالك الأبصار جـ ١ ص ٩٧ .

بناء عبد الملك قبة الصخرة :

اتخذ عبد الله بن الزبير الحجاز مركزاً لحركته السياسية ولخلافته . وكان المسلمون يفدون إلى الكعبة فى مواسم الحج والعمرة ، فيلقون ابن الزبير ، فكانوا لا يجدونه إلاّ قائماً بالصلاة أو طائفاً بالكعبة، ونجح فى أن يبهر أنظارهم بزهده وبساطته وصلاحه وتقواه . فقارن أهل الشام بين ما شاهدوه من ابن الزبير وبين مظاهر الملك والترف التى عاشها الخلفاء الأمويون . وانتهز ابن الزبير فرصة قدوم هؤلاء الحجاج ، فأخذ يبث دعوته فيهم ، ودعاهم لمناصرته وتأييده . وكان هؤلاء الحجاج والمعتمرون لا يعودون إلى بلادهم إلاّ وتحدثوا عما رأوه من أحوال ابن الزبير ، مشيدين بفضائله ، معدّدين سجاياه ، مما أدى إلى انتشار دعوة ابن الزبير فى شتى أرجاء الدولة العربية الإسلامية .

وكان ابن الزبير لائذاً بالكعبة ، يسمى نفسه « العائذ بالبيت » مما أثار عطف المسلمين عليه . وزاد من عطفهم عليه ، كما أثار العاطفة الدينية عامة ، إقدام الخلفاء الأمويين على غزو مكة وحصار الكعبة وقذفها بالمنجنيق. فى نفس الوقت الذى استمات فيه ابن الزبير فى الدفاع عن الكعبة . وقدمت جماعات عديدة من المسلمين تحالف ابن الزبير لتقف إلى جانبه فى صدّ الجيوش الأموية عن غزو الكعبة ومكة ، فقد قدمت الخوارج الأزارقة ، وقدم المختار ابن أبى عبيد الثقفى زعيم الشيعة بالعراق ، بل بعث نجاشى الحبشة فرقة من جنده تدافع عن الكعبة . وكان بعض المسلمين حين يقدمون إلى مكة للحج أو الاعتمار، ويستمعون لآراء ابن الزبير يعلنون تأييدهم لهم وينضمون إلى حركته ولا يعودون إلى بلادهم. بل إن كثيراً من أهل الشام تظاهروا بالخروج إلى الحجاز للحج ، وانضموا إلى ابن الزبير .

شعر عبد الملك بن مروان بخطورة إقامة ابن الزبير فى مكة إلى جانب الكعبة وحاول صرف المسلمين عن الرحيل إلى مكة كيلا يلتقوا بابن الزبير ، ولكنه لم يكن بقادر أن ينهاهم عن أداء فريضة الحج وهى من أركان الإسلام . وأخذ يبحث عن حلّ آخر ، حتى توصل إلى فكرة بناء قبة الصخرة .

بنى عبد الملك قبة الصخرة فى بيت المقدس ودعا المسلمين إلى الحج إليها ، ونهاهم عن الحج إلى الكعبة فى مكة . وروى المؤرخ اليعقوبى [١] تاريخ هذا الحدث فقال : « ومنع عبد الملك أهل الشام من الحج ، وذلك أن ابن الزبير كان يأخذهم إذا حجوا بالبيعة . فلما رأى عبد الملك ذلك ، منعهم من الخروج إلى مكة فضجّ الناس ، وقالوا : تمنعنا من حج بيت الله الحرام وهو فرض من الله علينا . فقال لهم : هذا ابن شهاب الزهرى يحدثكم أن رسول الله قال لا تشد الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ومسجدى ومسجد بيت المقدس وهو يقوم لكم مقام المسجد الحرام ، وهذه الصخرة التى يروى أن رسول الله وضع قدمه عليها لما صعد إلى السماء تقوم لكم مقام الكعبة ، فبنى على الصخرة قبة وعلق عليها ستور الديباج وأقام لها سدنة ، وأخذ الناس بأن يطوفوا حولها كما يطوفون حول الكعبة ، وأقام بذلك أيام بنى أمية » .

ويؤيد الروحى [٢] هذه الرواية فيقول : « فلما ولى عبد الملك ابن مروان منع الناس من الحج من أن ابن الزبير كان يأخذ الناس بالبيعة إذا حجوا ، فضج الناس لما منعوا الحج ، فبنى عبد الملك قبة الصخرة ، وكان الناس يحضرونها يوم عرفة ويقفون عندها » .

---

(١) تاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ٧ — ٨ .

(٢) بلغة الظرفاء فى ذكرى تواريخ الخلفاء ص ٢٠٢ .

كان اليعقوبى أول مؤرخ روى قصة بناء عبد الملك قبة الصخرة . أما الروحى[١] فلا شك فى أنه نقل هذه الرواية عنه . ولكن الطبرى والمسعودى وابن الأثير وابن قتيبة لم يتحدثوا عن هذه القصة . ويذهب بعض المؤرخين المحدثين إلى أن الوليد بن عبد الملك هو الذى بنى قبة الصخرة . وذهب بعضهم مذاهب أخرى ، منها أنها من بناء هيلانة أم قسطنطين معتمدين فى ذلك على أن بناء هذه القبة لا يتمشى مع الفن العربى ، وإنما هو مطابق للفن البيزنطى . ولكن معظم المؤرخين المحدثين يؤيدون الرواية القائلة بأن عبد الملك هو الذى بنى قبة الصخرة ، ويميلون إلى الأخذ برواية اليعقوبى ، ويعتمدون فى ذلك على أن النقش الموجود على قبة الصخرة يقطع بأن تاريخ البناء هو سنة ٧٢ هـ أى فى عصر عبد الملك .

٩ — اهتمام الدول الإسلامية بالكعبة

فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين :

اهتم الخلفاء الراشدون بالمسجد الحرام المحيط بالكعبة ، فيذكر العمرى[٢] : « كان المسجد الحرام ، أعنى المحيط بالكعبة فناء لها وفضاء للطائفين . ولم يكن له على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر جدار يحيط به . فضيق الناس على الكعبة وألصقوا دورهم بها . وكانت الدور محدقة بالكعبة ، وبين الدور أبواب يدخل الناس من كل ناحية » . حتى إذا تولى عمر بن الخطاب الخلافة قال : لا بدّ لبيت الله من فناء ،

---

(١) انظر كتابنا (عبد الله بن الزبير) تجد كثيراً من التفاصيل .

(٢) مسالك الأبصار جـ ١ ص ١٠٥ .

وإنكم دخلتم عليه ، ولم يدخل عليكم . فوسع المسجد ، واشترى الدور المحيطة بالكعبة وهدمها وزادها فى المسجد. واتخذ للمسجد جداراً قصيراً دون القامة ، ووضع فيه القناديل .

ولما تولى عثمان بن عفان الخلافة ، ابتاع عدّة منازل وهدمها ووسع المسجد ، وبنى الأروقة للمسجد . وزاد عبد الله بن الزبير فى مساحة المسجد واشترى منازل بأكثر من عشرة آلاف دينار ، وجعل فى المسجد عمداً من الرخام .

واهتم الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان بعمارة المسجد الحرام ، وإن لم يزد فيه ، ورفع جداره ، وجلب إليه السوارى على سفن رحلت فى البحر الأحمر إلى جدّة ، وسقفه بالساج .

ولما تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة ، بعث إلى واليه على مكة خالد بن عبد الله القسرى بستة وثلاثين ألف دينار ، فضرب منها على باب الكعبة صفائح الذهب ، وعلى الميزاب ، وعلى الأساطين فى جوف الكعبة ، وعلى أركانها . ولذا يذكر المؤرخون أن الخليفة الوليد هو « أوّل من ذهّب البيت فى الإسلام »[1] . وكان عبد المطلب فى العصر الجاهلى قد حلى الكعبة بغزالين ذهبيين كان قد عثر عليهما فى بئر زمزم عند قيامه بإعادة حفرها ، فضربهما فى أبواب الكعبة .

وذكر العمرى أن الذهب الذى بعثه الوليد بن عبد الملك لتحلية الكعبة مصدره مائدة سليمان بن داود ، وكانت من الذهب والفضة ، وقد حملت إليه من طليطلة فى الأندلس ، وكان لها أطواق من الزبرجد والياقوت .

كما أمر الوليد بفرش جوف الكعبة بالرخام الأبيض والأخضر ،

---

(١) المصدر السابق جـ ١ ص ٩٨ .

كما وزّر جدران الكعبة بالرخام . واهتم الوليد أيضاً بتوسيع المسجد الحرام ، وبعث إليه بالرخام والأحجار اللازمة من بلاد الشام .

فى العصر العباسى :

اهتم الخلفاء العباسيون بالكعبة وسائر الأماكن المقدسة فى مكة والمدينة ، وحرصوا على تيسير الحج ، وإنشاء الطرق والبريد بين مكة والمدينة وبين بلاد اليمن جنوباً وبلاد العراق شمالا ، وزودوا هذه الطرق بالماء ليرتوى الحجاج منه ، وعملوا على التوسيع على أهل مكة فزادوا فى أعطياتهم وأغدقوا عليهم الصلات والمنح .

زاد الخليفة العباسى الثانى المنصور فى المسجد الحرام ، وجعل فيه أعمدة الرخام . كما أمر الخليفة الثالث المهدى بالزيادة فى المسجد الحرام ، فدخلت فيه دور كثيرة ، وتولى أمر ذلك يقطين بن موسى ، واستمر البناء حتى وفاة المهدى[1] . وعهد المهدى إلى يقطين بتوفير المياه فى الطرق الموصلة إلى مكة . ونزع المهدى كسوة الكعبة التى كانت عليها ، وكساها كسوة جديدة ، ويروى الطبرى أن حجبة الكعبة فلما ذكر رفعوا إليه أنهم يخافون على الكعبة أن تهدم لكثرة ما عليها من الكسوة ، فأمر أن يكشف عنها ما عليها من الكسوة حتى بقيت مجرّدة ، ثم طلى البيت كله بالخلوق ، وذكر أنهم لما بلغوا كسوة هشام وجدوها ديباجاً تخيناً جيداً ، ووجدوا كسوة من كان قبله عامتها من متاع اليمن » .

وكانت مواكب الحج من أعظم مواكب الخلفاء العباسيين ، حيث يجتمع ببغداد الحجاج من مختلف الأمصار الإسلامية الشرقية ، وخاصة

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٣١٠ .

(٢) الطبرى جـ ٦ ص ٣٦٦ .

أهل العراق وفارس وخراسان وغيرها . وقد أعدّوا عدتهم من الإبل والكسى والطعام . ويتقدم الموكب هوادج تعلوها قباب مزينة بالديباج المطرز بالذهب ، يقيم فى إحداها أمير الحج .

واهتم الخليفة العباسى هارون الرشيد بالكعبة والحج ، فكان يحج سنة ، ويغزو سنة ، وكان إذا حج يحج ماشياً ، ويتولى الإنفاق على عدد كبير من الحجاج .

ويذكر المؤرخون أن الرشيد سأل الإمام مالك فى هدم الكعبة وردّها إلى بناء عبد الله بن الزبير ، فقال مالك : يا أمير المؤمنين ، لا تجعل كعبة الله ملعبة للملوك ، لا يشاء أحد أن يهدمها إلا هدمها . فترك الرشيد الكعبة كما هى .

وبقيت الكعبة على بناء الحجاج بن يوسف ، وكان المسلمون يدعمون البناء كلما اعتراه الوهن ، حتى كانت العمارة التى تغير فيها سقفها فى زمن السلطان سليمان سنة ٩٦٠ هـ ، ثم العمارة الترميمية التى حدثت فى عهد السلطان أحمد سنة ١٠٢١ هـ .

ولما تولى الخليفة العباسى الأمين ، بعد وفاة أبيه الرشيد ، علم أن الذهب الذى حلى به الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك قد دقّ ، فبعث أحد عماله ، وأعطاه ثمانية عشر ألف دينار ليضرب بها صفائح على باب الكعبة . وخلع هذا العامل ما كان على الباب من الصفائح وزاد عليها دنانير الأمين ، وضرب الصفائح والمسامير وحلقتى الباب والقبة ، وأصبح ما على الكعبة من الذهب ثلاثة وثلاثون ألف مثقال (١) .

(١) العمرى : مسالك الأبصار جـ ١ ص ٩٩ .

إعادة بناء الكعبة فى العصر العثمانى :

حينما تولى السلطان سليمان العثمانى (سنة ٩٦٠ هـ) غير سقف الكعبة ، كما اهتم السلطان أحمد (١٠٢١ هـ) بترميم الكعبة . حتى إذا كانت سنة ١٠٣٩ هـ شهدت مكة سيولا استمرت يومين ، ودخلت مياهها إلى المسجد الحرام والكعبة ، حتى إذا انحسر الماء ضعفت جدران الكعبة ، وخاصة الجدار الشمالى والشرقى والغربى . وأمر أمير مكة بإخراج القناديل الذهبية العشرين ، وتقدم مع أهل مكة ينظفون الكعبة من الأحجار المتساقطة ، واحتاروا فيما يفعلون ، ورأوا الرجوع إلى السلطان العثمانى .

تألم المسلمون فى أرجاء العالم الإسلامى مما أصاب الكعبة ، ولم ينتظر والى مصر محمد باشا الألبانى ما يشير به السلطان العثمانى مراد الرابع ، حتى لا يستفحل تصدع الكعبة ، ولاقتراب موسم الحج ، فبعث بمندوبين عنه إلى مكة .

وعادت السيول مرة أخرى ، مما أدى إلى ازدياد تصدع الجدار الغربى ، ولذا استقر الرأى على هدم ما بقى من جوانب الكعبة ، ولم يقع خلاف إلا على ركن الحجر الأسود . ولكن المهندسين رأوا أن هذا الركن يوشك أن ينقض كذلك ، ولذا كف القوم عن التردد ، ورأوا هدم البيت كله ، ليقيموا بناءه ثانياً قويا .

قام بعمارة البيت جماعة من المهندسين والعمال المصريين ، واستمر البناء ستة أشهر من عام ١٠٤٠ هـ ، وأنفقوا فى سبيل ذلك أموالا كثيرة ، ولم يكونوا يعيدون من الأحجار التى بنى بها ابن الزبير الكعبة إلا ما وجدوه ما يزال صلباً قويا ، أما ما وهن أو ضعف فكانوا يستبدلون به غيره .

ثم جاء دور إعادة الحجر الأسود إلى مكانه ، وكان هذا الحجر

قد أصابه بعض التصدع فى عهد ابن الزبير ، فعالجوه إذ ذاك بتقويته بسيور من الفضة .

ولما تمّ إعادة بناء الكعبة ، كتبوا بذلك محضراً أرسلوه إلى مصر ، فيه شهادة المكيين بحسن عمارة الكعبة ، وفى ذلك اعتراف بما كان لمصر من مجهود فى هذه العمارة فاق كل مجهود قامت به أية أمة إسلامية أخرى ، فقد أرسلت مصر جميع ما يلزم لهذه العمارة وأنفقت ستة عشر ألفاً من الجنيهات[1] .

وفى سنة ١٢٧٣ هـ أرسل السلطان العثمانى عبد المجيد إلى الكعبة ميزاباً من الذهب ، وهو الموجود بها الآن .

١٠ – كسوة الكعبة على مرّ العصور

أول كسوة :

كان أول من كسا الكعبة هو (تبع أبو كرب أسعد) الملك العربى اليمنى الحميرى . ويروى العمرى[2] أن تبعاً رأى فى نومه أنه يكسو الكعبة ، ولذا حين مرّ بمكة راجعاً من غزوته ليثرب سنة ٢٢٠ قبل الهجرة ، حقق رؤياه ، وكسا الكعبة وجعل لها باباً ومفتاحاً . ويذكر العمرى أنه بدأ يكسوها بالمسوح والأنطاع ، ثم خشى أن يؤثر ذلك على بناء الكعبة ، فكساها « الملاء والوصائل » ، وهى ثياب موصلة من ثياب اليمن . وأنشد تبع حين كسا الكعبة :

---

(١) المجرسى : كتاب الحج ص ٣٤ .

(٢) مسالك الأبصار ج ١ ص ١٠١ .

وكسونا البيت الذى حرم الله مُلاءً معضّدا وبرودا
فأقمنا من الشهر عشرا وجعلنا لبابه إقليدا
ونحرنا بالشعب ستة ألف فترى الناس نحوهن ورودا
ثم سرنا عنه نؤم سهيلا فرفعنا لواءنا معقودا

وتبعه خلفاؤه ، فكانوا يكسونها بالجلد والقباطى (وهو قماش مصرى) زمناً طويلا ، ثم أخذ الناس يقدمون إليها هدايا من الكساوى المختلفة ، فيلبسونها على بعضها ، فكان إذا بلى ثوب وضع عليه ثوب آخر ، حتى جاء قصى بن كلاب فوضع على القبائل مبلغاً من المال لكسوتها سنوياً ، واستمر أبناؤه بعده على هذا التقليد . وكان أبو ربيعة بن المغيرة قبل الإسلام يكسوها سنة ، وقبائل قريش تكسوها أخرى ، فسمى بذلك العدل ، لعدله بين قبائل قريش فى كسوة الكعبة(١) .

وروى العمرى(٢) أن خالد بن جعفر بن كلاب كان أول من كسا الكعبة بالديباج . وممن كسوها بالديباج أيضاً نُتيلة بنت جناب ، أم العباس بن عبد المطلب ، وكان العباس قد ضلّ الطريق وهو صغير ، فنذرت أمه إن وجدته أن تكسو الكعبة بالديباج .

كسوة الرسول والخلفاء :

روى ابن هشام(٣) أن الكعبة فى عهد الرسول كانت تكسى بالقباطى ، وهى ثياب بيض كانت تصنع فى مصر ، ثم كسيت بالبرود وهى ضرب

---

(١) المجرسى : كتاب الحج ص ٣٩ .
(٢) مسالك الأبصار جـ ١ ص ٩٩ .
(٣) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢١١ .

من ثياب اليمن :

ثم قام بكسوة الكعبة كل من عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعبد الله بن الزبير . وكساها معاوية بن أبى سفيان بالديباج مرتين فى يوم عاشوراء . ثم كساها الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان .

وجرت عادة الخلفاء الأمويين على وضع الكسوة الجديدة فوق الأكسية القديمة ، حتى إذا تولى الخليفة العباسى المهدى ، شكا إليه سدنة الكعبة ، إذ خشوا أن يؤثر تكاثر الأكسية على بناء الكعبة ، فأمر المهدى برفع الأكسية القديمة ، وإبدالها بكسوة جديدة كل سنة ، وأصبحت سنة تتبع طوال العصور التالية .

وقام الخليفة العباسى المأمون بكسوة الكعبة ثلاث مرات ، فكان يكسوها الديباج الأحمر يوم التروية ، والقباطى يوم هلال رجب ، والديباج الأبيض يوم سبع وعشرين من رمضان[١] .

وكان سائر الخلفاء العباسيين يكسون الكعبة عادة بالحرير الأسود ، حتى إذا ضعفت الدولة العباسية صار يكسو الكعبة تارة حكام مصر وتارة أخرى حكام اليمن ، ثم انفرد حكام مصر بكسوة الكعبة .

الكسوة المصرية للكعبة :

أمر الخليفة الفاطمى المعز لدين الله ، بعد فتحه مصر سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م) بعمل كسوة للكعبة ، لينافس خلفاء بغداد العباسيين . وكانت هذه الكسوة مربعة الشكل من ديباج أحمر ، وسعتها مائة وأربعة وأربعون شبراً ، وكان فى حافاتها اثنا عشر هلالا ذهبياً ، فى كل هلال أترجة ذهبية ، وفى كل منها خمسون درة تشبه بيض الحمام فى الكبر ، كما

---

(١) العمرى : مسالك الأبصار جـ ١ ص ١٠٠ .

كان فيها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق . وقد نقش فى حافاتها الآيات التى وردت فى الحج ، والآية ٩٥ من سورة آل عمران ، والآية ٣ من سورة براءة ، بحروف الزمرد الأخضر ، وزينت هذه الكتابة بالجواهر الثمينة . وكانت هذه الكسوة معطرة بمسحوق المسك[١] .

تحدث العمرى[٢] عن كسوة الكعبة كما شاهدها عياناً فقال : « وهى الآن تُكسى فى العام مرّة واحدة فى وقت الموسم ، وتحمل إليها الكعبة من الخزانة السلطانية بالديار المصرية ، صحبة الركب فيتولى ذلك أمراء الركب . ويحضرون بأنفسهم فتكسى ، ويأخذ الأشراف وبنو شيبة الكسوة العتيقة ويقتسمونها . ويأخذون فى كل قطعة منها أوفر الأعواض . وتحمل إلى سائر البلاد للبركة . . . ولما حججت سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة ، صعدت أنا وأمراء الركب المصرى لتلبيس الكعبة الشريفة ، حتى كنا على سطحها . فرأيته مبلطاً بالمرمر والرخام الأبيض ، ومن جوانبه جُدرٌ قصار فيها حلقٌ لمرابط الستور ، تجرّ فيها الكسوة بحبال ، ثم تربط فى تلك الحلق » .

ووصف الرحالة ابن بطوطة[٣] كسوة الكعبة فقال : وفى يوم النحر بعثت كسوة الكعبة الشريفة من الركب المصرى إلى البيت الكريم فوضعت فى سطحه . فلما كان اليوم الثالث بعد النحر أخذ الشيبيون فى إسبالها على الكعبة الشريفة . وهى كسوة سوداء حالكة من الحرير مبطنة بالكتان ، وفى أعلاها طراز مكتوب فيه بالبياض (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً) . الآية .. وفى سائر جهاتها طرز مكتوب بالبياض

---

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٤٤ .

(٢) مسالك الأبصار جـ ١ ص ١٠٠ .

(٣) رحلة ابن بطوطة جـ ١ ص ١٣١ .

فيها آيات من القرآن ، وعليها نور لائح مشرق من سوادها . ولما كسيت شمرت أذيالها صوناً من أيدى الناس. والملك الناصر هو الذى يتولى كسوة الكعبة الكريمة ، ويبعث مرتبات القاضى والخطيب والمؤذنين والفراشين والقومة ، وما يحتاج إليه الحرم الشريف من الشمع والزيت فى كل سنة» .

وطوال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، كانت مصر ترسل الكسوة للكعبة سنوياً ، وتتألف من ثمانى ستائر من الحرير الأسود ، وقد كتب عليه بالنسيج فى كل مكان منه (لا إله إلا الله محمد رسول الله). وطول الستارة نحو ١٥ متراً ومتوسط عرضها خمسة أمتار وعدة سنتيمترات ، وكل ستارتين تعلقان على جهة من جهات الكعبة فتربطان من أعلاها فى حلقات من الحديد ، ثم تربطان إحداها بالأخرى بعرى وأزرار ، فإذا انتهى تشبيكها كلها صارت كالقميص المربع الأسود .

ثم يوضع على محيط الكعبة فوق هذه الستائر فيما دون ثلثها الأعلى حزام يسمى رنكا مركب من أربع قطع مصنوعة من المخيش المذهب مكتوب فيه بالخط الجميل آيات قرآنية . ومكتوب على هذا الحزام من الجهة التى فيها باب الكعبة (بسم الله الرحمن الرحيم . وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود . وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم) .

ومكتوب فى الجهة التى تليها من جهة الحجر الأسود (بسم الله الرحمن الرحيم . قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم) ، (بسم الله الرحمن الرحيم . وإذ بوأنا لإبراهيم

مكان البيت أن لا تشرك بى شيئاً وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود . وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) .

ومكتوب فى الجهة المقابلة للمقام المالكى : (ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ، ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق) .

وكانت الكسوة تصنع فى مصر سنوياً بدار فسيحة فى حىّ الخرنفش بالقاهرة ، وكانت ميزانية هذه الدور فى مطلع القرن العشرين حوالى ٤٥٥٠ جنيهاً .

ويتبع هذه الكسوة ستارة باب الكعبة من خارجها ويسمونها البرقع ، وستارة باب منبر الحرم الشريف ، وهى من الأطلس المصنوع بالمخيش الذهبى والفضى .

وحينما كانت تصل الكسوة من مصر إلى مكة تسلم للشيبى القائم بسدانة الكعبة بإشهاد شرعى يحضره الكبراء والعلماء فتبقى فى منزله إلى صباح يوم عيد النحر ، فيؤتى بها على أعناق الرجال وتعلق على الكعبة بعد إنزال الكسوة القديمة ، ويكون المسجد خلواً من الناس لأن معظمهم يكون بمنى ، ولا يبقى فى مكة منهم إلاّ نفر قليل .

أما الكسوة القديمة ، فيرسل المقصبّ منها إلى شريف مكة ، أما غير المقصب فيأخذه الشيبى فيبيعه للحجاج للتبرك[1] .

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين ج ٨ ص ١٥٠ .

المحمل المصرى :

وما دمنا نعرض لكسوة الكعبة ، لا بدّ أن نعرض للمحمل الذى كان يحمل الكسوة إلى الكعبة بمكة . ويبدأ تاريخ المحمل إلى حوالى سنة ٦٤٥ هـ ، فقد رحلت شجرة الدر ، زوجة السلطان الأيوبى الأخير الصالح أيوب ، إلى مكة لأداء فريضة الحج ، فركبت هودجاً ، واحتفل بسفرها احتفالا شائقاً ، وأصبح ذلك سنة متبعة سنوياً . وحذت بعض الأقطار الإسلامية حذو مصر ، فكانت تبعث محملا مشابهاً فى موسم الحج ، حتى توقفت هذه العادة أخيراً اكتفاء بإرسال الكسوة إلى الكعبة .

اهتم الفاطميون بالمحمل ، وبلغت نفقاته أكثر من مائتى ألف دينار ، واستمر الاهتمام به فى عصر المماليك ، وكانت وظيفة أمير الحج فى المرتبة الثالثة من مراتب الدولة ، وكان صاحبها مرشحاً لأن يكون حاكماً للقاهرة ، وهو المنصب الذى يلى منصب السلطان المملوكى مباشرة . وقد بلغ من إكبار ملوك دولة المماليك للمحمل أنهم أمروا جميع حكام البلاد التى كان يمرّ عليها فى طريقه بأن يقبلوا خفّ جمل المحمل عند استقباله ، واستمر أمراء مكة يقبلونه حتى أعفاهم من ذلك السلطان جقمق فى سنة ٨٤٣ هـ .

وفى القرن التاسع عشر ، كانت القاهرة تحتفل بخروج المحمل . فيسير الجمل الحامل للهودج ، وحوله وأمامه الجنود الراكبة والراجلة ، حتى ينتهى الموكب إلى ميدان القلعة ، حيث يحتشد وجوه القوم . وتطلق المدافع تحية للمحمل ، ثم يتابع الموكب سيره إلى العباسية ، حيث يتفرق الناس وينزل ركب المحمل إلى خيامهم فى فضاء بالعباسية ، وينصب المحمل فى وسط ساحتها ليزوره من يريد التبرك به .



ثم يرحل المحمل من العباسية إلى السويس على قطار خاص ، ومنها بحراً إلى جدة ، ثم إلى مكة .

وعند عودة المحمل كانت الحكومة المصرية تحتفل به رسمياً ، ويسير الموكب من العباسية إلى القلعة ، وتطلق المدافع . وتحفظ كسوة المحمل بمخزن وزارة المالية . وكانت تبلغ نفقات المحمل فى مطلع القرن العشرين نحو خمسين ألفاً من الجنيهات المصرية .

وكان من ضمن وظائف المحمل وظيفة اسمها أمين الكساوى والحلوى ، ويقوم بتوزيع الحلوى والكساوى التى كانت ترسل إلى أهل مكة ، ثم استعيض عنها بأثمانها . وكان يخرج معه موظف يسمى (مأمور الذخيرة) فى عهدته كميات كبيرة من (البقسماط) ليسد الحاجة إذا قلت الأقوات بمكة . وكان للمحمل عشرون جملا تحفظ فى مكان خاص ببولاق ، ويتولى شراءها موظف يدعى (شيخ الجمل)[١]

١١ – وصف الكعبة

وصف العمرى للكعبة :

وصف العمرى الكعبة فى كتابه (مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار) ، كما رآها حينما أدى فريضة الحج سنة ٧٣٨ هـ ، فقال : « فاعلم أن الكعبة ، البيت الحرام ، مربعة البنيان فى وسط المسجد . ارتفاعها من الأرض سبعة وعشرون ذراعاً ، وعرض الجدار ، وجهتها الآن ، أربعة وعشرون ذراعاً ، وهو الذى فيه بابها ، وعرض مؤخرها مثل ذلك ،

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين جـ ٨ ص ١٥٢ .

وعرض جدارها الذى يلى اليمن ، وهو فيما بين الركن اليمانى والركن العراقى ، وهو الذى فيه الحجر الأسود ، عشرون ذراعاً . وإلى وسط هذا الجدار كان يصلى النبى صلى الله عليه وسلم قبل هجرته إلى المدينة . وعرض جدارها الذى يلى الشام ، وهو الذى فيما بين الركن الشامى والركن الغربى واحد وعشرون ذراعاً ، وميزاب الكعبة على وسطه يسكب فى الحجر . ومن أصل هذا الجدار إلى أقصى الجدار ستة عشر ذراعاً .

وعرض باب الحجر الشامى خمسة أذرع إلا شيئاً يسيراً ، وعرض بابه الغربى ستة أذرع إلا شيئاً يسيراً ، وجدار الحجر مدور من بابه الشامى إلى بابه الغربى كالطيلسان ، وعرضه ذراع وارتفاعه من الأرض أربعة أشبار . والحجر الأسود فى الركن العراقى المقابل لزمزم وهو على سبعة أشبار من الكعبة . وباب الكعبة على أربعة أذرع من الأرض ، وعلوه ستة أذرع ، وعرضه أربعة أذرع .

وما بين الباب والحجر الأسود أربعة أذرع ، ويسمى هذا الموضع الملتزم ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين فرغ من طوافه التزمه ودعا فيه ، ثم التفت فرأى عمر فقال : ها هنا تسكب العبرات . ومن الباب إلى مصلى آدم عليه السلام حين فرغ من طوافه ، وأنزل الله التوبة وهو موضع الخلوق ، ومن إزار الكعبة ، أرجح من سبعة أذرع . وكان هناك موضع مقام إبراهيم . . .

وبين موضع الخلوق — وهو مصلى آدم عليه السلام — وبين الركن الشامى ثمانية أذرع ، ومن الركن الشامى إلى اللوح المرمر المنقوش فى الحجر الذى بنى هناك ابن الزبير ركن إبراهيم ، وهو على قواعد إبراهيم عليه السلام ، تسعة أذرع .

وفيما بين الحجر إلى مقام إبراهيم خمسة وعشرون ذراعاً ، ويسمى ذلك الحطيم ، لأنه يحطم الذنوب أى يسقطها . . . وفيما بين الركن العراقى

— وهو الذى فيه الحجر الأسود — إلى مصلى النبى صلى الله عليه وسلم قبل هجرته إلى المدينة، عشرة أذرع . . . وبين الركن اليمانى وبين الباب المسدود فى ظهر الكعبة أربعة أذرع . ويسمى ذلك الموضع المستجار من الذنوب . وعرض الباب خمسة أذرع ، وارتفاعه سبعة أذرع . وبينه وبين الركن الغربى ثلاثة عشر ذراعاً، وبين الركن الغربى وآخر قواعد إبراهيم — وهناك اللوح المرمر المنقوش — أزيد من سبعة أذرع وإلى هناك بنى ابن الزبير »(١) .

وصف ابن بطوطة للكعبة :

كان مولد الرّحالة ابن بطوطة فى سنة ١٣٠٤ م وتوفى سنة ١٣٧٧ م وقد زار مكة خلال رحلته الأولى (١٣٢٥ — ١٣٤٩ م) ، ووصف الكعبة كما شاهدها ، فقال : « والكعبة ماثلة فى وسط المسجد ، وهى بنية مربعة ارتفاعها فى الهواء من الجهات الثلاث ثمان وعشرون ذراعاً ، من الجهة الرابعة ، التى بين الحجر الأسود والركن اليمانى تسع وعشرون ذراعاً ، عرض صفحتها التى من الركن العراقى إلى الحجر الأسود أربعة وخمسون شبراً ، وكذلك عرض الصفحة التى تقابلها من الركن اليمانى إلى الركن الشامى . وعرض صفحتها التى من الركن العراقى إلى الركن الشامى من داخل الحجر ثمانية وأربعون شبراً ، وكذلك عرض الصفحة التى تقابلها من الركن الشامى إلى الركن العراقى . وأما خارج الحجر فإنه مائة وعشرون شبراً . والطواف إنما خارج الحجر .

وبناؤها بالحجارة الصمّ السمر ، وقد ألصقت بأبدع الإلصاق وأحكمه وأشدّه، فلا تغيرها الأيام ولا تؤثر فيها الأزمان . وباب الكعبة

---

(١) مسالك الأبصار جـ ١ ص ١٠٢ — ١٠٤ .

المعظمة فى الصفح[١] الذى بين الحجر الأسود والركن العراقى ، وبينه وبين الحجر الأسود عشرة أشبار . وذلك الموضع هو المسمى بالملتزم حيث يستجاب الدعاء . وارتفاع الباب عن الأرض أحد عشر شبراً ونصف شبر ، وسعته ثمانية أشبار ، وطوله ثلاثة عشر شبراً ، وعرض الحائط الذى ينطوى عليه خمسة أشبار وهو مصفح بصفائح الفضة ، بديع الصنعة ، وعضادتاه وعتبته العليا مصفحات بالفضة . ويفتح الباب الكريم فى كل يوم جمعة بعد الصلاة ، ويفتح فى يوم مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم . . .

وداخل الكعبة الشريفة مفروش بالرخام المجزّع وحيطانه كذلك ، وله أعمدة ثلاثة طوال مفرطة الطول من خشب الساج ، بين كل عمود منها وبين الآخر أربع خطى . وهى متوسطة فى الفضاء داخل الكعبة الشريفة ، يقابل الأوسط منها نصف عرض الصفح الذى بين الركنين العراقى والشامى .

وستور الكعبة الشريفة من الحرير الأسود مكتوب فيها بالأبيض ، وهى تتلألأ عليها نوراً وإشراقاً ، وتكسو جميعها من الأعلى إلى الأرض .

ومن عجائب الآيات فى الكعبة الكريمة أن بابها يفتح والحرم غاص بأمم لا يحصيها إلاّ الله الذى خلقهم ورزقهم ، فيدخلونها أجمعين ولا تضيق عنهم . ومن عجائبها أنها لا تخلو من طائف أبداً ليلا ولا نهاراً ، ولم يذكر أحد أنه رآها قط دون طائف . ومن عجائبها أن حمام مكة على كثرته وسواه من الطير لا ينزل عليها ولا يعلوها فى الطيران ، وتجد الحمام يطير إلى أعلى الحرم كله ، فإذا الكعبة الشريفة عرج عنها إلى إحدى الجهات ولم يعلها »[٢] .

---

(١) الصفح : الجهة .

(٢) انظر رحلة ابن بطوطة جـ ١ ص ١٠٥ — ١٠٦ .

وصف الكعبة :

شكل الكعبة مربع تقريباً ، مبنية بالحجارة الزرقاء الصلبة ، ويبلغ ارتفاعها ١٥ متراً وطول ضلعها الذى فيه الميزاب والذى قبالته ١٠ أمتار و ١٠ سنتيمترات ، وطول الضلع الذى فيه الباب والذى يقابله اثنى عشر متراً ، وبابها على ارتفاع مترين من الأرض ، ويصعد إليها بسلم كسلالم المنابر . وسلمها الحالى من الخشب المصفح بالفضة أهداه إلى الكعبة أحد أمراء الهند ، وهو لا يوضع فى مكانه منها إلاّ إذا فتح للزائرين وفى الاحتفالات الكبرى وهى لا تزيد عن خمس عشرة مرّة فى السنة .

وفى الركن الذى على يسار باب الكعبة الحجر الأسود ، على ارتفاع متر وخمسين سنتيمتراً من أرض المطاف .

يسمى العرب زوايا الكعبة بالأركان على حسب اتجاهاتها ، فيسمى الشمالى بالركن العراقى ، والغربى بالشامى ، والقبلى باليمانى ، والشرقى بالأسود لأن فيه الحجر الأسود ، وهو حجر صقيل بيضى الشكل غير منتظم ، لونه أسود ضارب إلى الحمرة ، وفيه نقط حمراء وتعاريج صفراء ، وهى أثر لحام القطع التى كانت تكسرت منه ، قطره نحو ٣٠ سنتيمتراً يحيط به إطار من الفضة عرضه ١٠ سنتيمترات . والمسافة التى بين ركن الحجر وباب الكعبة يسمونها الملتزم وهو ما يلتزمه الطائف ، فى دعائه واستغاثته .

ويخرج من منتصف الحائط الشمالى الغربى من أعلاه الميزاب ، ويقال له ميزاب الرحمة ، وهو من عمل الحجاج حتى لا يقف المطر على سطحها ، فغيره السلطان سليمان سنة ٩٥٩ بآخر من الفضة ، وأبدله السلطان أحمد سنة ١٠٢١ بآخر من الفضة المنقوشة بالميناء الزرقاء تتخللها النقوش الذهبية . وفى سنة ١٢٧٣ أرسل إليها السلطان عبد المجيد ميزاباً

من الذهب وهو الموجود بها الآن .

وقبالة الميزاب يوجد الحطيم ، وهو قوس من البناء طرفاه إلى زاويتى البيت الشمالية والغربية ، ويبعدان عنهما بمترين وثلاثة سنتيمترات ، ويبلغ ارتفاعه متراً وسمكه متراً ونصف متر ، وهو مبطن بالرخام المنقوش . وفى محيطه من أعلاه كتابة محفورة . والمسافة بين منتصف هذا القوس من داخله إلى منتصف ضلع الكعبة ثمانية أمتار وأربعة وأربعون سنتيمتراً . والفضاء الواقع بين الحطيم وحائط البيت يسمونه حجرة إسماعيل ، وقد كان يدخل منه ثلاثة أمتار تقريباً فى الكعبة فى بناء إبراهيم . ويقال إن هاجر وإسماعيل مدفونان به .

أما شكل الكعبة من الداخل، فمربع مشطور الزاوية الشمالية وبهذه الشطرة باب صغير اسمه باب التوبة يوصل إلى سلم صغير يصعد به إلى سطحها . وبوسطها من الداخل ثلاثة أعمدة من خشب العود عليها مقاصير وترتكز على حائط الميزاب من جهة وحائط الحجر الأسود من جهة أخرى . وهذه الأعمدة موجودة من عهد عبد الله بن الزبير وهى غالية القيمة جداً . ويغطى سقف الكعبة وحوائطها من الداخل كسوة من الحرير الوردى عليها مربعات مكتوب فيها (الله جلّ جلاله) . وفى قبالة الداخل من الباب محراب كان يصلى فيه النبي صلى الله عليه وسلم . ويحيط ببناء البيت من الداخل هامش من الرخام المجزع على ارتفاع نحو مترين .

وداخل البيت ألواح محفور فيها أسماء من أحدثوا به شيئاً من العمارة . وبجانب الباب على يسار الداخل خوان من الخشب مغطى بالحرير الأخضر موضوع عليها كيس مفاتيح الكعبة وهو من الأطلس الأخضر المزركش بأسلاك الفضة .

تفتح الكعبة فى العاشر من المحرم للرجال ، وفى ليلة الحادى عشر منه للنساء . وفى ليلة الثانى عشر من ربيع الأول . وتفتح فى العشرين من

المحرم لتغسل . وفى أول جمعة من رجب للرجال ، وفى مسائه للنساء ، وفى ليلة النصف من شعبان . وفى يوم الجمعة الأولى من رمضان للرجال وفى تاليه للنساء . وفى آخر جمعة من رمضان أيضاً ، وفى نصف ذى القعدة للرجال وفى تاليه للنساء ، وفى عشرين منه لغسلها ، وفى الثامن والعشرين منه لإحرامها ، أى بإحاطتها بقماش أبيض من الخارج على ارتفاع نحو مترين من أرض المطاف . وتفتح فى موسم الحج لمن يزورها من الحجاج ، وتفتح أيضاً فى نحو العشرين من ذى الحجة لغسلها .

ولغسل الكعبة احتفال عظيم ، يحضره كبار الشخصيات والحجاج ، فيدخل شريف مكة فيصلى ركعتين ، ثم يؤتى بدلاء من ماء زمزم فيغسل أرضها بمكانس صغيرة من الخوص ، ويسيل الماء من ثقب فى عتبتها ، ثم يغسلها بماء الورد ، ثم يضمخ أرضها وحوائطها على ارتفاع الأيدى بأنواع الأدهان العطرية ، وفى أثناء ذلك يكون البخور متصاعداً فيها . ثم يقف الشريف على الباب ويلقى على الحاضرين المكانس التى استخدمها فى غسل الكعبة ، فيتهالك الواقفون عليها ، فمن حصل على واحدة عدّها من الذخائر التى لا تقدر بمال (١) .

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين ج ٨ ص ١٤٦ .

فهرس

تم طبع هذا الكتاب
على مطابع دار المعارف بمصر

إقرأ

شيء من الخوف



ثروت أباظه

دار المعارف بمصر

شيء من الخوف

ثروت أباظه

شيء من الخوف

اقرأ ٢٩٢

دار المعارف بمصر

اقرا ٢٩٢ – ابرايل سنة ١٩٦٧

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . ع . م .

١

خالجه نفس الشعور الذى يخالجه كلما ركب القطار فى طريقه إلى القاهرة . كان يتحرى دائماً أن يتخذ مكانه بجوار النافذة لا يرفع نظره عن الحقول المنبسطة المترامية الأطراف لا يحد الحقل إلا حقل مثله ، وإن تباينت أنواع المزروعات واختلفت .

وكان يشعر دائماً أن هذه الأرض جميعها ملكه وأنه نبتة منها ولكن نبتة خالدة باقية لا تحصد ولا يعاد زرعها ، وإنما هى نبتت منذ ملايين السنين ثم بقيت . كان يخيل إليه أنه يعرف أغوار هذه الأرض وأنه كان فى يوم ما فى داخلها تحنو عليه أعماقها وتدفئه حناياها ويمده بالسقيا ماؤها حتى إذا انفجر إلى السطح كان هواء هذه التربة هو الذى يمده بالحياة . لم يكن هذا الشعور يخالجه وهو فى قريته فهى أضيق من أن تتسع لهذه الفكرة وإنما كان يحس بها دائماً إذا ما انفسح أمامه الوادى وانطلقت عينه إلى ما لا نهاية من الأرض حينئذ كانت هذه المشاعر تثب إلى نفسه خفيفة فى أنحاء شتى من كيانه فلا يدرى مأتاها .

وكان يخيل إليه أنه فلاح من هؤلاء الفلاحين الذين يعملون فى الأرض ثم ما تلبث هذه الفكرة أن تنداح فى وعيه ، فإذا هو يحس أنه هو جميع هؤلاء الفلاحين فهو الذى يدرس القمح وهو الذى يحصده ، وهو هو نفسه الذى يذروه . أو هو الذى يجمع القطن وهو الذى يسير خلف الأنفار وهم يجمعونه وهو هو نفسه الذى يفرز القطن وينقيه من شوائبه . وما تلبث أفكاره ومشاعره أن تضرب به فى أغوار الزمن فيحس

أنه هو نفسه الذى زرع هذه الأرض منذ بدأت هذه الأرض تعرف نفسها كمنتجة للزرع ، وحين لم تكن هذه الأرض شيئاً إلا أن تحمل الإنسان كان يخيل إليه أنه هو أول إنسان حملته لم تحمل قبله أحداً. كان يخيل إليه أنه هو أول من قدم إلى هذه الأرض من البشر فهى لم تعرف قبله أحداً ، ولا عرف هو قبلها أرضاً .

فهو يرى نفسه حيناً واقفاً فى أرضه هذه . . . أرضه جميعاً لا يقصد قطعة معينة منها ، ويرى رمسيس يشيد أمجاده هنا على هذه الأرض ويخيل إليه أنه كان فيما مضى من أزمان جندياً من جنود رمسيس ، أو هو جندى من جنود سيزستريس أو هو ملقى فى الحديد والقيود حول يديه وقدميه فى أزمان قمبيز . ثم هو يحس الحديد يحطم واسم الإسكندر يذيبه عن أقدامه وسواعده . ثم يمضى مع نفسه هذه الهائمة فى ملكوت التاريخ ، فيرى كليوباترا وقيصر ثم يرى أنطونيو . وحين يفرغ التاريخ من القوى الباطشة تهدى إليه الرسالات من السماء ، فيرى نفسه ساعياً وراء موسى على هذه الأرض نفسها . ثم يرى نفسه معذباً بالمسيحية سعيداً بها فى وقت معاً . ثم ينتهى به الأمر مع عمرو بن العاص مسلماً مؤمناً سعيداً بروحه وعقله وجسمه جميعاً . ثم يطوح به التاريخ فى جذبة قوية رائعة إلى هذا المستقبل القريب القريب حين هو تلميذ فى كتاب القرية يجرى بين دهاليز الكتاب الضيقة الصغيرة حافياً ينتعل التراب فى الفناء الضيق مع زملاء وزميلات . أما الزملاء فهم أصدقاء اليوم ، وأما الزميلات فإنهن زوجته وزوجات أصدقائه .

عجيبة هى الأيام فى تنقلها وئيدة الخطو سريعة العدو . تمشى كما تدور الأرض فلا يحس بها ولكنها تقلب الحياة تقليباً فتومض الشيب فى الرءوس وتذرو الغضون على الجباه وتنفث التجاريب فى العقول فتحيل السذاجة الناعمة الشفافة حرصاً معتماً كثيباً ، فإذا النفس التى كانت

مشرقة واضحة المعالم تغدو ملتوية المسالك خبيثة . . . ولا جناح عليها ولا تثريب فإنها تواجه زماناً كثير المسالك الملتوية خبيثاً يصيب من حيث يأمن صاحبه . أين الأيام الخوالى . . أين أيام كنت فيها طفلا لاهياً . ما الذى جعلنى أذهب إلى الكتاب . . لا ليس أبى . . إنه أنا . . . لماذا ! . . . لست أدرى . . كنت ألعب فى الساحة التى تنفسح أمام الجامع . . . تلك التى ما زالت على حالها فى الدهاشنة لم يغيرها الزمن . . . لماذا لا يغير الزمان الأرض ؟ . . كنت ألعب هناك بالكرة . . أى أنا كنت إذ ذاك . . أتراني كنت ذلك الأنا الذى صاحب رمسيس أم كليوباترا أم قمبيز أم موسى أم عيسى أم محمداً ، أى أنا فى هؤلاء كنت . . كنت ذلك الأخير . . كنت بجسمى هذا الباقى الذى لم يتغير . . وهل تغيرت الأجسام بين كل هذه الأزمان . . لا أدرى . . كل الذى أدريه أننى كنت أنا بذراعى هذه ورجلى هذه وكانت صغيرة إذ ذاك وكنت ألعب مع فايز بك . . نعم كان بك منذ ذلك الحين البعيد . . أنا لم أعرفه طوال حياتى إلا فايز بك يبدو أن البكوية ولدت معه يوم مولده بل لحظة مولده، ولعل القابلة أخرجتها من بطن أمه قبل أن تخرجه هو . . إنه بك منذ ذلك الحين منذ نحن أطفال نلهو لم نمثل للتعليم بعد . كنت أنا وهو فقط وكنا فى انتظار أن يأتى عبد الصادق ولكنه تأخر عنا ولم نكن نعلم فيم تأخره وكنا نريد أن نلعب الكرة وما كان لنا أن نلعبها دونه . ورأينا الناس يقبلون على الجامع فرادى وجماعات وكنا نعرف أنهم يدخلون إلى الجامع ليصلوا . . ولكن كيف كانوا يصلون لم نكن ندرى لا أنا ولا فايز بك ونظرنا إلى الناس وهم يتقاطرون على الجامع ويخلعون نعالهم ، وقليل هم الذين كانوا يخلعون أحذيتهم . ونظرت إلى فايز بك ونظر إلى ولم نتكلم وإنما قصدنا إلى باب الجامع فخلع هو حذاءه ولم أخلع أنا شيئاً وخطونا العتبة ، فإذا نحن فى الجامع . ووجدنا قوماً يميلون إلى اليمين ليدلفوا من

باب قلنا معهم ورأيناهم يغسلون وجوههم وأيديهم وأرجلهم ورءوسهم من بئر هناك فرحنا نفعل مثلما يفعلون ، ثم غادروا إلى حرم الجامع مرة أخرى فتبعناهم ، وما هى إلا دقائق حتى تقدم الشيخ جابر عبد التواب رحمه الله . . لقد خلفه اليوم ابنه الشيخ عبد التواب جابر أصبح اليوم مأذون القرية وخطيب المسجد فى آن واحد . لا أستطيع أن أنسى النكتة التى أطلقها عليه الولد عتريس بن عبد الصادق . . خيبة الله عليه أصبح شريراً . . ويلى أخاف أن يسمعنى . . يا لى من أحمق ! إننى لا أتكلم إنى أفكر . . أأخاف منه حتى وأنا أفكر . . لم أثار الرعب فى القرية عتريس عبد الصادق ، ولكنه كان مع ذلك طفلا وكان يقول النكت فى بعض الأحيان وكان يضحك أتراه يضحك الآن . . أتراه حين يقتل يضحك . . كان وهو طفل كثير الضحك . . كان يشاهد الشيخ عبد التواب جالساً دائماً فى دكان عبد الملاك البقال . . ياله من خبيث ذهب إلى عبد الملاك وقال : أعطنى بقرش زيتوناً وبقرش جبنة بيضاء والشيخ عبد التواب وبقرش حلاوة ، وقام الشيخ عبد التواب وراءه امش يا قبيح والله لسوف أقول لأبيك وأجعله يضربك بالمركوب وجرى عتريس يضحك هالعاً . واليوم أرى الشيخ عبد التواب يصيبه الهلع كلما ذكر أمامه عتريس . . أيام تتقلب . . لم يكن الشيخ عبد التواب هو الإمام يوم دخلنا أنا وفايز بك وإنما كان أبوه الشيخ جابر وأم الصلاة ورتل القرآن فى صوت جميل أخاذ « والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى ، ألم يجدك يتيماً فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى . فأما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر . وأما بنعمة ربك فحدث » الله أكبر .

وفى الصباح التالى كنت أنا لم أنم بل ظللت أترقب الفجر حتى



بزغ ، وإذا أنا أجد نفسى فى كتاب الشيخ عبد الكريم النهامى ، وإذا فايز بك يرسل إلى الشيخ عبد الكريم فى اليوم نفسه أن يذهب إليه فى السراى ليحفظ القرآن على يديه .

مرت بى فى الكتاب أعوام قلائل ، فإذ أنا العريف ويوم توليت منصبى هذا قدمت فاطمة إلى الكتاب . ما كان أجملها يوم ذاك . . طفلة وضيئة الطلعة مشرقة العينين بهيجة النفس ، أنا لا أراها حتى اليوم إلا كما كانت حينذاك . . جلباب أخضر زاه ووجه أبيض ناصع فيه ضياء ينبعث منه عينان فيهما صفاء كصفاء العسل الأبيض وفى لونه أيضاً . وضفيرتان من الشعر الأسود اللامع من غير زيت .

وكنت العريف . فكانت تقرأ على . . وكنت أصحبها بعد أن ينتهى الكتاب . وكانت تقرأ وكنت أمسك أنا لها اللوح . لا أنسى يوم غرقت حين كنا نمشى بجانب النهر . كانت هى بجانب النهر وكنت أنا بجانبها وزلقت قدمها فإذا هى جميعاً فى النهر . ولم أكن أعرف العوم . لماذا لم أكن أعرف العوم ؟ . . لا أدرى وإنما لم أتردد . . ألم أكن أخاف يومذاك فما لى اليوم أخاف من عتريس . . كانت نفسى على سجيتها ولم أكن أقدر حياتى قدرها ، ولم تكن لى فؤادة أخاف عليها أن أموت فلا تجد لها أباً . . أترانى كنت شجاعاً ثم صرت جباناً . . أم ترانى كنت جباناً ولكنى لم أفكر . . وكيف أكون جباناً ولا أفكر وهل الجبن إلا تفكير . . رميت بنفسى فى النهر وأنا لا أعوام وفى لحظة خاطفة امتدت يدى إلى الصفصافة التى تحنو على النهر . . لكم أحب هذه الصفصافة . . تشبثت بشعور الصفصافة المتهدلة إلى مياه النهر ومددت رجلى بأقصى ما تستطيعان أن تمتدا وتشبثت فاطمة بقدمى ورحت أشد جسمى إلى الأرض شيئاً فشيئاً وفى بطء شديد وفى حرص أشد أن تفلت يدى بشعور الصفصافة أو تفلت فاطمة قدمى حتى بلغت الأرض ومددت يدى إلى فاطمة وخرجت

إلى الأرض واستلقت عليها . . كم هى حبيبة هذه الأرض . ومرت أعوام الكتاب . وختمت حفظى للقرآن وخرجت إلى الحياة .

ظل فارغاً فترة طويلة بعد أن ترك الكتاب . كان يحن إلى فاطمة . ولكن كيف له أن يذهب إليها . ولم يكن الحنين وحده كافياً أن يشغل وقته . وفى يوم عزم على أمر فما لاح الفجر من اليوم التالى حتى خرج إلى غيط أبيه وبدلا من أن يشرف على الرجال وهم يفلحون الأرض ربت كتف عبد الجليل أبو سعفان .

– عبد الجليل .
– أفندم ياسى حافظ .
– هل عندك فأس أخرى ؟
– لماذا ؟
– هل عندك فأس أخرى ؟
– نعم .
– اذهب فهاتها .
– وهذه ما لها .
– سأستأجرها منك .
– أنت .
– نعم .
– تفلح الأرض معنا . . أنت ياسى حافظ يا ابن الحاج خالد أنت ؟! .
– أعطنى فأسك ولا تطل .

وقالوا مجنون ، ولكن ما شأنه هو أن يقولوا واستمر عاماً وبعض عام حتى جاء فايز إلى القرية ، فذهب إليه وتحادثا . . رأى فى حديثه نوراً جديداً يريد أن يروده . . كان لا بد له أن يعلم علم فايز . لقد ذهب فايز إلى المدرسة فى المدينة فما له هو لا يذهب .

— آبا . أريد أن أذهب إلى المدرسة .

— قل ماذا تريد من مال ومع السلامة .

— غداً أذهب .

— غدا تذهب .

وكان هذا هو فراقه عن الفأس . ولكنه إن فارق القرية فسيفارق فاطمة أيضاً . . كيف يستطيع إن يفارقها . لم يكن يراها إلا قليلا ، ولكن أنفاسها فى القرية ، فهو يعيش فى أجوائها . فكيف يفارق القرية . ولكن لا بد له أن يعلم علم فايز . فكيف على الأقل يبلغ فاطمة أنه مسافر فى غده آخذاً طريقه إلى المدينة وإلى العلم .

ذهب إلى عبد الصادق فى بيته .

— عبد الصادق .

— ماذا ؟

— أريد أن تأتى معى لنتمشى .

— عند الصفصافة طبعاً .

— هل عندك مانع ؟

— مللت الصفصافة . . تعال نذهب إلى الناحية الأخرى من القرية هناك عند النخيل .

— إلا اليوم .

— ولماذا اليوم ؟

وتردد قليلا ثم قال

— لا أدرى إلا أنى أريد أن أذهب إلى الصفصافة . . لا أدرى ألا تحس فى أحيان معينة أنك مشتاق إلى مكان معين . . أنا الآن مشتاق إلى الصفصافة .

— أمرك نذهب إلى الصفصافة . . نذهب إلى الصفصافة . .

ــ يقطع الـ . .

وقبل أن يكمل الكلمة كان حافظ قد وضع يده على فمه فى خوف ،

ــ اسكت . . وهيا . . ولا تطل الكلام .

وجلسا عند الصفصافة . وظل حافظ صامتاً ، ولكن عبد الصادق لم يسكت . . .

ــ لقد أردت أن أجيء معك لأخبرك خبراً يفرحك .

وقال حافظ وعينه إلى طريق القرية وذهنه إلى بيت فى القرية لا يريم عنه .

ــ هه .

ــ لا . . اصح واسمع كلامى وأحسن سمعه . . وإلا قمت والله وتركتك وحدك أنت والصفصافة .

وانتفض حافظ فى ذعر . . فإنه يحتمل كل شيء إلا أن يقوم عنه عبد الصادق الآن فقد كان يريده بكل خلجة من مشاعره ، وبكل دقة من قلبه .

ــ لا . . تقوم ؟ . . وهل هذا يصح . . أنا أسمعك . . أسمعك تماماً

ــ ألا تعرف أنى فكرت فى الزواج .

وانتبه حافظ إلى صديقه تماماً .

ــ ماذا

ــ نويت أن أتزوج نبوية .

ــ نبوية بنت حسنين العكر ؟

ــ هى نعم بنت حسنين العكر .

ــ وأبوها .

ــ ماله أبوها ؟

ــ مجرم !

ــ تخافه الجهة كلها .
ــ ولكنه مجرم !
ــ إنه رجل . . ليس مثله بين الرجال .
ــ إنه مجرم .
ــ اذكر لى اسما واحداً لا يخاف حسنين العكر . . حتى فريد باشا يخافه .
ــ الإجرام ليس رجولة .
ــ فما الرجولة ؟
ــ ألا تخاف أن يصبح أولادك مجرمين .
ــ ياليت .
ــ ستندم .
ــ لا تخف . . فليكونوا هم كجدهم ، ولا شأن لك . إننى حينئذ سأكون أسعد أب فى الدنيا
ــ وإذا أغضبت نبوية . ألا تخاف أباها ؟
ــ ولماذا أغضبها ؟
ــ بين الزوج والزوجة لا يخلو الأمر من الغضب .
ــ لن أغضبها .
ــ أخاف عليك من هذا الزواج !
ــ يا أخى لا تخف . . قل لى مبروك .

وقبل أن يقول حافظ شيئاً رأى فى أفق الطريق القريب جمعاً من الفتيات يقترب إليه هو وصديقه فظل نظره متعلقاً بالطريق ، فى حين راح عبد الصادق يهزه .

ــ مالك . . مالك ساكتاً . . ألا تقول لى مبروك ؟
ــ هه . . آه . . نعم . . صحيح . . مبروك



وران الصمت بين الصاحبين ، حتى اقترب سرب الفتيات وكانت فاطمة بينهن . أقبلن إلى الترعة يملأن منها الجرار . وكانت الجماعة قريبة من حيث جلس الصديقان وصاح حافظ . .

— ألم تعرف يا عبد الصادق .

— ما لك تصيح هكذا . . أرأيتني قد فقدت السمع .

— أنا مسافر غداً إلى المدينة وسأبقى هناك .

— عجيبة .

— سأذهب لأتعلم فى المدرسة .

— ولماذا لم تقل لى هذا الخبر المهم من ساعة أن رأيتك ؟ وعلى كل حال لماذا تصيح ؟

— لن أنساك أبداً يا عبد الصادق .

— لن تنسانى .

— لا بد أن تأتى إلى هذه الصفصافة دائماً يا عبد الصادق .

— أنا ! حد الله بينى وبين الصفصافة .

— إياك أن تترك يوماً دون أن تأتى إلى الصفصافة . . أنت تعرف كم هى غالية عندى يا عبد الصادق .

— وأنا ما لى !

ورأى حافظ إجابة كلامه فى عينى فاطمة وفى ابتسامتها . . فراح يصيح :

— أحبك .

صرخ عبد الصادق .

— ماذا ؟

— أحبك يا عبد الصادق .

— أحبتك العافية . .

ــ أنت حبيب العمر يا . . عبد الصادق

ــ حفظت . . والله أخ . أخ والله ياسى حافظ .

ــ أريد أن أقبلك يا عبد الصادق .

واحمر وجه فاطمة وقال عبد الصادق :

ــ الله يبقيك . . ولكن يعنى . . لماذا ؟

ــ لأنك ستتزوج . . ادع لى أنا أيضاً أن أتزوج يا عبد الصادق . . تعال أقبلك :

ــ إنك منذ لحظة لم تكن تريد أن تقول لى مبروك . . مبروك لم أنلها منك إلا بطلوع الروح ، والآن تريد أن تقبلنى . . ربنا يجعل العواقب سليمة .

وكانت فاطمة قد ملأت الجرة بعد أن نظفتها مرات كثيرة حتى ضاقت بها زميلاتها وأرادت فاطمة أن تنصرف ، فألقت إليه نظرة فيها فهم وفيها ضحكة عميقة فرحانة متألقة . وقال حافظ صائحاً ما يزال :

ــ مع السلامة يا عبد الصادق .

ــ ماذا . . وهل أنا المسافر أو أنت ؟

ــ أقصد أفوتك بالعافية . . ولا تنس أن تزور الصفصافة

ــ والله لن أزورها أبداً .

ــ كل يوم يا عبد الصادق . . كل يوم . . إياك أن تنسى .

ــ ولا يوم وحياتك . . إنى أجىء معك لأجل خاطرك فقط . أما أن أجىء وحدى فهذا هو المستحيل . . وعلى كل أنا سأكون مشغولا بالزواج فى الأيام الآتية . . الله . . معنى هذا أنك لن تحضر فرحى . . هه ألن تحضر فرحى .

وكانت فاطمة قد انصرفت وكانت عينا حافظ متعلقتين بالبقية الباقية البادية من خيالها ، وكانت روحه جميعها ترافقها ، وكانت أذناه منصرفتين

عن عبد الصادق كل الانصراف . . لم يعد يسمع شيئاً . . لا شيء . . لا شيء أبداً .

وسافر فى غده شاباً أسمر اللون ، قوى الملامح ، بارز الجبهة . عميق النظر ، أسود الشعر فاحمه غزير الحاجبين ، رقيق الشفتين ، مفتول الذراعين ، ذا مشية ثابتة متطلعة إلى المستقبل فى تفاؤل وإصرار ، لا هو بالطويل البالغ الطول ولا هو بالقصير الذى تأخذه العين . شاباً فى مطالع الشباب يبدأ تعليمه فى المدارس ، فهو متفتح الذهن بما تعلمه من قرآن ، متفتح القلب بحبه هذا الذى ينتظره فى القرية . قصد إلى المدرسة فى هدوء مطمئن ووجد رفاقه أو الغالبية العظمى من رفاقه فى مثل سنه إن لم يزيدوا فى أعمارهم عليه . . وواصل تعليمه حتى نال شهادة الكفاءة وعاد إلى القرية . وجد فايز بك رفيق ملعبه قد تزوج من قريبة له وأنجبا ابنهما طلعت ووجد صديقه عبد الصادق قد تزوج من نبوية فولدت له عتريس . فلم يجد بأساً أن يقصد إلى أبيه :

ـ آبا أريد أن أتزوج .

ـ اخترت أم أختار لك ؟

ـ فاطمة بنت الحاج قاسم الطيب .

ـ ونعم ما اخترت يا ابنى .

وتزوجا . ولم يمكث بالقرية ، وإنما اختار أن يعمل موظفاً بالقاهرة . لكم نعما بهذه الأيام التى قضياها بالقاهرة . وفيها أنعم الله عليهما بابنتهما الوحيدة فؤادة ، فتمثلت الحياة جميعها لهما فى هذه الطفلة الصغيرة يهبان لها كل ما يستطيع الأب والأم أن يهبا واطمأنت بهما الحياة سنوات. سنوات قليلة ثم فجعه الدهر بموت أبيه . نظر إلى الحياة يومذاك فوجد نفسه يقف وحيداً فى لقاء الدهر . ترك وظيفته وعاد إلى القرية .

كان فريد باشا قد مات هو أيضاً ، وتولى فايز إدارة أعمال أبيه

ووجد الفلاحين يشكون من فايز ومن سوء معاملته لهم . ولكنه لم يستطع أن يقول قولهم . بل كان يسمع من كثير آخرين مديحاً لفايز لا يشوبه نقد ولا تقف به كراهية ، وقد ظل حتى يومه هذا لا يدرى إن كان فايز يستحق المديح أم هو يستحق الكراهية .

وعاش حافظ فى القرية سنوات طويلة . وكبر عتريس ، فإذا هو يرث الإجرام عن جده . ويبدأ صيته فى هذا الميدان يعلو ويرتفع وحينئذ قطع حافظ ما بينه وبين عبد الصادق . ولكن عبد الصادق لم يقبل هذه القطيعة ، فهو يزور حافظ بين الحين والآخر ، وحافظ يستقبله مبالغاً فى الحفاوة والإكرام ، ولكنه مع ذلك لا يرد زيارته . وتكبر فؤادة ، فهى شابة فى ريق العمر ، أخذت عن أمها إشراقة نفسها وإيمانها المطلق بالله ، وأخذت عن أبيها طيبة نفسه وسماحة مشاعره . ولكن شيئاً غريباً آخر تسرب فى هوادة وإصرار إلى أخلاقها . لم يكن حافظ يستطيع تعليله أتراها الكتب التى تصر على قراءتها ما أمكنتها الفرصة . أم تراه ذهابها فى كثير من الأحيان للست تفيدة زوجة فايز بك التى كانت تجد فيها عقلية مثقفة وحديثاً عذباً لا يشابه حديث الأخريات من بنات القرية . لقد أحبتها تفيدة منذ كانت فؤادة طفلة تلهو مع ابنها طلعت . وحين منعت السن فؤادة أن تلعب مع طلعت أصبحت تزور تفيدة وتجالسها إن لم يكن فى كل يوم من أيام الأسبوع ففى أغلب أيامه .

كانت فؤادة سمراء سمرة ما تكاد تلحظ ، سوداء الشعر غزيرته ذات عينين واسعتين نفاذتين تخترقان الحياة فى فهم وذكاء ، وكانت قوية الأسر لا يستطيع من يراها مرة إلا أن يذكرها دائماً . وكانت أقرب إلى الطول منها إلى القصر أقرب إلى النحافة منها إلى السمن . تحب أن تضحك ، ولكن قليلا ما كانت تجد شيئاً يضحكها .

فهى تبقى على ابتسامة حلوة تعلقها بشفتيها الرقيقتين وكأنما هى تتهيأ

للضحك عند أول بارقة تلوح بما يستحق الضحك . تسربت إلى أخلاقها من حيث لا يدرى أبوها ولا يدرى أحد ، عناصر من العناد والإصرار ، فهى إن أرادت شيئاً حشدت كل قواها لتناله . لم يكن أبوها كذلك ، هو تعود ألا يريد شيئاً فإن أراد شيئاً ، ونادراً ما يريد ، فهمسة خجلة مترددة إن أفادت فبها ونعمت ، وإلا عادت الهمسة تدوى فى داخله ، وينتهى بها الأمر أن تذوب مع الأمنيات المستحيلة التى قد تدور فى النفس ولا تصل إلى اللسان . وأما أمها فملقية أمرها كله على الله ، فما يأتى به الله خير ، وما يمنعه عنها الله فهو شر ، والحياة كما تحيا جميلة لا تريد منها أكثر مما تعطى ، والحمد لله الواحد الخلاق فيما أعطى وفيما يمنع . من أين تسرب هذا العناد إلى نفس فؤادة . من أين ؟

ومع صوت القطار ظلت كلمة من أين تدوى فى مشاعر حافظ فتهز كيانه جميعاً ، وكان القطار يوشك أن يصل إلى القاهرة فهو يوهن من سيره الحثيث ويهن معه دوى من أين فى نفس حافظ حتى يصمت القطار ، ويفرغ حافظ إلى القاهرة وينزل من القطار أهم ما يفكر فيه أن يشترى بعض الكتب لفؤادة وخماراً للصلاة طلبته منه فاطمة . .

٢

كانت فاطمة قد تعودت منذ تزوجت حافظ أن تصلى ركعتين لله دائماً مع كل صلاة فجر أن يفتح الله الأبواب أمام زوجها ، وأن يمنع عنه كل مكروه . فإذا سافر حافظ فالركعتان أربع ركعات أن يعود زوجها إليها بالسلامة . فزوجها عندها هو الحياة كل الحياة .

فمنذ ذلك الحين البعيد الذى لقيته فيه بكتاب القرية وهى تحبه . وما زالت تذكر ذلك اليوم حين أصر أبوها أن تتعلم ابنته القرآن وأرادت أمها يومذاك أن تعارضه ، فإذا هو يقول فى هدوء :

— ستتعلم القرآن إن شاء الله .

وكانت هذه الكلمة وحدها كافية لأن تأخذ طريقها فى صبيحة اليوم التالى إلى كتاب القرية ، كادت تبكى أول الأمر . ولكن ذلك الشاب الأسمر ذا الابتسامة الحنون الطيبة استقبلها فى تشجيع وأخذ منها اللوح وخط لها الدرس الأول فى غير زهو بعمله ولا استكبار . أقبلت وجلة فى صدر النهار ثم متحمسة فى آخره . وأصبح الكتاب وذلك الفتى الأسمر هو كل شىء فى حياتها منذ ذلك الحين إلى سنوات طويلة . ثم انفرد الفتى الأسمر بحياتها . ولكم تستغفر الله أنها كانت تفكر فيه دون أن يربطها به رباط شرعى فهى تصلى أن يمحو الله عنها هذه الخطيئة ، وهى تبالغ فى الصلاة والاستغفار حين تذكر يوم انزلقت قدمها فوقعت فى النهر ، أنها يومذاك لم تكن تفكر فى كلام الله الذى تتلوه ، وإنما كانت تفكر فى هذا الفتى الأسمر الذى كان يمسك لها اللوح .

وكانت تدمع عيناها فى صلاتها وهى تطلب المغفرة ، وكانت واثقة

كل الثقة أن قدميها لم تنزلقا ، وإنما الملائكة هم الذين شدوا قدمها إلى النهر جزاء وفاقاً لها عن نسيانها جلال كلمات الله ، وتفكيرها فى ذلك الفتى الذى يمسك اللوح . كم هم رحماء هؤلاء الملائكة لم يغرقوها فى ذلك اليوم ، وقد كان من حقهم أن يغرقوها ، وإنما هيأوا لها هذا الفتى الأسمر لينقذها ويعيدها إلى الحياة . ومنذ ذلك الحين تعودت فاطمة إذا قرأت القرآن أن تنسى كل شىء إلا القرآن الذى تقرؤه . كما تعودت أن تستغفر الله كلما ذكرت حافظ ، وهكذا كان أبوها كثيراً ما يسمعها تطلق هذه التنهدة العميقة وتعود بعدها فى صوت خاشع متخاضع فيه كثير من الرجاء، وكثير من الروحانية أستغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم . وكثيراً ما كان أبوها يقول إياه يا بنتى ! وأى ذنب اقترفته حتى تطلبى الغفران بكل هذا الخشوع ويبتسم . كان طيباً أبوها . . يعرف أن ابنته نقية كماء السماء عفيفة كالملائكة فما كان يزيد على ابتسامة يطلقها فى حنان ويعود إلى تسبيحه مرة أخرى خاشعاً هو الآخر مؤمناً أعمق الإيمان .

ولكنها مع ذلك لا تستطيع أن تنسى ذلك اليوم الذى أشرفت فيه على الغرق ــ حين غمرها الماء ثم صعدت إلى الهواء فلقفت أنفاساً وراحت تمد يديها دون أن تدرى إلى أى شىء تمد هاتين اليدين ثم غمرها الماء ، فهى فى هلع وصعدت لتختطف من الهواء بضعة أنفاس أخرى ثم يغمرها الماء . لم تكن تفكر فى هذه اللحظات فى شىء ، إلا أنها كانت كلما صعدت إلى سطح الماء تذكرت أن تقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ولكن جهلها بالعوم لا يمهلها أن تقول شيئاً ، فهى ما تلبث أن تعود إلى الغمرة مرة أخرى ولا يعى ذهنها شيئاً . حتى ارتطمت يداها بشىء فى الماء ما لبثت أن تعلقت به كان قدميه . وتشبثت بهما وصعد فما إلى الهواء وقالت أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، ولكنها فى هذه المرة كانت تحمل معنى العودة إلى الحياة

بعد أن كانت تريد أن تقولها فى وداع الحياة .

وحين استقر جسمها على الأرض أحست أنها تكره ذلك الفتى الذى أنقذها ، فقد كانت واثقة فى لحظتها تلك أنه هو وحده السبب فى غرقها وأنه لولاه ما ألقى بها الملائكة إلى براثن التهلكة ، قليلا ما أحست بكره فتاها ،وما أضأل الكراهية التى أحست بها نحوه، كغلالة من دخان لا تحجب ولا تعتم ولا تكاد ترى. قليلا ما أحست بهذا الكره، ثم أنا المخطئة ، إنه أنا التى كنت أفكر فيه وليس هو . أحببته كما كنت أحبه . ولم أزد فما كان ثمة فى قلبى مكان لزيادة كنت أحبه. بعد الله وبعد النبى وقبل . . ولماذا المقارنة كنت أحبه بكل ما أعرفه من معنى الحب . لكم فرحت وهو يلتى إلى خبر سفره جاعلا عبد الصادق طريقه إلى . ما الذى جعل اسمه عبد الصادق أنا لا أحبه . فإن الذى يلد عتريس ليس خليقاً أن يحب أبداً . كيف استطاع هذا الإنسان الذى يأتى إلى بيتنا والذى يحاول أن يضحك دائماً ويمزح ويقهقه ، كيف استطاع هذا الإنسان أن يلد كل هذا الهول الذى يملأ القرية والقرى المحيطة بها بل البعيدة عنها أيضاً، أنا لا أخافه فأنا واثقة أن الله أكبر منه وأقدر عليه من العبد ولكنى أكره هذا الخوف الذى يلقيه فى قلوب الناس . أكره الرعب من غير النار وأكره الخشوع لغير الله . وأكره السلاح الذى يسلطه على حياة الناس فحياتهم قلق ومشقة وخوف . ولكن «عتريس» يسلط عليهم الخوف كل الخوف فهم فى رعب لا يتركهم ، رعب دائم لا يتخلى عنهم حياتهم جميعاً . كم كان حافظ ذكيا وهو يلتى إلى الحديث عن طريق عبدالصادق لقد فهمت زكية أم عليوة ما كان يريده حافظ من حديثه ، ما الذى جعل أباها يسمى عليوة وماذا أعجبها فى الاسم حتى تسمى به ابنها أيضاً، أصبح عليوة محامياً . ولكنه لا يريد أن يترك الدهاشنة بل هو باق بها ويذهب إلى البندر فى كل يوم . لكم يكره الشيخ عبد التواب عليوة بن

زكية أم عليوة ! كان الشيخ عبد التواب قبل أن يصبح عليوة محامياً هو مفتي القرية لا ينازعه في فتواها أحد واليوم هبط عليه هذا المحامى لا يكتفى بالقضايا والإجرام بل يفتى فى الدين أيضاً . ألهذا السبب يكرهه . هل الكراهية شيء بسيط إلى هذا الحد ، كيف يسمح الشيخ عبد التواب لنفسه وهو يحمل كلام الله ، الله الرحيم الغفور ، كيف يسمح لنفسه أن يسب عليوة للناس ويرميه لهم بالجهل والكفر والزندقة . هل الكفر والزندقة شيء بسيط يرمى به الناس هكذا دون تفكير . فهمت زكية ما كان حافظ يريد أن يقول. خبيثة زكية ، وكانت تبتسم دائماً كلماذهبت إلى الصفصافة فى موعدى اليومى . وكثيراً ما كانت تقول وصية حبيب القلب . أنا شاهدة على الوصية ، وإذا قلت فى جد إنما أملأ الجرة ضحكت فلا يفلح جدى ولا تقطيبى أن يخفى شيئاً مما أضمر . لماذا نحاول أن نخفى الحب. فى حين أن الشيخ عبد التواب لا يحاول أن يخفى الكراهية . جميل هو الحب . . حب الله وحب النبى وحب الزوج ولكنه لم يكن زوجى حينذاك .

وحين طلب حافظ يدها من أبيها كان أبوها حريصاً أن يسألها رأيها ، وسأل وسكتت ثم ابتسمت ثم أومأت أن نعم . وحين تزوجا وخلت بهما الحجرة وقبلها حافظ أومض فى ذهنها أن هذا حرام ثم ما لبثت أن تذكرت أنه زوجها وأن الحرام كل الحرام ألا تطيعه إذا قبلها فأطاعت . وحين انتقلا إلى القاهرة امتلأ قلبها خوفاً . كيف تترك مهد حياتها جميعاً منذ الطفولة التى لا تعيها إلى البواكير الأولى من الصبا والكتاب وحافظ وذكريات هواها وأباها وأمها وصديقاتها وجميع هذه القرية بمن فيها من ناس . ناس تعرفهم جميعاً وكلمتهم جميعاً . تحية عابرة أو حديثاً طيباً سمحاً . وأولئك الصديقات اللواتى طالما طلبن منها أن تؤدى لهم خدمات . تلك الخدمات الصغيرة الحبيبة إلى النفس تلك الأشياء الدقيقة الرقيقة فى حياة الناس التى تزيد الصلات قرباً وتجعلها قوية متينة . تحب أولئك الصديقات اللواتى

تركن لها أطفالهن ريثما يقمن بشأن من شئون حياتهن المليئة بالعمل أو أولئك اللواتى طلبن إليها أن تملأ لهن الجرار لأنهن مريضات أو أولئك اللواتى سألنها أن تشاركهن فى خبز العيش تحبهن أكثر من أولئك اللواتى أدين لها هى الخدمات الصغيرة . كيف تترك هذا جميعه إلى القاهرة . ويلى من القاهرة واسعة سعة الدهر . ولكنها لى . . لى أنا كانت ضيقة ضيق اليأس . وحيدة أحس الوحدة لأول مرة فى حياتى . هناك فى القرية . فى الدهاشنة كنت أجد الأنس مهما تكن الوحدة محيطة بى أما هنا فى القاهرة فأنا فى وحدة مهما تكن الجارات حوالى . أنا هنا فى جزء من بيت إن رفعت صوتى عن الخفوت قليلا أصاب كثيراً من الآذان ، ولكنه لا يصل إلى قلب أحد . أما هناك فقد كانت نجواى تبلغ إلى القلوب وإن لم يصل منها إلى الآذان شىء . وحيدة كنت فى القاهرة . فما كنت أستشعر الأنس ولا الألفة ولا الاطمئنان إلا حين نلم بالقرية فى زيارة عابرة أو زيارة فيها شىء من المكث والقرار ثم جاءت فؤادة . ما أحلى فؤادة ماذا أفعل وهى فى كل يوم ذاهبة إلى الست تفيدة وتفهم أباها وتريد أن تفهمنى أن الزيارة موجهة إلى تفيدة كأنى لا أذكر أيام كان طلعت طفلا ، فكان لا يترك منزلنا منذ مشرق الشمس حتى يضمه بيته عند المساء كأنى لا أذكر هذه النظرات التى كانا يتبادلانها وهما يتلمسان طريقهما إلى الباب كل منهما يتعرف على شبابه فى عين الآخر . كنت أرى . وحين عرف كل منهما شبابه وكادت المعرفة تتوطد انقطعا كلاهما عن رؤية أحدهما الآخر أمام الناس . ولكنها تذهب إلى الست تفيدة . كم هى جميلة فؤادة وكم أخشى عليها ، وماذا أقول لأبيها . لا أنسى يوم مولدها ، أول مرة رأيتها . رأيت حبى لحافظ يتجسم أمامى فإذا هو حبى للحياة . أهذه النظرات الداهلة التى ملأت ما حولى أنساً وهداية رأيت فى وجهها الله . ولم لا أليست الإنسانية كلها ناشئة عن فؤادة وهل هناك آية

أعظم من الإنسان . لقد خلق الله الكثير وأنزل الأديان ولكن آيته العظمى ما زالت هي الإنسان . سره الغامض وصرحه الضخم وبنيانه الذى لا يبلى فهو باق فى الدنيا وفى الآخرة لا ينتهى. كانت فؤادة حلوة كالأمل تحقق ، كابتسامة خالدة على وجه الزمن . وحين جئنا إلى القرية لم أشأ أن يقتصر تعليمها على الدين كما كان الشأن معى . فرحت ألح على كل ذى علم فى القرية أن يعلمها من علمه شيئاً . وأحبت القراءة . وأحبت المدرسة وأصرت على الذهاب إليها . أتراها تكلم طلعت فيما تقرأ. ماذا أقول لأبيها عن طلعت . لا بأس أن يتزوجها . أترانى لهذا أغمض عيناً كان من واجبها أن تتنبه . إنى واثقة من ابنتى . بل واثقة من طلعت . ولا بأس به أن يتزوجها فحافظ وإن جهل مكان نفسه من أعيان الدهاشنة وإنى أرى فايز بك لا يستكبر مثلما كان أبوه يستكبر وأرى طلعت أكثر تواضعاً . وهل يعرف القلب كبراً . لعله الشرف كل الشرف أن تحبه فؤادة وأن تتزوج منه . وهل هنالك شرف أبعد أو أعظم من أن يلتقى حبان ويتناجى قلبان ويكتمل الهوى بينهما بزواج ، الزواج الشرعى الذى أراده الله يوم شرع الزواج هو الحب ، الحب وحده الشريعة ومراسم الزواج إعلان لهذه الشريعة أن تذيع بين الناس فلا يكون الزواج بغير حب . ألم يحتم الشرع رضاء الزوجة وطلب الزوج . فهو الحب إذن مهما تكن منابعه ، قد ينبع عن العقل أو قد ينبع عن القلب وعن أى المصدرين يصدر يصبح زواجاً شرعياً . هى تحبه . لم تقل ، ولكن ما ذهابها إلى الست تفيدة كلما استطاعت إلى ذلك سبيلا أو كلما اختلقت إلى ذلك سبيلا وهو يحبها . وإلا فما بقاؤه فى البيت كلما ذهبت . نعم إنى أسألها هل كان طلعت موجوداً وتجيب بنعم سريعة ، وكأنها لا تفهم ما أقصد إليه وتبحث فى سرعة وفى ذكاء عن موضوع آخر . والعجيب أنها دائماً تجد الموضوع الآخر لن أقول لحافظ شيئاً . أأقول ظنوناً قد تصدق أو لا تصدق . أأثير

مخاوفة ومكامن القلق فى نفسه من أجل أفكار . . إنما هى أفكار وهل تأكدت من شىء وهل ثمة شىء أتأكد منه . مجرد نظرات لعلى رأيتها بآمال وبما أهفو إليه من مستقبل ابنتى . أصلى أربع ركعات لله أن يعود زوجى آمناً سالماً . الله أكبر . ولم تفكر فى شىء وهى تصلى إلا أن تتلو الآيات فى خشوع وإيمان وتؤدى الصلاة على أكمل وجه حتى إذا أتمتها وسلمت عن يمين وشمال راحت ترنو إلى الأريكة التى تواجهها بحسبها أن يعود زوجها سالماً فيلبس جلبابه وطاقيته ويربع رجليه على هذه الأريكة ويروى لها عن القاهرة وما رآه . إنها لا يهمها من أمر القاهرة شىء ، ولكن يهمها كل الأهمية أن يجلس زوجها على الأريكة ويروى .

٣

كل ما يحيط بها أمن . هى واثقة من الزمن ، واثقة من نفسها ، لا تعبأ بشىء ، تفعل ما تراه خليقاً أن يفعل ، لا يهمها رأى أحد ما دامت هى مطمئنة إلى رأيها ، أحبت فلم تخف من الحب . وقد مشى الحب إلى قلبها مذ عرفت قلبها ، فقد تعرفت على قلبها أول ما تعرفت وفيه هواه . منذ هى طفلة وقلبها طفل وشبا وشب الحب معهما . لم يعنها أن تحب البك ابن البك بن الباشا . وإنما أحبت فى صراحة مع نفسها ، وفى اطمئنان ودون خوف .

فالحب عندها نبضات قلب ، وما كانت تتصور أن قلباً يعيش دون نبضات ، لم تعلن حبها إلى أحد لأنها لم تر داعياً إلى إعلانه . ولم تهمس إلى طلعت وإنما كانت تعرف أنه يحبها ، وأنه يعرف حبها له . فقد همس لها يوماً :

ـــ أتحبيننى قدر ما أحبك ؟

وابتسمت له ابتسامة تعرف هى ما حملته من معان ثم لم تزد شيئاً .

واستمر حبهما بعد ذلك على أساس من هذا السؤال الطيب وهذه الابتسامة المحملة بالمعانى . وقد كانت واثقة من نتائج حبها ثقتها أن اسمها فؤادة ، وأن اسم حبيبها طلعت ، وثقة أخرى كانت مستقرة فى قلبها . كانت تعتبر الحب هو الزواج الحقيقى وأن ورقة المأذون إنما جعلت لإعلان هذا الحب .

كانت كلما سمعت عن زواج فى القرية سألت العروس :

ـــ أتحبينه ؟

فإن أجابتها :
— نعم .
قالت :
— إذن فهو زواج .
وإن قالت لها :
— أمر أبى .
أو :
— أمر أمى .

سكتت فؤادة بلسانها ، وقال قلبها لم يتم زواج . إنها وجدت معنى الحب هذا العميق ضارباً فى الأعماق البعيدة فى نفسها ، فكأنما ولدت ومعها هذا المعنى . وياطالما سمعت أمها تعيد هذا الكلام ، فما كانت تحب من أمها حديثاً مثل هذا الحديث . بل كانت تدهش إن وجدت رأياً لا يتفق ورأيها هذا . كان الحب عندها هو أنغام الحياة جميعاً فإن سمعت موسيقى فهى رسول من وادى الحب الظليل وإن قرأت شعراً فمنبته فى رأيها أفناء الحب الوارفة وإن رأت يداً كريمة تمتد لفقير بائس أو محتاج فى ضنك ، فاليد ممتدة أولا وقبل كل شىء من منابع الحب الصافية الخالدة فى أعماق الإنسانية . الحب هو جمال فى الحياة هو كل معنى كريم فى صلات الناس ، وحين يتلاشى الحب أو يهن بين القلوب فالحياة إلى شر وعذاب وألم ، فالجريمة لم تصبح جريمة إلا لأن صاحبها لم يدر ما الحب ، فلو درى الحب ما أجرم ، والشرور كلها تنضح عن آنية البغضاء أو الحقد أو الطمع خلت من الحب . . . والحب هو كل حياة جميلة فى الحياة .

هائمة فؤادة فى معانى الحب وفى ألوانه ، تحب الحب بكل نأمة من كيانها وكل نبضة من قلبها وكل مسرى فى دمائها وكل عرق من أعراقها .

تمثل لها الحب جميعاً فى كل صلة من صلاتها ، فهى تحب أمها وتعجب بها أحياناً ولا تعجب بها أحياناً أخرى ، ولكنها تحبها ، وهى تحب أباها وتعجب به أحياناً حين يحنو عليها ويعطف على أمها ، ولكنها لا تعجب به حين يخاف من عتريس ومن عبد الصادق ، ثم تظل مع ذلك تحب أباها . وهى تحب الله ولا تناقش من شئونه شيئاً وإنما هى تحبه ولا تحاول أن تعلل هذا الحب أو تتعمق أسبابه أو منابعه . هى تحبه وكفى وتخشى أن توجد لحبها أسباباً حتى لا يهن هذا الحب ولا يضعف . ثم هى تحب الناس أجمعين . لها فى لقائهم ابتسامة لا يشعر بها الناس ولكنهم يجدون أنفسهم تميل إليها دون أن يحللوا أسباب هذا الميل . كانت فؤادة قديرة على أن ترسل إلى نفوسهم إشعاعات خفيفة من الحب الذى تحمله لهم فيجدون أنفسهم يميلون إلى فؤادة . لا يدرون إن كانت هذه الإشعاعات مرسلة إليهم عن طريق هذه الابتسامة التى تنبعث على شفتى فؤادة ويبين فيها أنها متصلة الجذور بالأعماق البعيدة من نفسها وليست ابتسامة على السطح مبتوتة الأصول لاتعبر عن أعماق القلب . لا يدرون . أكانوا يميلون إلى فؤادة لأنها كانت تستمع إلى شكواهم بكل نفسها . وتندمج فى مشاكلهم ، فكأنها مشكلتها ، يكادون يرون نبضات قلبها تنبض بمخاوفهم وآلامهم وآمالهم . لا يدرون أكانوا يميلون إلى فؤادة لهذا أم لأنهم لا يجدون داعياً ألا يميلوا إليها . كان كل فرد فيهم يعلم أنها تحمل مشكلته ومشاكل الآخرين فى أعماق قلبها . فلم تذع يوماً سراً لأحد منهم . وكانوا يحسون أن مجرد رواية ما يعرض لهم من هموم على فؤادة هو فى ذاته بداية التخفيف من هذه الهموم ، أولئك الذين كان يؤذيهم عتريس كانوا يشكون لها وكانوا يرون وجهها يفيض بالحزن والألم والأسى . وكان يكفيهم أن يروا هذا فى وجهها حتى يحسوا أنهم ليسوا وحدهم فى الحياة . وكانت فؤادة تزداد فى كل يوم بغضاً لعتريس فهى كما تعرف الحب الشديد الصافى للحياة وأبناء الحياة

تعرف البغض الشديد لأعداء الحياة وأبناء الحياة .

كان الرجال أكثر الشاكين إلى فؤادة من إجرام عتريس وكان قلب فؤادة ينصدع لشكوى الرجال وكانوا يحسون بمشاعرها . كانت خلجات فؤادة جميعها تظهر على وجهها ، فكان من يكلمها يحس أنه يخاطب قلبها مباشرة لا أذنيها ولا وجهها ، وكان يحس أنه يتلقى حديثها من قلبها لا من لسانها ، فكان صدى حديثها فريداً فى نفوسهم لا يشبهه حديث أحد من الناس الذين يعرفون .

ولكن هناك واحداً فى القرية لا يترك فرصة يراها فيها إلا حادثها حديثاً ليس فيه شكوى ، وإنما هو حديث من نوع غريب فيه إخلاص وفيه تقدير . كان ذلك هو الشيخ إبراهيم علام ، وهو رجل يملك فى القرية فدانين يزرعهما هو وولداه محمود وطه يعيشون من محصولهما . وكان كلما التقى بفؤادة أحب أن يحادثها وكانت هى أيضاً تحب أن تحادثه حديثاً عابراً ولكنه كان حبيباً إلى كل منهما .

كانت فؤادة فى ذلك اليوم فى طريقها إلى الست نفيدة ، وكان الطريق خالياً بها حين نبت الشيخ إبراهيم من ثنية فى الطريق فوقفت فؤادة وقال الشيخ إبراهيم :

— صباح الخير يا ست فؤادة .

— صباح الخير يا عم الشيخ إبراهيم .

— الله معك .

— إنه معى .

— لأنك معه . . . . أنت تحبين الله يا فؤادة وهو يحبك .

— ويحبك أنت أيضاً يا شيخ إبراهم .

— موفقة دائماً إن شاء الله .

— شكراً يا عم الشيخ إبراهم . . . ادع لى .

٣٢

ـ أدعو لك دائماً .

ـ أفوتلك بعافية .

ـ مع السلامة .

وانصرفت فؤادة إلى بيت الست تفيدة واتخذ الشيخ إبراهيم طريقه إلى غيطه .

٤

حين ترك الشيخ إبراهيم فؤادة لم يعش كثيراً وحده ، فما أسرع ما رافق طريقه عبد الغنى حسون لسان القرية المنتشر ينقل أخبارها ويكسب عيشه من نقل هذه الأخبار . فهى وسيلته أن يحادث الناس ، ولن يعدم الناس لقمة يقدمونها له أو نصف قرش يبرونه به وهو بهذا قانع. وهو يحب عمله ويخلص له كل الإخلاص . ويتتبع الأنباء من مصادرها وينقلها إلى كل من يلقاه ، فما هى إلا دورة منه أو دورتان حتى يصبح الخبر ملء القرية جميعها .

وقد كان عبد الغنى حين التقى بالشيخ إبراهيم محملا بالأخبار ولم يكن قد التقى بأحد بعد ، فراح يلقى أخباره فى دقة وقد كان قادراً وهو يلقى أخباره أن يسوقها فيما يشبه الحديث العادى بين الأصدقاء . وكان الشيخ إبراهيم لا يعلق على أخباره بغير جملتين يختار الواحدة منهما حسب ما يقتضيه الخبر فهو إما أن يقول : « الحمد لله » أو يقول : «أعوذ بالله» ولا يزيد .

وقد كانت الأخبار فى ذلك اليوم مليئة باسم عتريس ، فهو قد سرق بهائم عبد العال التش ويطلب لها حلوانا مائة جنيه . وهو أيضاً أغرق أرض حسنين أبو شوشة لأنه كان قد ذكره بسوء فى فرح أبو ديب ، وهكذا لم يستعمل الشيخ إبراهيم عبارة الحمد لله إلا مرة واحدة فى هذا الحديث الطويل حين أخبره عبد الغنى أن عبد الباقى عمارة قد أنجب ولداً بعد أن انتظر هذا الإنجاب مدة ثلاث سنوات .

اقترب الشيخ إبراهيم من غيطه ومعه عبد الغنى حسون وبلغت آذانهما أصوات ضجيج وتصايح ، فحثا الخطا ، وعند الغيط رأى الشيخ إبراهيم

ولديه محموداً وطه ومعهما جاره على يهدد ، وقد راح ثلاثتهم يتبادلون الوعيد فعلى يهدر بقول :

— والله أكسر رجل من يقترب من الماء .

ويصيح محمود :

— أنت تكسر رجل من يقترب . والله مصائب . . . . يا أخى عيب . والله إنك لا تتحمل منى خبطة .

ويصيح على :

— خبطة فى رأسك ورأس من خلفوك .

ويقول الشيخ إبراهيم ولم يكن الجمع الثائر قد رآه بعد :

— وما ذنب من خلفوه يا عم على . .

ويصيح على فى ثورة :

— نعم أنت الآخر . . ماذا تريد ؟

— خيراً يا ابنى خيراً إن شاء الله .

— شغل الطيبة هذا لا ينطلى على .

وصاح طه :

— يا ولد اصبح شف من تكلم .

ويقول على :

— يا سيدى طظ فيك وفيمن أكلم .

ويقول الشيخ إبراهيم :

— كثر خيرك يا ابنى . .

ويهاجم طه علياً يريد أن يضربه ويلحق به محمود ، ويقول الشيخ إبراهيم فى حزم وهدوء :

— ارجع يا طه . . . ارجع يا محمود .

ويقف الشابان ويقول طه فى ضيق :

ـ آبا . . .

ويقاطع أبوه :

ـ ولا كلمة . . ماذا حصل يا سى على ؟

ويقول على :

ـ آه . . . آه يا حبيبى . . كل عقلى أنت . . يا سى على قال . قال يا سى على .

ـ يا ابنى ماذا حصل ؟

ـ لا أدرى .

ويقول محمود :

ـ يريد أن يروى غيطه قبل أن نروى نحن .

ويقول الشيخ إبراهيم :

ـ ولكن الماء يمر بنا أولا . . وقد ظللنا العمر كله نروى قبلكم حتى أيام المرحوم أبيك كنا . .

ويقاطعه على :

ـ لا شأن لى بأبى . .

ويحاول عبد الغنى أن يقول :

ـ لا حق لك يا على .

ويزجره على فى عنف :

ـ اسكت أنت يا ضائع . . ما شأنك أنت ؟

ويقول الشيخ إبراهيم :

ـ أنت ترى أنك على حق يا على ؟

ـ نعم . . على حق وعلى حق . . ومن لا يعجبه يشرب من البحر .

ـ لا يا ابنى لا بحر ولا ترعة . . إروأرضك . . هيا يا محمود هيا ياطه

ويقف الشابان ويقول محمود :

— يا أبا أقسم بالله إنه لا يتحمل خبطة . . ألا ترى يا أبى هزاله . . لماذا نخاف منه يا أبى ؟

ويقول الشيخ إبراهيم :

— أنا لا أخاف المخلوق أبداً .

— وهل يرضى الله بهذا ؟

— لا تطل الجدال . . الجار أغلى من الأرض . . هيا . .

ويقول طه :

— يا أبا هذا .

ويقول الشيخ إبراهيم فى حزم :

— ولا كلمة . . هيا معى إلى البيت .

ويمشى ثلاثتهم ومعهم عبد الغنى الذى ما يلبث أن يقول فى صوت خافت :

— لماذا لم تتركهما يؤدبانه يا عم الشيخ إبراهيم ؟

— المؤدب ربنا يا عبد الغنى . . المؤدب ربنا .

ويذهب الجميع إلى بيت الشيخ إبراهيم ويقول عبد الغنى فى نغمة متخاذلة :

— أستأذن أنا يا عم الشيخ إبراهيم .

ويقول الشيخ إبراهيم :

— بل نفطر معاً . . هات لنا لقمة يا طه.

ويدخل طه إلى البيت . ويقول عبد الغنى :

— ألم يبق إلا على بهدر حتى يتطاول عليك ؟ !

ويقول الشيخ إبراهيم :

— دع على بهدر فى حاله . . قل أنت بماذا سمى عبد الباقى ابنه

ويفهم عبد الغنى أن الشيخ لا يريد أن يسمع ذما فى على بهدر فيدير

الحديث إلى حيث يريد الشيخ ويقول :
– اسماه عمارة على اسم أبيه .
– ونعم ما فعل .
ويروح عبد الغنى يلقى أخباراً أخرى عن القرية والشيخ يسمع ويأتى الطعام فيفر له عبد الغنى بجميعه وما يلبث أن يأتى إليهم فى مجلسهم عبد الباقى عمارة ويستقبله الشيخ مرحباً .
– أهلاعبد الباقى . . كنت قادماً إليك لأهنئك .
– أطال الله عمرك يا عم الشيخ إبراهيم . . قل لى . . أين محمود وطه؟
– هنا . . . أتريدهما فى شىء ؟
– لا . . لا شىء، ولكن رأيت المياه فى الغيط ولم أرهما فحسبت أن شيئاً عاقهما عن رى الأرض .
– المياه فى غيطى أنا .
– نعم .
– هل رأيتها بعينيك
– نعم الآن . . كنت عند الغيط الآن وجئت إلى هنا مباشرة لأطمئن عليهما .
ويخرج طه ومحمود مسرعين ، ويقول محمود :
– هل أنت متأكد يا عبد الباقى ؟
– أقول لك كنت فى الغيط الآن .
ويقول طه :
– هل رأيتها بعينك ؟
– وهل كنت سأراها بأذنى . . طبعاً بعينى !
ويلتفت طه إلى أبيه :
– أرأيت يا أبى ؟

ويقول الشيخ إبراهيم :

– انتظر حتى نرى .

ويقول طه :

– وهل بقى فيها انتظار . . على أغرق الأرض .

– قلت لك انتظر حتى نرى .

ويلتفت طه إلى محمود :

– أحضر فأسك وفأسى من الدار يا محمود . هلم بنا .

ويقول الشيخ إبراهيم :

– قلت لك انتظر حتى نرى .

ويقول طه :

– نأخذ الفؤوس معنا .

ويقول الشيخ إبراهيم :

– بل نذهب بغير فؤوس .

ويقول طه :

– يا آبا . .

وقبل أن يكمل يقاطعه الشيخ إبراهيم قائلا :

– لا تطل وهلم بنا .

ويقصدون جميعاً إلى الغيط ومعهم عبد الغنى وعبد الباقى عمارة وحين يقتربون من الغيط يجدون الماء فيه فعلا، ولكنه ماء من يريد أن يروى لا من يريد أن يغرق . وما لبثوا أن تأكدوا أن الماء يجرى فى غيطهم تجريه يد صناع تحنو على الأرض، وتعطيها من الماء مايكفيها دون زيادة أو نقصان . ووجدوا على يقوم برى الغيط فى هدوء وسعادة . . وينظر خمستهم بعضهم إلى بعض ويبتسم الشيخ إبراهيم ولا يقول شيئاً لهم وإنما ينادى من أقصى الغيط :

ـ ماذا يا على ؟
ويأتى على مسرعاً ويمسك بيد الشيخ إبراهيم .
ـ سامحنى يا عم الشيخ إبراهيم .
ـ لا عليك يا ابنى .
ـ خجلت منك بعد أن انصرفت فرحت أروى الغيط وحدى لعلى أرضيك وأرضى نفسى .
ويلتفت الشيخ إبراهيم إلى ولديه :
ـ انزل يا محمود أنت وطه مع أخيكما وأرويا معه أرضنا حتى إذا فرغتم فأرويا معه أرضه .
ويتقدم الأخوان من على وما يلبثان أن يعانقاه ثم يأخذ ثلاثتهم سمتهم إلى جدول الماء .
وينصرف الشيخ إبراهيم وفى رفقته عبد الغنى وعبد الباقى صامتين .

٥

إنعام . وجه مستدير وعينان واسعتان تنظران إلى الدنيا فى جرأة وبغير اهتمام وأنف كبير بعض الشىء وشعر أسود فاحم غزير ينسكب من المنديل حتى ليغطى رقبتها الطويلة . وهى ذات قوام فارع يميل إلى النحافة . تركها أبوها عبد العليم وهى بعد طفلة ، ولم تكن أمها ذات جمال ، ولا هى ذات مال ، فراحت تعمل فى القرية طولا وعرضاً تجمع ما يقيم أودها وأود ابنتها فلا تكاد . ونشأت الفتاة وحيدة . واستقبلت الحياة أول ما استقبلتها وقد أدركت أن ليس لها فى هذه الحياة إلا نفسها فاعتمدت على نفسها هذه كل الاعتماد . وحين شبت عن الطوق ضربت فى غمار العمل . وتعلمت . تعلمت كل شىء عن الرجال . فقد أدركت أنهم هم الذين يسيرون هذه الحياة وفقما تشتهى آراؤهم وعقولهم فلم تجد أى فائدة أن ترضى النسوة بل وجدت الفائدة كل الفائدة أن يرضى عنها الرجال . ووافق العلم الموهبة فإنها حين بلغت الثالثة عشرة عرفت كيف تبدو جميلة ، وعرفت كيف تحسن الابتسامة ، وكيف تتقن الضحكة بل كيف تجمل التجهم إذا أرادت التجهم ، على قطعة من مرآة مكسورة فى زاوية من زوايا بيتها . كانت إنعام تقوم بالتمرين اليومى وكانت تطبق ما تفعله فى البروفة بينها وبين مرآتها على مسرح الحياة الكبير ، فما إن بلغت السادسة عشرة حتى كانت حديث الشباب فى القرية جميعاً .

لم تكن أجمل فتيات القرية ، ولكنها كانت أقدر الفتيات فيها على إرضاء رجال القرية جميعاً . فللشيخ المسن عندها ابتسامة تعيد إلى نفسه ما انقضى من شبابها وللشاب المغرور ضحكة تؤكد ثقته بنفسه وللجميع .

لها مشية تلتقط الأنظار التقاطاً فتجعلها تتبعها إن هى أدبرت أو تستقبلها إذا هى أقبلت .

وحين بلغت السابعة عشرة كان رشدى عبده قد ورث عن أبيه عشرة أفدنة وجسما ناحلا وتقدم رشدى للزواج منها ووجدت فيه آمالها التى نسجتها ، وهى تطالع المرآة الكسيرة وسارعت تقبل الزواج .

وأقبل رشدى على الزواج إقبالة لهفان مشوق . وفى يوم الزفاف جلس إلى رفقة طالعوه بحديث اضطرب له بعض الحين .

ــ ماذا أنت فاعل الليلة يا أبا الرشد .

ــ ما فعله آباؤنا وأجدادنا ؟

ــ ولكن البنت فى صحة تأكل الحديد وأنت . .

ــ وأنا ماذا بى . . لا يغرك ما تراه من نحولى .

ــ لا يا بنى هذا الكلام لا ينفع لا بد مما ليس منه بدّ .

ــ وما هذا الذى ليس منه بد ؟

ــ قرش أو قرشان .

ــ بسيطة .

ــ يتهيأ لك .

ــ ماذا تقصد ؟

ــ أعطنى خمسين قرشاً .

ــ ألم تقل قرشاً أو قرشين .

وتعالى الضحك من الرفاق وأدرك رشدى ما يقصدون فقال :

ــ آه تقصد ال . .

ــ آه أقصد ال . .

ــ لا يا شيخ .

ــ بل نعم يا شيخ .

ــ أنا لم أذقه فى حياتى .

ــ فأنت بين اثنتين. . . إما أن تذوقه أولا حياة لك على الإطلاق.

ــ صحيح .

ــ جرب .

ــ هاك الخمسين قرشاً .

وحين جرب رشدى وجد نفسه يهيم فى ملكوت من الأحلام والرؤى ، فهو الذى يرى نفسه ضئيلا كالوهم ، نحيلا كالخيال ، أصبح فى رأى نفسه أسداً هصوراً مزدحماً بالشجاعة . فما عتريس حينئذ أمامه إلا فأر صغير هزيل وما أعماله إلا لعب أطفال لا قيمة لها . . أين منه عتريس حين يخلو به مخدره . . وتزوج رشدى وأصبح منذ هذه الليلة وهو لا يفيق . وكان يطيب له أن يدعو رفاقه إلى جلسة المخدر . وكان يخيل إليه أنه يرضى بالمخدر زوجته الإرضاء الذى لا مثيل له . وعلى هذه العقيدة كان يبيح لنفسه أن يتأخر فى جلسته إلى الهزيع الأخير من الليل .

وسرعان ما استقرت العادة عند إنعام . فأصبحت على ثقة فى كل ليلة أن زوجها لن يعود إلا قبيل بزوغ الفجر. فهى فى خلوة مطمئنة . وهى من نفسها وضميرها فى بحبوحة وهى من جمالها وجاذبيتها فى غنى وافر ، وطالما تزاحمت حواليها قبل الزواج الآمال الملتهبة والأيدى الممتدة والمطامع الفائرة وكانت هى بضحكة لا تخطئ الفريسة تعد ولا تعطى وتفسح للآمال أبوابها ولا تدع أحداً يلج من هذه الأبواب من الآمال إلى وادى الحقيقية الظليل الوارف فالشباب الهائم بها على موعد منها دائم لا يعرفون مكانه ولا يعرفون موقته . وحين تزوجت وطالت بها أيام الزواج ، وطال بزوجها السهر وانقض عليه المخدر وأنشب فيه أظافر تمتص البقية الباقية من الصحة عليلة وشباب ضامر . نظرت إنعام إلى شبابها فوجدته يتسرب فى رمال الحياة، فلا يزهر حيثما يتسرب نبتاً، ونظرت إلى حياتها

فوجدتها قاحلة بلا مال ، ومن أين لها المال وزوجها قد أولع بالمخدر ولعاً أخذ عليه مسالك تفكيره جميعاً .. لما رأت إنعام هذا أصبحت مواعيدها للشباب معينة المكان والموقت . ولم يكن المكان إلا بيتها ، ولم يكن الموقت إلا حين يغيب زوجها عن المنزل فى محاولته أن يغيب عن الوعى جميعاً . وأرادت إنعام أن تكسب من صلاتها بشباب القرية شيئين وقد كسبتهما معاً . كانت تريد أن تروى جسمها الذى أجدبه هزال زوجها ، وكانت تريد أن تكسب مالا ، فهى من خوف الفقر الذى عرفته فى قلق دائم لا يستقر بها على حال .

وتسامع شباب القرية بهذه التجارة الجديدة التى افتتحتها إنعام فى بيت زوجها رشدى ، والمورد العذب كثير الزحام . فكانت تعطى الموعد للشاب من هؤلاء وهى فى صحبة شاب آخر لم يبارح منزلها بعد . ولم يبق



فى القرية من لم يعرف أمر هذه التجارة إلا رشدى . وقد كان رفاق جلسته أنفسهم يتركون جلسته ويقصدون فرادى إلى بيته ثم يعودون إلى جلسته وهو ما يزال يضحك سعيداً أنه ابن كيف وأنه رجل وأنه قوى وأنه أسد .

وفى يوم توعك مزاج رشدى . ولم يحس النشوة التى ألف أن يحسها فقام من المجلس يريد أن يذهب إلى بيته وكان معه رفيقان له حاولا أن يستمهلاه فلم يتمهل فأسرع أحدهما خفية يريد أن يسبقه إلى البيت لعله يمنع الكارثة أن تقع وبلغ صديقه البيت وطرق الباب فلم يجبه أحد فاطمأن وانصرف وجاء الصديق الآخر مرافقاً لرشدى فى الطريق يريد هو الآخر أن يطمئن أن رشدى لن يرى ما لا ينبغى له أن يرى وبلغ رشدى البيت ولم يطرقه، وإنما أولج المفتاح فى الباب ودخل . الظلام دامس ، ولكن نوراً خافتاً ينبعث من حجرة النوم. سلم على صديقه وأغلق الباب وقصد إلى غرفة النوم وفتحها وتسمر بالباب . أغمض عينيه ثم فتحهما تغير المشهد ولكن ليؤكد الحقيقة التى رآها . . إنها حق لن يغنى معه إغماض العين. . تزوجها من الطريق العام وجعل لها بيتاً، وصانها عن العمل وباع أرضه ليشرب لها الحشيش، ثم ها هى ذى أمام عينيه . . أحبها . . أحبها بكل دفقة دماء فى عروقه . . بكل آمال الشباب وعنفوانه ولم تنجب له ذكراً ولا أنثى ، وها هى ذى أمامه . . صرخ . . صرخ بلا حديث . . وصرخ. وصرخ . . وانفتل الذى كان معها قافزاً وفتح الباب الخارجى وخرج إلى الطريق وامحى فى الظلمة ولم يبق من الحادثة إلا صراخ رشدى وذهول إنعام . وتجمع الجيران ولم يسأل واحد منهم ماذا حدث فقد كانوا جميعاً يدركون ما حدث، ولن يجيبهم أحد إن هم سألوا فالزوجة ذاهلة والزوج يصرخ . . . آه عالية عريضة مرتفعة كصوت حيوان يعذب حياً فوق النيران فلا النيران تأكله ، ولا هى عنه قصية . . . آه معذبة والهة حرى طويلة تنطلق من الأعماق وتجوب الجسم كله قبل أن تنفجر من فمه ،



فتخرج كدفاع من الماء يخرج من عين ضيقة لا تتسع للسيل . طويلة هذه الآهة عريضة عرض العذاب الذى يحسها والمهانة التى يصطليها .

ونظرت الأعين إلى الزوجة وهى تهرب من نظراتهم بنظرات واجفة تثبتها على زوجها ،وكثر الصراخ وكثر وارتعد الجسم النحيل ثم ارتمى منتفضاً وسقط رأسه على الأرض وقد علا له ضجيج يشبه صراخه الذى كان يصرخه ، وانطاق الصمت بعد الضجيج وألقى الناس عليه نظرة ، ولعل فكرة راودت بعضهم كيف كان هذا الصراخ جميعه ينطلق عن هذا الجسم الضئيل . . كيف اتسع هذا الجسم لهذا الألم . فكرة خطرت ، ولحظة من صمت هومت عليها الحيرة ثم ارتفع اللغط ويتقدم بعضهم منه ، وطلب بعضهم ماء وبسمل بعض وحوقل آخرون والجسم على الأرض

ينتفض وتتقاص أطرافه وتتشنج وغاب رشدى عن الحياة . وانسكب عليه الماء فلم يجد الماء . وإنعام تشهد ولا تدرى ما تفعل . . الجميع يعرفون ما جرى ، على ثقة مما يعرفون ، ولكن لن يستطيع أحد أن يشير إليها بهذا الاتهام ، فما رأوا رأى العين إلا زوجاً يعتوره الصرع ، وزوجة واجفة مما ترى عليه زوجها .

ولم يسأل أحد ماذا ، ولكن إنعام أرادت أن تقول شيئاً وقالت . . دخل وأنا نائمة أحسست به وقمت أفتح باب الحجرة ، ولكنه لم يدخل ، وإنما وقف يصرخ حتى جئتم . عين وأصابتنا.. ولم يسمع أحد ما تقول .. ولكنها ظلت تقول لا يعنيها أن يسمع أحد أو لا يسمع . وإنما هى تقول... وانقضى بعض الحين ، وفتح رشدى عينيه ، وتهافت إليها المجتمعون . . ماذا حصل . . عينان تدوران فى الناس لا تعيان من أمر الناس شيئاً ووضع يده على رأسه حيث اصطدمت بالأرض ، ثم رفع يده ولم ينظر إليها وتعالى الضجيج من الناس ورشدى صامت ، وحملوه إلى سريره ، وانتفض مرة أخرى وهم يقتربون به إلى الفراش ، ولكنه استسلم إلى السرير ، وتخافت الضجيج وبدأ الناس يعودون إلى بيوتهم صامتين وأغلقت الأبواب على أصحابها وأغلقت إنعام باب بيتها وشمل الظلام القرية جميعاً .

* * *

بعد أيام قليلة كان رشدى فى طريقه إلى مستشفى الأمراض العقلية ، وكانت إنعام عند الأستاذ عليوة تطلب الطلاق ، وقبل عليوة القضية فى طبيعة مواتية ، فالأمور فى ظاهرها طبيعية . الزوجة فى عنفوان الشباب ، والزوج فى سراى العباسية والقانون يبيح لها طلب الطلاق . وما هو إلا قليل من الحين حتى كانت إنعام مطلقة تمارس تجارتها بلا خوف ولا حذر . والمورد العذب كثير الزحام .

٦

الآمال الباسمة، والأحلام الوردية ، والرؤى والجمال ، وأيام الشباب المزهرة بالخيال، الرحيبة بالثقة ، المفسحة للمستقبل أبواباً من الجنة وسبلا من المجد وطرقاً من الرفاهية وخمائل من الهناء أيام كانت اللذة الحالمة أحلى من اللذة الماثلة ، وكانت النظرة إلى الأيام المحجبة فى ظلال المستقبل تحيل الحاضر القاسى المرير فردوساً أخضر الجوانب مخضل النبت مزدهر المرأى بأنواع من الأزاهير ملتهبة الألوان، تسكب فى القلب الدفء والسرور المفعم باليقين ، والاطمئنان المضمخ بأريج العزة والجاه ...

هذه الآمال التى كنا نعلقها بالأيام القابلة من حياتنا ، ونحن نعلم أن الأيام ستجعل من هذه الآمال حقيقة، علمنا بأن هذه الأيام قادمة مع المستقبل. حلوة هذه الأيام . ولو لم يكن فيها إلا هذه الأحلام ، لكانت وحدها واحة الحياة نلجأ إلى ذكراها من الهجير الذى لقيتنا به الأزمان. . هذه الأيام التى وثقنا بها فخانت، وألقينا إلى أيديها آمالنا، فإذا الآمال هشيم، وإذا الذى كان فى يقيننا مستقبلا مضمخا بأريج العزة يصبح ماضياً حقيراً أقتر حسيراً تلف حواشيه أتربة الريف المتصاعدة من مشى البهائم على الطريق .

أين ممدوح . . كان إذا دخل الفصل أقف له . . وكيف لا أفعل وأنا ذلك الشىء الذى سبح كالهوام من أعماق الريف . . من هنا . . من الدهاشنة . . إلى القاهرة .. أم الدنيا . . أى دنيا تلك التى يقولون إن القاهرة أمها . . دنيا حقيرة لا تزيد على الدهاشنة . . من هؤلاء الذين يقولون إن القاهرة أم الدنيا . . زحفت إليها كالهوام وأدخلونى إلى فصلى

بكلية الحقوق ، وأقبل بعد حين ممدوح فتى سمهرى القوام فارع الطول أبيض البشرة كأنما بشرته لم تلتق بالحياة . . ناعم الشعر صقيلة قد مشطه صاحبه فى عناية فجعله يبدو مؤدباً مطيعاً لا تند منه شعرة ولا تثور ، إنما هى مع رفاقها تجعل من رأس الفتى الجميل تحفة فنية رائعة . . . لماذا تعطى الحياة فتغدق ، ولماذا تمنع فتغلو فى البخل . . هذا الفتى الحلو لا يملك أحد أن يراه ولا يسأل من هذا . . شخصية . واضح أن الحياة تحبه وتهب له فى بذخ . . أليس هذا الجمال موهبة كموهوب فى الفن أو موهوب فى العلم .. أليس الجمال موهبة . . سألت من هذا . . ونظر إلى التلميذ الذى كان بجانبى . . شاب مثلى زحف أبوه من الريف وأنجب أبناءه فى القاهرة ، فلم يغير هذا منهم شيئاً . . أصبحوا جميعاً قطعاً من الريف وإن ولدت بالقاهرة . . سألته من هذا . . قال : ممدوح بن حمدى باشا صفوت وزير الزراعة . . ولكن حمدى باشا صفوت فيما أعلم فلاح . . نعم . . هذا الفتى ابن فلاح وقمت واقفاً . . لم يكن الدرس قد ابتدأ وسألنى جارى : لماذا تقف ؟ ولم أجب عن سؤاله . . أكل هذا الجمال وأبوه وزير أيضاً وباشا . . إنها فعلا تعطى فتغدق . . كنت كلما دخل ممدوح الفصل أقوم واقفاً . . لم نصبح أصدقاء قط . . ولكنه كان إذا لقينى خارج الكلية حيانى . أما فى الكلية فقد كان يشيح بوجهه كلما رآنى أقف له . . وفى يوم دخل فوقفت فقصد إلى ضاحكاً وحدثنى عن الأستاذ لماذا تأخر . . ومتى سيبدأ الدرس وسألنى إن كانت مذكراتى كاملة . . ودعانى أن أذهب إلى بيته . . بيت حمدى باشا صفوت . . أنا . . اعتذرت . . . . كيف أدخل . . بماذا أدخل بحذائى هذا ذى الرقبة الطويلة والقفل الذى يشبه قفل صندوق الملابس عندنا فى الدهاشنة أم أدخل بشعرى هذا القافز إلى الهواء أم بوجهى هذا الترابى اللون أم بحلتى هذه التى تشبه فى خطوطها الجلابيب . . . لا . . مالى أنا وهذا . . .

ولكنى فهمت لماذا كلمنى . . لم أقف بعد ذلك ولم يكلمنى هو من بعد . أين ممدوح الآن أتراه يذكرنى . . ماذا يعرف عنى . . أنا أقرأ اسمه بين الحين والآخر فى الجرائد . . أما هو فماذا يعرف عنى . . كنت أحلم أن أصبح مثل حمدى باشا صفوت نفسه . . ولماذا لا . . هو فلاح وأنا فلاح . . وهو خريج الحقوق وأنا خريج الحقوق . . صحيح اسمه لا بأس به . . له رنين فخم ،واسمى له صوت كنعير الجاموسة : عليوة. . جاموسة تنعر . . ولكن متى كان الاسم حائلا دون الوزارة . . أو هو على الأقل لا يكون حائلا دون الأحلام . . أخبار ممدوح فى الجرائد لاتفيد شيئاً إلا أنه يعيش ،أما أنا فهو لا يدرى إن كنت أعيش أولا أعيش . ولكنى لا شك أحيا فى ذاكرته . . ذلك الشاب ذو الشعر القافز الأسمر اللون النحيل الجسم المخطط الملابس الذى كان يقف عند دخوله . . لا يذكرنى ولكنه لا يعرف عنى شيئاً من بعد . . ظننت أنى لن أقضى فى الدهاشنة إلا بضعة أعوام ، فإذا الأعوام تتطاول ، ثم تتوقف عن المسير ، وأظل أنا بالدهاشنة . . ترى لو خطبت ابنة رئيس النيابة أيرضى أن يزوجنى ابنته . . إنه يشبه حمدى باشا صفوت . . يشبه صوره التى تنشر فى الجرائد . . والبنت تشبه ممدوح . . أبينهما قرابة . . لكم أحب بنت البك رئيس النيابة . . سنتان الآن منذ رأيتها وهى تنتظر أباها فى العربة على باب المحكمة . . سنتان وأنا أفكر فيها . . لماذا يرتبط تفكيرى فيها دائماً بممدوح . . لا أدرى . . أترانى سأقف لها إذا تزوجتها . منذ رأيتها وأنا أعمل فى جنون . . قبلت كل القضايا . . حتى قضية إنعام . . وأصبحت أملك ثروة الآن . . ألف وخمسمائة جنيه . . . أيرضى البك رئيس النيابة أن يزوجنى ابنته إذا أنا طلبتها . . ولم لا . . إن كان مركزى الآن لا يعجبه فهو يستطيع أن يعيننى فى سلك القضاء . . وأصبح مثله . . . لماذا لا أتقدم . . أريد أن أكمل الألفين حتى أصبح مطمئناً . . هذا

العتريس المجرم يخيف الناس لو أنهم كانوا يخافونه أقل مما يفعلون لحصلت على أتعاب كثيرة ممن يعدو عليهم ولكنه يرعبهم . . كأنما يسحرهم يفترسهم وهم صامتون حتى لا يقول الواحد منهم آه . . ذعر هذا العتريس . . لو خفت قبضته بعض الشيء لأكملت الألفين . . وما لى لا أفعل . . أنا مصاريفى الشخصية لا تزيد على أجرة المواصلات من هنا إلى المحكمة . . ومكتبى إيجاره بسيط . . وأصبح لى والحمد لله اسم كبير . . أو أصبح لى اسم على أية حال . . لماذا لا يقبلنى البك رئيس النيابة لابنته . . لعله يريد لها فتى مثل ممدوح . . ولكن الشكل لا يهم . . لعلى الآن أفهم فى المحاماة أكثر من ممدوح . . ما هى الدعوى البوليصية . . دعاوى كثيرة حفظناها ولم نستخدمها . لعل ممدوح يعرف الدعوى البوليصية ، ولكن لا يعرف كيف يحجز على محصول أو كيف يكتب عقد بيع . . إن عقود البيع هذه تفرج علينا فرجاً . . باب رزق لا يقفل . . أكمل الألفين وأتكلم .. يكون عندى المهر والشبكة على الأقل . . إذا تزوجت بنت رئيس النيابة . . بنت رئيس النيابة . . آمال الشباب التى أصبحت هشيما تتجسم مرة أخرى . . هأنذا أراها هناك على طريق المستقبل وردية كما كانت وردية ، مضمخة بأريج المجد والعزة والرفاهية . . أرى الأيام القابلة أزاهير من المنى ووديانا من الأحلام وخمائل من رؤى الشباب الباكر .

٧

عجيب أن تكسر المرآة فتصبح على هذه الصورة . . دائرة فى الوسط تتشعب منها الشدوخ فى اتجاهات شتى ، فإذا هى مرايا شتى وإذا أنا فيها شتى صور وشتى آدميين . . أعرفهم جميعاً ولا أعرف أحداً منهم . . أنا هم كلهم ، ولست منهم أجمعين فى شىء . . هذا . . هنا فى هذا الجانب الأيمن . . البعيد هذا عتريس الطفل . . ها هو ذا يضحك فى براءة ساذجة . . ويحب أن يضحك ما استطاع إلى ذلك من سبيل . . ويجلس إلى الشيخ فى الدرس ، ويحب أن يسمع القرآن ولا يحب أن يحفظه . . صعب الحفظ . . وهو بنفسه عتريس الذى كان يمر بمجامع القرية فيسخر ويضحك ويجرى خائفاً ، فلا يعدو الخوف على هذه الابتسامة الساذجة المنشرحة فتظل على شفتيه . . لم تقض الأيام على عتريس هذا الذى يحب الضحك الساذج . ها هو ذا فى المرآة اليمنى . . هناك فى الجانب البعيد إنى أعرفه ولا أكاد أعرفه . . إنه أنا . . وأين منه أنا . . إلى جانبه ذلك الفتى الذى كان يخرج مع جده فى سهرات الليل المحفوفة بالمخاطر . . وكان يخاف ولكن جده ما زال به حتى أمات الخوف فى نفسه . . أصبح لا يخاف . . ألا أخاف . . لا يبدو منى الخوف ، ولكن ألا أخاف . . المهم ألا يبدو منى الخوف . . وأصبحت أخرج على رأس الرجال ويظل جدى فى البيت وأصبحت ذلك العتريس . . هل أنا كما يصفون . . أنا هنا فى هذه المرآة ماذا أبدو — هل أعرف هذا الذى يبدو لى أم أنا لا أعرفه . . أما هذا الذى يليه فى الصورة فيخيل إلى أنى أعرفه . . أو أنا أحب أن أعرفه . . ذلك الشاب الذى يحب الصوت الجميل والشكل

الجميل والمرح . . ذلك الشاب الذى يولع بالجمال أينما يكن هذا الجمال . أحب الصوت الحلو الذى يتغنى به المغنى كأنه صلة السماء بالأرض . . وما لى بهذه السماء . . هذا الشاب يحب السماء . . ويحب فؤادة . . لأن فؤادة هى الجمال . . أشبه ما تكون بعروس أرسلتها الجنة إلى الأرض لتغرى الناس أن يصلوا ويزكوا ويمتنعوا عن . . عن ماذا . . لا جنة لى فى السماء . . أكثير على أن تكون لى جنة فى الأرض . . هذا الفتى الذى يحب . . أنا أحبه . . أهو أنا . . لكم أحب أن أكونه . . أما ذلك الذى بجانبه . . هنا فى المرآة الوسطى . . كبرى المرايا جميعاً . . هذا الرجل أوشك أن أكون على ثقة من معرفتى به . . هذا الشارب الذى يحتفى به ولا يجعله كبيراً يعدو على وجهه ولا صغيراً يعدو على هيبته . وهاتان العينان الحمراوان العميقتان الجريئتان . وهذه الجبهة الواثقة وهذا الفم القوى وهذا الذقن البارز وهذا الأنف الذى ينبعث إلى أمام كأنه سهم القدر . . هذا الرجل فى هذه المرآة هو أنا . . أهو حقيقة أنا . . أفضل هذا الذى إلى جانبه من الناحية الأخرى . . الذى يدمع إن سمع دعاء طيباً ويرف قلبه إن رأى حمامة تدف على زوجها . . أو هذا الذى يليه الذى لا يزال يقبل يد والده . . من أنا فى هؤلاء جميعاً . . ومن هؤلاء جميعاً . . اجتمعوا وما اجتمعوا ، وتنافروا وما ابتعد واحد منهم عن الآخر . أهى المرآة جمعتهم وفرقتهم أم ترانى أنا جمعتهم ونفرت كلا منهم عن الآخر . . أم أن هناك قوة أقوى من المرآة ومنى ومن الحياة هى وحدها التى تملك أن تجمع الناس وتنفر ما بين بعضهم وبعض . أهذه القوة هى التى جعلتنى أحب فؤادة . . لماذا يدوى اسمها دائماً فى أنحاء جسمى كأنما هو صوت من الجانب الميمون من الحياة . . أى شىء جعلنى لا أفكر إلا فى حبها . . ولماذا التذ شعورى بحبها ولا أتزوجها . . لماذا انتظرت حتى اليوم لم أتزوجها . . إن هى إلا إشارة . . كلمة أقولها فلا يشرق صبح آخر إلا وتكون فؤادة

زوجتى . . ولكنى لسبب أجهله أحب أن أنتظر وأن أسمع اسمها مدويا فى كيانى وفى حياتى . . ولكن إلى متى أنتظر . . من أين يأتى هذا الحب . . ولماذا يسيطر على وأحب منه هذه السيطرة أنا الذى لا أطيق أن أسمع رأياً يخالف ما أرى . . كيف ألين لهذا الحب وأتركه يفرض على فرضاً بهذه القوة وهذا الجبروت . . أى أنا فى هؤلاء يحب فؤادة. . هذا العاتى الذى يتصدر المرآة . . أتحبها . . ما هذا الوميض فى عينيك ؟ ما له أصبح نوراً وكان ناراً . . ما للملامحك قد كستها إشعاعات من الطيبة وغشتها غلالات من الأحلام . . وأنت أيها الأنا الذى بجانبه وأنت الآخر وأنت . . وكل أنا فى هؤلاء . . ما هذا الحنين قد ألقى على وجوهكم جميعاً ليس واحداً فى الذى يحبها ، وإنما كل أنا فى يحبها ويحن إليها . . . ما هذه الوجوه الجديدة التى تزحم المرآة . . وجوه أعرفها وتختلط بوجوهى فلا أدرى أين صورى بين صورهم . . هذا الشيخ إسماعيل العصفورى أصبح ضمن عصابتى بعد أن طرده رجال الدين من بيئتهم . . شيخ هو ولكن قلبه أخضر يحب النساء والحشيش ، ولم يكن ذا مال ، فسرق حصير الجامع الذى كان يخطب فيه وقبض عليه وخرج من السجن لينضم إلى العصابة . . فما بقى له من الجانب الآخر من الحياة شىء . . وهذا الذى بجانبه عبدالمعطى العجل وكيل الدائرة الذى اختلس من العهدة فمر بالسجن لينضم إلى . . يمسك حساباتى ولا يمسك عهدتى . . وهذا الثالث عثمان شاكر وكيل المحامى زور فى المحكمة توقيع أحد الموكلين وتسلم عنه المبلغ الذى حكم له به وأنفق المبلغ عنه أيضاً وخرج من السجن ليكون ضمن مجلس الشورى فى مملكتى . . مملكة مكتملة . . ينظرون إلى المرآة . . إلى صورة من ينظرون . . إلى صورهم ؟ أم إلى صورى . . إنهم الفئة الممتازة فى العصابة ولكن لا صوت لهم بجانب الهمس الذى أهمس به . . صدى هم وأنا الصوت فلئن تختلط صورهم بصورى فلا غرو فما هم إلا شعاع منى

وما أصواتهم الارنين كلامى يريدون أن يقولوا شيئاً ولكنهم يخافون صمتى كما تعودوا أن يخافوا كلامى لايبدءون حديثاً لا أبدأه .. لماذا يحلو لى أن ألتذ خوفهم هذا . . لماذا سكت طوال هذه الفترة . . لم يبن الضيق على وجه واحد منهم ، بل لعلهم إلى السعادة أقرب . . أليسوا هم وحدهم بين أفراد العصابة جميعاً الذين أسمح لهم بالدخول إلى بغير حرج . . مكانة يعتزون بها . . نعم إنهم إلى السعادة أقرب .

— هيه . . خيراً يا رجال . . أعرف ما تريدون عملية الليلة هل الرجال مستعدون . . على بركة الله . .

٨

أحبها منذ عرفت الحياة . . مع الومضات الأولى للوعى . . مع النبضات الباكرة من الذكرى . . منذ لا أذكر متى . . وجدت حبها معى منذ تبينت أن اسمى طلعت وأن اسمها فؤادة . . ولم أكن فى حاجة أن أقول لها أحبك وإن كنت قد همست بها فلأستمتع بالهمس .. حلوة هى الهمسة بين حبيبين . . بلورة لحديث من العيون . . وتجسيد لشعاعات تحيط بالحبيبين لا يدريان ما مصدرها . . مغلفة هى بالحب فؤادة .. هى لى . . وأبى لا يرفض ، فهو يحب أن أتزوج فؤادة بل لعله يتوق إلى هذا الزواج ، فهو دائماً يتمنى أن تتوثق صلاتى بالقرية ، ولم لا ؟ أنا منها ولا عيش لى إلا فيها . . ألم أحصل على أكبر الشهادات ومع ذلك يريدنى أبى أن أعمل فى القرية . . عروق ضاربة فيها . . منها أبى ومنها جدى ومنها كل من أعرفه من جدودى . . عاشوا بها وماتوا فيها فلماذا لا أمكن لهذه العروق أن تتوغل فى أرضها . . لقد قال لى أبى يوماً لكم أحب أن تتزوج من الدهاشنة . . ولم تدهش أمى ، بل لعلها رحبت . . فأنا أستطيع إذن أن أتزوج من فؤادة . . بل إنها فى الواقع زوجتى بما بيننا من حب . . ولكنى أحب أن أسألها . . لماذا لا أهمس لها وتهمس لى . . لا . . هناك أهم من هذا . . هناك الشىء الأساسى فى الحياة . . أريدها هى أن تختارنى . . لا بالابتسامة ولا بالنظرة ولا بما أعلمه من أنها تحبنى ، ولكن يجب أن توافق على هذا الزواج موافقة صريحة لا شك فيها . . بإرادة حرة لا سلطان عليها فيها إلا ما تمليه خوالج نفسها هى . . ما تريده فى البعيد البعيد من أعماقها دون أن يكون لرأى أبيها أو أمها دخل فى ذلك . . لا أريدها أن تتزوجنى لأن أباها يريدها أن تتزوجنى . . إرادة خالصة بعيدة عن أى

مؤثرات إلا رأيها . . أريد أن أنال موافقتها نابعة من مشاعرها هى وعقلها هى . . أريدها وحدها التى تقرر هذا الزواج . . هكذا أريد هذا الزواج ، ولن أناله إلا على هذه الصورة ، ولن يكون إلا هكذا . . فليس بين من عرفت من الناس أحداً يقدس الحرية ، مثلما تقدسها فؤادة . . لماذا أشعر بحنين إليها مهما تكن قريبة منى . . هذا الحنين هو الحب . . أنا فى شوق إليها دائم لايرتوى . . أحسه مشبوبا عاصفاً وأحسه رفيقاً كغناء النسيم ناعماً كوسوسة الهواء يتخلل أعراف الشجر ، وأحسه يقيدنى كمنظر أخاذ يمسك بتلابيب النفس ، وأحسه حرًا منطلقاً كملاك منطلق فى الفضاء الرحب . . لكم تحب فؤادة الحرية والعدل .

فى الملعب والأطفال يلعبون الكرة وأنا بينهم ، وهناك رجل واقف لا أذكر من كان يحاول أن يعطينى حقًا لا يتيحه لى قانون اللعب . وقبل الأطفال فقد كان الملعب ملعبى ، وكانت الكرة كرتى ، ولكن فؤادة قالت : لا . . لا حازمة . . أنت تلعب مثلنا فيجب أن ينفذ عليك ما ينفذ على كل اللاعبين الآخرين ، ولكنك أنت من فريقى و بهذا التجاوز الطفيف نكسب نحن . . كسباً لا أرضاه لنفسى ولا أرضاه لك ولا أرضاه للحق . . ليس هذا عدلا . . أنت حرة . . اتركى الملعب . . أترك الملعب راضية . . ألهذا الحد . . نعم . . إما أن نكون أحراراً فى الملعب أو لا داعى للعب . . ما لهذا وللحرية الحرية هى المساواة امتيازك عن إخوانك عبودية لهم . . إذن فابقى . . ويصبح مثلك مثل سائر اللاعبين . . وأصبح مثلى مثل سائر اللاعبين . .

وحين كبرت قليلا وأراد أبوها ألا تذهب إلى المدرسة ، رفضت الأمر وأضربت عن الطعام . . وقال أبوها :

— موتى إذا شئت ، ولكنك لن تذهبى إلى المدرسة .

— أموت لأنك تخنق حريتى ، وأنا لا أطيق العيش بلا حرية .

ـــ كبرت ، ولا يجوز أن تذهبي إلى المدرسة .
ـــ كبرت ، ولهذا يجب أن أذهب إلى المدرسة .
ـــ وتخرجين وأنت قد أصبحت شابة .
ـــ وهل تنوى أن تحبسنى إذا بقيت فى البيت ؟
ـــ لا ، ولكن القرية ليست مثل المدينة .
ـــ إنه أنا فى القرية ، وهى أنا فى المدينة . . أيهما أحسن أن أبقى فى القرية لأصبح حكاية ضمن حكاياتها التى لا تنتهى أم أذهب إلى المدرسة وأستكمل تعليمى إلى أقصى حد ممكن .
ـــ لن تذهبى .
ـــ وأنا لن آكل
ـــ وستأكلين .
ـــ أما هذا يا أبى فأنت لا تملكه . . أنت حر أن تمنعنى عن المدرسة لأنك أبى . أما طعامى فأنا حرة فى أن أتناوله أو لا أتناوله لأنه طعامى أنا . .
ـــ أنت حرة .
ـــ نعم حرة .

وأضربت عن الطعام أياماً لم تطل ، فقد أشفق أبوها عليها وذهبت إلى المدرسة . . حرة هى . . تعبد الحرية وتعيش بها . . إنها هى نفسها ما هى إلا نسمة من نسمات الحرية ، وشعاع من ضيائها ، ونغمة عميقة من موسيقاها .

وانتظرها فى يومه هذا . ووقف دونها صامتاً ، ونظرت إليه وابتسامة حلوة على وجهها . وما لبث أن قال :
ـــ أتقبلينى زوجاً .
وصمتت لحظات فقال :

– لا بد أن أسمع نعم حتى أتقدم .
وضحكت وهى تقول :
– نعم .
– بمجرد عودة أبى من السفر سنأتى إليك . .

٩

شيخ أنت مهيب يحترمك الجميع فى القرية كلها . . فحيثما مررت يقف لك الجالسون ويحييك الواقفون ، ملء عيونهم إجلال واحترام . .

ويتوقف الأطفال عن اللعب إن مررت بهم ، ويضع النسوة خمرهن على منتصف وجوههن إذا التقين بك ، ويرحب بك أعيان القرية فى مجالسهم . . شيخ مهيب . . جليل فارع القامة عريض المنكبين نضر السمات أنت ، وجيه . . ولكن ما أنت وهذا جميعه . . ما مكانك من نفسك . . لماذا لم تستطع فى يوم من الأيام أن تحترم نفسك فى داخل نفسك . . ساخطة هى نفسك عليك لا ترضى بك ولا ترضيك ، الناس يحترمون هذه الأفدنة العشرة التى ورثتها عن أبيك ، وهذه الأفدنة الخمسة التى اشتريتها وهم لا يدرون كيف اشتريتها ، فلو ألقيت المقادير إليك ما اشتريت فى حياتك شيئاً . . متى قررت شيئاً وأنفذته . . لو لم تكن زوجتك رتيبة ما اشتريت شيئاً . . هكذا أنت منذ وجدت فى هذه الدنيا . . ذهبت إلى الأزهر فلم تستطع أن تكمل علومه وتعثرت دون شهادة العالمية فيه سنوات وسنوات ، وكنت كلما أزمعت أن تذاكر مالت بك نفسك عن المذاكرة ، ثم أخذت تلومك وتلقى عليك ألوان التأنيب والهزء والسخرية كأنما فى نفسك نفسان : إحداهما تلقى بك إلى مهاوى التردد والكسل والخنوع والضعف ، والأخرى تلقى عليك ألوان الهزء والتأنيب والسخرية حتى ما استطعت — وقد جاوزت الخامسة والخمسين — أن تعمل عملا واحداً ترضى عنه . حتى زواجك لم يكن بيدك ، فلو لم يخطرك أبوك أنه قد خطب لك ، وقرأ الفاتحة ما تزوجت

حتى يومك هذا . وحين تزوجت من رتيبة تولت هى جميع شأنك فهى الآمرة الناهية فى البيت والغيط وتكتفى أنت بالملبس الأنيق والمشية الوقور المتئدة واحترام الناس وإقبالهم .

أردت . . نعم أردت ولكن الإرادة كانت تقف بك دائماً عند الرغبة ولا تعدوها إلى التنفيذ . . أردت أن تزوج ابنتك صابحة من ابن أخيك عمران ، ولكن رتيبة قالت لا ، فكانت لا . . حاولت يومذاك أن تصر ، ولكنك تعرف أن إصرارك لم يكن فى يوم ما ذا قيمة ، وزوجتك أيضاً تعرف أن لا قيمة لإصرارك ولا لرأيك ، وتزوجت صابحة من ابن عم رتيبة ، وقالت إحدى نفسيك : إنه غنى ، وقالت النفس الأخرى أنت ضعيف .

أولادك لا يقدمون لك من الاحترام إلا وقفة إن أقبلت عليهم أو قبلة على اليد إن هم صافحوك ، ولكنك ترى فى عيونهم أن الوقفة أو القبلة إنما هما علامات بنوة لا علامات احترام أما سمعت مسعود وهو يقول لصابحة .

— أبى . . وهل بيده شىء ؟ الأمر كله بيد أمك .

وعبدالمنعم يوم أراد أن يذهب إلى الأزهر هل قال لك شيئاً . . أبداً ، لقد قال لأمه وجهز لسفره وقبل يدك وهو فى سبيله إلى القاهرة دون أن يبادلك الحديث عن شئون مسكنه ومصروفاته فى القاهرة ، لقد أعد كل شىء مع أمه . . وسعيد الذى يزرع الأرض هل قال لك فى يوم من الأيام ماذا أنتجت الأرض من محصول ، أو كم نفراً يستأجر ، أو لمن باع القطن . . أبداً . . أبدا كل حديثه مع أمه أما أنت فلا وجود لك ولكن الناس يقفون لك والأطفال يتوقفون عن اللعب والنسوة يلقين الخمُر على منتصف وجوههن .

وأنت مدعو فى كل فرح فى القرية ، وصاحب الفرح يحب دائماً

أن يشرف بأنك شاهد فى العقد . . شاهد فى العقد . . أنت شاهد فى هذه الحياة جميعاً ثم لا شيء آخر . . أنت عند زوجتك مهم لتنجب، لها أطفالا وتضع تحت يدها خمسة عشر فدانا تديرها . . وأنت عند أولادك مهم ليقولوا لك يا آبا ، ولينتسبوا إلى أب يقف له الناس ، ويتوقف الأطفال عن اللعب ، وتلقى له النسوة الخمر على منتصف وجوههن ، وليكون شاهداً فى عقود الزواج فى القرية . . شاهد أنت فى الحياة لو سألت يوماً ما وظيفتك ، أتجد شيئاً أكثر مناسبة بك من أن تقول شاهد الوظيفة شاهد . . شاهد فى الحياة . ولكن نفسك غير راضية عنك ! لماذا لا تقف لك نفسك كما يقف الرجال ، ولماذا لا تتوقف عن اللعب بك ، كما يفعل الأطفال ، أو لماذا لا تلقى خماراً على منتصف وجهها كما تفعل النسوة . . على النصف الأسفل من الوجه حيث الفم ليت نفسك تلقى هذا الخمار على فمها فتسكت عنك وتتركك تنعم بهذا الاحترام الذى تلاقيك به القرية جميعاً . . ليت القرية جميعها لا تحترمنى وأظفر بالاحترام من نفسى هذه وحدها . . ما أجمل أن أرضى أنا عن نفسى . . لا يهمنى من بعد ذلك شيء . . مجرد نفسى . . داخلى . . أريد داخلى هذا أن يرضى عنى . أهذا كثير ، ومع ذلك فهو بالنسبة لى المستحيل أو لعل المستحيل يصبح ممكناً ، ولا أنال هذا الرضى من نفسى . . كيف . . كيف . . أأستطيع بعد هذا العمر أن أقول :

— يا رتيبة منذ اليوم لا شأن لك بالأرض أنا الذى سأتولاها .

فتبتسم لى ابتسامتها التى كانت تهدهد بها أطفالنا حين هم صغار وتقول :

— وما له يا شيخ بسيونى . . أنت الكل فى الكل . . كلنا نعيش بنفسك .

ثم تمضى فى سبيلها كما كانت ، وكأنى لم أقل شيئاً . وأسكت أنا

راضياً . فإنى أعلم أنى لو توليت شأن الأرض لفشلت فشلا ذريعاً ماحقاً . ماذا أعرف أنا عن الأرض ، بل ماذا أعرف عن أى شيء حتى أمشاج العلوم التى اختطفتها من الأزهر أضعتها فى طريق الحياة . نعم أستطيع أيضاً أن أقول لسعيد :

ـ يا سعيد اجعل كلامك عن الأرض معى أنا . . لا شأن لأمك به

وسيقول :

ـ وما له يا أبا أمرك .

ثم لن يسألنى بعدها فى شيء أبداً . . فهو يعلم جهلى . . أأستطيع أن أعرف كم جوالا من السباخ يجب أن توضع فى فدان القطن ، أو كم نفراً يكفون لحف القطن أو تنقيته أو جمعه أو أى شيء . . لا شيء إلا مزقاً من العلوم فى الأزهر وتبعثرت منى على الطريق حتى لم يبق شيء . . ومع ذلك ها هم أولاء الرجال يقفون . . والأطفال ينتظرون أن أمر حتى يواصلوا لعبهم ، وها هى ذى فتاة جميلة تلقى الخمار على وجهها ريثما تمر بى ، ثم ها هى ذى تعفى وجهها منه بعد أن بعدت عنى .

١٠

هنداوى أفندى عبد المجيد ناظر المدرسة الإلزامية فى القرية ، وهو يملك بها ثمانية أفدنة ، وهو رجل قصير ، فهو يلبس طربوشاً طويلا ، وهو نحيف ، فهو يلبس ملابس فضفاضة ، فالجاكتة ذات صفين دائماً ، وهى متسعة يلبسها فى الصباح مع البنطلون ، ويلبسها بعد الظهيرة وتحتها الجلباب . كان جالساً فى غرفته بالمدرسة حين دخل إليه بخيت أفندى عبد الحفيظ :

— صباح الخير يا حضرة الناظر .

— أهلا بخيت أفندى . . تأخرت اليوم عن الحصة الأولى .

— أنا أجمع القطن ، وقد مررت بالغيط أرى الأنفار .

— هذا كلام لا ينفع يا بخيت أفندى ، يجب أن نؤدى وظيفتنا أولا ، ثم نلتفت إلى الأشياء الأخرى . . إنك تعرف أنى رجل دقيق .

— الحقيقة يا حضرة الناظر أن الأمر الذى أخرنى ليس الجمع فى غيطى أنا ، وإنما غيط حضرتك .

— ماذا به ؟

— القطن خرج عند حضرتك ، ولا بد من جمعه .

— أترى هذا .

— نعم لا بد أن تبيت على الأنفار من الليلة ليبدأ الجمع من الغد .

— لقد مررت بالقطن البارحة وهو فعلا يستحق الجمع . ولكن لا أعرف ماذا أفعل . . أترك المدرسة .

— ولماذا تتركها ؟

— وكيف أجمع القطن إذن ؟

— مثل كل سنة .
— أنت تعرف يا بخيت أفندى أنى رجل دقيق ، وأخشى أن يقول واحد شيئاً . . أنا رجل دقيق كما تعرف .
— الدقيق يا حضرة الناظر من يعرف مصلحته .
— يعنى .
— يعنى أشرف أنا على الجمع فى أرضى وأرضك وتعطى حصصى لعبدالله أفندى وهو رجل طيب لن يقول شيئاً . .
— كان يجب أن أجمع القطن قبل أن تبدأ الدراسة .
— لو كنت فعلت لتركت اوزاً كثيراً دون جمع ولسرقه الناس .
— إذن . .
— لا بد مما ليس منه بد .
وقبل أن يتم الحديث يدخل إلى حجرة الناظر عوضين العجمى .
— يا عم هنداوى أفندى عملت على غرامة .
— طبعاً وماذا كنت تنتظر ؟
— الولد يجمع القطن معى .
— أنا لا شأن لى . . أنا أنفذ أوامر الحكومة .
— يا عم هنداوى أفندى نحن ناس فقراء لا نتحمل الغرامة .
— وأنا رجل دقيق لا بد أن أنفذ التعليمات .
— ومن أين أدفعها ؟
— هذا ليس شأنى ياسى عوضين . . هذا شأنك أنت .
— لماذا نحن بالذات الذين تجعلنا ندفع الغرامة . . هذا ظلم .
— أنا ظالم ياسى عوضين . . أنت تشتمنى أثناء تأدية وظيفتى . . أنا أودى بلك فى داهية .
— يا رجل اتق الله .

— إننى أتقى الله فى كل شىء . . لا بد أن أنفذ أوامر الحكومة . . ماذا أقول للمفتش إذا جاء ولم يجد ابنك ولم يجدنى قد حررت له محضراً .

— وماذا قلت للمفتش عن ابن عبد العال أبو السيد .

— إنه يعمل فى أرض البك .

— البك غنى يستطيع أن يدفع الغرامة . أما أنا فرجل فقير .

— وأنا ماذا أعمل ؟

— كما عملت مع ابن عبد العال .

— لا يا حبيبى أنا رجل دقيق .

— ولماذا لم تكن دقيقاً مع ابن عبد العال .

— ابن عبد العال ابن عبد العال . . أنا حر .

— أنت حر نعم ، ولكن لا تغرمنى .

— لا تعطلنى أنت عن عملى .

— الغرامة يا عم هنداوى أنا فى عرضك . . كلمه ياسى بخيت أفندى

— أنت الغلطان يا عوضين .

— أنا الغلطان يا بخيت أفندى ؟ !

— حضرة الناظر أرسل أمس يشترى منك بيضاً فتبيع له بسعرالسوق؟.

— وماذا فى هذا يا سى بخيت أفندى ؟

— لا حق لك يا بخيت أفندى ما دخل هذا فى الغرامة .

— طبعاً يا حضرة الناظر هذا لا شأن له بالغرامة إنما كان عليه أن يراعى .

— لا . . أبداً والله . . . أنا لا أقبل . . أنا لا أقبل هذا أبداً .

— تقبل ماذا يا حضرة الناظر .

— اذهب أنت يا عوضين .

— والغرامة ياسى بخيت أفندى .

— أرسل بيضتين بقية بيض البارحة .
— أنا لا أقبل أبداً .
— لا عليك يا حضرة الناظر . . عوضين رجل طيب .
— ربنا يبقيك يا سى بخيت أفندى .
— أرسل البيضتين .
— أنا لا أقبل . . .
— سيأتى الولد مهدى بالبيضتين .
— مرة ثانية خل عندك نظر .
— أمرك يا حضرة الناظر .
— مع السلامة يا عوضين .
— والنبى يا سى بخيت أفندى تترك الولد يجمع معى القراطين فى هذين اليومين .
— ويجمع معك القيراطين يا سى عوضين . . مع السلامة . . توكل على الله .
— السلام عليكم .
ويخرج عوضين
— إذن فستجمع لى القطن يا بخيت أفندى .
— مثل كل سنة يا حضرة الناظر .
— أنت تعرف يا بخيت أفندى أنا رجل . .
— دقيق يا حضرة الناظر لن ينقص من القطن فص واحد . .توكل على الله يا حضرة الناظر .

١١

كان حافظ أفندى خالد جالساً فى بيته فى الموهن الأخير من الليل مع زوجته فاطمة ، وابنته فؤادة ، وكان حافظ قد فرغ من الصلاة ، وكانت فاطمة تصلى ركعات لله لا توجبهن فريضة ولا سنة . وكانت فؤادة تقرأ فى كتاب كبير فى يدها ويسألها أبوها :

— ماذا تقرئين يا فؤادة ؟

— حكاية عجيبة يا أبى .

— عم تروى .

— عن مقتل الحسن بن على .

— كيف قتل ؟

— حكاية لا يصدقها العقل .

— احكيها لى .

— أنا يا أبى لا أصدقها

— قولى أولا ونبحث عن معقوليتها بعد ذلك .

— أرسل معاوية إلى زوجة الحسن واتفق معها على أن يعطيها مبلغاً كبيراً من المال ويزوجها ابنه يزيد إذا قتلت الحسن .

— أعوذ بالله .

— وسقته السم وأحس به يسرى فى جسده ، ثم أحس به يفتك به ثم أحاط به ألم قاتل حتى لقد كان يقول لفظت بعضاً من كبدى ، وكنت أقلبه بعود فى يدى وزوجته تشهد ، وكأنها لم تفعل شيئاً .

ومات الحسن وذهبت الزوجة إلى معاوية لتنال الجائزة التى وعدها بها . . زواج يزيد والمال الوفير .

ـ وهل نفذ معاوية وعده ؟

ـ بعض وعده .

ـ كيف ؟

ـ قال لها : أما المال فهو لك . وأما يزيد فإنا نخاف أن تفعلى به مثلما فعلت بزوجك .

ـ لقد نالت جزاءها .

ـ إن كانت الحكاية صحيحة ، فهى لم تنل جزاءها أبداً . . كان يجب أن تقتل مئات المرات .. إنها زوجة قتلت زوجها .. لقد أعطته السم بيد لا يشك فى ولائها . . يد زوجته . . إنها روحه الثانية . . حياته . . أتعرف يا أبى لماذا حدثت هذه الجريمة .

ـ لأن الزوجة كانت امرأة مجرمة .

ـ هناك سبب أهم من ذلك . . لم يكن زواجها بالحسن عن حب . . كان أغلب الزواج فى ذلك الحين يتم عن غير حب .

ـ ومع ذلك لم تقتل كثير من النساء أزواجهن

ـ لأنهن لم يتعرضن لمثل إغراء معاوية .. من يدرى ماذا كن يفعلن إذا تعرضن لهذا الإغراء ؟

ـ أكن يقتلن أزواجهن ؟

ـ ما دام الزواج بلا حب فلا أحد يدرى ماذا يحدث .

قالت فاطمة بعد أن سلمت تسليمتين :

ـ فيم تتحدثان ؟

ـ ألم تسمعى ؟

ـ كنت أصلى .

ـ وأذناك . . أين كانتا ؟

ـ أنت تعرف أنى حين أصلى لا أسمع شيئاً .

ــ احكى لها الحكاية يا فؤادة .

ــ ثانية .

ــ كانت تصلى .

وقبل أن تبدأ فؤادة قصتها سمع ثلاثتهم ضجيجاً متخافتاً خارج الباب أعقبه طرق ، وقال حافظ :

ــ من ؟

وجاء صوت قوى ليس مرتفعاً :

ــ افتح .

وقال حافظ خائفاً :

ــ من ؟

وجاء الصوت :

ــ عتريس

وأعاد حافظ الاسم ذاهلا :

ــ عتريس ؟ !

وجاء الصوت مرة أخرى يحمل نفس النبرة :

ــ افتح

وقال حافظ لزوجه وابنته :

ــ ادخلا أنتما .

وحين دخلتا وأغلق دونهما الباب ، ذهب إلى باب البيت ففتحه ، ودخل عتريس بعد أن قال لرفقة معه لم يتبين حافظ عددهم :

ــ ابقوا أنتم هنا .

وأقفل عتريس باب البيت الخارجى ، وقبل أن يقعد سأله حافظ هالعاً :

ــ ماذا يا عتريس ؟

— لا تخف يا عم حافظ . . اقعد .
— هل هناك شيء ؟
— أنا فى بيتك . . أهكذا تستقبل ضيفاً فى بيتك ؟

وقعد الرجلان ، وحافظ يشعر بقلبه يكاد يقفز من صدره ، فهو وجيب قوى ، وهو هلع وخوف وتوجس وراح يلصق الكلمات بعضها ببعض ، حتى قال آخر الأمر :

— مرحباً بك فى بيتى يا عتريس .
— إنها كلمة لا تزيد .

وقال حافظ فى نفسه ، وهل المصائب إلا كلمة لا تزيد ، ومرة أخرى راح يلصق الكلمات بعضها ببعض :

— أنا تحت أمرك .

وقال عتريس فى هدوء وقد سرى فى صوته حنين ونعومة لم يستطع حافظ أن يتبينهما .

— فؤادة .

وقفز حافظ عن كرسيه :

— ما لها ؟
— أريد أن أتزوجها .

وظل حافظ واقفاً واجماً فترة طويلة ، حتى قال عتريس مرة أخرى :

— ماذا قلت ؟

وظل حافظ صامتاً مرة أخرى، وعاد صوت عتريس إلى خشونته الطبيعية وهو يقول :

— ماذا قلت ياعم حافظ ؟

وراح حافظ يرتعش بالألفاظ وهو يقول :

— ولكن فؤادة . . فؤادة . .

وقال عتريس :

— ما لها فؤادة ؟

— لا أظنها تقبل . . لا . . لا أظنها . . لا أظن . . .

وقال عتريس فى هدوء عنيف بارد قاس :

— يظهر أنك لا تتبين الأمر على حقيقته . . أنا عتريس . . . عتريس .. أتفهم . . . وأطلب منك ابنتك فؤادة لأتزوجها . . أتريد أن أضع لك الأمر بصورة أخرى . . عتريس حين يريد لا بد أن يصل إلى ما يريد . . أنت عندك أرض . . وفى الأرض قطن الآن وأرز وأحياناً يكون فى الأرض قمح . . . وعندك ساقية . . وعندك بهائم . . وعندك أيضاً — عند اللزوم — زوجتك وعندك — عند اللزوم أيضاً — ابنتك فؤادة نفسها وأنا عتريس .. لعل الأمور واضحة فى ذهنك الآن .

وفهم حافظ كل الفهم ولكنه عاد يقول :

— ألا تسألها ؟

— هذا شأنك .. تسألها أو تأمرها . . اليوم السبت كتب الكتاب الخميس القادم .

— ولكن . .

— أفهمت ؟

— نعم .

وخرج عتريس وأقفل الباب من خلفه وقعد حافظ متهالكاً وراح ينظر من حوله ذاهلا . . دقائق قليلة تم فيها هذا جميعه . . أهذا معقول . . أيمكن أن يتسع وقت العالم كله ليتم فيه هذا الانقلاب فى حياته ولكنه تم فى دقائق . . الحجرة خالية . . صامتة . . كأن شيئاً لم يحدث . . أحدث شىء . . هل كان عتريس هنا . . . . عتريس بأكمله بجميعه هنا . . فى هذه الحجرة . . أقال ما قال فعلا . . كيف . . كيف تستطيع

الدقائق هذه الدقائق الهينة التى يقطعها الزمن فى احتقار واستهانة كيف كيف تستطيع أن تقلب حياتى كلها بهذا اليسر .. ما هذا الصمت إذن.. أين الضجيج الذى كان يجب أن يملأ الدنيا من حولى . . ما هذا السكون . . ما هذا الصمت . . أينقض عتريس على حياتى جميعها يختطف معنى هذه الحياة ، ثم يهوم الصمت ويشمل الكون هذا السكون البارد فى غير اهتمام كان شيئاً لم يحدث . . . . لقد هدد . . وما كان فى حاجة إلى تهديد . . إن طلبه وحده يحمل كل معانى التهديد . وفجأة يفتح باب الحجرة وتأتى فاطمة وفؤادة وتجلسان وتنظران إلى حافظ ولا تسألانه وينظر إليهما طويلا طويلا وهما شاخصتان إليه بلا حديث وأخيراً يقول حافظ :

— فؤادة .

وتدق فاطمة صدرها صارخة :

— ماذا ؟

وتقول فؤادة :

— ماذا يا أبى؟

ويعود حافظ قائلا بنفس النغمة الحانية الواجفة :

— فؤادة . . .

وتقول فؤادة :

— نعم يا أبى .

ويقول حافظ :

— إنه يريد فؤادة .

وتقول فاطمة صارخة حازمة :

— لا . . لا . . أبداً .

وتقول فؤادة محاولة أن تظهر عدم مبالاتها :

— ماذا يريد منى ؟

ويقول حافظ :

ــ يريد أن يتزوجك .

وتعود فاطمة إلى صراخها

ــ لا . . لا . . . . . .

وتقول فؤادة بهدوء وثبات :

ــ لا تخافى يا أمى . . لن يكون هذا أبداً .

ويقول حافظ فى تداع :

ــ وستتزوجينه .

وتقول فاطمة :

ــ ماذا تقول ؟

وتقول فؤادة فى هدوئها لا تزال :

ــ لن يكون هذا .

ويقول حافظ :

ــ يوم الخميس القادم .

وتقول فاطمة :

ــ هل تعى ما تقول يا حافظ ؟

ــ لقد هدد بكل شىء .

وتقول فؤادة فى غير مبالاة :

ــ ليهدد ما شاء . . لن أتزوجه .

١٢

كان الصباح مشرقاً وضاحاً ، وكانت شعاعات الشمس تغمر الكون فتنساب منها شعاعات إلى بيت حافظ فلا يحفل منها شيئاً . وكانت فؤادة جالسة تقرأ كتابها وفاطمة تصلى الضحى فى خشوعها حين طرق الباب طرقات وادعة مطمئنة وقال حافظ :

— من ؟

وجاءه صوت من الخارج :

— أنا فايز يا حافظ افتح .

وصاح حافظ :

— فايز بك . . لحظة يا سعادة البك . . ادخلا .

وكانت فاطمة تصلى فلم تبال أمره بل استمرت فى صلاتها فى هدوء كأن شيئاً لم يحدث ، ويقول حافظ لفؤادة :

— سأخرج إلى فايز بك وحين تتم أمك صلاتها نادينى .

وخرج إلى فايز بك وأقفل الباب من خلفه وفهم فايز بك أن بالقاعة حريماً لم يتيسر لهن أن يدخلن إلى البيت فهو يقبل تحية حافظ دون تعجب من خروجه ويحيى حافظ طلعت الذى جاء فى رفقة أبيه .

— أهلا فايز بك . . أهلا طلعت بك . . هذا شرف كبير لماذا لم ترسل لى .

— كيف حالك يا حافظ . . لم أرك من زمن بعيد . . ماذا ؟ هل نسيت أيام لعبنا ولهونا .

— يا بك العفو . . وإنما خشيت أن أشغلك عن عملك .

— لقاء الصديق حبيب إلى النفس دائماً يا حافظ .

وجاء صوت فؤادة :

ـ تفضل يا آبا .

ويفتح حافظ الباب وهو يقول :

ـ أهلا فايز بك . . أهلا طلعت بك .

ويطمئن المجلس بثلاثتهم ويقول فايز :

ـ أتذكر أول يوم دخلنا فيه إلى الجامع ؟

ويذهل حافظ عن الإجابة لحظات ثم يصحو من ذهوله ليقول :

ـ نعم . . آه . . أيام .

ـ مالك يا حافظ ؟ !

وتعلو وجه حافظ قترة وتنقبض سماته ويحس بدوامة تثر فى داخله ويقول :

ـ لا شيء يا بك . . لا شيء .

ـ أراك وكأن عاصفة تعصف بنفسك .

ـ لا شيء يا بك . . أبداً . . إن مجيئك شرف كبير .

ويلتفت فايز إلى طلعت :

ـ كنا نلعب أمام الجامع .

وتتداح الكلمات فى وسيع الفضاء ولا يسمع حافظ شيئاً . . كان عتريس هنا . . وقد حدد يوم الخميس . . واليوم يوم الأحد . . أيستطيع هذا البك أن يفعل شيئاً لو طلبت إليه أن يفعل شيئاً لأنزل بى عتريس الويل الآخذ ولأصبحت من غدى بلا ابنة ولا زوجة ولا أرض ولا وجود . . وماذا بيد هذا الرجل أن يفعل . . إن عتريس يملك السلاح ويملك الليل الأسود و يملك الاختفاء حين يشاء . . أى قوة فى الأرض تستطيع أن تفعل شيئاً أمام النفس المجرمة . . الإجرام لا يرده شيء إلا الإجرام نفسه . . وهذا البك لا يعرف الإجرام . ماذا أقول له . . وصحا حافظ من

ذهوله على صوت فايز وهو يقول له :
— أنسيت هذا اليوم يا حافظ هل نسيت ؟
— نعم . . أنسى ؟ . . وهل يمكن أن أنسى ؟
وجاءت فؤادة بالقهوة وقال فايز :
— أهلا فؤادة . . كيف أنت ؟
— أهلا بك يا سعادة البك .
— لماذا لا تقولين يا عمى . . أنا أحب أن تقولى يا عمى .
— أمرك يا عمى . .

وأخذ فايز فنجانه ثم قدمت فنجاناً إلى طلعت وتمت بينها المصافحة بنظرة وفى النظرة فهم كل منهما ما يريد أن يقول للآخر .
وخرجت فؤادة وقال فايز :
— حافظ لقد جئتك اليوم لأتم أسعد شىء فى حياتى .
— مرحباً بك فى بيتك يا فايز بك .
— أريد أن أخطب ابنتك فؤادة لابنى طلعت .
— ماذا ؟
— إنها أمله منذ زمن بعيد .
وصمت حافظ بعض الحين ثم قال :
— أتدرى أى أمل ضخم تقدمه لى يا فايز بك .
— أنا أدرى أننا صديقان منذ الطفولة .
— ماذا تظن بى إذا أنا رفضت ؟
— ترفض ؟
— مرغما يا فايز بك .
— ماذا تقول ؟
— وأرجوك . . أرجوك . . لمصلحتك أنت ولمصلحة طلعت ألا

يعرف أحد أنك طلبت منى هذا الطلب .

— ماذا بك يا حافظ ؟

— كل ما أرجوه منك ألا تقول إنك خطبت فؤادة لطلعت وستعرف كل شىء فى حينه . . أنا لا أريد أن أحملك الهم الذى أحمله .

ودون أن يحس وجد طلعت نفسه يقول :

— إنها زوجتى منذ زمن طويل .

والتفت إليه حافظ مذعوراً :

— ماذا قلت ؟

ودون أن يلتفت إليه طلعت قال :

— أنها زوجتى منذ نحن أطفال فى الملعب . . هناك فى ساحة البيت كنت أحس أنها جزء منى أو أنى جزء منها وأننا لن يفصلنا شىء فى الوجود وكبرنا وكبر معى هذا الشعور فأصبحت الحياة التى أحياها هى حياتها وأصبحت الخفقات التى يدقها قلبى هى خفقاتها وأصبحت هى الهواء الذى أنشقه والدماء التى تمضى فى جسمى والآمال التى أبقيها لغدى والذكريات التى أحفظها من أمسى فماذا يمكن أن يحول بيننا .

وقال فايز :

— هناك سر كبير تخفيه يا حافظ .

— كبير بقدر المصيبة التى يحملها هذا السر . . هو سرى أنا فدعنى أشقى به وحدى .

— فلست صديقك إذن .

— بل لأنك صديقى أريدك أن تظل بعيداً عن هذا السر .

— لا أشعر بالرجولة إذا سمحت لنفسى أن أظل بعيداً عن سر يحمل المصيبة لك .

ـ لو كنت أعتقد أن علمك به سيخفف منه لبحت به لك . . ولكن لا فائدة .

ويقول طلعت وكأنه يتكلم من مكان آخر :

ـ أيا كان الأمر فسأتزوج من فؤادة .

١٣

وحل يوم الخميس وكان لا بد لحافظ أن يدعو المأذون وشاهدين . وقام حافظ فى باكر الصباح ليلحق بثلاثتهم قبل أن يخرجوا من بيوتهم وقصد أول ما قصد إلى الشيخ عبد التواب وكان الشيخ يتناول إفطاره .

— صباح الخير يا عم الشيخ عبد التواب .

— أهلا وسهلا سى حافظ أفندى . . تفضل معنا .

— شكراً سبقتك .

— نشرب القهوة معاً إذن .

— والله يا عم الشيخ عبدالتواب عندى بعض أعمال وأريدك فى كلمة وأمضى .

— يا رجل نشرب القهوة .

— مرة أخرى إن شاء الله .

— أمرك .

— نتعشى معاً الليلة فى بيتنا .

— أنا تحت أمرك . . هل هناك مناسبة ؟

— ستعرف فى الوقت المناسب إن شاء الله . .

— أمرك .

— وأحضر معك الدفتر .

— هل سنفرح إن شاء الله .

— أرجوك لا تسأل وستعرف كل شىء فى حينه ، ولا تذكر لأحد أنى دعوتك الليلة .

— لماذا ياسى حافظ أفندى . . أعلنوا الزواج ولو بالدف . . لماذا لا أخبر أحداً .

— أرجوك يا عم الشيخ عبد التواب لمصلحتك لا تخبر أحداً .

— لمصلحتى أنا .

— نعم لمصلحتك أنت . . أرجوك .

— المسألة فيها سر ياسى حافظ أفندى . . أولا أنت جئتنى مبكراً ، وأنت تعلم أنك لو كنت تأخرت لوجدتنى عند عبد الملاك دون حاجة منك إلى التبكير .

— سبحان الله يا شيخ عبد التواب . وهل نقرأ فى سورة عبس . . لا أريد أحداً يعرف أنك قادم عندى الليلة .

— لماذا ؟

— لا إله إلا الله . . . . ستعرف .

— ولكن الزواج لا يختفى . . لا بد أن يذيع أمره .

— سيذيع يا أخى . سيذيع ويشيع ويملأ الدنيا . ولكن الليلة فقط لا أريد أحداً أن يعرف أرجوك .

— لا بد من سبب .

— ستعرفه .

— أمرك .

— لا تقل لأحد .

— أمرك . . ولكن مثل هذه الزواجات لها أجر خاص ياسى حافظ أفندى .

— ما ستطلبه ستأخذه يا شيخ عبد التواب ، كل ما ستطلبه ستأخذه .

— أمرك .

— سلام عليكم .

— وعليكم السلام .

وخرج حافظ إلى المدرسة ، وكان هنداوى أفندى يبدأ يومه ودخل إليه حافظ :

— أهلا حافظ أفندى . . مرحباً . . خطوة عزيزة وغريبة أيضاً .

— أهلا بك يا هنداوى أفندى .

— هذه أول مرة تشرف فيها المدرسة . . أنا رجل دقيق ، هذه أول مرة تشرف فيها المدرسة . الفراش مشغول بضرب الجرس دقيقة واحدة ويحضر لنا القهوة .

— هى كلمة وأمضى . . ورائى أعمال كثيرة .

— أفندم . . . أنا تحت أمرك .

— نتعشى معاً الليلة .

— نتعشى جداً ، ولكن ما المناسبة ؟

— ستعرفها فى حينها .

— وهو كذلك ، ولكن لا بد أن تشرب معى قهوة الصباح .

— شكراً يا هنداوى أفندى . أنا فى انتظارك . . لا تتأخر . . و . . و . . .

— وماذا أيضاً ؟

— أفضل أن تجعل أمر هذه الدعوة سرًّا بيننا .

— سرك فى بير ياسى حافظ أفندى . ولكن ما المناسبة ؟

— أخشى أن يستاء زملاؤك أنى لم أدعهم . . والدعوة فى الواقع مقصورة على أفراد قلة من الأصدقاء .

— ما تراه يا حافظ أفندى ، ما تراه . .

— السلام عليكم .

— وعليكم السلام .

وحين ذهب إلى الشيخ بسيونى وجده يوشك أن يخرج من البيت ، فاستقبله الرجل على الباب :

— أهلا حافظ أفندى . تفضل .

— أراك كنت خارجاً . . أخشى أن أعطلك .

— تعطلنى عن ماذا ؟ لا وظيفة ولا عمل . . تفضل .

وحين دخلا البيت صاح الشيخ بسيونى :

— القهوة يا رتيبة .

وجاء الصوت من الداخل :

— حاضر .

واستقر المقام بالرجلين :

— أهلا وسهلا حافظ أفندى .

— أهلا بك يا عم الشيخ بسيونى .

— كيف حال الزراعة عندك ؟

— على ما يرام .

— الفدان عندى رمى سبعة قناطير من القطن . . كم رمى الفدان عندك ؟

— رمى . . رمانى فى داهية .

— ماذا ؟

— ماذا ؟

— تقول ماذا رمى الفدان عندك ؟

— لا أدرى .

— ماذا تقول يا حافظ أفندى . . أنت فلاح لا نظير لك فى الجهة وتقول إنك لا تعرف كم رمى الفدان عندك .

— لا مؤاخذة يا عم الشيخ عبد التواب .

ـ ماذا . . ماذا تقول ؟

ـ لا مؤاخذة يا عم الشيخ بسيوني . . أنا مشغول بعض الشيء .

ـ ماذا بك ؟

ـ لا . . لا شيء .

ـ يا أخي إن النظرة إلى ابنتك فؤادة وإلى غيطك تشرح القلب الحزين . فماذا يضايقك ؟

ـ نتعشى معاً الليلة يا شيخ بسيوني .

ـ وجب يا سيدي ، ولكن ماذا بك ؟

ـ لا عليك .

ـ هل سيتعشى معنا أحد ؟

ـ قليلون .

ـ وهو كذلك .

ـ أستأذن أنا .

ـ القهوة .

ـ آه القهوة . . ألا يمكن أن تؤجلها ؟

ـ أتريد الحاجة رتيبة تعمل لها حكاية . .

ـ حكاية سوداء .

ـ ماذا ؟

ـ ماذا ؟

ـ ماذا تقول يا حافظ أفندي ؟

ـ لا . . لا شيء أنا منتظرك يا شيخ بسيوني . لا تتأخر .

ـ طيب انتظر القهوة .

ـ أمرك . سلام عليكم .

ـ والقهوة ؟!

— أنا منتظرك . سلام عليكم .

وخرج حافظ إلى غيطه، لم يذهب إلى البيت. وهناك ظل رانياً إلى الحقل لا يكاد يحس أنه حقله . لم يسأل أحداً ممن يعملون به عن شيء . . وحين جاءه من يقوم بالجمع يريد أن يكلمه فيما جمعوه في يومهم تركه وانصرف إلى أقصى الغيط وحين لحق به تركه إلى النهر . وجلس في ذهول تحت الصفصافة وراح يلقى ببصره إلى النيل . هذه دمائى وهى اليوم مهدرة . . دمائى مهدرة ولا تغذى إلا عتريس . . عتريس . . عتريس . .

وأصبح الوقت ظهراً ثم أضحى الظهر عصراً وصار العصر إلى الغروب وحين رأى الشمس تودع النيل والدنيا من حوله قام يمشى وانيا إلى بيته . وفى صمت حزين دلف إلى البيت . وفى صمت حزين استقبلته زوجته واستقبله البيت . إلا فؤادة التى كانت تبدو وكأن ما هم فيه لا يمت إليها بصلة . هادئة هى مطمئنة لا تقول شيئاً ولا يبدو عليها حزن أو ألم أو صراع وأقبل هنداوى أفندى وحاول أن يجرى الحديث ، ولكنه لم يجد من حافظ مستمعاً ولا متحدثاً، وما لبث أن أقبل الشيخ بسيونى فاتصل الحديث بينه وبين هنداوى . وقليلا ما اتصل فما لبث الشيخ عبد التواب أن جاء ومعه حافظة أوراقه وقال هنداوى :

— أهلا شيخ عبد التواب . بجئت ومعك الحافظة . فهل ترى كنت فى زواج أم طلاق ؟

وتلجلج الشيخ عبد التواب وقال حافظ أفندى :

— ستعرف حالا يا هنداوى أفندى .

— أهناك سر إذن . . لا يا سيدى لا بد أن تخبرنا بالسر فأنا كما تعلم . . .

وقال الشيخ بسيونى مقاطعاً :

ـــ رجل دقيق . لم يقل أحد شيئاً ولكن ما دخل الدقة فيما نحن فيه . . لقد قال لك ستعرف حالا . . فما البأس أن تنتظر ؟

ـــ وماذا أنتظر ؟

وقبل أن يجيبه أحد سمع أربعتهم فى الخارج ضجيجاً متخافتاً صحبه طرق على الباب ، وفتح حافظ ودخل عتريس وأقفل الباب من خلفه ونظر ثم قال لحافظ :

ـــ إذن فقد أحضرت أنت الشهود . . أتعبت نفسك . . إن معى أيضاً شهودى .

كانت المفاجأة مذهلة للثلاثة . أما هنداوى فوثب واقفاً. وأما الشيخ عبد التواب فتنحنح وسعل ، وما لبث أن قال فى صوت متلعثم :

ـــ أهلاً . . أهلا وسهلا ومرحباً .

أما الشيخ بسيونى فقد ظل جالساً صامتاً متردداً فيما يقول أو يفعل ، وحين استقر رأيه على الوقوف كان الجميع قد جلسوا .

وقال عتريس فى صوت حازم :

ـــ ننتهى من الأمر بسرعة فما أحب أن أطيل مكوثى بالقرية ، توكل على الله يا شيخ عبد التواب .

ـــ نعم . . أنا تحت أمرك . . ماذا تريدنى أن أفعل ؟

ـــ ألم تعرفوا لماذا جئتم ؟

وقال الشيخ بسيونى :

ـــ قال لنا نتعشى معاً الليلة .

ـــ فقط ؟

ـــ فقط ؟

ـــ هيه . . لقد جئتم لتكتبوا كتابى على فؤادة .

وقال الشيخ عبد التواب فى سرعة :

— وما له ؟ نكتب .
وقال عتريس :
— فماذا تنتظر ؟
وقال الشيخ عبد التواب
— توكلنا على الله . نكتب على بركة الله . . الوكالة ياسى حافظ أفندى ، وكأنما لم يكن حافظ بالحجرة ، فهو ذاهل صامت لا يجيب ويكرر الشيخ عبد التواب :
— يا حافظ أفندى .
ويقول حافظ وكأنه يرتد من بئر عميقة :
— نعم .
— الوكالة .
— حاضر .
ويقوم حافظ قائلا فى استسلام :
— تفضل ياهنداوى أفندى . تفضل يا شيخ بسيونى .
ويقوم الرجلان وراء حافظ ويدلفان إلى باب البيت ويمضى حافظ ذاهلا حتى ما يعى أن يصيح بأهل بيته أن يختفوا عن أعين الرجال . وقبل أن يصلوا إلى حجرة فؤادة يستوقف هنداوى حافظ وينظر حوله ليزداد تأكداً أنه قد بعد عن سمع عتريس :
— لماذا فعلت بنا هذا يا حافظ أفندى ؟
ويقول حافظ فى أسى :
— إن كان لا بد لها أن تتزوج من عتريس فلا أقل من أن يكون الشهود من العدول . . أكنت تريد شهود بنتى الشيخ إسماعيل أم عبدالمعطى أم عثمان شاكر .
— ولكن نحن ما ذنبنا أنا والشيخ بسيونى ؟

وقال الشيخ بسيونى :

ــ نعم . . صحيح . . ما ذنبنا ؟

ــ وماذا ألم بكما ؟

وقال هنداوى :

ــ نشهد على زواج عتريس .

وقال الشيخ بسيونى :

ــ اسكت لا يسمعك .

وقال حافظ :

ــ إنكما تشهدان على زواج ابنتى فؤادة .

وقال هنداوى :

ــ لا يا حافظ أفندى أعفنى .

ــ ماذا ؟

ــ أعفنى .

وقال الشيخ بسيونى :

ــ ماذا تقول ؟

ــ أقول إننى لن أشهد .

وقال حافظ :

ــ أهكذا ؟

وقال هنداوى :

ــ نعم .

فقال الشيخ بسيونى :

ــ إذن فلن تشهد ؟

ــ نعم .

ــ فاخرج إذن .

— ماذا ؟

— اخرج ولا تشهد .

— اخرج .

— طبعاً . . اخرج أنت ، وسيأتى بدلا منك الشيخ إسماعيل الصفورى أو عبد المعطى العجل أو عثمان شاكر .

— أخرج اخرج .

— وماذا تريد أن تفعل ؟

— أخرج ؟ ! وماذا أقول لعتريس ؟

— إنك لا تريد أن تشهد على زواجه .

— يا نهار أسود من الحبر . . أنا أقول هذا لعتريس ؟

— وماذا تريد أن تفعل إذن ؟

وقال هنداوى فى حزم :

— هيا بنا يا حافظ أفندى .

وقال حافظ فى يأس :

— إلى أين ؟

— إلى ابنتك فؤادة .

وتقدم حافظ إلى باب فؤادة ، وطرق الباب وجاءه صوتها الهادئ :

— ادخل .

قال حافظ :

— معى ناس يا فؤادة .

قالت فى هدوء :

— تفضلوا .

ودخل ثلاثتهم ، وقال هنداوى :

— مساء الخير يا ستى فؤادة كيف أنت ؟

— مساء الخير يا عم هنداوى أفندى .

وقال الشيخ بسيونى :

— مبروك يا بنتى .

وقالت فؤادة :

— بارك الله فيك يا عم الشيخ بسيونى . . علام ؟

— علام . . ألا تعرفين ؟

وقال حافظ :

— عمك الشيخ بسيونى وعمك هنداوى أفندى جاءا ليأخذا منك الوكالة .

وقالت فؤادة وكأنها لا تدرى شيئاً عن حديث أبيها :

— الوكالة . . لماذا ؟

وقال أبوها :

— لزواجك .

— ممن ؟

وقال أبوها :

— من عتريس .

— ولكنى قلت إننى لن أتزوجه .

وقال حافظ :

— يا بنتى وهل بيدنا ؟

— إنه بيدى أنا .

وقال حافظ :

— يا بنتى يقتلنا جميعاً .

— هو حر ، ولكننى لن أتزوجه ، ولن أعطيك الوكالة .

وقال الشيخ بسيونى :

— أنت يا بنتي فاهمة الذى تقولين أو الذى تفعلين .
— كل الفهم . . أنا أرفض أن أعطى الوكالة لتزويجى من عتريس . أنا فاهمة تماماً ما أقول وما أفعل .
قال هنداوى :
— يا بنتى لأجل خاطر أبيك . . لأجل خاطرنا .
قالت فؤادة :
— أفاهم أنت ما تقول يا عم هنداوى أفندى . . أتزوج . . أتفهم معنى أتزوج ؟ أصبح زوجاً . . أصبح نصفاً لإنسان آخر . . أصبح بيته وحياته وشريكته فى إنجاب أطفال أحياء إلى هذه الدنيا . . أتزوج . . أتفهم معنى كلمة أتزوج لأجل خاطر أبى أو خاطرك أو خاطر الشيخ بسيونى . . أتزوجه لأجل خاطر . . يا هنداوى أفندى .
— يعنى لا .
— طبعاً لا .
وقال الشيخ بسيونى :
— لا وكالة .
— لا وكالة .
— إه . . ما على الرسول إلا البلاغ . . هيا بنا يا هنداوى أفندى . . هيا بنا يا حافظ أفندى .
ويقول حافظ :
— يا ابنتى فكرى .
— وبلا تفكير يا أبى .
— الأمر لله .
ويخرج ثلاثتهم إلى الدهليز الذى كانوا يقفون به قبل دخولهم إلى حجرة فؤادة ، ويهم الشيخ بسيونى فى مشيته يتبعه حافظ فى تفكير عميق ويقول هنداوى :

ـ انتظر يا شيخ بسيوني ! انتظر يا حافظ أفندي ! إلى أين أنتما ذاهبان؟ .

ويقول الشيخ بسيوني :

ـ وإلى أين يمكن أن نذهب . . إلى عتريس .

ويقول هنداوي :

ـ وماذا أنتما قائلان له ؟

ويقول الشيخ بسيوني :

ـ ما حصل ؟

ـ ما الذي حصل ؟

ـ فؤادة رفضت أن تعطي الوكالة .

ـ هكذا ؟

ـ أليس هذا هو ما حصل ؟

ـ وسيصدق ؟

ـ يصدق أو لا يصدق . . هذا ما حصل .

ـ أنت رجل طيب .

ـ ماذا تريد أن تقول ؟

ـ لو قلت له إنها لا تريده فسيقول إن أباها هو الذي أوصاها بهذا .

ـ ولكنا شهود على أن أباها حاول بكل جهده .

ـ أتعتقد أنه سيقبل هذا .

ـ يقبل ماذا ؟

ـ يقبل أن نشهد نحن أنا وأنت على رفضها ويسكت . . أيقبل أن تهان كرامته أمامنا ، ويتركنا نحكي للناس كيف انتصرت عليه فؤادة .

ـ وما الذي يجعلنا نقول للناس ؟

ـ وما الذي يجعله يصدق أننا لن نقول للناس ؟

ـ نحلف له .

ـ أنت رجل طيب .
ـ وماذا تريد أن تفعل ؟
ـ أنا رجل دقيق .
ـ أهذا وقته يا هنداوى أفندى ؟
ـ نقول إن فؤادة وكلت أباها .
ويصيح حافظ :
ـ ماذا . . ماذا تقول يا هنداوى أفندى ؟
ـ أنت أبوها .
ـ ولكن العقد لا يصح .
ـ هذا شأن المشايخ . . إنما نحن نفعل . ما علينا .
ويقول الشيخ بسيونى :
ـ أهذا ما علينا أن نفعله ؟
ويقول هنداوى :
ـ أليس هذا خيراً من أن يقتل فؤادة ؟
ويقاطعه حافظ :
ـ يقتل فؤادة ؟ !
ـ على الأقل يقتلها ، إن لم يمثل بها ويلحق بها حضرتك والست حرمك . . وطبعاً نحن سنقتل قبل أن نخرج من باب البيت .
ويقول الشيخ بسيونى :
ـ وكنت تريد ألا تشهد ؟ !
ـ كنت ذاهلا عن الموقف . . لقد تبينت حقيقة الأمر حين قلت لى اخرج وقل إنك لن تشهد . . وضح الأمر تماماً أمام عينى وأنا كما تعرف . . .
وقاطعه حافظ :
ـ يقتل فؤادة .

— وماذا تظنه سيفعل بمن ترفضه ؟
— لقد هدد بذلك فعلا .
— وهل هو محتاج إلى تهديد . . إنه عتريس ! !
— وماذا هو فاعل بها إن ذهبت معه إلى البيت .
— أتظن أنها ستقول له إنها ليست زوجته . . إنها جريئة لأنها معك ومعنا . . أما أمامه . .
— وحينئذ .
— وحينئذ يصبح العقد صحيحاً . . أليس كذلك يا شيخ بسيونى .
— نعم يصح العقد . تكتمل شروطه . . برضائها تتم شروطه .
— إذن .
— إذن هى وكلتك . أليس كذلك يا شيخ بسيونى .
— نعم وكلت أباها .
وسأل الشيخ عبد التواب :
— هيه
وقال هنداوى :
— وكلت أباها
— هل وكلت أباها يا شيخ بسيونى ؟
— نعم وكلت أباها .
— هل وكلتك يا حافظ أفندى .
— آه . . نعم . . نعم وكلتنى .
— مد يدك . . هات يدك ياسى عتريس . . بسم الله الرحمن الرحيم . . قال سبحانه وتعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » ، صدق الله العظيم . وقال عليه الصلاة والسلام « تناكحوا

٩٤

تناسلوا فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة ، قل ياسي حافظ أفندي . . زوجتك موكلتي فؤادة حافظ البكر البالغة على سنة الله ورسوله وعلى مذهب الإمام أبي حنيفة وعلى المهر المسمى بيننا . قل ياسي عتريس قبلت زواجها .

١٤

خرج عتريس بعد أن قال لحافظ :

ـ سأنتظرها بالخارج وأريدها وحدها .

ودخل حافظ إلى ابنته !

ـ هلم يافؤادة .

ـ إلى أين يا أبي ؟

ـ إلى بيت زوجك .

ـ لا يمكن . أنا لم أعطك الوكالة .

ـ أنا أبوك ، وقد زوجتك .

ـ وأنا لا أترك بيتي هذا .

ـ لم يصبح هذا بيتك .

وألجمتها الكلمة حيناً ، ثم قالت :

ـ فأنت تريدني أن أذهب معه ؟

ـ وستذهبين .

ـ حسناً يا أبي . سأذهب .

وقالت فاطمة :

ـ أتذهب وحدها .

وقال حافظ :

ـ إنه يريدها وحدها .

ـ أمر الله . . مع السلامة يا ابنتي .

وحين حاولت أمها أن تضمها انتفضت وقصدت إلى الباب لا تلتفت وراءها وقالت فاطمة :

ــ ألا تأخذين ملابسك.

وقال حافظ :

ــ نرسلها لها فى غد .

وقالت فاطمة :

ــ أين نرسلها .. وهل نعرف أين تقيم .

ولم تنتظر فؤادة ، بل أخذت طريقها إلى خارج البيت . وحين ظهرت من الباب قال لها عتريس فى صوت حالم :

ــ اتبعينى

* * *

وحين بلغوا البيت ، وخلت الحجرة بفؤادة وعتريس اتخذت فؤادة مكانها على أريكة لاحظت أنها مغطاة بحرير جديد ، وسكتت كأن ما هى فيه لا يعنيها . اتخذ عتريس مكانه بجانبها على الأريكة جاعلا وجهه لها .

ــ لو تدرين أى أمل كبير أحققه بجلوسك هذا . . لقد عشت عمرى كله أحلم بك جالسة معى . . لا تدرين كم أحبك ، ولا تدرين أى سعادة وهناء سأقدمه إليك . لو تدرين ؟!!

لقد عشت عمرى كله وأمنيتى الكبرى هى أن أتزوج بك . منذ أنا طفل صغير . . كنت أتمنى أن أكون صديقك وشب معى الحب وكبر وطغى على كل أمنياتى ، حتى لقد كنت أحب أن أتمتع به أمنية كبرى وأصبر وأتمتع بالصبر . . واليوم تحقق الحلم .

وفى هدوء قالت فؤادة :

ــ بل لم يتحقق شىء .

ــ تحقق أملى الكبير وتزوجتك . . اغفرى لى الطريقة التى تزوجتك

بها ، ولكن لم تكن أمامى طريقة أخرى . . أرأيت . . الغنى يخطب ويقدم غناه ليشفع له فى الزواج . والشاب الجميل يقدم شبابه وجماله ، وأنا أملك القوة ، وقد كانت شفيعى لأتزوج منك . . تغفرين لى هذا أليس كذلك . . لقدجعلتها وسيلة لأتزوج منك ، وهذا دليل على حبى الكبير لك . . وأرى الوسيلة كانت ناجحة ، وها قد تزوجت منك .

وقالت فؤادة فى نفس هدوئها :

ــ بل أنت لم تتزوج منى .

ــ طبعاً أنت لاتحبيننى الآن . . وكيف كان يمكن أن تحبينى ، كنت أراك ولا ألعب معك ونحن أطفال لأن جدى كان يشغلنى طوال الوقت الذى لم أكن فيه بالمدرسة ، حتى إذا كبرت ظللت مقيماً معه هنا ، ولم أكن أذهب إلى البلدة إلا فى القليل النادر . . وكثيراً ما كنت أختلق الحجج لأذهب إلى البلدة وأراك فأنت لم تعرفينى ، ولكنك طبعاً كنت تسمعين بى . . وعلى كل حال أنت لا تحبيننى الآن ، وليس المفروض أن تحبينى ، ولكن مع الأيام ستعرفين كم أحبك ، وسترين أنى سأعيش لأوفر لك السعادة والهناءة ، وستعرفين أنى أعظم الأزواج حباً لزوجته .

وفى بساطة عادت فؤادة تقول :

ــ ولكننا لم نتزوج .

ــ سيأتى الحب . . . سيأتى رغم أنفه . . سوف أجعل طلباتك أوامر ، وسوف تجدين نفسك مع الأيام مضطرة أن تحبى زوجك .

وعادت فؤادة تقول :

ــ ولكنك لست زوجى .

ــ أضايقتك الطريقة التى سلكتها للزواج منك . . فأنا أعتذر لك . .

دعيني أقبل يدك . . وانسى ما كان ولنبدأ حياة جديدة بين زوج وزوجته هات يدك .

ونترت فؤادة يده فى سرعة ودون غضب وهى تقول :

— لسنا زوجاً وزوجة .

وصمت عتريس لحظات ثم قال :

— أكل هذا لأننى أرغمت أباك على أن يزوجنى بك . . ألا يدل هذا على حبى . . لماذا كل هذا ؟

— كل ماذا ؟

— كل هذا النفور والغضب ؟

— أنا لم أنفر ولم أغضب .

— فما قولك إننا لسنا زوجين .

— إننا لسنا زوجين .

— والكتاب ؟

— باطل .

— والشهود ؟

— مزورون .

— هل أنت واعية ما تقولين ؟

— تمام الوعى .

— ما الذى تعنين ؟

— أعنى أنى لم أوكل أبى ليزوجنى منك .

— فكيف زوجنى منك ؟

— خوف .

— والعقد ؟

— باطل.

— والشهود ؟

— خوف .

— فأنا لست زوجك ؟

— لا . . لست زوجي

— وتزويج أبيك ؟

— باطل . . يجب أن يتم الزواج بموافقتي ، وأنا لم أوافق .

— أرغمك على الموافقة .

— لا تستطيع .

— أقتلك .

— تستطيع ، ولكنك لا تكون قد تزوجت مني .

— أنالك بالقوة .

— لعلك تستطيع أيضاً ، ولكنك لا تكون قد تزوجت مني .

— هراء . . هراء ما تقولين .

— وأين الهراء فيه ؟

— كيف قبل أبوك هذا ؟

— وماذا تظنه فاعلا . . خاف أن تقتلني .

— إذن أقتلك .

— لا تحسب أنك تخيفني بهذا التهديد . فأنت لا تستطيع أن تقتلني ، وإذا قتلتني فإني لن أموت . . أنا أمل في نفسك ، فكرة في ضميرك . . الزواج مني حلم طفولتك وصباك وشبابك . إذا قتلتني فسأظل في نفسك أملا وفكرة وحلماً . . وسيظل الحلم حلماً لم يتحقق.

— أقتلك . . أقتلك

— لن أموت . . مهما تقتلني فلن أموت .

١٠٠

ـ أقتلك . . أقتلك .

ـ الفكرة لا تموت .

وترك الغرفة وخرج وهو يصرخ

ـ ولكني سأقتلك . . سأقتلك . . سأقتلك .

١٥

وجد الشيخ إسماعيل الصفورى وعبد المعطى العجل وعثمان شاكر جالسين بالقرب من الباب الخارجى فصاح بهم دون أن يلتفت إليهم :

— هلم بنا .

وقام الرجال لم يسألوه إلى أين ، وسار فساروا من خلفه ، وقبل أن يبتعدوا قال عبد المعطى :

— أنأخذ معنا بعض الرجال .

وقال وهو سائر :

— نعم .

وتخلف عبد المعطى ، وما هى إلا لحظات حتى كان جمع كبير يتخذ طريقه إلى القرية . وشملهم الصمت فترة طويلة حتى قال عتريس فجأة :

— يا شيخ إسماعيل .

— نعم .

— أبوها كذب على . . زوجها منى وهى لم تعطه الوكالة .

— أكذا . . عجيبة ! !

— أتظن أننى أقول لك هذا لتقول لى عجيبة ؟!

— هى عجيبة على كل حال !

— هل الزواج صحيح أم لا . . ألم تكن شيخاً ؟

— صحيح طبعاً . . ألم يزوجها أبوها منك . . صحيح طبعاً .

— هل أنت متأكد ؟

ـ كل التأكد .

ـ سنرى .

ـ ماذا ترى . . الزواج صحيح .

ـ سأسأل أباها أولا . .

ولم يكن حافظ نائماً حين طرق الباب :

ـ هل زوجتنى بنتك دون أن تعطيك الوكالة ؟

ـ إذن فهى مصممة .

ـ مصممة . . إذن فهى لم تعطك الوكالة .

ـ وماذا بيدى ياسى عتريس ؟

ـ أتظن أن هذا يخيل على .

ـ ما الذى يخيل عليك ؟

ـ دبرت هذا جميعه .

ـ أنا لم أدبر شيئاً . . لو كنت دبرته لقلت فى وقت كتب الكتاب إنها لم تعطنى الوكالة

ـ دبرت هذا جميعه وستلقى جزاءك .

وحين خرج قال لعبد المعطى :

ـ أغرقوا أرض القطن عند حافظ وهنداوى وبسيونى ، وأحرقوا أرزهم أيضاً .

ومضى هو وإسماعيل الصفورى وعثمان شاكر و بعض الرجال وفجأة التفت إلى عثمان شاكر :

ـ ألم تكن وكيل محام . . هل العقد صحيح أم غير صحيح ؟

ـ صحيح قطعاً .

ـ هل أنت متأكد ؟

ـ طبعاً .

وفكر أن يذهب إلى الأستاذ عليوة ولكنه لسبب لا يدريه قال لإسماعيل:
— أرسل رجلا إلى بيت إنعام يرى إن كان عندها أحد أم لا ؟
وفى دهشة سأل إسماعيل :
— تقصد إنعام زوجة رشدى .
— لقد طلقا . أليس كذلك ؟
— نعم ، فقط أردت أن أتأكد أنك تريدها هى .
— نعم هى من أريدها .
وحين عاد إليهم الرسول يخبرهم أن إنعام وحدها . . قصدوا إلى بيتها ، وقال عتريس وهو يدخل :
— انتظروا هنا .
ودخل وأقفل الباب من خلفه ، والتفت عثمان إلى إسماعيل :
— هذه وظيفة جديدة علينا يا أبو السباع .
— مبروكة إن شاء الله .
— وقفنا هذه الوقفة ، وهو يتزوج وقلنا لا بأس . أما الآن .
— الفارق بسيط يا أبو عفان .
— بسيط . . . . بسيط ؟ !
— الزواج كان بعقد مشكوك فيه . . أما العقد هنا فصحته مؤكدة .
قالت إنعام :
— أهلا وسهلا . . خطوة عزيزة يا أبا الرجال .
— أهلا بك .
— طالما تمنيت أن تشرفنى .
— وكيف وأنا مشغول وأنت مشغولة .
— بأمرك أكون غير مشغولة . . أنا تحت أمرك دائماً .
— حفظت .

— كل ما أرجوه أن تكثر من هذه الزيارات . . اجعل ساعة لقلبك وساعة لربك .

— لربى ؟ !

— أقصد لعملك .

— آه !

— أنت مع شغلك هذا الدائم محتاج لمن تزيل عنك هم العمل ومسئولياته .

— قالت إنها لم تعط الوكالة .

— نعم ؟

— لا . . لا شيء .

— أهلا . . .

واقتربت منه ولف ذراعه حولها فتداعت بين أحضانه فقبلها وقبلته . . ثم عاد فقبلها وقبلها وقبلها . . ثم ما لبث أن انتفض واقفاً .

— لا . . لا فائدة .

— ماذا يا سيد الرجال . . أترانا لم نعجب .

— أنا مشغول الفكر يا إنعام . . لا تؤاخذيني .

— أنا تحت أمرك دائماً .

— كم تريدين ؟

— أبداً .

— قولي كم ولا تعطليني .

— لا آخذ منك شيئاً أبداً .

ورمى لها خمسين قرشاً ، وخرج وتبعه رفاقه صامتين . . وراح يسلك بهم دروب القرية وهو لا يبين عن مقصده حتى بلغوا بيت عليوة المحامي .

— هل العقد صحيح ؟

ـ لا . غير صحيح .
ـ ماذا . . ماذا تقول ؟
ـ العقد غير صحيح .
مالى كأنى أواجه مفاجأة . لقد كنت أعرف . . كنت أعرف ولكن .
ـ كيف تجرؤ . . كيف تجرؤ .
ـ علام أجرؤ . . ليس أنا الذى يقول هذا . . إنه الشرع . . العقد غير صحيح . . .
ـ كيف تجرؤ ؟
ـ لقد تزوجت على مذهب أبى حنيفة . . أبو حنيفة هو الذى قال هذا . . . العقد غير صحيح . . لا بد من رضائها حتى يصح العقد .
ـ ولكن أنت كيف تجرؤ ؟
ـ ماذا تريدنى أن أقول ؟
ـ أين مفتاح هذه الخزانة ؟
ـ ماذا ؟
ـ أقول مفتاح هذه الخزانة .
ـ وما شأن الخزانة بالعقد ؟
ـ هات المفتاح .
ـ ياسى عتريس حرام عليك . . إنها شقاء العمر كله ، وأمل العمر كله . . حياتى الماضية والآتية فى هذه الخزانة .
ـ هات المفتاح .
ـ أنا ما ذنبى .
ـ هات المفتاح .

١٦

لم ينتظر عبد الغنى حسون حتى يرد الشيخ إبراهيم تحيته ، وإنما راح يلقى له الأخبار كأنه سيل منهمر ولم ينتظر الشيخ إبراهيم أن يعلق عبد الغنى حسون على ما رواه من أخبار وإنما قام من فوره قاصداً إلى بيت حافظ وبجانبه عبد الغنى حسون يفصل من الأخبار ما أجمله . . الحقول الغرقى والأخرى المحترقة وأموال عليوة التى انتهبت ، والشيخ ماض فى طريقه فى حزم لا يعلق بشىء ولم ينتظر ترحيب حافظ :

— أيفعل أحد بابنته ما فعلت ؟

— وماذا أفعل يا عم الشيخ إبراهيم . خفت عليها من القتل .

وقال الشيخ إبراهيم فى صوت مرتفع حاد :

— ترمى بها إلى رجل لم تتزوج منه خشية موتها . . لقد قتلتها .

وسمعت فاطمة الحديث فدارت بها الأرض . . لم تتزوج منه ، وواصل الشيخ إبراهيم حديثه :

— كيف تقبل هذا يا حافظ أفندى . . . كيف تقبل هذا ؟

— قالوا إنها إذا رضيت صح العقد .

— وإذا لم ترض ؟ ؟

— وماذا كنت أفعل ؟

— لا بد أن تسترد ابنتك .

— كيف . . كيف أستردها . . إنها عنده . . فى بيته . . عند عتريس . . هناك السلاح والعصابة بأكملها . كيف أستردها ؟

— ابنتك فى بيت رجل ليس زوجها . . وهى وحدها ماذا تريد أن تفعل . . تظل ساكناً .

ـ وماذا يمكن أن أفعل ؟ !

ـ كل شيء . . مت . . مت وأخرج ابنتك من بيت رجل ليست على ذمته .

ولم تنتظر فاطمة بل خرجت إلى حيث الرجال جلوس :

ـ أنا أذهب .

وصاح حافظ :

ـ أنت . . أنت يا فاطمة .

ـ لا بد أن أكون بجانب ابنتى الآن . . إنها لن تحتاج إلى قدر حاجتها إلى الآن . . الآن .

ـ وكيف تذهبين ؟

ـ أذهب .

ـ نحن لا نعرف الطريق .

ـ اسأل عبد الصادق . . أليس صديقك ؟

ـ وهل يرضى أن يدلنا ؟

ـ أنت يا عبد الغنى تعرف الطريق .

ـ أنا يا ست فاطمة .

ـ نعم أنت .

ـ أنا لا شأن لى بهذا يا ست فاطمة . . اعملى معروفاً . . أنا لا شأن لى .

ـ خذنى إلى قرب المكان واتركنى .

ـ أنا يا ست فاطمة .

ـ نعم أنت . . مم تخاف . . . ستقف بعيداً . . بعيداً ولن يراك أحد .

وقال حافظ :

— وتذهبين وحدك يا فاطمة .

— نعم أذهب وحدى . . يجب أن أكون بجانب ابنتى وابحثوا أنتم بعد ذلك فى صحة الزواج أو عدم صحته . . سأظل هناك حتى تصبح زوجة على سنة الله ورسوله أو تعود معى . . ولكنى لا أتركها وحدها أبداً . . . . هيا يا عبد الغنى

— سأقف بعيداً يا ست فاطمة .

— نعم قف بعيداً .

وقال الشيخ إبراهيم :

— وقولى لعتريس إن إبراهيم يقول لك إن العقد باطل . . باطل .

وقال عبد الغنى :

— يا عم الشيخ إبراهيم أنت ما لك .. هل أنت المفتى . . الرجل لم يسألك . . ثم المحامى . . وهو الرجل المختص قال له العقد باطل فأخذ أمواله . . ما لك أنت يا عم الشيخ إبراهيم .

— حق الله يا عبد الغنى . . حق الله . .

— لا إله إلا الله . .

— هيا يا عبد الغنى .

— هيا يا ست فاطمة .

قال لها عتريس حين رآها :

— وأنت ماذا جاء بلك ؟

— ابنتى .

— ما لها ؟

— ليست زوجتك .

— من قال لك هذا ؟

— لا شأن لك .

ـــ من قال لك هذا ؟
ـــ الذى قال قال ، وأنت لا شأن لك .
ـــ ومن الذى دلك على المكان ؟
ـــ لا شأن لك أيضاً .
ـــ إذن .
ـــ أنا باقية هنا حتى يقضى الله أمراً . .
ـــ وماذا يمكن أن يقضى . . زوج وزوجته .
ـــ لست زوجاً ، ولا هى زوجتك !
وخرج عتريس ونادى إسماعيل الصفورى :
ـــ أريد أن أعرف من الذى زار بيت حافظ اليوم ؟
وقصد إسماعيل إلى عبد الغنى حسون :
ـــ من زمان لم نرك يا عبد الغنى .
ـــ مشاغل يا عم الشيخ إسماعيل .
ـــ وما حال الدنيا ؟
ـــ رضا .
ـــ ماذا يقول الناس ؟
ـــ البلد مشغولة بالزواج هذه الأيام .
ـــ هل هى مشغولة به.
ـــ لا تتكلم فى شىء آخر .
ـــ وما رأيهم ؟
ـــ آراء مختلفة .
ـــ وما رأى حافظ ؟
ـــ ألا تعرفه ؟
ـــ الرأى الذى أسمعه منك غير الرأى الذى أسمعه من حافظ .

— والله إن جئت للحق حافظ جاء وليس له رأى خاص وإنما هو يسمع ما يقوله الناس ؟

— هل زاره أحد ؟

— قليل .

— مثل من ؟

— الشيخ إبراهيم ، الشيخ بسيونى ، هنداوى أفندى .

وقال عتريس :

— ليس بين هؤلاء من يقول إن الزواج باطل إلا الشيخ إبراهيم . . أغرق أرضه اليوم يا إسماعيل . . وبعد أن تغرق الأرض اذهب وقل له إننى اكتفيت بهذا فى هذه المرة ، ولكن عقابى فى المرة القادمة سيكون فظيعاً فخير له أن يسكت .

وقال الشيخ إبراهيم :

— أكل ما قدر عليه عتريس هو أن يغرق الأرض . . مثل هذا يسكتنى أنا يا إسماعيل . . والله إن انطبقت السماء على الأرض فلن أسكت . . هذا الزواج باطل وإقامة فؤادة مع عتريس اعتداء على حقوق الله . ولن نسكت . . .

— يا عم الشيخ إبراهيم . . إنعام فى القرية تلتقى فى كل يوم على حرام . لماذا سكت عنها ؟

— هذه تجارة قديمة الله يعاقب عليها فى الآخرة ، وإنعام هى التى اختارتها .. أما اختطاف فتاة من بين أهلها وتزوير إرادتها وجعل عقد زواج باطل عقداً صحيحاً . . أما هذا فهو هدم للحياة جميعاً وللدين جميعاً ، والسكوت عليه كمن يرى جيشاً يهدم الدين وهو ساكت .

— يا عم الشيخ إبراهيم طول عمرك رجل طيب لم ترفع صوتك ، حتى وإن اعتدى عليك ، فما معنى ثورتك هذه المرة ؟

— حق الله .
— إنك لم تدافع عن حقوقك ضد المعتدين .
— حقوقى أنا حر فيها . أما حق الله فأنا مرغم على الدفاع عنه .
— وأهل القرية جميعاً ما لهم لا يفعلون مثلما تفعل ؟
— لا يعرفون واجبهم قبل الله .
— يا عم الشيخ إبراهيم اعمل معروفاً واسكت .
— قل لعتريس الزواج باطل . . باطل . . باطل . . يغرق الأرض إن شاء ويحرق المحصول متى أراد ، ولكن الزواج باطل.
— يا عم الشيخ إبراهيم أنا لن أقول شيئاً . . أنا لن أقول شيئاً .
— ولكنى أنا سأقول .
— لن يبلغه أحد .
— سيصل إليه صوتى .
— لا يجرؤ احد أن يقول له .
— سيصل إليه صوتى . . وإن أغلق آذانه فسيصل إليه صوتى .
وقال عتريس :
— ماذا قال الشيخ إبراهيم ؟
فقال إسماعيل :
— لم يقل شيئاً .

وحل يوم الجمعة ، وقصد أهل القرية إلى الجامع فرادى وجماعات ، ودخلوا جميعهم من الباب الصغير الذى يؤدى إلى الميضأة ، وما لبثوا أن ارتدوا إلى صحن الجامع والماء يغمر كلُ جزء غير مغطى من جسومهم ، كأنهم الزرع ألتى عليه الماء فهو مخضل وفى الجو همهمةهى تسبيح بين الحوقلة والبسملة . . وبعضهم يصلى ركعتين قبل صلاة الجمعة ، وبعضهم راح يحادث البعض فيما لا صلة بينه وبين الجامع والصلاة ، وفى ركن

قصى جلس عليوة حسيراً ذاهلا مر به كثير من رجال القرية فحيوه. وجلس بعضهم إلى جانبه يحاول أن يسأله عما حدث له ولكنه يقول فى أسى :

— لم يحصل شيء . . كذب ما سمعتم . . لم يحصل شيء .

وينصرف عنه السائلون ذاهلين ، وقد ازداد يقينهم بصدق ما سمعوه . وكلما مضى الوقت أحس الناس أن روح الله تظلهم فى مكانهم هذا وأنهم فى حاجة أشد إلى هذه الروح يوغلون فى شعورهم بالله ، ويشحن الجو بلقاء واستقبال بين السماء والأرض ، ويرتفع صوت المقرئ ، ولم يكن جميلا ، ولكن الناس أحسوا به آتياً من السماء فتخاشعت نفوسهم واشرأبت . . أحسوا جميعهم أن شيئاً واحداً يجمعهم لا يدرون ما هو . . . أهو شيء من الإيمان . . أم شيء من الترقب . . لا يدرون . . ولكنهم فى كل الجمع التى صلوها معاً لم يشعروا بهذا الشعور . . . . كان كل منهم يدخل إلى الجامع فرداً خالياً بشئون نفسه ، ويصدر عنه فرداً خالياً بشئون نفسه . . أما اليوم فهم جميعاً يحسون أن شأناً واحداً يجمعهم ، فتفكير واحد يخيم عليهم ، وشعور واحد يرين على جمعهم . أصبح كل فرد منهم هو الجمع الذى يزحم الجامع وأصبح الجمع كله فرداً واحداً . لم يقل واحد منهم للآخر شيئاً مما يخالجه ، ولكن هذا الإحساس العجيب من الشعور بالتوحيد كان يجيش فى صدورهم فى نفس الوقت . . كانت عيونهم كلما التقت تعبر عن هذا التآلف الذى جمعهم فجأة . وانتهى المقرئ من قراءته ووقف خطيب الجامع فألقى خطبته من كتاب معه وألقى الأدعية فكانت تهيم فى الجامع كله آمين متخافتة تتواثب من أركان غير متجمعة ولا هى منسجمة ، حتى إذا قال الإمام « اللهم ارفع مقتلك وغضبك عنا » تجمع الشتيت ودوت آمين يحيط بها صوت من القلب تعرفه الأذن وتعرفه السماء .

وقبل أن يقول الإمام أقم الصلاة . وقف الشيخ إبراهم من أقصى الجامع وصاح :

ـــ يأيها الناس . . الزواج باطل. ولا بد أن ترجع فؤادة إلى أهلها .

ومن أركان متفرقة من الجامع قالت ألسنة :

ـــ يا عم الشيخ إبراهيم ونحن مالنا ؟

ـــ يا عم الشيخ إبراهيم اعمل معروفاً .

ـــ أهذا وقته ؟

ونظر الشيخ إبراهيم إلى المتكلمين ثم قال :

ـــ أنا أعرفكم جميعاً . . أنتم من العصابة . . نعم هذا وقته . إنما شرعت خطبة الجمعة للبحث فى شئون المسلمين . . وهذا الذى يحدث يهم الجميع . . . إنه حق الله . . الزواج باطل . . لقد أغرقوا أرضى حتى لا أقول هذا ، ولكن الزواج باطل . . باطل . . باطل . . أقم الصلاة إن شئت يا عم الشيخ عبد التواب .

وقال الشيخ عبد التواب فى عظمة للمؤذن :

ـــ أقم الصلاة .

١٧

قال عتريس :

— اقتلوا محمود بن الشيخ إبراهيم .

ونظر إسماعيل إلى عثمان ، ثم نظر إلى عبد المعطي ، ثم نظروا إلى الجاسوس الذى حمل كلام الشيخ إبراهيم إلى عتريس ، ثم نظروا جميعهم إلى عتريس . ولم يحفل عتريس بنظراتهم ، ولم يعن أن يعيد أمره فإن إصداره مرة واحدة يكفى .

ودخل عتريس إلى حجرته مغيظاً . . وكانت فؤادة جالسة إلى جانب أمها . . الأم تقرأ القرآن وفؤادة تسمع ، وقد وضعت على فمها تلك الابتسامة التي لازمتها منذ دخلت هذا البيت . . ابتسامة عجيبة كان ينظر إليها عتريس فيجن جنوناً . . . جميلة هى الابتسامة حتى لتجعله أكثر رغبة فى فؤادة ، فكأنها ابتسامة فيها من الاستدعاء معنى ، ولكنها مع ذلك واضحة السخرية ، وهى أيضاً ابتسامة يشيع فيها الاطمئنان الهادئ الواثق ، وكأن صاحبتها تعيش فى بيتها الطبيعى ، وبين أهلها ، وخاصة عشيرتها . وهى إلى هذا جميعه ابتسامة ليس فيها أى افتعال ، ولكن فيها تحدياً واضحاً . . ويعجب كيف يمكن لفتاة أن تجعل التحدى واضحاً فى ابتسامتها دون أن يكون فى هذا التحدى افتعال . . إنما هو تحد طبيعى وصامت وصادق وواثق . . ويجن عتريس .

— صدق الله العظيم .

ونظرت إليه فاطمة !

— وما شأنك أنت بالله ؟

ـ الظاهر أن موقف ابنتك جعلك جريئة .
ـ أنا لا أخشى إلا الله .
ـ لم تقولى هذا وأنا أتزوج ابنتك .
ـ ليس لى أنا أن أقول . . أبوها هو الذى فعل ما فعل .
ـ فلو كان الأمر بيدك لقلت لا .
ـ ألا ترى أنى أقولها الآن .
ـ لأن ابنتك جرأتك . . رأيتها تقول لا ولم أصنع لها شيئاً فحسبت الأمر سهلا .
ـ أنا متوكلة على الله .
ـ أما آن الأوان يا ست فؤادة ؟
ـ أتعرف أنه لا يجوز لك أن توجه الحديث إلى أمى أبداً . . إننى إذا وافقت على الزواج بك فستذهب أمى من فورها إلى بيتها . فحديثك معها عبث لا معنى له .
ـ ومتى توافقين ؟
ـ أنا لن أوافق أبداً .
ـ لقد عاقبت فى القرية كل من تجرأ فقال إن الزواج باطل .
ـ أيجعل هذا الزواج صحيحاً ؟
ـ كيف يجرءون . . كيف يجرءون ؟
ـ إنهم لا يقولون رأياً . . إنهم يعلنون حقيقة .
ـ ولكن يجب ألا يجرءوا .
ـ لماذا لم تعاقب أبا حنيفة ؟
ـ لأنه مات .
ـ وما ذنب الأحياء ؟
ـ إنهم أحياء .

— فعاقبنى أنا .

— أتظنين أنى لا أعاقبك . . . لا تخافى سيأتى اليوم .

وهز عصا غليظة يحملها فى يده . وعلا صوت فاطمة :

— إنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً ، فمهل الكافرين أمهلهم رويداً .

وقال عتريس وهو يضرب بعصاه راحة يده ضربات هينة :

— لا بد أن يأتى . . . سيأتى اليوم . . لا بد أن يأتى .

١٨

فرغ طه ومحمود من عملهما فى الحقل ، وتوجها إلى البيت ، لم يلتفتا إلى رجلين يتبعانهما . وحين بلغا البيت قال محمود :

— أنا خارج .
— يا محمود لو عرف أبوك قتلك .
— ومن يخبره ؟
— هذه الأشياء لا تختفى .
— يا أخى أنا حر .
— أنا أخاف عليك من أبيك .
— إن كان لا يعجبه أتركه . . أنا بلدراعى آكل الشهد .
— أخاف على أبيك إن سمع .
— يا أخى أنا رجل .
— ولكن ألا تخاف على أبيك ؟
— يكون مخطئاً لو غضب .
— أنت تعرفه .
— يكون مخطئاً لو غضب .
— يا محمود كفى .
— ماذا . . هل ستعمل لى شيخاً أنت الآخر ؟
— أرجوك . . طيب لا تذهب الليلة فقط .
— إن لم أذهب الليلة فسأذهب غداً .
— ابق هذه الليلة فقط . . أرجوك .

ـ لا شأن لك بى .

ـ أرجوك .

ـ دعنى .

وعند بيت إنعام قال أحد الرجلين للآخر !

ـ مرة أخرى ننتظر هنا .

ـ نعم ولكن شتان بين المرتين . كنا فى المرة الفائتة ننتظر لنحرس أما الليلة . .

ـ ولكنه مكان ثقيل للانتظار على كل حال .

ـ لعل انتظارنا المرة الفائتة كان أثقل .

ـ على كل حال هو مكان ثقيل للانتظار .

ـ وهذا العمل الذى نقوم به . . أليس ثقيلا .

ـ أتراه كذلك ؟

ـ ليس أنا الذى يراه وحدى .

ـ فمن أيضاً ؟

ـ كثيرون منا .

ـ كثيرون ؟

ـ كثيرون .

ـ فما الذى يجعلنا ننتظر ؟

ـ حتى يصبح الرأى رأى الجميع .

وقال محمود :

ـ كيف الحال يا إنعام ؟

ـ نحمده يا أبو حنفى .

ـ يا ترى فكرت فيما قلته لك .

ـ لا . . أنا لا أفكر فيه أبداً .

— لماذا . . أنا أحبك يا إنعام .
— ورشدى كان يحبنى .
— ولكننى شىء آخر .
— لماذا يظن كل إنسان أنه شىء آخر .
— أحس بذلك .
— ولماذا تحس بذلك ؟
— أحس أنك تحبيننى .
— ما الذى جعلك تحس بهذا ؟
— أشعر بهذا .
— أعرفت كيف ألقى غيرك حتى تقارن .
— لا تذكرينى بالآخرين .
— أنسيتهم ؟
— أحب أن أنساهم .
— إذا تزوجنا فستنسى كل شىء ، ولا تذكر إلا الآخرين .
— أبداً .
— يتهيأ لك .
— جربى .
— لا أجرب أبداً .
— جربى .
— اسمع يا محمود . . أنت أول واحد يعرض على هذا العرض ، ولهذا أنا لا أريد أن أغشك .
— لا شأن لك . . . اقبلى ولا شأن لك .
— أخاف من نفسى يا محمود .

ـــ اقبلى ولا شأن لك .
ـــ سأفكر .
ـــ هذا كل ما أرجوه . . . . فكرى .
ـــ لا أضمن نفسى .
ـــ فكرى . . واعلمى أنى أحبك . . وفكرى .
ـــ ما الذى تريده بالزواج منى ؟
ـــ ألا تعرفين ؟
ـــ الحقيقة . . . لا .
ـــ أريدك لى وحدى .
ـــ وكيف تعرف أنى سأكون لك وحدك ؟
ـــ لا تقولى هذا .
ـــ أنت تخاف من مجرد الفكرة . فكيف إذا تزوجنا وفكرت فيما كان أو عيرك واحد من القرية .
ـــ لا نقيم هنا .
ـــ أيمحو هذا الماضى .
ـــ يمحوه .
ـــ سنحمله معنا أينما ذهبنا . . إنه فى داخلنا يا محمود . . لا نستطيع أن نتركه فى أى مكان .
ـــ نقتل هذا الماضى .
ـــ إنه لا يموت . . حتى إذا متنا نحن فإنه لا يموت .
ـــ ألم تقولى إنك ستفكرين .
ـــ ألست أفكر الآن .
ـــ فكرى وحدك .
ـــ إذا كانت هذه هى أفكارى وأنت معى . فكيف إذا تركتنى

لها وحدى .

ـ ألا أمل إذن ؟

ـ لا أدرى .

ـ أنا قادم غداً . . وكفانى لا أدرى هذه أملا أنام به ليلتى . . هل آتى فى غدى ؟

ـ أنت تعرف أن باب بيتى لا يقفل .

ـ لا تقولى هذا .

ـ لا تخف أنت من الحقيقة .

ـ لا تقوليها .

ـ لا يغير قولها شيئاً .

ـ فقط لا تقوليها . . أنا ذاهب وقادم فى غد ؟

ـ أهلا بك .

وخرج وانفجرت فى فضاء القرية طلقة نارية وأعقبها صمت .

* * *

خرج الشيخ إبراهيم من بيته وكلما لقى أحداً قال له :

ـ قولوا له الزواج باطل . . مهما يقتل ابنى فالزواج باطل .

وما يسمعه أحد إلا أشاح عنه فى خوف مذعور وأسى عميق ولقيه عبد الغنى حسون فأمسك به :

ـ قل له الزواج باطل . . قتل ابنى لا يصحح العقد . . العقد باطل . . باطل . . قل له . . قله لمن يبلغه .

ـ يا عم الشيخ إبراهيم أنا لن أقول شيئاً . . لن أقول شيئاً .

ـ لقد عشت طول عمرك تقول لماذا لا تريد أن تقول هذا . . إنها كلمة حق ألا تقول حقاً .

ـ يا عم الشيخ إبراهيم . أما كفاك ما جرى ؟

— ما شأن هذا بحق الله ؟
— يا عم الشيخ إبراهيم لماذا تعرض نفسك لهذا جميعه ؟
— الزواج باطل .
— ولكنك وحدك تعرض نفسك لهذا الدمار .
— حق الله أحب إلى من حياة ولدى .
— كفاك يا عم الشيخ إبراهيم . . كفاك .
— إذن فلن تقول له .
— لن أقول شيئاً .
— ولن تجعلنى ألقى من يقول له .
— ولن أفعل هذا أيضاً .
— إذن فسأقول أنا .

ومضى الشيخ إبراهيم إلى دكان عبد الملاك فاشترى إصبعاً من الطباشير ومضى إلى حائط الجامع البنى اللون الأملس وكتب عليه فى حروف ظاهرة قوية « زواج عتريس من فؤادة . . باطل . . باطل . . »

وتجمع حوله وهو يكتب بعض نفر أخذ عددهم يزداد وراحت الوجمة الآخذة تتجمد على وجوههم .

وحين فرغ من الكتابة وقع باسمه إبراهيم علام ومضى يهيئ ولده ليشيعه لمثواه الأخير . ولكن الباحة التى أمام الجامع ما لبثت أن امتلأت بالناس وكانوا صامتين ، ولم يبرحوا الباحة إلا حين مرت جنازة محمود ، ووجدوا أنفسهم يسيرون فيها دون وعى .

* * *

حين علم عتريس بما كتبه الشيخ إبراهيم دخل إلى حجرة فؤادة ثائراً :
— أليس لها آخر ؟



وقبل أن تجيب أهوى على رأسها بعصاه الغليظة فانهارت فؤادة وهى تقول :

— ولكني لا أموت .

وارتمت أمها بجانبها تنادى اسمها فى ثورة ، وهم عتريس أن يبرح الغرفة ، ولكنه وجد الطريق مسدوداً أمامه . كانت عيون الرجال تغلقه فلا سبيل له . . ونظر إليهم مذهولا أول الأمر ، ثم حين تبين ما فى عيونهم ما لبث أن غشيته غاشية من الخوف المذعور الراجف ، ولم يقل شيئاً ، ولكن أحد الرجال قال فى حزم :

— فؤادة تذهب إلى بيت أبيها .

واستجمع عتريس أشلاء نفسه ليقول :

— أتجرؤ ؟

ولكن الصوت عاد يقول له فى حزم ثابت هادئ :

— فؤادة تذهب إلى بيت أبيها .

— سأقتلكم جميعاً .

وجاءه الصوت مرة أخرى :

— إننا نحن الذين نقتل . . فؤادة تذهب إلى بيت أبيها .

وحملت فاطمة فؤادة بين ذراعيها وانفسح الطريق أمامها وخرجت ونكس عتريس رأسه فى استسلام وحين رفع بصره لينظر الطريق الذى سارت فيه فاطمة بفؤادة وجد الطريق وقد أغلقته العيون مرة أخرى .

روايات للمؤلف

١ — ابن عمار (اقرأ) نشرته دار المعارف
٢ — هارب من الأيام نشرته دار المعارف
٣ — قصر على النيل . نشرته دار المعارف
٤ — ثم تشرق الشمس نشرته دار المعارف
٥ — لقاء هناك نشرته دار المعارف
٦ — الضباب نشرته دار المعارف

تم طبع هذا الكتاب
على مطابع دار المعارف بمصر

إقرأ

معركة العلمين



السيد فرج

دار المعارف

معركة العلمين

السيد فرج

معركة العلمين

دراسة عن معركة « العلمين » التاريخية فى
مناسبة مرور خمس وعشرين سنة عليها

اقرأ ٢٩٣

دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٩٣ – مايو سنة ١٩٦٧

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.ع.م.

غاية الدراسة

إن الغاية من دراسة معركة العلمين ، بعد خمس وعشرين سنة ، هى استعادة ذكرى معركة تاريخية جرت فى بلادنا ، وأحدثت تأثيراً بليغاً فى مجرى الحرب العالمية الثانية ، بل يجزم أكثر من مرجع عسكرى أنها كانت نقطة التحول فى تلك الحرب ، ونهاية البداية لمرحلة الانقضاض الألمانى .

وقد نشرت « الأهرام » فى شهر ديسمبر عام ١٩٦٦ الرسائل الثلاث الممتعة المتبادلة بين الرئيس جمال عبد الناصر والمارشال مونتجمرى ، والتى قال فيها الرئيس للمارشال :

« إن كثيرين هنا يقدرون الأهمية التاريخية لمعركة العلمين ، ولدورك الممتاز فى قيادتها ، والآثار البعيدة التى ترتبت على النصر فيها » .

. . . .

وقد أثارت معركة العلمين — فى حينها ، وبعد سنوات من انقضائها — عدة أسئلة وقضايا فى مقدمتها :

١ — هل تعدّ معركة العلمين نقطة التحول فى الحرب العالمية الثانية ؟

٢ ـ أكانت « معركة مصر » ـ كما أطلق عليها ـ أم كانت معركة ليس لمصر فيها ناقة ولا جمل ؟

٣ ـ ما كان الهدف وراء معركة العلمين ؟ هل كان التوسع الاستعمارى لأحد الطرفين ؟ هل كان فتح البحر المتوسط ؟ هل كان الهدف : السويس ؟

٤ ـ هل جاءت معركة العلمين بجديد فى فن الحرب عامة، والحرب الصحراوية خاصة ؟

٥ ـ ماذا كان أثر القائدين فى المعركة ؟ وما أسرار اشتهار روميل ومونتجمرى ؟ !

٦ ـ هل بقيت لمعركة العلمين ـ بعد خمس وعشرين سنة ـ قيمتها ، وثمرات عملياتها العسكرية، ودروسها المستفادة ؟

. . . .

وإلى جانب الدراسة سنقدم ثلاث خرائط :

(١) خريطة الحدود المصرية الليبية .

(٢) خريطة معركة علم حلفا .

(٣) خريطة معركة العلمين الكبرى (على الغلاف) .

كما نقدم صوراً لقادة هذه المعركة الحاسمة من معارك التاريخ .



فيلد مارشال مونتجومری أوف علمين

معركة العلمين

هل كانت نقطة التحول فى الحرب العالمية الثانية ؟

« إن العدو الآن فى قبضة يدنا ، وهو على
وشك الدمار . . لقد أضحى النصر النهائى
قريب المنال »

مونتجمرى

خمس وعشرون سنة انقضت على معركة العلمين . . .

وهى المعركة التى دارت على ثرى مصر بين قوات « الحلفاء » وقوات « المحور » ، وكانت معركة كاملة وفاصلة اندحرت فيها القوات الألمانية والإيطالية ، وجلت عن شمال أفريقيا ، وانتقل زمام الحرب — لأول مرة — إلى يد بريطانيا وحلفائها . . . وبهذا كانت معركة العلمين نقطة التحول فى الحرب العالمية الثانية ، وكانت — كما وصفها ونستون تشرشل — : « بداية النهاية » .

بدأت معركة العلمين فى ليلة الرابع والعشرين من شهر أكتوبر سنة ١٩٤٢ بهجوم قوى منظم من الجيش الثامن ، بقيادة «الجنرال» مونتجمرى ، على القوات الألمانية والإيطالية — بقيادة الفيلد مارشال روميل ، وكانت هذه القوات متحصنة خلف المناطق الملغمة ضد المصفحات ، على مسافة ٦٠ ميلا من

الإسكندرية . وانتهت المعركة يوم ٤ نوفمبر بهزيمة تامة لجيش المحور .

فقد الجيش الألمانى والإيطالى — فى معركة العلمين — ١٠,٠٠٠ قتيل وجريح و ٣٠,٠٠٠ أسير و ١٠٠٠ مدفع ، و ٥٠٠ دبابة .

وخسر الجيش الثامن ١٣,٠٠٠ جندى و ٤٥٠ دبابة .

كتب الكتّاب من رجال الحرب والسياسة والتاريخ عن معركة العلمين ، من زوايا ووجهات نظر متعددة ، كذلك سجلت أحداثها ووقائعها السجلات الرسمية ودوائر المعارف ، وظهر ما يشبه الإجماع على أنها تدخل فى عداد المعارك الكبرى فى التاريخ ، وذلك لما اجتمع لها من حشود هائلة من الرجال والعتاد والأسلحة ، وما ظهر فيها من صور جديدة للحرب — وبخاصة الحرب الصحراوية — كبثّ الألغام فى مواجهة المدرعات والمشاة ، وضرب الطائرات لخطوط المواصلات ، والتركيز الشديد لنيران المدفعية على مواقع معينة . .

كما أن آثارها فى الموقفين العسكرى والسياسى كانت بعيدة المدى ، فقد أحدثت تأثيراً معنوياً بليغاً لدى الجيوش والشعوب ، وقضت على الرهبة التى كانت تتقدم الهجوم الألمانى المروع . .

كذلك حددت معركة العلمين أمد الحرب ومسرحها الأخير فى أوربا ، ونقلت الثقة والأمل من معسكر المحور إلى معسكر الحلفاء ، وفصلت فى شأن اشتباك كبير كان الغرض منه

السيطرة على البحر المتوسط وقناة السويس . . .

وكانت الحرب العالمية الثانية تشغل فى ذلك الوقت ثلاثة مسارح رئيسية :

● مسرح الحرب الألمانية الروسية الذى انتهى فصله الأخير بهزيمة الألمان فى ستالينجراد ، وتراجعهم المر حتى تم استسلامهم فى برلين .

● مسرح الحرب الأمريكية اليابانية الذى وضعت نهايته القنبلة الذرية على هورشيما .

● مسرح الحرب فى البحر المتوسط الذى قررت مصيره معركة العلمين ، وتحول إلى الجبهة الثانية ، حيث أنزل الحلفاء قواتهم على الشاطئ الفرنسى ، وتابعوا زحفهم إلى برلين .

كذلك ترجع أهمية معركة العلمين — بالنسبة لمصر — إلى أنها جرت على أرض مصر ، وكانت « السويس » هى هدف المتحاربين . . .

وقد حركت هذه الحرب أذهان المصريين ووجدانهم ، وأكدت الأهمية الاستراتيجية لموقع مصر وقناة السويس ، وأثارت الأمل والعزم فى أن يكون لشعب مصر السيطرة الكاملة على أرضه وقناته .

لقد جاء الغريمان يقتتلان على أرض لا يملكها أحدهما ، ونقلا النزاع إلى بلد مسالم ، وأفرغا حمولتهما من الشحناء والبغضاء والنار والحديد . . . ثم دارت دورة الزمان ، ومضى التاريخ فى

تطوره المحتوم ، وذهب المنتصر والمهزوم ، وحمل المستعمر عصاه على كاهله ورحل . . . وسلمت مصر ، وعزّ جيشها ، وانتصرت ثورتها ، وتأكدت سيادتها .

مقدمات المعركة :

فى ١٠ يونيو عام ١٩٤٠ أعلنت إيطاليا الحرب — إلى جانب ألمانيا واليابان — ضد إنجلترا وأمريكا وحلفائهما ، وخطب موسولينى زعيم إيطاليا فى تلك المناسبة فقال :

« لقد قضى الأمر ، وأحرقنا بمحض إرادتنا الجسور التى خلفنا . وإنى أعلن على رؤوس الأشهاد أن إيطاليا لا تنوى جرّ الشعوب التى تجاورها إلى نزاع . . . فلتسمع سويسرا ويوغوسلافيا وتركيا ومصر واليونان . . . »

وفى اليوم التالى تحركت طائرات الطرفين ، وبدأت مناوشات الدوريات على منطقة الحدود بين مصر وليبيا ، وصدر أول بلاغ رسمى من مركز قيادة القوات البريطانية فى الشرق الأوسط باحتلال الإنجليز لقلعتى كابوتزو ومادلينا ، بعد ضربهما بقنابل الطائرات .

وتقدمت القوات الإيطالية إلى السلوم ، وأغارت الطائرات على سيدى برانى ومرسى مطروح والإسكندرية . . . وبدأت

حرب الصحراء المصرية ، من أجل السيطرة على البحر المتوسط وقناة السويس .

وكانت الحدود بين مصر وليبيا قد رسمتها اتفاقية الحدود المعقودة فى القاهرة فى ٦ ديسمبر سنة ١٩٢٥ ، وتبدأ من نقطة على ساحل البحر بين السلوم (المصرية) والبردية (الليبية) ، وتسير الحدود جنوباً فى خط متعرج يمر بين واحتى سيوة وجغبوب ، ثم تستقيم على خط طول ٢٥ إلى العوينات .

ويمكن تلخيص الحرب فى الصحراء الغربية ، حتى حدثت معركة العلمين ، فى ست جولات رئيسية :

١ ـ بدأت الجولة الأولى ، فى الثالث عشر من سبتمبر سنة ١٩٤٠ ، بزحف القوات الإيطالية ، بقيادة المارشال جرازيانى ، وانتهت باحتلال الإيطاليين موقع سيدى برانى .

٢ ـ وبدأت الجولة الثانية فى اليوم السابع من شهر ديسمبر سنة ١٩٤٠ بهجوم القوات الإنجليزية ، بقيادة الجنرال ويفل ، الذى استطاع فى خلال عشرة أيام أن يهزم القوات الإيطالية ، ويقصيها خارج الحدود المصرية ، ويحتل ولاية برقة . وأعلن ونستون تشرشل لمجلس العموم والشعب البريطانى أنه « فى خلال ثمانية أسابيع حدثت تلك الحملة التى ستدرس فيما بعد كنموذج للفن العسكرى . فالجيش الإيطالى فى ليبيا ـ البالغ مائة وخمسين ألفاً ـ قد أسر أو أبيد ، ووقعت فى أيدينا ولاية برقة » . كما أنه

وصف ويفل بأنه من رجال الحرب « ذوى الحصافة والجسارة والإقدام » .

٣ — وبدأت الجولة الثالثة فى شهر أبريل سنة ١٩٤١ بزحف قوات المحور تحت قيادة الجنرال روميل ، القائد الألمانى الذى خلف المارشال جرازيانى فى القيادة العامة . واستطاع روميل فى سبعة أيام أن يدفع القوات الإنجليزية أمامه سبعمائة ميل فى هزيمة دامية وانسحاب مر . . . من بنغازى إلى السلوم .

٤ — وبدأت الجولة الرابعة فى شهر نوفمبر سنة ١٩٤١ عندما شرعت القوات الإنجليزية فى الزحف بقيادة الجنرال كننجهام ، وتحت إشراف القيادة العامة للجنرال أوكنلك — الذى خلف ويفل — حتى بلغت طبرق ، وتولى القيادة الجنرال ريتشى الذى استطاع رفع الحصار عن طبرق ، وتقدم بسرعة فى ولاية برقة حتى وصل إلى بنغازى مرة ثانية .

٥ — وبدأت الجولة الخامسة فى شهر مايو سنة ١٩٤٢ بهجوم هائل لقوات المحور ، تحت قيادة المارشال روميل ، فهزم القوات البريطانية فى بير حكيم والغزالة ، ثم استولى على طبرق ودخل الحدود المصرية واستولى على مرسى مطروح وفوكة والضبعة ، ووصل إلى العلمين .

وقد ظهرت فى تلك العمليات براعة القائد الألمانى روميل وجسارته ، فقد كانت القوات الإنجليزية متفوقة فى عدد



فیلد مارشال اروین رومیل

الدبابات بنسبة ٧ إلى ٥ ، ومتفوقة أيضاً في المدافع بنسبة ٨ إلى ٥ ، ومتفوقة فى الجو .

وأجمعت أغلب المصادر على أن تلك العمليات كان النصر فيها للقائد ، وأصبح اسم روميل يثير فزع الجنود والقادة الإنجليز . وقالت جريدة التيمس اللندنية «إن قواتنا كانت تواجه قوات متفوقة فى القيادة ، وإنها نازلت جيشاً مظفراً هزمها هزيمة مروعة» . وقال تشرشل : « أمامنا خصم جرىء ماهر ، هل لى أن أقول إنه قائد عظيم ! »

٦ — ثم بدأت الجولة السادسة فى العلمين . . .

كانت القوات البريطانية تتراجع متعجلة مذعورة أمام الزحف الألمانى الخاطف . ولم يجد الجنرال أوكنلك بداً من تنحية الجنرال ريتشى ، وأن يتولى هو بنفسه قيادة العمليات ، ثم راح يبذل جهده لتفادى الكارثة والابتعاد عن معركة حاسمة ، ويواجه أخطر صور الهزيمة ؛ ولهذا قرر الجلاء بسرعة عن مرسى مطروح ، فى حين دفع الطائرات البريطانية إلى تعطيل زحف روميل ، وضرب خطوط المواصلات .

وانتقل القتال بعد مرسى مطروح إلى فوكة ثم الضبعة ، وتراجع الإنجليز عدة أميال أخرى حتى وصلوا إلى الجبهة التى اختارها الجنرال أوكنلك ، ليقف الزحف . . .

وقد تم ما أراده فعلا ، إذ وقفت طبيعة الأرض إلى جانبه ، وأعطته موقعاً دفاعياً يناسب احتياجه العاجل مناسبة لا نظير لها .

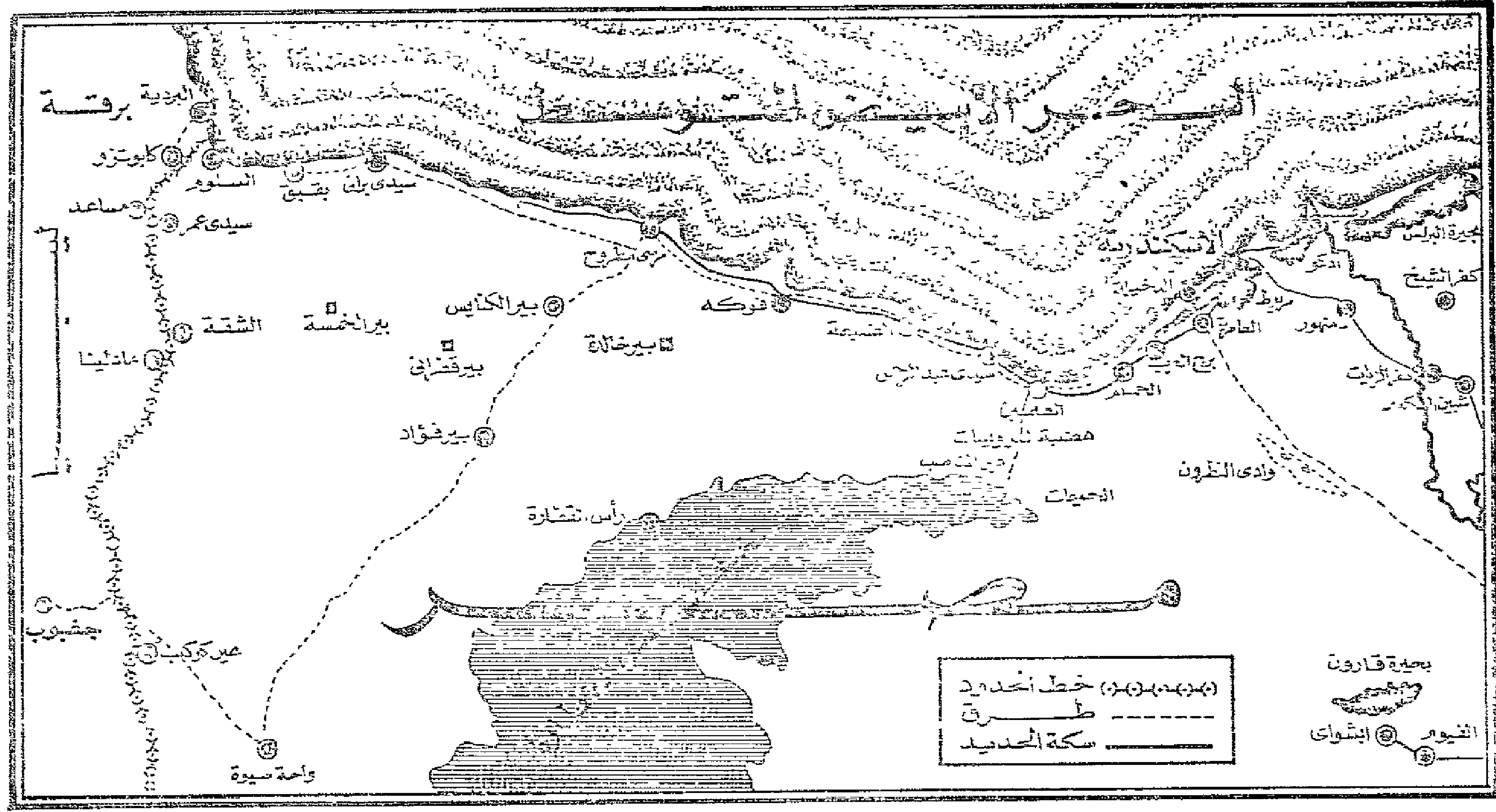
وهذه المنطقة تقع بين الساحل – عند بلدة العلمين – وبين منخفض القطارة ، وتضيق إلى ناحية الشرق على شكل يشبه عنق الزجاجة . . . وفى هذه الساحة حدث التوقف ، وتغير الموقف ، وثبت الإنجليز ، وتعطل الألمان .

تولى مونتجمرى قيادة الجيش الثامن فى ١٣ أغسطس سنة ١٩٤٢ ، وقد وجده على خط طوله ٣٥ ميلا من الشمال إلى الجنوب ، وموقعه من البحر بالقرب من تل آل عيسى إلى قرية الحميات . وكان الجيش يشكو من عجز فى الدبابات الفعالة والمدافع المضادة للدبابات ؛ وكان قد فقد ثقته فى القيادة العليا . أما جيش المحور – وبالرغم من تفوقه فى التسليح – فقد كان ينقصه المشاة التى يعتمد عليها وكذلك وسائل النقل ، وكانت ترهقه صعوبات التموين بسبب الخسائر البحرية الجسيمة على خط الاتصال الطويل من نابولى إلى طرابلس وبنغازى .

* * *

قام روميل بهجوم فى ليلة الحادى والثلاثين من أغسطس ، وقد اخترق جبهة الفرقة الثالثة عشرة داخل القطاع الجنوبى ، ولكنه عجز عن الاستيلاء على موقع علم الحلفا ؛ وبعد قتال دام سبعة أيام اضطرت قوات المحور إلى التراجع بعد خسائر جسيمة فى الأرواح والعربات .

وكانت نية مونتجمرى الأصلية تتجه إلى هجوم على القطاع الشمالى بأربع فرق مشاة ، وبعد تأمين منفذ – عبر ألغام العدو



الحدود المصرية الليبية

المضادة للدبابات ـــ تتحرك فرقتان مصفحتان لاحتلال موقع عبر خط تموين المحور ، ولكنه نظراً للحالة التدريبية للقوات البريطانية عدلت الخطة ، وتقرر اتخاذ مواقع دفاعية لاستهلاك أسلحة المحور ، فى حين يقوم المشاة بالإستعداد لمواجهة المشاة ، وفى الجنوب كان على الفرقة الثامنة القيام بهجوم جانبى لشغل انتباه القيادة الألمانية ومنعها من الالتفات إلى قطاع الشمال ، وهو القطاع الرئيسى ».

وقد اتخذت إجراءات مدروسة للوصول إلى مفاجأة العدو ، عن طريق إقناعه بأن الهجوم الرئيسى سيشن من الجنوب . وبدأت القوات الجوية سلسلة من الغارات الجوية بالنهار والليل على مطارات المحور حتى نجحت فى منع السلاح الجوى الألمانى من الطيران .

ويلاحظ أن سلاح الطيران البريطانى كان قد وصل فى أكتوبر إلى السيطرة التامة على الجو .

وفى يوم ٢٣ أكتوبر ـــ وفى الساعة التاسعة وأربعين دقيقة مساء ـــ فتح أكثر من ألف مدفع بريطانى النيران على مواقع مدفعية المحور متجهة ناحية القوات الأمامية . . وفى ضوء القمر تقدمت أربع فرق خلف الستار ، وكانت قد سيطرت على معظم أهدافها قبل الفجر . واحتلت فرقتان مصفحتان موقع « المطرية » من خلال الممرين اللذين قام سلاح المهندسين بتطهيرهما من

الألغام ، وبعد نجاح محدود من الفرقة الثامنة صدرت الأوامر بتأجيل الهجوم إلى ما بعد ٢٥ أكتوبر .

* * *

ثم توالت أيام من القتال الصعب المحير ، وقد تمكن الجيش الثامن من التغلب على كل الهجمات المضادة التى قامت الدبابات الألمانية بها ، وعلى أقصى اليمين هاجمت الفرقة الأسترالية التاسعة — إلى الشمال نحو الساحل — بنجاح كبير فى الليالى المتتالية من ٢٥ إلى ٣١ أكتوبر ؛ وجذبت هذه المفاجآت المحلية كل الاحتياطى الألمانى إلى القطاع الشمالى بالقرب من الساحل ، وتركت المشاة الإيطاليين دون مساعدة .

فى ذلك الوقت كان مونتجمرى قد أعاد تشكيل قواته عن طريق سحب قوات ووضعها بالاحتياطى ، وفى ليلة ١ — ٢ نوفمبر هاجمت الفرقة النيوزيلندية الثانية المواقع الإيطالية بالغرب ، ونجح الهجوم ، وتغلب على هجمات العدو المضادة للدبابات ، وفى اليوم الثانى ظهرت علامات تراجع العدو ، وفى ليلة ٣ — ٤ نوفمبر أعد هجوماً سريعاً واستطاع الدخول إلى خط « تل العقاقير » ضد مقاومة لا تذكر ، ونجحت هذه الحركة فى عزل القوات الألمانية فى الشمال عن الفرق الإيطالية فى الوسط والجنوب . وفى الصباح التالى أرسلت فرقة للمطاردة ، وكانت القوات الألمانية تنسحب على الطريق الساحلى تحت هجوم

من الجو ، تاركة القوات الإيطالية بدون وسائل نقل ، فوقعت فى أسر الجيش الثامن بسهولة .

وكانت معركة العلمين — بعد هذا الانتصار الحاسم — نقطة البداية لتقدم الجيش الثامن فى غزوة خلابة انتهت بالقضاء على قوات المحور فى أفريقيا ، ونقل المعركة إلى أوربا ، حيث تم فتح الجبهة الثانية .

أكانت معركة العلمين « معركة مصر » ؟

أم كانت معركة ليس لمصر فيها ناقة ولا جمل ؟ !

عندما تحرجت الحالة الدولية فى سنة ١٩٣٨ ، وظهرت نذر الحرب فى أوربا ، أخذت كل دولة تقدر موقفها ، وتعد عدتها وفق ما تقتضيه سياستها ومصالحها ، حيث لم يعد مستطاعاً — فى ظروف حرب عالمية — أن تبقى دولة بمنأى عن الحرب وأحداثها ونتائجها .

وقد كان واضحاً أن للصدام بين ألمانيا من ناحية وإنجلترا وفرنسا من ناحية أخرى لن يقف عند حدود هذه الدول ، فإن أوربا كلها كانت مشتركة فى الصراع أو متأهبة له ، كما نشأت جبهة لكل فريق تؤازره ، وتستعد لخوض المعركة إلى جانبه .

ووضح أن ألمانيا وإيطاليا واليابان تجمعها سياسة معادية لفرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة ، كما وضح أن الاتحاد السوفييتى يتحفز للقيام بدور خطير ؛ وهكذا أصبح واضحاً أن الحرب ستكون شاملة ومتعددة الميادين .

وقد تتبعت مصر الحالة الدولية منذ أن تحرجت ، وأخذت تراقب أحداثها وتطوراتها ، ولا ريب أن اهتمام مصر بتطورات

الأزمة الدولية يرجع إلى توقع اشتراك إنجلترا من ناحية ، واحتمال دخول إيطاليا الحرب من ناحية أخرى .

وكانت مصر إلى جانب ذلك معرضة بحكم موقعها الجغرافى للإغارات الجوية ، ولبعض نتائج المعارك البحرية ، ولعمليات كانت منتظرة الوقوع بسبب قناة السويس . وقد رأينا فى السنوات التى سبقت الحرب كيف تحول البحر الأبيض المتوسط إلى مسرح للمناورات البحرية والجوية ، فلا يمتد الوقت به حتى يصبح ميدان المعارك الحاسمة .

وفى مصر الممر الرئيسى الذى يربط الشرق بالغرب ، وطريقاً بريطانياً إلى أجزاء الإمبراطورية ، وهما قناة السويس التى تؤدى إلى الهند ، وطريق القاهرة المؤدى إلى الكاب .

كما كانت مصر مرتبطة ببريطانيا بمعاهدة لندن سنة ١٩٣٦ التى تنص المادة السابعة منها على أنه « إذا اشتبك أحد الطرفين فى حرب فإن الطرف الآخر يقوم فى الحال بإنجاده بصفته حليفاً» وذلك مع مراعاة أحكام المادة العاشرة التى نصها :

« وتنحصر معاونة "حضرة صاحب الجلالة ملك مصر" فى حالة الحرب ، أو خطر الحرب الداهم ، أو قيام حالة دولية مفاجئة يخشى خطرها ، فى أن يقدم إلى صاحب الجلالة الملك والإمبراطور داخل حدود الأراضى المصرية ، ومع مراعاة النظام المصرى للإدارة والتشريع ، جميع التسهيلات الممكنة والمساعدة

التى فى وسعه ، بما فى ذلك استخدام موانيه ومطاراته وطرق المواصلات » .

وكان واضحاً أن البحر المتوسط سيكون أحد ميادين الحرب الرئيسية إذا اشتركت إيطاليا فى الحرب إلى جانب ألمانيا ضد إنجلترا وفرنسا .

وقد كان البحر المتوسط « تفاحة الخلاف » الشهيرة بين إيطاليا وفرنسا — كما تنبأ بذلك بسمارك قبل قرن من الزمان — ومنذ أن تفتحت نفس حكام إيطاليا فجعلت السيادة على هذا البحر فكرة إيطاليا الرئيسية ، ومحور سياستها ، وهدف حكومتها وشعبها — وبخاصة عندما تحركت أطماع موسلينى لإقامة إمبراطورية إيطالية — كانت الصحف الإيطالية تتحدث عن « البحيرة الإيطالية » و « بحرنا » ، وأن « إيطاليا سجينة البحر المتوسط ، وأن سجانيها يحتفظون بمفاتيح البحر فى جبل طارق والسويس » !

وكانت خطب رئيس إيطاليا ذات طابع خاص يحمل علامات التهديد والوعيد ، وتلوح دائماً بنذر المستقبل ، فيتلقاها الشباب الفاشيستى بصيحة راعدة : « تونس . كورسكا . السويس » ، وعندما بلغ مقياس الخطر نهايته خاطب موسلينى رجاله فقال : « إننا لمستعدون اليوم استعداداً ما بلغناه قط ، براً وبحراً وجواً ، ويسرنى أن أراكم لم تتغيروا . . فهل أنتم ثابتون ؟ » فيردون بقوة : « نعم » ! « وعلى استعداد للطاعة ! » ... « نعم » .. ومستعدون أن

تقاتلوا ؟ نعم ، نعم ! إذن سيروا مع روما فى الأيام المقبلة ، إن الزحف لم ينته . . وما لأحد أن يوقفه ! »

ثم قال موسلينى إن الحرب لازمة لحياة الأمة ، وإنها خير مجدد لشباب الشعوب ، وإنها منذ سنة ١٩٣٥ من الصناعات الوطنية الإيطالية !

ولما أعلنت الحرب لم تشترك إيطاليا فيها ، ولكن وقفتها المحوطة بالغموض ، والمنطوية على خطر لا يعرف مداه ولا موعده ، قد سببت إرباكاً وتعطيلا لخطط الحلفاء ، وتأثيراً فى توزيع قواتهم ، وتوجيه دفتهم ، فاحتجزت فرقاً من الجند لها قيمتها فى أوقات شديدة الحرج والدقة ، انتظاراً لما يكشف عنه الغد من نوايا إيطاليا ، وبذلك أصابت إيطاليا بصمتها ما عجزت عنه بضجيجها ! ووقفت الدول المجاورة لها فى حيرة وجزع لا تستطيع بسببهما أن تكشف عن نواياها الحقيقية ، فبقيت على حذر وانتظار مر . .

فلما تتابعت حوادث الحرب ، وانتهى أمر فرنسا ، وجدت إيطاليا الساعة المناسبة لحمل السلاح ، فأعلنت الحرب فى ١٠ يونيو سنة ١٩٤٠ ، وقال موسلينى : لقد قضى الأمر ، وأحرقنا بمحض إرادتنا الجسور التى خلفنا ؛ وإنى أعلن على رؤوس الأشهاد أن إيطاليا لا تنوى جر الشعوب التى تجاورها إلى نزاع ، فلتسمع سويسرا ويوغوسلافيا وتركيا ومصر واليونان . . .

ودخلت إيطاليا الحرب فى ١٠ يونيو عام ١٩٤٠ .

وفى ١٢ يوليو اتخذت مصر القرار التالى :

« مصر تحترم التحالف ، وتحفظ العهد ، وتبذل فى أراضيها كل ما تطلبه الحليفة من معاونة ، ولا تشترك فى الحرب إلا إذا اعتدت عليها إيطاليا » .

وفسرت الاعتداء بملى يلى :

١ ـ إذا توغلت الجنود الإيطالية فى الأراضى المصرية ، مبتدئة .

٢ ـ إذا ضربت المدن المصرية بالقنابل .

٣ ـ إذا حدثت إغارات جوية على مواقع الجيش المصرى .

والذى حدث هو أنه فور إعلان إيطاليا الحرب بدأ الاشتباك فعلا بين القوات البريطانية والقوات الإيطالية على الحدود المصرية . وفى نفس اليوم ـ ١٠ يونيو عام ١٩٤٠ ـ صدر أول بلاغ رسمى من مركز قيادة القوات البريطانية فى الشرق الأوسط يعلن احتلال الإنجليز لقلعتى كابوتزو ومادلينا ـ فى ليبيا ـ بعد ضربهما بقنابل الطائرات ، وأن القوات البريطانية أسرت مائة جندى ، وأن الطائرات هاجمت الأهداف العسكرية ، وضربت أنابيب المياه وخطوط المواصلات .

وكذلك أغارت الطائرات الإيطالية على السلوم وبرانى ومرسى مطروح ، وبدأت صفارات الإنذار تدوى فى الإسكندرية ، وقالت الصحف المصرية يوم ٢٤ يونيو إن صفارات الإنذار سمعت مع دوى المدافع ، وإنه حدثت عدة إغارات « شردت

نوم المدينة وأرتها نموذجاً حيًّا من العدوان على المدن الآمنة » . .

أى أن الحرب نشبت فى مصر بغير رغبة منها أو مصلحة لها فيها .

لم تكن مصر طرفاً فى النزاع ، كما لم تكن مالكة لرشدها ، أى غير قادرة على تقرير أمورها بنفسها وصنع مستقبلها بيدها .

والنزاع كان قائماً بين إيطاليا وإنجلترا ، كل منهما تسعى للسيطرة على الشاطئ الإفريقى والسيطرة على قناة السويس . .

.. أى أن مركز مصر الجغرافى يجعلها ساحة من الساحات الرئيسية فى الحروب العالمية ، وأن الدولة التى تملك السيطرة على قناة السويس والشاطئ الإفريقى تعد قوة عظمى لها شأنها فى الميزان الدولى ، وفى تقرير مصير الحرب .

لم تكن مصر طرفاً فى النزاع ، ولا كان لها دور فى الحرب ، وإنما جاء بالحرب إلى مصر الاحتلال البريطانى ، ورسم دور مصر معاهدة التحالف التى كانت تربطها ببريطانيا .

. . . . . .

وكان السؤال :

هل تشترك مصر فى الحرب ؟

وكان هناك أكثر من إجابة تحمل كل منها وجهة نظر لها شأنها :

١ — وجهة نظر تقول إن مصر ليست طرفاً فى النزاع وليس لها صلة بموضوعه ، فالصدام الذى حدث بين إنجلترا وفرنسا

من ناحية ، و بين ألمانيا وإيطاليا من ناحية أخرى ، كان بسبب مشكلات أوربية من ذيول الحرب العظمى .

وإذا كانت مصر قد أصبحت ميداناً للحرب فقد حدث ذلك بالرغم منها ، فإنجلترا تحارب لا من أجل مصر ولكن من أجل المصالح البريطانية . وإيطاليا لا تحارب ضد مصر ولكن تحارب إنجلترا .

ورفع أصحاب هذا الرأى شعاراً ، قاله شيخ الأزهر — الإمام المراغى — فى بيان مشهور :

« هذه حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل » !

٢ — وجهة نظر تقول إن مصر مرتبطة ببريطانيا بمعاهدة ١٩٣٦ ، وإن هذه المعاهدة تفرض على مصر مساعدة حليفتها ، وإن هذه المساعدة حددت فى نصوص المعاهدة « بتقديم جميع التسهيلات الممكنة والمساعدة التى فى وسعه — أى وسع الحليف الطرف الثانى — بما فى ذلك استخدام موانيه ومطاراته وطرق المواصلات » .

وكانت وجهة النظر هذه حكومية أعلنها رئيس الوزراء أمام البرلمان يوم ١٢ يونيو عام ١٩٤٠ :

« إن مصر تحترم التحالف ، وتحفظ العهد ، ولا تشترك فى الحرب إلا إذا اعتدت عليها إيطاليا . . »

٣ — وجهة نظر تقول بتجنيب البلاد ويلات الحرب ، فإن الاحتلال البريطانى لم يسمح بأن يكون فى مصر جيش وطنى

قوى ، بل عمل الاحتلال دائماً على إضعاف مصر وتجريدها من السلاح ، وتقويض معنوياتها ، وصد الحركات الشعبية المنادية بالاستقلال والحرية ، وعليه فإن المهمة الوحيدة هي الإمعان فى السلبية والاختفاء لتفادى الكوارث وتجنب الويلات حتى يقضى فى الحرب .

وقد ظلت وجهة النظر هذه هي السياسة الرسمية للحكومة منذ توغلت الجنود الإيطالية فى الأراضي المصرية حتى انتهت معركة العلمين بفوز الإنجليز فى سنة ١٩٤٢ .

وكان قد صدر تصريح رسمى من رئيس الوزراء يوم ٢١ أبريل عام ١٩٤٢ :

« لن أعمل أو أوافق أو أسلم بجر مصر إلى الاشتراك فى الحرب ، أو تقديم جنود من أبناء هذه البلاد ، مهما كانت الظروف والأحوال » .

٤ — وجهة نظر تقول لا بد أن نحارب . إن الحرب هى فرصتنا . إن الحرب لازمة لإثبات وجودنا واستعادة حميتنا .

كان ينادى بوجهة النظر هذه شباب مصر الطموح .

إن الحرب قائمة فى مصر ، فكيف تقف مصر مسلوبة الإرادة مرغمة على أمرها ، فى حين يقرر الآخرون مصيرها ؟ كيف يداس الحمى ، ويعتدى على الكرامة ، ولا يتحرك الشعب للدفاع عن أرضه ومقدساته ؟ ! ينبغى أن نحارب ، لا من أجل الإنجليز ، ولا مساعدة لهم ؛ ولكن نحارب المعتدين ؛ فإذا

تم لنا النصر استطعنا أن نقف فى وجه الإنجليز وفى يدنا شهادة الدم المصرى المراق .

إن الحرب هى الفرصة السانحة لاستعادة معنويات الشعب وصهر معدنه وتدريبه . . فقد طال بمصر الوقت فى ظلال الاستسلام ، وهو ما عبر عنه شوقى بقوله :

إن ورد السلم من كثرته ضيعت أظفارها فيه الأسود

ويستكمل أصحاب الرأى بدخول مصر الحرب وجهة نظرهم بأنه فى حالة الهزيمة لا نخسر شيئاً فإن الاحتلال البريطانى ينتهى . وقد لا يستبدل به احتلال إيطالى . . وحتى إذا حدث هذا فإننا نكون قد تعودنا الكفاح المسلح ، وتمرسنا بالحرب ، فندخل معركة كفاح جديدة ونحن أقوى معنوية وأكثر استعداداً وأعز شرفاً . .

وإذا انتصرنا استطعنا أن نقنع العالم بأننا أمة باسلة لم نرتض الاستسلام ، وأننا اشتركنا فى صنع النصر ، ومن حقنا أن نشترك فى صنع السلم وفى تقرير مصير العالم بعد الحرب . .

. . . . . .

هذه كانت وجهات النظر التى تتردد ، وكان بعضها يلمع أو يخبو مع أحداث الحرب وتطوراتها ، ولكن الشعور الغالب كان ضد إنجلترا .

كان الشعب — من أعماقه — يكره الإنجليز المحتلين ويتمنى لهم الهزيمة ، أو بمعنى أصح الزوال عن أرض مصر ، وفى الوقت

نفسه كان يخشى أن يجيء احتلال جديد ، ومع هذا ارتفعت أصوات تقول : « تقدم يا روميل » . . « إلى الأمام يا روميل » ؛ وكانت هناك دعوات لأن ينتصر روميل، لا حبًّا فى الإيطاليين أو الألمان ولكن كراهية للإنجليز .

وكانت إنجلترا تعرف شعور الشعب وتعمل حسابه ، ولهذا كانت تضغط باستمرار على القصر والحكومة ، ووصل بها التحدى إلى أنها فرضت يوم ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ حكومة موالية لها ، حتى تضمن سلامة مصالحها ، ونشطت مخابراتها ، فأخذت تتابع حركات المناهضة، وتحاول أن تتكشف اتجاهات الشباب واجتماعات رجال الفكر والسياسة .

ويروى أن أحد رجال السياسة القدامى — أحمد زيور — سئل عن رأيه فى الحالة فأجاب بفكاهة مشهورة :

« حالة إيه يا مونشير . شعب مصر ألمانى ، وملك مصر طليانى ، وحكومة مصر إنجليزية » !

وقد اعتقد الإنجليز أن فى مصر « نشاطاً ورياً » ، وأن هناك اتصالات سرية ووساطات سياسية ترمى إلى إحداث انقلاب فى مصر فى الوقت الذى يشدد فيه روميل هجومه على القوات البريطانية ، ولذلك كانت إنجلترا تشدد قبضتها على الملك ، وتضمن حكومة ضالعة معها ، وتضع الشخصيات المعروفة بعدائها فى المعتقلات ، وتفرض رقابة شديدة على الشعب ، وتضع خططها لمد القتال داخل المدن والقرى ، وفاقاً

للسياسة التى أعلنها ونستون تشرشل :

« إننا معتزمون أن نقاوم إغارة العدو على مصر ووادى النيل ، وأن نصده عنهما بنفس القوة والعزم اللذين نقاوم بهما إغارته على أرض إنجلترا نفسها » .

وقد انتهت العمليات فى الأراضى المصرية بانتصار الجيش الثامن فى العلمين أكتوبر / نوفمبر سنة ١٩٤٢ .

وكانت معركة العلمين نقطة التحول فى الحرب العالمية الثانية ، فانتقلت بعدها المبادأة إلى أيدى الحلفاء ، واستطاع الروس فى ستالينجراد أن يدمروا القوات الألمانية ، وتمّ فتح الجبهة الثانية فى أوربا ، واتجه الحلفاء من كل جانب إلى برلين ، وانهزمت اليابان أمام الولايات المتحدة صاحبة القنبلة الذرية . .

وبدا النصر النهائى للحلفاء قريب المنال .

. . . . . .

وبالنسبة لمصر عاد التساؤل . . هل تشترك مصر فى الحرب؟

أو بمعنى أصح : هل تعلن مصر الحرب على ألمانيا واليابان؟ باعتبار أن إيطاليا انسحبت من الحرب .

وقال فريق : ما معنى أن تعلن مصر الحرب بعد انتهاء الحرب ؟

وكيف تعلن مصر الحرب ، والحرب فى النزع الأخير ، فى حين أنها لم تعلن الحرب ، والحرب تغلى على أرضها وتذيقها من ويلاتها ؟

كيف لم تعلن مصر الحرب خلال « معركة مصر » ، ويطلب منها أن تعلن الحرب خلال « معركة برلين » ؟!

وقال أصحاب هذا الرأى إن معنى إعلان مصر الحرب هو تسليم بما ترومه بريطانيا ، وإعلان لانعدام الإرادة والسيادة .

وإذا كانت الحرب فروسية وشهامة فإنها لا تكون كذلك إذا كان الخصم واقعاً على ركبتيه يلفظ آخر أنفاسه .

وقال أصحاب الرأى الآخر :

إن إعلان مصر الحرب على دولتى المحور لا يضر بمركز مصر ، وهو عمل من أعمال السياسة لا الحرب .

إنه إعلان عن السير فى ركب الدول المنتصرة التى ستقرر مصير الحرب ، ثم تقرر بعد ذلك مآل السلم .

إنه إعلان عن أن مصر راغبة فى الاشتراك فى أحداث العالم ووضع خطة العالم الجديد . .

. . . . . .

وفى جلسة مجلس النواب المصرى ، يوم الاثنين ٢٦ فبراير سنة ١٩٤٥ ، ألقى رئيس الوزراء بياناً عن إعلان مصر الحرب ، ذكر فيه أن وزير خارجية بريطانيا أبلغه أن مؤتمر القرم قرر عقد مؤتمر دولى فى مدينة سان فرانسسكو فى أبريل عام ١٩٤٥ ، وقرر ألا يشترك فى هذا المؤتمر إلا الدول التى تكون قد أعلنت الحرب على المحور قبل أول مارس ، وأن إعلان الحرب يتيح لهذه الدول — فور اشتراكها فى هذا المؤتمر — أن تكون من الأعضاء

المؤسسين للهيئة الدولية المزمع تكوينها بعد الحرب ، لكى تخلف هيئة الأمم .

وقال رئيس الوزراء إنه استأنس بآراء الكثير من ذوى الرأى والشأن والزعماء ورؤساء تحرير الصحف وزعماء المعارضة فى المجلسين ، فكان رأى الأغلبية الكبرى — التى تكاد تكون إجماعاً — هو ضرورة دخول مصر فى الحرب .

وكان الرأى أن تصدر الحكومة « مرسوماً ملكياً » باعتبار حالة الحرب قائمة بين مصر وحكومة الريخ وإمبراطورية اليابان ، وبالرغم من أن هذه الحرب حرب دفاعية لا تقتضى دستورياً موافقة البرلمان إلا أن الحكومة رأت أن ترجع إلى البرلمان قبل صدور القرار .

وكان السؤال الذى يتردد هو :

ما الذى تفيده مصر من إعلان الحرب ؟

وكان الرأى هو أن طلب مصر دخول مؤتمر الصلح — حتى تستطيع الدفاع عن مصالحها وحقوقها — يقتضى إعلان الحرب ، وكان السفير البريطانى قد حمل إلى رئيس الوزراء أن « الحكومة الإنجليزية ستبذل خير معونتها ليتحقق لمصر أن تمثل على قدم المساواة فى جميع مفاوضات الصلح التى تمس مصالحها مباشرة .

« وزيادة على ذلك فإن حكومة جلالة الملك لن تتدخل فى أثناء هذه المفاوضات فى مناقشة أى شىء يمس مصالح مصر المباشرة دون تبادل الرأى مع الحكومة المصرية » .

وكان هذا التصريح — فى حينه وبالنسبة لظروف ذلك العهد — يعتبر أملا كبيراً بل كسباً مفرحاً .

وختم رئيس الوزراء بيانه بقوله للنواب :

إننا لا نجنى شيئاً من بقائنا على انفراد وفى عزلة عن سائر الدول ، بل الخير كل الخير فى التعاون الدولى والاشتراك فى المؤتمرات الدولية . هذه هى السياسة الإيجابية المفيدة لمصر المحققة لأمانيها القومية ، أما سياسة العزلة والانفراد فسياسة سلبية عقيمة ، لاخير فيها لمصر على الإطلاق ، إن لم يكن فيها الضرر كل الضرر لآمالنا ومطامعنا فى الحياة الرفيعة الكريمة .

إنى واثق كل الوثوق من قراركم فى هذا الموضوع ، وآمل أن يكون إجماعياً أو شبه إجماعى . ولا يمكن أن تقول مصر إنها تعرف حقوقها وواجباتها وتقدر مصالحها ، ثم لا تتأثر إلا بمؤثرات ترجع فى كثير من الأحيان إلى استخدام كل الظروف لتحقيق أدنى الشهوات وهى شهوة الوصول إلى الحكم .

وذكرت مضبطة مجلس النواب أن النواب استقبلوا بيان رئيس الوزراء بإعلان مصر الحرب على ألمانيا واليابان « بتصفيق حاد متصل » .

وبعد دقائق قليلة سمع دوىّ طلق نارى فى دار البرلمان . . .

لقد لقى رئيس وزراء مصر مصرعه عقب إعلانه الحرب .

وفى ٢٦ فبراير صدر مرسوم من مادة وحيدة بما هو آت :

« تعتبر المملكة المصـ ـية فى حالة حرب مع الرايخ الألمانى

وإمبراطورية اليابان اعتباراً من اليوم » .

وعندما أحرز الحلفاء النصر النهائى فى برلين ، أرسل مجلس النواب المصرى برقية لمجلس العموم البريطانى تقول :

« باسم مجلس النواب المصرى يسعدنى أن أبعث إليكم وإلى مجلس العموم بأخلص التهنئة وأصدق الإعجاب ، التهنئة على النصر المؤزر الحاسم الذى نلتموه على العدو المشترك ألمانيا ، والإعجاب بأنكم كسبتم الحرب بأخلاقكم وعدالة قضيتكم قبل أن تكسبوها بأسلحتكم وقوتكم ، فصفاتكم من الشجاعة والثبات والمثابرة ، حتى فى أحلك الأوقات ظلاماً وأشدها حرجاً ، وقضيتكم العادلة القائمة على رعاية الحريات واحترام التعهدات ، جعلتكم أقوى شكيمة من العدو المسلح المتغطرس ، وأكسبتكم عطف العالم وتأييده وتقديره ، إذ جددتم فيه إيمانه القديم بأن الحق والحرية واستقلال الأمم كبيرها وصغيرها من عناصر الحياة الأساسية التى قد تهزم حيناً ولكنها تتغلب دائماً آخر الأمر.

فلكم تهنئتنا وإعجابنا وصداقتنا الدائمة » .

وجاءه الرد التالى :

« أرجو أن تتقبلوا خالص عبارات الشكر منى ومن جميع أعضاء مجلس العموم لرسالتكم البرقية ، المعبرة عن تهانئكم الرقيقة التى وقعت من نفوسنا أجمل وقع ونالت أكمل تقدير .

وأرجو أن تبلغوا مجلس النواب تحياتنا القلبية » .

. . . .

وعقب « النائب إسماعيل صدقى » على إعلان البرقيات المتبادلة بقوله :

انتهت الحرب كما كان متوقعاً لمصلحة الديموقراطية ، وإذا كانت الجهود الحربية لا تزال تبذل فى بعض الميادين النائية فما من شك فى المصير الذى يحتمه التفوق الهائل القوى عند حلفائنا وأصدقائنا مما يتضافر فى خدمته علم بارز وإرادة قوية ووطنية حارة .

ومصر لا تريد شيئاً أكثر من أن تعامل وفقاً لهذه المبادئ ؛ وإذا كان استحقاقها لهذه المعاملة هو النتيجة اللازمة لحضارتها المتدرجة فى الصعود ، ولمجدها التاريخى الذى لا يبارى ، فكم يكون أبلغ وألزم قياساً على الخدمات وعلى التضحيات التى بذلتها بسخاء فى سبيل نصرة القضية المشتركة مما تردد ذكره فى كل المناسبات ، وأصبح من الحقائق المسلم بها لدى الجميع .

إن مبادئ الحرية هذه هى التى حفزت مصر إلى الانضمام لميثاق الأطلنطى والتمسك بأحكامه ، حتى فى سان فرانسسكو ، حيث طلب مندوبنا أن يكون الميثاق هو الأساس الذى يقام عليه صرح السلام المرتقب. والواقع أنه لن يتحقق سلام إلا حيث تشعر كل أمة أن لها الحق فى أن تحيا حياة عزة وكرامة وفى أمان من العدوان .

ومن أجل ذلك أقول إنه قد آن الأوان — وقد زال كابوس المشاغل الحربية فى الناحية التى تتصل بمصر — أن تتفاهم مصر

وحليفتها على تلك المسائل .

ولا يخفى أن من حسن الطالع أن القيود التى تكبل بها استقلالنا لم تكن من جانب الحليفة إلا احتياطاً لطوارئ العدوان. أما وقد اتخذت الدول بهذا الشأن ما يكفل إلى أبد الآبدين القضاء على كل عبث بالسلام فمن الهين أن يتم التفاهم ، وأن تحصل مصر على حقها الكامل فى الحرية وفى الاستقلال غير المشوب بأى قيد من القيود ، وأن يكفل لها ذلك فى كامل أرجائها.

. . . . . .

انتهت الحرب إذن وتحقق النصر ، ولكن لم يتحقق الوعد .

ذلك أن الحليفة التى احترفت بذل الوعود ونقض العهود استمرت تمارس لعبتها المفضلة .

وأخذت مصر تحاول ، والحليفة تحاور ، ومرت عدة سنوات من الأمل والرجاء والجهاد والعناء ، وبدأت المقاومة الشعبية ، وأخذ شباب مصر يزمجر ، وانطلقت الثورة ، وقال جمال عبد الناصر :

على الاستعمار أن يحمل عصاه على كاهله ويرحل . . .

وقد كان ، وانتهى الاستعمار البريطانى لمصر ، بإرادة مصر وحققت مصر — بثورتها — حريتها وإرادتها .

القائدان فى العلمين

مونتجمرى

برنارد لو مونتجمرى : فيكونت أوف علمين

١٨٨٧

ضابط مشاة اشتهر باستقامته وعسكريته وإصراره المستمر على اللياقة البدنية والشباب والكفاية للقادة .

قاد فرقة فى فرنسا فى فاتحة الحرب العالمية الثانية .

قاد قوات الجنوب الشرقى فى إنجلترا .

تولى قيادة الجيش الثامن فى شمال أفريقيا فى أغسطس عام ١٩٤٢ .

أعاد ثقة الجنود فى القيادة ، وقام بتدريب واسع المدى وراء ميدان العمليات .

انتصر على روميل فى العلمين — أكتوبر / نوفمبر عام ١٩٤٢ وأخلى شمال أفريقيا من القوات الإيطالية والألمانية .

عين مساعداً للجنرال أيزنهاور فى عمليات غزو أوربا ، يوليو عام ١٩٤٤ .

قاد الجيش ٢١ (بريطانى / كندى) فى عمليات استسلام ألمانيا (مايو عام ١٩٤٥) .

عين رئيساً لأركان حرب الإمبراطورية (٤٦—١٩٤٧) .

عين رئيساً للجنة القيادية العليا لأوربا الغربية (٤٨—١٩٥١) .

عين نائباً للقائد الأعلى لقوات الحلفاء فى أوربا (٥١ — ١٩٥٨) .

ذاعت محاضراته عن « القيادة العسكرية » ومذكراته « مذكرات مونتجمرى » .

روميل

أروين روميل : فيلد مارشال ألمانى
١٨٩١ — ١٩٤٤ .
ضابط مشاة تحول إلى قيادة قوات مدرعة ، واشتهر بأنه مدرب قدير .
قائد حرس هتلر سنة ١٩٣٩
قائد فرقة دبابات — بانزر — قام بعمليات حاسمة فى فرنسا ما يو / يونيو عام ١٩٤٠ انتهت باستسلام فرنسا .
قائد قوات المحور فى شمال أفريقيا عام ١٩٤٢ .
« ثعلب الصحراء » الذى كان اسمه يثير فزع القوات الإنجليزية .
وصفه ونستون تشرشل بأنه قائد ماهر جرىء. وقال عنه أوكنلك : احترمته لشجاعته وقدرته على كل موقف .
تفادى الكارثة بعد هزيمة العلمين وسحب قواته إلى تونس .
عين مساعداً لرونشتد فى مواجهة الجبهة الثانية .
جرح فى غارة جوية يوم ١٧ يوليو عام ١٩٤٤
اشترك فى مؤامرة « التخلص من هتلر » وكان مقدراً فى حالة نجاح المؤامرة أن يصبح روميل رئيساً لألمانيا .
أجبر على تناول السم عقب كشف المؤامرة ومات يوم ١٤ أكتوبر عام ١٩٤٤ .
ألف كتاب هجوم المشاة (١٩٣٧) وكتاب « حرب بلا حقد » الذى اشتهر باسم « مذكرات روميل » .



فيلد مارشال أوكنلك

بين روميل ومونتجمرى

إلى أى مدى تأثرت معركة العلمين بشخصيتى القائدين؟

« إن هناك خطراً حقيقياً على الجنود من اسم روميل ... أناشدكم أن تستخدموا كل الوسائل لتبديد الوهم الذى استولى على عقول الجنود » .

أوكنلك

لم يلق قائدان غريمان فى الحرب العالمية الثانية مثل الشهرة التى لقيها بطلا معركة العلمين : مونتجمرى وروميل .

ولم يقال من هذه الشهرة أن أحدهما فاز على الآخر ، فكلاهما أحدث تأثيراً كبيراً فى نفسية جنوده ، وفى سير العمليات ؛ وكلاهما أثبت تفوقه وامتيازه ، ووضع قدمه ثابتة فى ساحة التاريخ.

وقد جمعتهما « العلمين » ، كما جمعت من قبلهما « واترلو » بين نابليون وولنجتون ، فلم تقال هزيمة نابليون من شأنه ، بل يمكن القول بأن نابليون أشهر من ولنجتون ، بل هو أشهر عبقرية عسكرية فى التاريخ كله .

روميل

ولنبدأ الحديث عن روميل — لأنه قضى وأصبح ذكرى . .

والحديث عن الفيلد مارشال أورين روميل ينبغي أن يقدم له برأى خصومه فيه ، فالحكم ما شهدت به الأعداء .

كان روميل — على حد قول الفيلد مارشال ويفل — ظاهرة غير عادية ، وفلتة نادرة فى التاريخ العسكرى .

وقد وصفه خصمه العنيد الجنرال أوكنلك بقوله : إن روميل كان قائداً فوق مستوى القادة .

وقال عنه الناقد الحربى الثقة كابتن ليدل هارت : لقد كان روميل عبقرية عسكرية ، وليس يبلغ مبلغه قائد آخر .

كان الجنرال أوكنلك — خلال معارك شمال أفريقيا — يكافح لتثبيت قلوب جنود الجيش الثامن الذين روّعهم اسم روميل وحرمهم النوم ، وأخذ أوكنلك يستحث قواده ويصدر أوامره الرسمية بمقاومة الذعر والرهبة التى حلت بالجنود :

« إن هناك خطراً حقيقياً ، فصاحبنا روميل أصبح ساحراً لجنودنا يتحدثون عنه ويتندرون بقدرته ومعجزاته . إن روميل ليس إنساناً فوق البشر ، وإن كان بلا ريب ممتازاً وقادراً ... إننى أناشدكم أن تستخدموا كل الوسائل لتبدّدوا هذه الأفكار التى استولت على عقول الجنود ، فجعلتهم ينظرون إلى روميل

على أنه أكثر من قائد ألمانى » .

وقد سجل أوكنلك ــ كقائد وإنسان ــ رأيه التاريخى فى روميل فقال :

لقد احترمته لشجاعته ، إذ كان قادراً على عمل كل شىء ، وكانت حروبه تمتاز بضروب الشجاعة والفروسية التى تميزت بها العصور الوسطى ، ولم يعد لها أثر فى أيامنا ، وهذا ما جعله يكتسب احترام القادة البريطانيين ، وينال محبة أعدائه قبل أعوانه .

أول الطريق :

ولد أروين روميل فى سنة ١٨٩١ ، وأخذ طريقه إلى المعسكر فى سن التاسعة عشرة ، وأصبح ضابط مشاة فى سنة ١٩١٢ ، وعرف عنه ميله إلى الضبط والربط ، وتدريب المستجدين ، وشغفه بالبحث فى التنظيمات العسكرية فى عمق وروية ؛ كما كان موضع تقدير زملائه باحترامه التقاليد العسكرية ، وتميزه بالصفات الحسنة ، فلا تدخين ، ولا خمر ، ولا سهرات ، ولا نزوات .

وقد وصفت بعض المراجع « الملازم روميل » بأنه كان شجاعاً إلى أبعد الحدود ، وأنه كان « متحفزاً للهجوم ولا يعرف التعب » . وقد فاز بالصليب الحديدى فى وقعة عرضته فيها

شجاعته لرصاص العدو ، فلما خرج من المستشفى بعد ثلاثة أشهر تعرض بفصيلته لضغط كتيبة مشاة أطبقت عليه من كل ناحية ، ولكنه قاتلها ، ثم أفلت منها بعملية انسحاب شائقة تقلد على أثرها وسام الصليب الحديدى من الدرجة الأولى .

ولما نقل الملازم روميل إلى كتيبة ورتبرج الجبلية حارب فى رومانيا وإيطاليا ، حيث منح وسام الجدارة الألمانى — الذى يقابل صليب فكتوريا — لما أبداه من براعة فى القيادة ، وحذق فيما أقدم عليه من الأعمال الحربية .

ومن الحوادث المشهورة فى ذلك الحين قيامه بعملية تجاه كابورنيو فى أكتوبر عام ١٩١٧ ، فلما تم له تحقيق الغرض كان قد مشى على قدميه خمسين ساعة متوالية ، وصعد سبعة آلاف قدم ، وأسر مائة وخمسين ضابطاً وتسعة آلاف جندى ، واستولى على واحد وثمانين مدفعاً .

وأصبح أزوين روميل « يوزباشى » فى سنة ١٩١٨ ، ثم صار معلماً بمدرسة المشاة فى درسدن خلال عامى ٢٩ و ١٩٣٠ ، حيث عكف على وضع كتابه المشهور الذى يعتبر حتى اليوم مرجعاً ممتازاً فى « تكتيكات المشاة الصغرى » ، فقد وضعه « أستاذ فى فنه » .



فيلد مارشال سير أرشيبالد ويڤل

قائد حرس هتلر :

وقد اختير روميل قائداً لحرس هتلر ، وكان رجلا مطاوعاً على الولاء ، مقدساً التقاليد العسكرية ، فواتته الفرصة لدراسات عليا ، وبخاصة فى فاتحة الحرب العالمية الثانية ، فكشف خطط الحرب الحديثة ، ومرت تحت عينيه جيوش ألمانيا الجرارة فى غزو بولندا ، وأدرك خصائص الحرب الحديثة وأهمها التعاون بين قوات الجو والبر ، وأهمية القوات المدرعة ، وبخاصة إذا استخدمت فى حشود كبيرة ، كذلك ضرب مؤخرة العدو ، فلما عين قائداً للفرقة السابعة المدرعة ، أو « فرقة الشبح » — كما أطلق عليها فيما بعد — كان قد أدرك كل ما هو مطلوب منه ، وأخذ يطبق نظرياته التكتيكية ويضع أفكاره وملاحظاته موضع التنفيذ .

قيادة الفرقة المدرعة :

دفع روميل فرقته المدرعة إلى الميدان ، فأحرزت النصر فى معركة بعد أخرى . ومن المأثور عنه غزوته الموفقة فى شربورج ، وعلى إثرها سلمت فرنسا .

وقد أحصيت غنائم الفرقة السابعة المدرعة « البانزر » خلال المعارك فى ستة أسابيع فإذا هى :

٦٨٢ قتيلا — ١٦٤٦ جريحاً — ٢٩٠ مفقوداً — ٤٢ دبابة .
أما خسائرها فكانت :
٩٧٦٤٨ أسيراً — ٢٧٧ مدفع ميدان — ٦٤ مدفع دبابات — ٤٥٨ دبابة وعربة مصفحة — ٤ آلاف لورى — ١٥٠٠ سيارة — ٢٠٠ عربة جر .

وكتب إلى زوجته يقول :

« قامت الفرقة بهجوم على شربورج ، واستولت على قلاع منيعة برغم قوة الدفاع عنها . لقد صادفت لحظات حرجة للغاية ، إذ كان العدو يفوقنا فى العدّة والعدد نحو عشرين مرة أو تزيد ، وكان لديهم فضلا عن ذلك ما بين عشرين وخمسة وثلاثين حصناً مجهزاً وبطاريات عديدة ، ومع هذا كله استطعنا فى قوة وسرعة أن ننفذ أمر الفوهرر الخاص بالاستيلاء على شربورج بأسرع ما يمكن » .

فى شمال أفريقيا :

فى فبراير عام ١٩٤١ قطع روميل إجازته القصيرة حيث استدعى لمقابلة الفيلد مارشال براوشتش الذى أنهى إليه خبر تعيينه فى المنصب الجديد الذى وضعه فيه هتلر ، وهو « قائد قوات الفيلق الألمانى فى شمال أفريقيا » .

وكانت أحوال الإيطاليين فى ليبيا تسير من سيئ إلى أسوأ ،

فأرسل هتلر فرقتين لمعاونتهم ، إحداهما خفيفة والأخرى من فرق البانزر ، وكانت آخر الأخبار من الميدان الأفريقى تقول إن المارشال ويفل قد استولى على بنغازى ، بعد أن دمر الفرقة المدرعة الإيطالية ، وأخذ يستعد لدخول طرابلس .

ولهذا كان أول ما تبادر للذهن روميل عند التقائه بالجنرال كيسلرنج ـ قائد القوات الجوية الألمانية فى صقلية ـ أن طلب إليه ضرب ميناء بنغازى فى الليل ، ثم مهاجمة القوات البريطانية .

ومن عجب أن روميل علم أن الإيطاليين لم يطلبوا قذف بنغازى بقنابل الطائرات لسبب خطير . . . وهو أن عدداً من الضباط الإيطاليين والرجال ذوى الشأن يملكون بيوتاً فيها ! وقد استأذنت القيادة الجوية قيادة هتلر فى ضرب بنغازى ، فجاءت الموافقة فى الحال . . . واندفعت الطائرات الألمانية تضرب بنغازى وقوات البريطانيين المتقدمة ، وتدك مواصلاتهم وخطوط تموينهم .

وفى يوم ١٢ فبراير هبطت طائرة روميل فى طرابلس ، فى حين غادر المارشال جرازيانى قيادته .

وقد وجد روميل متاعب أخرى فى انتظاره ، متاعب ليست من أعدائه ولكن من حلفائه . . فقد واجهته أخبار انسحاب الإيطاليين وتسليمهم أسلحتهم ومؤنهم وهبوط معنوياتهم إلى حد أن ضباطهم أخذوا فى إعداد حقائبهم أملا فى العودة إلى إيطاليا .

وقد فكر روميل بسرعة وأصدر أمره اليومى : « لا خطوة بعد

الآن إلى الوراء » ! وقدر أن البريطانيين لا يستطيعون التقدم ما دامت هناك مقاومة . وفى فترة الانتظار الحرجة هذه أخذ روميل يحشد قواته ، ويضع خططه ، ويوطد صلته بالقادة الإيطاليين !

وبدأ زحف قوات روميل ، فرأى البريطانيين شيئاً جديداً ، خطيراً ، وتقدمت الدبابات الألمانية تأخذ طريقها عجباً ، تظللها سحابة من الطائرات . . .

وتحقق رأى روميل « أن النصر دائماً للجانب الأقوى » .

وانسحب الإنجليز بعد قتال عنيف فقدوا فيه ألفى أسير ، بينهم ثلاثة من القادة العظام : أكنور ، ونيوم ، وجامبير . . .

ولم تفطن القيادة الإنجليزية إلى غرض روميل ، ولم يجل بتفكيرها أنه يجرؤ على قطع هذه الصحراء الشاسعة مبتعداً عن قاعدته . . ففاجأتها أساليب روميل ، وبعثرت خططها ، وقلبت نظرياتها ، فكان الارتداد السريع .

واستطاع روميل أن يطوى الصحراء فى أسبوع واحد من بنغازى إلى السلوم !

بين شقى الرحى :

عندما انتصر روميل فى شمال أفريقيا لم يكن أكثر من عدوه عدداً ولا عدة ، باعتراف تشرشل نفسه الذى صرح « أن القوات

الإنجليزية كانت متفوقة في عدد الدبابات بنسبة ٧ إلى ٥ ، ومتفوقة أيضاً في المدافع بنسبة ٨ إلى ٥ ، ومتفوقة في الجو !

وكان روميل يحارب بعيداً عن قاعدته ، فتعرضت مواصلاته لهجمات الطائرات البريطانية التي كانت مصدر خطر كبير ، في الوقت الذي شغلت فيه الطائرات الألمانية بميادين أخرى .

ولم يلق روميل من حلفائه الإيطاليين المعاونة الجادة في الوقت الخطير الذي كانت تعانيه قواته وهي تكافح بشق الأنفس لدفع العدو المتفوق في كل شيء .

ولم تستطع القيادة الألمانية العليا أن تستمع إلى طلبات روميل المتكررة في معاونته ، إذ كان الميدان الروسي شغل القيادة الألمانية الشاغل ، وكان الموقف خطيراً ، فحجب المسرح الأفريقي عن عيون المسئولين .

وكتب هتلر إلى الفيلد مارشال روميل :

في مثل الموقف الذي وجدت نفسك فيه لا يمكن أن يكون هناك أي تفكير إلا في الصمود ، وفي دفع كل مدفع وكل رجل إلى المعركة . . إن العدو — برغم تفوقه — لا بد أنه يعاني نهاية العناء . . وإنها ليست أول مرة في التاريخ تستطيع قوة مناضلة أن تنتصر على حشود كبيرة . .

أما بالنسبة لقواتك فليس أمامك إلا أن تبصرهم بأمر واحد : النصر أو الموت .

وبدأت معركة العلمين . . وأصبح روميل بين شقي الرحى .

وفتح التاريخ إحدى صفحاته الخالدة ليسجل لأحد القادة العظام فى جميع العصور ما يفعله فى مثل هذا الموقف الشاذ .

كان روميل يحارب فى عدة جبهات :

١ ـ القيادة العليا الألمانية التى لا تمده بحاجياته الحيوية .

٢ ـ القيادة الإيطالية العاجزة عن معاونته .

٣ ـ القوات الجوية المعادية التى تدمر خطوط مواصلاته ومصادر تموينه .

٤ ـ التفوق العددى الهائل لخصومه فى الرجال والطائرات والأسلحة وكافة المعدات .

كانت نتيجة معركة العلمين معروفة « سلفاً » . . ولكن كان معروفاً أيضاً أن القوات الألمانية لن تتلقى هزيمة نهائية ويقضى عليها قضاء مبرماً .

أما عن الشق الأول من هذه النتيجة فلم يكن فى وسع أى قائد فى اا جود منع الهزيمة .

وأما عن الشق الثانى ، فقد استطاع القائد العبقرى أن يمنع الدمار ، ويتفادى الكارثة ، ويمرق بجيشه فى الوقت المناسب بأقل خسائر ممكنة .

لقد كانت معركة ذات جانب واحد ، فلما انهزمت قوات المحور كان التاريخ قد سجل أن روميل هو أعظم قائد فى الحرب العالمية الثانية .

ومن مذكرات روميل عن تلك الأيام الرهيبة :

« عزيزتى لو :

إن المعركة تشتد وطأتها علينا ، ولقد دفعنا حشود العدو عن مواقعنا ، إننى أبذل جهداً بالغاً لإنقاذ الجيش ، ولست أدرى هل أنجح فى ذلك ؟ . . قضيت الليل مستلقياً مفتوح العينين ، أعمل فكرى فى طريقة لإنقاذ قواتى . . إننا نواجه أياماً فى غاية السوء . . بل أسوأ ما يمكن أن يمر بإنسان .

إن القتلى أسعد منا ، فقد انتهى كل شىء بالنسبة لهم .

إننى أفكر فيك بكل حب وتقدير . ومن يدرى ، فقد نلتقى مرة أخرى » .

روميل

الرتب والأوسمة :

كان روميل فى جميع أدوار حياته جنديًّا لم يستهوه شىء غير الجندية ، ولم يعرف عن الجندية غير خصائصها وحدودها ، فلم تكن عنده سوى بذل الجهد لتحقيق النصر أو دفع الهزيمة ، ولم يخطر بباله قط أن الجناية مغنم ، فعزف عن مظاهرها وأبهتها ، واحتفظ بالهيبة والكرامة .

وقد خبر روميل الميدان مبكراً ، وأحرز النصر كثيراً ، ونال الأوسمة والرتب بلا رغبة منه أو اهتمام ، حتى إنه حين أنعم عليه بأعظم الرتب « فيلد مارشال » كان مشغولا عنها بأحداث القتال ،

فلم يغير علامات الكتف ، وظل على حاله بعلامة الجنرال ، حتى قدم له المارشال كسلرنج علامة من علامات رتبته .

وعندما استقبله هتلر فى برلين وسلمه عصا المارشالية بعث إلى زوجته يقول :

« كنت أفضل لو كان أعطانى فرقة أخرى بدلا من رتبة الفيلد مارشال هذه » .

المثل الأعلى :

كان روميل يعتقد أن المثل هو خير معلم .

وكان يطلب من ضباطه أن يكونوا قدوة حسنة لجنودهم .

ومما يذكر له أنه كان لا يترك مناسبة دون أن يناشد فيها الضباط أن يعتنوا بأنفسهم فى الخاص والعام من الأمور .

ويتضح ذلك جليا من الخطاب الذى ألقاه — وهو قائد المدرسة الحربية — فى الخريجين وقد جاء فيه :

- كن نموذجاً لرجالك ، فى عملك ، وفى حياتك الخاصة .
- كن مرناً ورائقاً ، وعلم معاونيك أن يكونوا كذلك .
- حاذر من النزق والحدة وانفلات الأعصاب وارتفاع الصوت .

كان شليفن يقول : « إن القائد العام هو عقل الجيش » ، أما روميل فيقول :

« إن الحرب الحديثة قد اتسع نطاقها ، وتعددت ميادين

نشاطها ، وزادت الاختصاصات ، مما يقتضى أن يكون هناك كثرة من الضباط — وبخاصة فى مراكز أركان الحرب — لهم مثل صفات القائد العام وإحاطته وعزيمته ؛ لكى تعمل جميع الإدارات بنجاح ، سواء فى ميدان التكتيك ، أو فى ساحات الإمداد والتموين » .

وروميل صاحب نظريات حربية صدرت عن عقل كبير وفكر مجرب ، فقد خرج من الحربين العالميتين بدروس عامة هامة ، منها :

١ — أهمية تعاون الطائرات والقوات البرية تعاوناً يجعلهما قوة واحدة .
٢ — أهمية هجوم القوات المدرعة بقوة متجمعة كبرى .
٣ — ضرورة التفكير السريع والانقضاض السريع .
٤ — وضع الخطط على أسس واقعية لا تدخلها الأوهام .
٥ — ضرورة التدريب الجيد العملى الواقعى قبل المعركة .
٦ — أهمية الشدة والصبر والتفاؤل .
٧ — الجانب الذى يملك المدفع الأشد قوة يكون لديه السلاح الغالب .
٨ — عدم التقيد بالروتين أو أقوال الآخرين وخططهم .

ويبلغ روميل الغاية عندما يجرى قلمه بالسهل الممتنع ، فيروى الحقيقة الحربية التاريخية :

إن الجانب الأقوى هو الذى يحرز النصر .

الفيلد مارشال مونتجمرى

● القائد الجيد هو اللى يعرف غرضه جيداً ..
● إن الجنود – كل الجنود – يحبون القائد المنتصر .
مونتجمرى

مرت خمس وعشرون سنة على معركة العلمين دون أن تسدل ستائر النسيان على المعركة وقائديها العظيمين : روميل ومونتجمرى .

لقد ثبتت الأسماء الثلاثة : العلمين ، ومونتجمرى ، وروميل فى أذهان المعاصرين ، وفى سجل التاريخ .

وقد طلب المارشال مونتجمرى زيارة أرض المعركة ، ونشرت جريدة الأهرام – فى شهر ديسمبر عام ١٩٦٦ – ثلاث رسائل ممتعة متبادلة بين الرئيس جمال عبد الناصر والمارشال مونتجمرى ، ووصفت « الأهرام » مونتجمرى بأنه « أبرز قواد الحرب العالمية الثانية ، والقائد الذائع الصيت لمعركة العلمين » .

طلب المارشال مونتجمرى فى رسالة أولى إلى الرئيس أن يسمح له ولبعض رفاقه بزيارة أرض معركة العلمين فى مناسبة مرور خمس وعشرين سنة عليها ، وكان مونتجمرى – على ما يبدو – غير واثق من إمكان حصوله على هذا الإذن للقيام

بهذه الزيارة ، فى مناسبتها التاريخية ، وذلك بسبب عدم وجود علاقات سياسية بين الجمهورية العربية المتحدة وبريطانيا ؛

وتلقى مونتجمرى رسالة من الرئيس عبد الناصر يدعوه ورفاقة إلى أن يكونوا ضيوفاً على الجمهورية العربية المتحدة فى هذه الزيارة .

وقال الرئيس عبد الناصر فى رسالته للمارشال مونتجمرى :

« إن كثيرين هنا يقدرون الأهمية التاريخية لمعركة العلمين ، ولدورك الممتاز فى قيادتها ، والآثار البعيدة التى ترتبت على النصر فيها » .

. . . . . .

وإذا كان اسم مونتجمرى قد ذاع وملأ الأسماع بسبب انتصاره فى معركة العلمين فإن تاريخ هذا الجندى الكبير — الحافل بعلامات البطولة — يضعه فى قائمة كبار القادة فى جميع الأزمان ، كما أن ما أثر عنه من خلال طيبة وثقافة واسعة قد أهله لمكانة مرموقة واحترام عام .

وقد عرف عن مونتجمرى أنه لا يدخن ولا يشرب الخمر ، وأنه يؤمن الإيمان كله بالتمرينات الرياضية ، وينام مبكراً ، كما عرف بنشاطه العظيم فى العمل ، وبمضاء عزمه ، وأنه يأخذ الأمور كلها — خاصها وعامها — مأخذاً جاداً .

جاء برنارد لو مونتجمرى إلى الحياة فى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٨٧ ، وهو ابن الأسقف هـ . هـ . مونتجمرى ، من أصل إيرلندى ،

ودرس فى مدرسة سانت بول ، ثم الكلية الحربية فى ساندهرست ، وخدم بتفوق فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، وعرف كمدرب للجنود من الدرجة الأولى بسبب إصراره المستمر على اللياقة البدنية والشباب والكفاية للقادة .

وفى الحرب العالمية الثانية تولى مونتجمرى قيادة فرقة فى فرنسا ، ثم عين قائداً لقيادة الجنوب الشرقى فى إنجلترا .

ولما ولى قيادة الجيش الثامن البريطانى فى شمال إفريقيا — فى أغسطس عام ١٩٤٢ — أعاد الثقة للقوات المهتزة نفسياً ، وبدأ سلسلة من العمليات الناجحة ، ووجه عنايته للتدريب وتوضيح التعليمات للضباط والجنود وتعاون الطيران مع الجيش والاحتفاظ باحتياطى وتركيز النيران ، وبهذا البرنامج استطاع أن يهزم روميل ، ويقتلع القوات الألمانية والإيطالية من شمال إفريقيا .

وقد جعل مونتجمرى من نفسه إحدى الشخصيات الذائعة الصيت فى زمانه وفى سجل التاريخ الحربى ، وكانت آراؤه فى الاستراتيجية والتنظيم الحربى موضع اهتمام .

وقد وضع مونتجمرى نظرياته وخبراته فى محاضرة عن « القيادة الحربية » ألقاها فى جامعة سانت أندروز فى ١٥ نوفمبر عام ١٩٤٥ جاء فيها :

كنت خلال الحرب أحاول أن أضع أفكارى فى بوتقة التجارب ، فوجدت أنه لكى تقود جيشاً يجب عليك بادئ ذى

بدء أن تكون واسع العلم بالطبيعة البشرية ، لأن هذه هى المادة الأساسية التى ينبغى على كل قائد أن يسبر غورها ، ويصل إلى أعماقها . . فإذا أنت أهملت العامل الإنسانى فلن تكون قائداً ناجحاً .

إن الصلة الشخصية بين القائد وجنوده ، كانت – ولا تزال – أحد العوامل الرئيسية المؤدية إلى النصر ، فإذا توافر للقائد ثقة جنوده الكاملة وتقديرهم ، فليس هناك شىء لا يستطيع أن يناله ، أما إذا أضاع القائد ثقة جنوده به فقد كتب على نفسه الخسران المبين .

ولنبحث الآن الأسس التى تقوم عليها مقدرة فرد على قيادة الآخرين ، وقبل ذلك ينبغى أن نعرف ما المقصود بالقيادة .

إننى أقدم إليكم تعريف القيادة بأنها : التصميم على العمل بالروح التى توحى بثقة الآخرين .

وأنا أرى أن قياس مقدرة الشخص على القيادة يعرف بعاملين :

الأول : التصميم على مواجهة الرجال والحوادث التى تحيط به ، والقدرة على تجميع نفسه ورجاله بأقصى قواهم إلى غرض محدد دون أن يحوله شىء عن هدفه .

الثانى : قوة خلقه وشخصيته التى تجعل رجاله يضعون ثقتهم فيه ، ومقدرته على قيادتهم للنصر .

وقد كان هناك كثيرون ذوو قدرة عظيمة على كسب ثقة رجالهم ، وإنى أختار منهم ثلاثة تاريخيين لنرى كيف

استطاع هؤلاء أن يكونوا قادة ، وكيف قادوا رجالهم ، ولماذا نجحوا أو أخفقوا ؟

موسى :

وسأبدأ « بموسى » . . .

كان موسى قد فات سن الشباب عندما دعى لقيادة. بنى إسرائيل من أرض مصر ، فكانت مهمته ضخمة ، إذ كانوا مستضعفين فى مصر مدى أربعة قرون ! وعلى الرغم من أن الجو لم يكن مناسباً لهم ، فضلوا الإقامة حيث العيش الرغيد فى الدلتا ، ولم يقدموا على ترك هذه الأرض الطيبة ، لأن الصحراء كانت تحيط بهم . . .

ولهذا كانت مهمة موسى جد عسيرة فى حمل القوم على مبارحة مصر إلى الصحراء الجدباء حيث يعيشون فى كنف المشقة والعناء ، الأمر الذى يدل على أنه كان قائداً فذاً ورائداً مطاعاً .

وليس هناك شك فى أن موسى كان قديراً ، فقد قاد بنى إسرائيل من مصر ، وهم فى حالة ميئوس منها من ناحية الصلاحية للحرب ، إذ كانوا أذلاء متذمرين ، فشرع يهذبهم ويدربهم .

ويبدو أن موسى قضى ببقاء بنى إسرائيل اربعين عاماً فى

الصحراء ، قاصداً بهذا أن يمرنهم على احتمال المشقة ، وفى هذه السنوات الأربعين استطاع أن يؤهلهم للقتال ، حتى إذا وصلو إلى مرتبة عالية كان لهم أن يغزوا أرضاً جديدة ويتمتعوا بخيراتها .

وكان موسى قاضياً حكيماً ، فيما كان يصح ولا يصح من أفعال بنى إسرائيل .

وكان لديه رقم قياسى فى النجاح العسكرى ، ونظرة عميقة فى الطبيعة البشرية تؤهله لكسب ثقة جنوده ، وأن يحرز لهم النصر . وفى الحقيقة أن خير وسيلة تجعل الجنود تؤمن بقائدها هى : النصر . وما دام القائد منتصراً فسيتبعه جنوده أينما سار .

كرمويل :

أما القائد الثانى الذى اخترته فهو : كرمويل .

وهو الآخر دخل معمعان الحرب قائداً بعد أن جاوز الأربعين من عمره ، وبدأ قيادة رجاله فى الحرب الأهلية على رأس ستين جندياً ، وبهذه القوة حارب فى « إدج هل » ، وعلى الرغم من تفوق البرلمانيين فى الرجال والبنادق ، رأى كرمويل أن هذا التفوق لا يكون مجدياً بغير عنصر أصيل هو « القائد » .

وقد شرع كرمويل يعد رجاله على هدى مبادئه الخاصة ، وهى روح القتال العالية ، والضبط والربط ، والتدريب

التكتيكى الكبير . . وأيضاً ثقة الجنود التامة فى قائدهم .

وقد عمل كرمويل بروح جبارة تمثل بها رجاله ، وكان له ثقة عجيبة بقدرته على الفوز .

لقد وضع كرمويل برنامجاً لإعداد رجاله ، كما وضع المبادئ اللازمة للفوز فى الحرب ، وعنى بالروح المعنوية ، روح القتال والتصميم على النصر . . وبهذه الروح قاد كرمويل فرسانه الستين ، وهو كابتن ، فى أكتوبر عام ١٦٤٢ ، فى معركة « إدج هل » . وبعد عامين أصبح لفتنانت جنرال نائباً للقائد العام بجيش وستستر « جيش الولايات الشرقية » ، وكان يتولى قيادة الفرسان ، ثم أصبح القائد غير المنازع لقوات جيش البرلمان .

وقد عرف عن كرمويل أنه شديد الحساسية ، عصبى المزاج ، يحب الضبط والربط الشديد والتدريب العنيف ، وكان له إيمان عميق بصحة أهدافه ، وثقة بمقدرته على النصر . .

وقد كان النصر حليفه دائماً ، فلم يعرف الهزيمة قط .

وعندما يكون القائد ذا أهداف حقة ، وعندما يعطى جنوده النصر ، فلا شىء يستطيع أن يعترض طريقه .

ومن الطريف أن كرمويل الذى نجح فى ميدان الحرب لم يلق نجاحاً فى منصة الحكم عندما دانت له بريطانيا ، فقد جرب أربعة أنواع من الحكومات ، وهو الحاكم المطلق ، فلم تلق إحداها نجاحاً ، فأصبح دكتاتوراً أكثر من الملك

الذى أعدم لدكتاتوريته ! ولهذا انقضى نظام كرمويل بموته ، وعادت بريطانيا إلى الملكية والبرلمان .

نابليون :

أما القائد الثالث الذى أريد أن أتحدث عنه فهو نابليون .

قائد تسيطر عليه الأنانية وتوجهه المطامع الشخصية .

كان نابليون — على عكس القائدين السابقين — جنديًا بحكم المهنة ، فتدرب فى فاتحة شبابه على الجندية ، وكان مرموقاً فى صباه ، تبدو عليه علامات القيادة ، كان يريد أن يحرك الأولاد عند اللعب ويقودهم ، وقد وصل سريعاً ، وفى سن مبكرة ، إلى أعلى درجات القيادة ، فقاد جيشاً كاملا إلى إيطاليا وهو فى السادسة والعشرين من عمره ، جيشاً أقل عددًا وعتادًا مما يملك خصومه . .

ولم يمض عام حتى أحرز نصرًا لامعاً فى شمال إيطاليا وأتم إخضاع أعدائه .

لقد بدأ نابليون عند توليه قيادة جيشه يدمج ضباطه وجنوده فى « جوه » ، ويسيطر عليهم ، ويجتذب كامل ثقتهم وإيمانهم به . . إن ثقة بونابرت بنفسه كانت خميرة الثقة العالية التى أولاه إياها جنوده .

وبجانب هذه الثقة العظمى بالنفس كان نابليون يغوص

بأفكاره فى شئون الحرب فيخرج بالمبادئ التى ينبغى توافرها لإحراز النصر . .

كانت لديه قدرة خارقة على تبسيط المشكلات وإدراك سريع للنقط الهامة ، فإذا تم له الوقوف على عناصر الموضوع ، وإذا ملأ جنوده بالثقة فيه ، وإذا جعل الروح المعنوية عالية ، فإنه لم يكن يعرف الإخفاق ولا المستحيل !

لقد كان نابليون سياسيًا ، بمثل ما كان جنديًا ، وكان له ولع بالدبلوماسية ومرونة ، ولكنه لم يستطع كبح شهواته فى الغزو وميله إلى السيطرة ، فطغت هذه على مقدراته الحربية ، وانتهت به إلى مأساة بل إلى كارثة : فى موسكو .

والآن ؛ ترى فيم اتفق هؤلاء الثلاثة الكبار : موسى ، وكرمويل ، ونابليون ؟ . .

إن الميزة الكبرى لثلاثتهم هى : إيمان الجنود بالقائد ، وثقة القائد بنفسه وأهدافه . .

ترى من أين للقائد هذه الثقة العظمى والقدرة على تحقيق هدفه فى الحرب ؟ أظن أن ذلك راجع لمقدرته على تبسيط الموقف ودراسة لوازمه ، وكيفية تحقيق هذه اللوازم المؤدية إلى النصر .

أى أن لديه عقلا يعرف به حاجته ، وعزماً يحقق به هذه الحاجة .

إذن ، فالقدرة على تقدير الموقف وتبسيط مشكلاته عامل

أساسى فى فن القيادة :

وكل من هؤلاء القادة الثلاثة كان على خبرة بإذكاء روح القتال العالية فى جنوده ، وبعث حماستهم وتركيز أفكارهم فى النصر . . وهى مقدرة ترجع إلى فهم العامل البشرى ، وتأتى من الدراسة المتوالية والاتصال الوثيق بالجنود .

فالقائد المحنك حقاً هو الذى يسبر غور جنوده ، ويكون على علم بالشعور والعواطف التى تؤثر فى نفوسهم ، كما كان كل منهم يعرف عواطف جنوده وأفكارهم ومطالبهم .

إن القائد الذى لا يهتم بالناحية الإنسانية هو قائد فاشل .

ولا يمكن لرجل أن يقود آخرين دون أن يتفهم مشاعرهم وعواطفهم ونفسياتهم ، ولايستطيع قائد — مهما كان عظيم الشأن — أن يثبت فى قيادته مالم يحرز النصر ، إذ ليس ثمة خير فى قائد لا ينتصر ، وسرعان ما يتقلص نفوذه ، وتهبط أسهمه بين جنوده . وفى هذا يقول ونستون تشرشل فى دراسته الرائعة للقائد الأشهر مارلبوروه :

« إن نجاح القائد لا يتأتى من القواعد أو النماذج السابقة ، إنما يتأتى من التجديد الذى توجبه الحقائق الجلية فى الموقف ، ومن طريقة إدارة القوات فى القتال ، فكل عملية كبرى فى الحرب نسيج وحدها ، والمطلوب هو تقدير صحيح لكل موقف .

إن الخطأ المشين حقاً هو أن يجرى القائد الحرب على وتيرة قائد آخر فى معركة سابقة ، ويتمثل بما فعله فى زمن مضى

وظروف لا رجعة لها ».

وهذا حق ، فلا يوجد ثمة معركتان متشابهتان فى كافة الظروف أو أغلبها .

فكل موقف يطرأ على القائد يجب أن يعتبره شيئاً جديداً يحتاج إلى خطط جديدة ، ولا يجرى فيه التقليد ، ولو كان تقليداً عن أشهر القادة بلا استثناء .

ويكفى أن ننظر إلى قائمة الحرب العالمية الثانية ، والثقة العمياء التى وضعت فى خط ماجينو . . وكانت النتيجة إخفاقاً تامًّا – ذلك لأن المسئولين وقفوا عند نقطة معينة فى حين أن فن الحرب يجرى ويقفز . . فلم تعد هذه التحصينات تصلح إلا للماضى الذى لا يعود . . أما القوات الميكانيكية والتقدم الصناعى فلا يستطيع ماجينو أن يقف فى سبيلها .

لكى يكسب القائد معركة لا بد له من وسائل وصفات أرى فى مقدمتها :

١ – تفهم أصول الحرب .

٢ – الوقوف على عوامل النصر الحربى .

٣ – الشجاعة والصلابة .

٤ – التقدير السليم .

القائد الجيد :

١ ــ القائد الجيد هو الذى يعرف أولا : ماذا يريد ؟ يجب أن يرى غرضه واضحاً ، وأن يحشد لغرضه كل قواه .

٢ ــ وهو الذى يجعل رجاله يعيشون فى جو المعركة فاهمين ما يدور فيها ، متنبهين لكل ما هو مطلوب منهم .

٣ ــ وهو الذى يتيح لمعاونيه ورجاله معرفة المعلومات بقدر المستطاع أولا بأول .

٤ ــ وهو الذى يرفض المركزية ، ويجعل رجاله يعملون فى التفصيلات ، ولا يدع لنفسه غير التوجيهات العامة .

٥ ــ وهو الذى يحسن اختيار معاونيه ويجيد توجيههم بمجهود يسير .

٦ ــ وهو الذى يعنى بالروح المعنوية ، والضبط والربط ، والاحترام الشخصى وثقة الجنود به وبأسلحتهم وهدفهم .

٧ ــ وهو الذى يبقى فى خط النار حتى يتم النصر .

٨ ــ وهو الذى يتمعن فى فهم أخلاق جنوده والشعور والعواطف التى تؤثر فيهم .

٩ ــ وهو الذى يقود جنوده بروح قائد الفريق فيعملون متآخين لإحراز النصر المبين .

١٠ ــ وهو الذى يستطيع وضع رجاله فيما يليق لهم، أى يضع الرجل المناسب فى المكان المناسب والعمل المناسب .

وأخيراً يقول مونتجمرى كلمة حكيمة للقادة « الذين يفخرون بشهاداتهم » :

« لا يوجد كتاب ولا نصوص موضوعة يستطيع بها القائد أن يحرز ثقة جنوده وتقديرهم ، ولكن المرجع الأساسى هو : « شخصية القائد » . .

يجب أن يعرفوه جيداً ، ويقدروه قدره ، « ويرونه منتصراً . . فإن الجنود . . كل الجنود يحبون السير وراء قائد منتصر » .

الخطط الحربية وتفاصيل القتال

ما هي أسلحة النصر في الحروب الحديثة ؟

على مسافة ٦٠ ميلا غربي الإسكندرية رسمت الطبيعة مسرح الحرب الذى جرت عليه معركة العلمين بكفاية لا نظير لها ، فأوقفت الخصمين وجهاً لوجه على جبهة طولها ثلاثون ميلا ، يحدها من الشمال البحر المتوسط ، ومن الجنوب منخفض القطارة الذى لا سبيل إلى الحركة فيه .

وقرر مسرح الحرب هذا طبيعة القتال ، وحدد واجهته ، فلم يعد سبيل إلى حركة الالتفاف أو التوسع في العمليات ، كما كان سابق العهد بالحرب الصحراوية . وبدأ دور الألغام من ناحية ، وقوة النيران من الناحية الأخرى ، فضلا عن دور سلاح الجو في مهاجمته خطوط المواصلات والتموين ومواقع العدو الرئيسية .

كان موقع العلمين نهاية الغزوة العسكرية الفذة التى قادها روميل ، ودفع أمامه قوات الجيش الثامن مثخنة بجراح الهزيمة والاضطراب وفقدان الأمل ، حتى نهض الجنرال أوكنلك من كبوة طبرق ، وتولى القيادة بنفسه ، وقرر عدم ملاقاة روميل

فى معركة خاسرة ، وراح يحث قواته على الانسحاب ، فاجتازت مرسى مطروح دون مقاومة ، ثم تراجعت إلى فوكة ، ثم الضبعة ، وأخيراً ألقت عصاها عند عنق الزجاجة وضربت خيامها واستقرت .

وبهذا استطاع أوكنلك أن ينقذ الجيش الثامن من كارثة محققة ، وأن يسحبه إلى أنسب المواقع للدفاع حيث يقف مطمئناً إلى جناحيه ، وحيث لا تستطيع قوات البانزر أن تقوم بمناوراتها على الأجناب ، أو تمارس لعبتها المفضلة فى حركات الالتفاف .

وقد كانت قوات المحور تجد وراء الجيش الثامن أملاً فى تطويقه وتدميره قبل أن تمتد مواصلاتها ، وينفد وقود عرباتها ، وتفتر سرعتها ، فكان انسحاب أوكنلك اجتذاباً لقوات المحور إلى معركة على غير رضاها ، وإلى مواقع لا تناسب أسلوبها المفضل .

وعلى جانبى ذلك الخط الممتد من تل آل عيسى — بين سيدى عبد الرحمن والعلمين — حتى منخفض القطارة ، وقف الغريمان وجهاً لوجه ، وعمدا إلى عمليات إعادة التنظيم والاستعداد للمعركة الحاسمة .

وكان كل تأخير فى الاشتباك يضر بموقف القيادة الألمانية ، حيث خفت سرعة الانقضاض ، وهمدت نشوة النصر ، وطالت خطوط المواصلات ، وتعرضت قوافل التموين والوقود

لهجمات بحرية وجوية متزايدة الخطر .

ولهذا كان روميل دائب السعي للبدء فى الهجوم فى الشمال أو الوسط أو الجنوب ، يختبر متانة الموقع ، وأنواع الأسلحة ، ويجرب قدارته على الخداع والانقضاض ، وهكذا تعرضت الجبهة كلها لعمليات كرّ وفرّ متتابعة ، وتحطمت عندها مئات من العربات والمعدات والقتلى والأسرى .

وانقضى النصف الأول من شهر يونيو على وتيرة واحدة : هجمات من جانب الألمان هنا مرة وهناك مرة ، فتقابلها القوات الإنجليزية بمقاومة فعالة لتعيدها إلى خطوطها الأولى قبل انتهاء اليوم . .

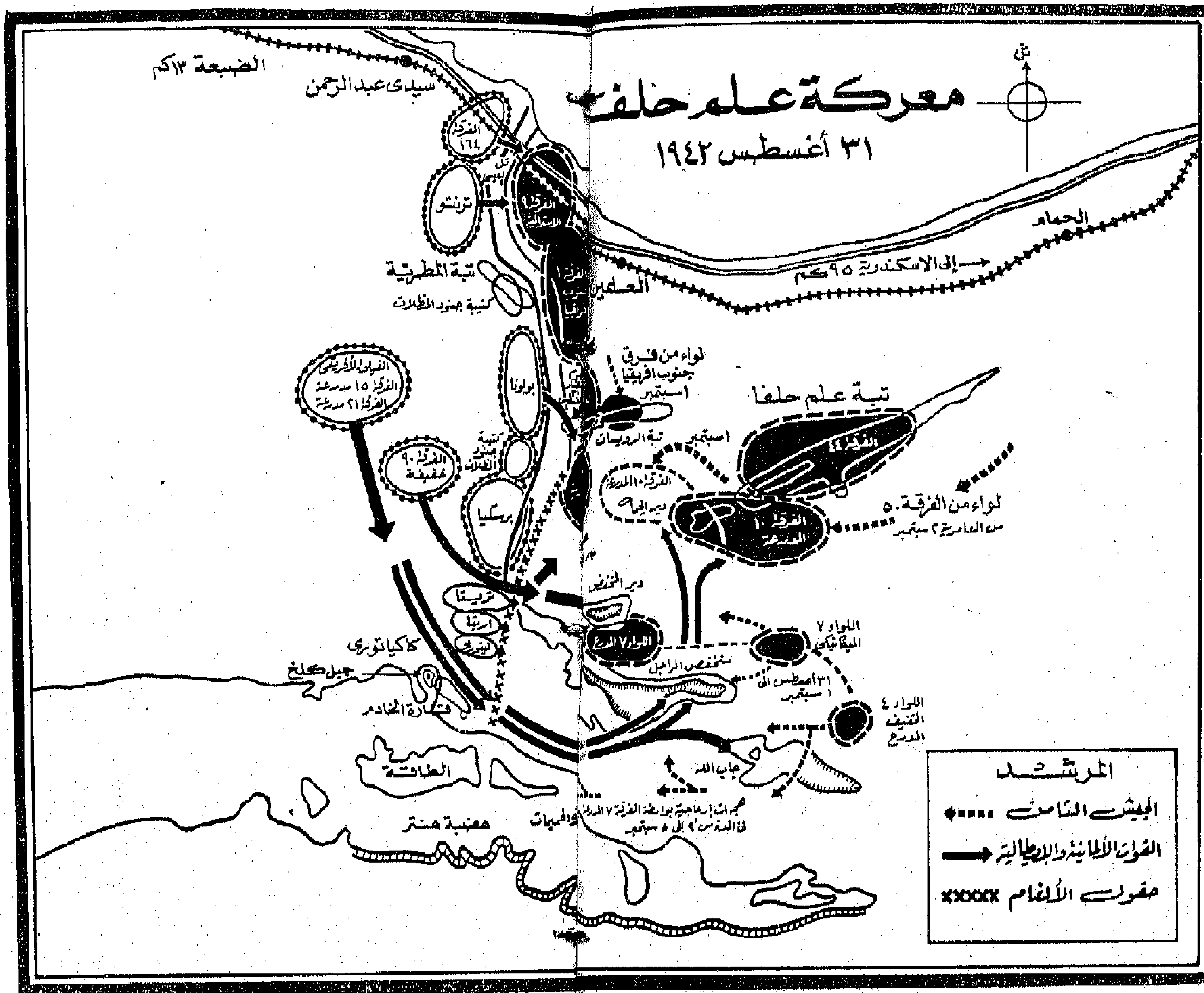
فإذا جاء يوم ١٤ يوليو كان الجيش الثامن قد أحبط مشروع جيش إفريقيا الألمانى الذى أراد به أن يحدث أكبر ضغط ممكن على خط العلمين ، فقد زحفت الدبابات الألمانية — تؤيدها المشاة فى اللوريات — بين كثبان الرمل عند تل آل عيسى فى أقصى الساحة الشمالية ، فى حين قام الإنجليز بهجوم فى الساحة الوسطى على طول هضبة تعدّ مفتاح الموقف . وكانت نيران مدافع الجيش الثامن تطلق ستاراً من النيران الجهنمية على مراكز الإيطاليين ومشاة الألمان عند منحدر الهضبة ، وتقيم حولها غلالة مروعة ، ثم اندفع المشاة للهجوم ، واشتبكت الدبابات فى منازلات عنيفة . . وبعد قليل توقفت معركة الدبابات فى الساحة الوسطى ، واحتفظ الحلفاء بمراكزهم ،

وهجمت قوات المحور على هضبة الرويسات ، ولم ينل أحد الطرفين كسباً من هذه العمليات ، وعاد كل إلى قواعده بعد أن لحقه من الخسائر والأضرار نصيب كبير .

وفى النصف الثانى من شهر يونيو حدثت معارك الهضاب ، فى سبيل السيطرة على الهضاب الواقعة إلى الغرب والجنوب الغربى من العلمين . وقد اشتدت فيها معارك الدبابات والمشاة ، أما الهضاب التى كان القتال دائراً بسببها فهى تل آل عيسى والمخاض والمتربة ، وهى تقع فى الساحة الشمالية على مقربة من الساحل ، ثم الطرف الغربى من هضبة الرويسات ، وهضبة دير الشين المتصلة بها أو المتممة لها ، وهضبة الطاقة وهى هضبة مرتفعة مسطحة تقع على حافة منخفض القطارة ، وتعد الحد الجنوبى لجبهة القتال . .

وقد ظلت المعارك سجالا ، يشتد فيها القتال بالدبابات تارة ، وبالمشاة أخرى ، وتتخذ نفس الصورة التى تميزت بها حرب الصحراء ، وهى صورة الكرّ والفرّ والقتال المتنقل بين مكان ومكان .

وقد استخدم الألمان دباباتهم فى هذه الفترة استخداماً جديداً ، فقد وضعت وحدات منها فى دشم وخنادق ، واستخدمت فى مساعدتها بطاريات المدفعية . والحقيقة أن تسليح الدبابات قد تطور تطوراً كبيراً . والذين شهدوا فيلم انتصار الصحراء قد لاحظوا بغير شك ضخامة الدبابات وقوة



معركة علم حلفا
٣١ أغسطس ١٩٤٢
الضبعة ٣٠كم
سيدى عبد الرحمن
ترينتو
تبة المطرية
العلمين
إلى الاسكندرية ٩٥كم
الحمام
لواء من فرق جنوب افريقيا ١ سبتمبر
تبة علم حلفا
بولونيا
بريشيا
تبة الرويسات
لواء من الفرقة ٥٠
دير المنصور
كاكياتورى
جبل كلخ
قارة الخادم
الطاقة
هضبة هنتر
منخفض الراحيل
جاب الله
اللواء ٧
اللواء ٤
المرشد
الجيش الثامن
القوات الألمانية والإيطالية
حقول الألغام

ذروعها ، ولكن ذلك لم يثر دهشة الفنيين منهم بقدر ما أثارتها أنواع المدافع التي كانت تتسلح بها هذه الدبابات .

ولم تحدث في شهر أغسطس عمليات تستحق الذكر ، ولم يطرأ تعديل على الموقف ، فانحصر النشاط في أعمال الطائرات التي كانت قوية الجناح ، شديدة الخطر على الموقف عامة ، وكذلك كانت القوات البحرية دائمة العمل تجاه السواحل المصرية والليبية ، لمطاردة سفن المحور ومقاتلة غواصاته ، وشل حركة التموين عن طريق البحر ؛ فالسيطرة الجوية والتفوق البحري قطعا أمر معركة الإمدادات .

وفي منتصف أغسطس جاء إلى الميدان — في العلمين — رئيس وزراء بريطانيا ونستون تشرشل ، ومعه بشرى الإمدادات السخية التي تدفقت من إنجلترا وبقية أجزاء الإمبراطورية ، وجاء معه أيضاً قيادة جديدة وخطط واسعة المدى ، فقد أعلنت وزارة الحربية البريطانية تعيين الجنرال سير هارولد ألكسندر قائداً عاماً للشرق الأوسط ، وقد اشتهر بأنه كان آخر قائد غادر « دنكرك » ، وتعيين « اللفتنانت جنرال » برنارد مونتجمري قائداً للجيش الثامن . . .

وبدأت مرحلة جديدة آذنت بتطور حاسم . . .

وحدث أول لقاء بين روميل ومونتجمري ، في معركة علم حلفا . . .

في ليلة ٣٠ — ٣١ أغسطس قام روميل بحركة جريئة ،

فانقلب الميدان الهادئ إلى ساحة عمليات صاخبة ، وتحركات عنيفة ، وقتال مروع أطلق عليه معركة « تبة علم حلفا » التى تقف وراء منطقة العمليات فى العلمين ، كأنها تحمى الإسكندرية .

وكان توزيع القوات كالآتى :

قوات المحور : من الشمال (فى تل العيسى) الفرقة ١٦٤ — فرقة ترنتو — كتيبة مظلات — فرقة بولونا — كتيبة مظلات — فرقة برسكيا — فرقة تريستا — فرقة أريتا — فرقة ليتوريو فى آخر الخط جنوباً ؛ وإلى الخلف وسط الجبهة وقف وراء هذه الفرق الإيطالية الفرقة ٩٠ المدرعة ، وخلفها الفيلق الإفريقى بفرقتيه المدرعتين ١٥ و ٢١ ، وهو عنصر الانطلاق وقوة الانقضاض .

أى أن مهمة الفرقة الإيطالية كانت شغل الجبهة من الشمال إلى الجنوب للتعمية عن الهجوم الأساسى الذى يقوم به روميل على رأس الفيلق الإفريقى .

قوات الجيش الثامن : من الشمال الفرقة الأسترالية — فرقة جنوب إفريقيا — الفرقة الهندية — فرقة نيوزيلاند . وفى الجنوب إلى الخلف اللواء ٧ المدرع عند دير المخفض ولواءان مدرعان فى جاب الله ومنخفض الراجل ، هذا فى حين سيطرت الفرقة ٤٤ على الموقف كله فى وسط الجبهة ، وإلى الخلف على تبة علم حلفا ، تعاونها الفرقة ١٠ المدرعة ، جنوب تبة الرويسات .

وكان أهم ما فعله مونتجمرى هو نقل رياسة الجيش لتكون متاخمة وملتحمة برياسة القوات الجوية ، كما قرر استخدام المدفعية والقوات المدرعة بتركيز وتجمع شديدين .

بدأ روميل هجومه بثلاث ضربات ليلة ٣٠–٣١ أغسطس عام ١٩٤٢ فى وقت واحد :

● فى الشمال ضد الفرقة الأسترالية ، وقد استطاعت صد الهجوم .

● فى الوسط كانت الضربة أشد ، فتراجعت الفرقة الهندية ، ثم عادت وثبتت .

● فى الجنوب كانت الضربة الرئيسية حيث اخترق الفيلق الإفريقى حقول الألغام ومرق بسرعة إلى تبى منخفض الراجل وجاب الله . كذلك نجحت الفرقة ٩٠ الخفيفة الحركة فى الانقضاض على دير المخفض .

وفى عصر يوم ٣١ أغسطس دارت القوات الألمانية إلى الشمال الشرقى متجهة نحو تبة علم حلفا ، ولكن توقف الهجوم أمام نضال القوات الإنجليزية المدرعة ، وخفتت قوة الهجوم على طول الجبهة بسبب التفوق الجوى البريطانى ؛ واستمرت العمليات يومى ١ و ٢ سبتمبر فى محاولات ألمانية للتقدم فى مواجهة عمليات تعطيل وهجوم مضاد مستمرة .

وفى يوم ٣ سبتمبر بدت كفة الإنجليز راجحة بفضل تعاون قوات البر والجو ، وبدأ الألمان يرتدون . . .

وانتهت معركة علم حلفا دون تحقيق غاية هجوم المحور ، وبدأت قوات الجيش الثامن تعيد تنظيمها وتستعيد معنوياتها .

وعاد الهدوء يخيم على الميدان دون أن تغمض عين ، فقد كان الهدوء الذى يسبق العاصفة ؛ وكانت التنبؤات تشير إلى موعد قريب ، كما كانت طبيعة المنطقة تحدد شكل المعركة ، وربما نتيجتها .

وكانت العوامل الرئيسية التى تتحكم فى المعركة المرتقبة هى :

١ ــ ميدان العمليات :

يقف الجيشان المتحاربان فى خطين متقابلين ، وتستند القوات الإنجليزية إلى قواعد قريبة ، ومن خلفها خطوط مواصلات جيدة تأتى من مختلف أجزاء الإمبراطورية وتحمل الإمدادات من الجنود والمهمات والأسلحة .

وتشعر القيادة الإنجليزية والحكومة بخطورة الموقف ، وتجدان لإمداد قواتهما بكل ما فى الطوق لكسب هذه الموقعة الفريدة ، وقد تعدلت القيادة ، وولى أمرها قادة أكفياء تثق الحكومة بكفايتهم ، وتعتمد عليهم فى تحقيق هذا الغرض الكبير الذى يعد فاتحة أغراض الحرب النهائية .

وفى الخط الثانى تقف قوات المحور ، ونصفها من الألمان ، وهم رجال حرب ذوو كفاية ومقدرة ، ومعداتهم من النوع الممتاز ، ولكن تحطمت أعداد منها أو فقدت ، ولم تسعفهم

مواصلاتهم الطويلة المهددة باستكمال عدتهم وإحضار ما يحتاج إليه الموقف من أدوات وأسلحة تعطى التفوق الساحق الذى تحتاج إليه عملية كبرى فاصلة .

٢ ـ المدفعية :

كانت المدافع أكثر الأسلحة تدفقاً على الجيش الثامن ، وكان الموقف يتطلب حشداً كبيراً من مدافع الميدان والمدافع المضادة للدبابات والطائرات ، حتى يتمكن أحد الفريقين من تدمير دفاعات الآخر ووحداته المدرعة ، وكانت كفة المدفعية الإنجليزية راجحة رجحاناً ملحوظاً وحاسماً .

٣ ـ الوحدات المدرعة :

حدثت عدة معارك قبل أن تصل القوات المتحاربة إلى خطوطها فى العلمين ، وكانت هذه المعارك من نصيب الدبابات الألمانية التى أحدثت الهزيمة للإنجليز ودباباتهم ، ودفعتهم فى غياهب الهزيمة الصحراوية المروعة ، ولكن هذا لا يقلل من الخسائر التى تعرضت لها الدبابات الألمانية ، كما أن المعارك التى حدثت فى ساحة العلمين قد زادت من هذه الخسائر ، وقد ذكرنا من قبل أن شحنات من الدبابات قد وصلت إلى الألمان ، وأنهم تمكنوا فى فترة الراحة من إصلاح بعض دباباتهم .

وفى الناحية الثانية نجد أن الإنجليز قد بدءوا عملياتهم فى العلمين بقوة متواضعة من الدبابات ، ثم انهالت عليهم فى سيل الإمدادات أنواع جديدة أمريكية متفوقة ، فأصبح لهم تفوق ملحوظ فى عدد القوات المدرعة .

٤ ــ السيادة البحرية :

لم تستطع سفن المحور ــ وهى سفن الأسطول الإيطالى ــ مساعدة القوات البرية مساعدة كافية ، وقد تعرضت للبحرية الإنجليزية فى أكثر من مرة فهزمت أمامها وقل أثرها فى الموقف ، وقد استطاعت دول المحور أن تستخدم المياه الإقليمية الفرنسية فى تونس ، ولكن ذلك لم يخفف من خسائرها ؛ كما أن خط المواصلات المديد من تونس إلى مصر كان يضعف من شأن هذه الإمدادات .

٥ ــ خطوط المواصلات :

وقد جاء ذكر موضوع المواصلات أكثر من مرة فى سياق الحديث عن عمليات الصحراء ، والحقيقة أنه الموضوع الأساسى فى هذه المساحات ، وفى كل مرة كانت القواعد تبعد ، وخطوط المواصلات تمتد ، كنا نرى القوات تفقد السيطرة التامة التى لها على الموقف ؛ فإذا ما صدمت صدمة قوية

عادت أدراجها بسرعة كبيرة حتى تصل إلى قواعدها وتقصر خطوط مواصلاتها إلى أقصى ما تستطيع حتى يمكن أن تتمالك أمرها ، وتنظم صفوفها ، وتستعيد تفوقها .

فى هذا الموقف كانت قوات المحور بعيدة عن قواعدها بنحو ٧٠٠ ميل من بنغازى ، وكانت خطوط مواصلاتها المديدة هذه معرضة لهجمات جوية مستمرة ، كما كانت القواعد نفسها تحت خطر الضرب من البحر والجو .

أما توزيع القوات فكان على صورة يلاحظ فيها أن الجيش الثامن كان أقل انتشاراً من قوات المحور التى قسمها روميل إلى قوة مدرعة فى الشمال وأخرى فى الجنوب مدعمتين ببعض الألمان ، وفى الوسط مشاة إيطاليون .

وقبل أن تنشب المعركة الرئيسية كانت القوات الإنجليزية موزعة على النحو الآتى :

الفرقة الأسترالية فى الشمال تواجه تل آل عيسى ، ومنها إلى الجنوب قليلا فرقة جنود جنوب إفريقيا ، وفى الساحة الوسطى الفرقة الهندية ، وفى الخلف قوات احتياطية ثم الفرقة ٥٠ ، ومعها الفرنسيون واليونانيون الأحرار عند دير المنسى ، وفى الجنوب الفرقة الإنجليزية تواجه الحميات ، وكانت هناك قوة كبيرة سيجىء الحديث عنها عند ذكر دورها .

أما قوات المحور فكانت بالترتيب الآتى من الشمال إلى الجنوب :

فرقة البانزر ١٥ ، والفرقتان ١٦٤ و ٩٠ الألمانيتان ، وفرقتا تريستا وليتوريو الإيطاليتان . وفى الساحة الوسطى فرقة بولونيا وفرقة أرتريا المدرعة الإيطالية ، وفى الجنوب فرقة البانزر ٢١ ومشاة ألمان وفرق برسكيا وفولجور وبافيا الإيطالية .

ونلاحظ أيضاً أن روميل كان يرمى من هذا التوزيع أن يترك المنطقة الوسطى من خطوطه ضعيفة ، متوقعاً أن يقع الجيش الثامن فى خطأ مهاجمتها ومحاولة شق طريقه خلالها ، فيقع حينئذ بين فرق البانزر من الشمال والجنوب ! . . ولكن قيادة الجيش الثامن لم تقع فى هذا الشرك ، وكانت تضع من ناحيتها خطة تنطوى على الحكمة والدراية ، وتحمل على المفاجأة أيضاً .

فقد كان على الجيش الثامن أن يخترق خطوط العدو فى أى ساحة إلى مسافة ٦٠٠٠ ياردة تقريباً فى الضربة الأولى ، ليجتاز حقول الألغام أو الخنادق ، ثم الاستفادة من هذه الثغرة إلى أقصى حد ؛ ولذلك أنشئت وحدة جديدة باسم الفيلق العاشر مكوناً من نحو ٥٠,٠٠٠ رجل ، وبه أحسن أنواع الدبابات ؛ وقد سحبت هذه القوة من ميدان القتال على إثر صد قوات روميل فى خط العلمين ، ووقفت جهودها على التدريب والتمرين والاستعداد خلف الخطوط بخمسين ميلا .

وفى الساعة المناسبة كان هذا الفيلق هو الصاعقة التى انقضت من خلال الثغرة ، وقضت على جيش روميل . وقد نفذت هذه الخطة البارعة فى الصحراء تحت ستار باهر من

التخفى ، ولم يكن هناك شك فى أن روميل متوقع هجوماً كبيراً ، بل كان يعرف ذلك جيداً ، وقد كانت كل الدلائل تنطق بذلك . ولكن أين يقع هذا الهجوم ؟ ومتى ؟ وكيف يقع ؟ فكل هذه الأشياء كانت خافية .

وقد كانت طائرات الاستكشاف الألمانية ترصد أعمال الفيلق العاشر ، وتنقلها إلى القيادة التى كانت تتوقع ألا يحدث الهجوم المنتظر قبل أن يترك هذا الفيلق مكانه ويشترك فى العمل .

ولكن ما حدث كان مفاجأة حقاً ، فقد تحرك الفيلق العاشر ليلا تاركاً خلفه المعسكرات خالية من الجنود ، ولكنها مليئة بالدمى والأجسام الهيكلية التى كانت تمثل الدبابات والعربات والجنود فى صورة متقنة . فلما حدث الهجوم فعلا كان مفاجأة تامة ، فالجيش الثامن هجم فى وقت غير متوقع ، ولم يهاجم النقطة الضعيفة كما كان منتظراً ، ولكنه هاجم أقوى ساحة فى الميدان .

وكانت الخطة تبدأ بوابل قوى من قنابل الطائرات ، وعاصفة راعدة من نيران المدفعية ، لتحطيم الدفاعات ، ثم هجوم المشاة ومعها المهندسون ، لتنظيف الطريق ؛ وأخيراً تكون الجولة النهائية للمدرعات ؛ وبذا كان كل شىء فى ذلك الهجوم مفاجأة لقيادة المحور فى الوقت والطريقة والجهة والقوة المنقطعة النظير .

المعركة :

بدأت المعركة فى الساعة التاسعة والنصف تماماً من صباح الجمعة ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٤٢ ، فعلى طول المواجهة كانت المدافع الإنجليزية مبثوثة بحساب مدفع كل ٢٣ ياردة ؛ وكانت العمليات قد بدأت فى الليل ، واختيرت ليلة قمرية ساطعة الضوء .

وفى الدقيقة المحددة انطلقت أفواه المدافع مرة واحدة تقذف قنابلها المدمرة كالوابل محدثة ستاراً شديداً عنيفاً من النيران ، واستمر الوابل على أشده عشرين دقيقة ، وأخذ يتكرر من وقت لآخر ، وفتحت قوات الحلفاء ثغرة فى حقول ألغام المحور .

وقد وصف الميدان بأنه شعلة من نار القنابل المتفجرة والأنوار الكاشفة والأغراض المشتعلة بالنيران من ساحل البحر إلى منخفض القطارة . .

وفى الصباح حمل البرق إلى أنحاء العالم البلاغ الذى أصدرته قيادة الشرق الأوسط عن الهجوم ، وقد جاء فيه « هجم الجيش الثامن ، تؤيده قوة جوية كبيرة ، فنشب قتال عنيف اشتركت فيه مقاتلات قسم الصحراء التابع لجيش الولايات المتحدة بالشرق الأوسط ، وقامت فى الوقت نفسه قوات الحلفاء البحرية بغارة على مراكز المحور الساحلية عند مرسى مطروح .

وفى الساعة العاشرة من صباح ٢٣ أكتوبر تقدمت المشاة

فى الساحة الشمالية . وفى فجر اليوم التالى بدأ الاختراق فى حقول الألغام لشق الطريق للقوات المدرعة ، واستمر العمل هادئاً وفى حماية المدفعية ، فلما كانت ليلة ١-٢ نوفمبر انتهت المرحلة الأولى وبدأت العمليات .

وكان تعاون الجيش والقوة الجوية وثيقاً جداً فى المعركة . . لم تكن هناك قيادتان ، أو كما قال الجنرال مونتجمرى :

« سيكون الجيش الثامن والقوات الجوية التى تشد أزره كتلة واحدة ، فكلاهما يعمل لتنفيذ خطة واحدة ، فلم تكن هناك خطتان إحداهما للبر والأخرى للجو . . . وهذا مصدر قوتنا العظيمة » .

فعلى طول الرقعة وعمقها ابتداء من سبتمبر حتى ابتداء الهجوم كانت القوة الجوية تدق مواقع المحور الخلفية وخطوط مواصلاته ونقط التموين والمطارات ، ثم أخذت تحمل على العدو عند ابتداء المعركة . وسجلت رقماً قياسياً فى عدد عملياتها التى اشتركت فيها قاذفات القنابل الخفيفة والمتوسطة وطائرات القتال ، فأصابت عربات الذخيرة ، ونسفت مستودعات الأسلحة ، وسجلت إصابات فى مدافع الميدان وسيارات النقل ، وشبت الحرائق ، وسكتت بعض مراكز الدفاع ، ووجهت الطائرات من قاذفات القنابل همها إلى الأهداف المجاورة للثغرات التى فتحت فى حقول الألغام ، لمساعدة القوات البرية على شق طريقها .

وكانت الغواصات تعمل بنشاط كبير على طول الشاطئ لإعاقة الإمدادات من البحر ومنعها ، حتى إن المراكب التى خرجت من الموانئ الإيطالية أو اليونانية أغرقت أو ارتدت .

وفى أثناء المعركة البرية قام الأسطول بإغارات متواصلة على المراكز الساحلية بواسطة سفن الجيب ، وهى زوارق طوربيد سريعة صنعت حديثاً فى المصانع الأمريكية .

وكان نشاط المحور الجوى ضيق النطاق ، وكان دفاعياً ، فقد انهزمت طائراته ، ولم يعد لها نفوذ فى سماء المعركة .

ومنذ يوم ٢٣ أكتوبر أحرز السلاح الجوى البريطانى سيطرة تامة ، فقام بحملات عنيفة وهجوم ساحق على مطارات المحور ، وخطوط مواصلاته ، ومواقع المدفعية ، ونقط تجمع القوات المدرعة وجنود المشاة .

انتهت المرحلة الأولى من معركة مصر — كما قدمنا — بتقدم جنود المشاة ، ثم تبعها المهندسون ، فإن الأرض التى تكتسحها المشاة يجب أن تنظف من الألغام قبل أن تصير آمنه لمرور المدرعات . . . فالألغام للدبابات كالأسلاك للمشاة ، وقد كانت تدفن تحت سطح الرمل بمجموعات وفواصل مختلفة ، وكانت تكتشف بآلات كهربائية تشبه المكانس ذات الأيدى وبأجهزة متشابهة .

وقد عمل مهندسو الجيش الثامن فى الليل مدة أسبوعين ، وفى الأسبوع الأول من المعركة كانوا يعملون تحت الخطر وبين

المقذوفات والويلات ، وقد كانت مهمتهم عسيرة ، فإن فن وضع الألغام قد وصل إلى تقدم كبير ، وكانت العملية تتطلب احتراساً وافراً و بحثاً دقيقاً ، ولكن المهندسين نجحوا ، وفرغوا من مهمتهم بسرعة ، وأزاحوا الموانع والمصايد ، وفتحوا الطريق للقوات المدرعة .

وفى ٢ نوفمبر فرغ المهندسون من أعمالهم ، وانتهت المرحلة الأولى من مراحل المعركة ، وتقدمت الدبابات للاتصال بدبابات المحور . وبالمناسبة نذكر أن الجيش الثامن كان يحس نقصاً وضعفاً فى دباباته وأنواعها حتى شهر يوليو ، ولكن فى أكتوبر لم يعد هناك فارق ، فقد وصلت دبابات الكروسدور من بريطانيا ، ودبابات جرانت وشرمان من أمريكا ، وهذان النوعان يساويان أحسن الدبابات الألمانية الثقيلة ، كما ظهر فى المعركة .

فى الأسبوع الأول من الهجوم ألقت قاذفات القنابل ما يقرب من ٨٠٠ طن من القنابل على قوات المحور فى منطقة القتال ومطاراته الأمامية ، ولذا كان لسلاح الجو أثر خطير فى المعركة . .

وقد لوحظت حقيقتان فى هجوم الجيش الثامن : أولهما أن قواته المدرعة ندر أن هوجمت من الجو ، والثانية أن ٥٥٠ طائرة معادية أسقطت أو اضطرت للهبوط ، كما ذكرت البلاغات الرسمية .. وقد لعبت الطائرات دوراً هاماً فى إحباط

الهجمات المضادة أيضًا .

ومضى أسبوع على ابتداء المعركة ، وقد أخذت القوات البريطانية توسع الممر فى المنطقة التى احتلتها ؛ وحدثت معارك صغيرة فى أمكنة مختلفة من الساحة الشمالية اشتركت فيها وحدات مدرعة من قوات الفريقين ، ولكن القوات الإنجليزية احتفظت بالمنطقة التى استولت عليها فى بداية الهجوم ؛ وأخذ الجيش الثامن يطهر حقول الألغام ببطء ويوسع الثغرات التى أحدثت فى الاستحكامات ، ويقترب شيئاً فشيئاً من الخط الذى يمكن عنده أن تعمل القوات المدرعة . وفى أثناء ذلك كانت قوات المحور تقوم بكرات متوالية اشتركت فى مواجهتها وإحباطها القوات الجوية التى كانت تواصل ضغطها الرهيب وتضرب بشدة .

وفى ليل ٣٠ـ٣١ أكتوبر بدأ زحف البريطانيين وهجومهم الكبير ، وقد بدأ ذلك بالستار المعهود من نيران المدفعية ، وتم الزحف على مقربة من الساحل بنجاح لم يكن السبب فيه براعة الخطط التى وضعت ونفذت بدقة فحسب ، ولكن جاء أيضاً بسبب المفاجأة التكتيكية ، فالفيلق العاشر المكون من فرقتين مدرعتين وفرقة مشاة نيوزلندية كان يتدرب خلف خطوط القتال وقبل نشوبه بمراحل ، فجاء إلى الميدان فى الساعة المناسبة موفور العدة كامل التأهب .

وفى فجر يوم ٢ نوفمبر تقدمت قوة إنجليزية مدرعة خلف

الخطوط الألمانية ، فى حين كانت قوات مدرعة أخرى تضغط فى الناحية الغربية . وبدأت معركة الدبابات فى تل العقاقير ، وكانت نقطة البداية والتحرك . .

وقد عمد الألمان إلى توجيه هجمات مضادة وفى نقط مختلفة دون أن تنجح واحدة منها ، وكان المشاة الإنجليز مستمرين فى شق طريقهم بين حقول الألغام والمراكز الحصينة والفخاخ وغيرها من العقبات والعراقيل ، وكان جنود المشاة فى هجومهم مؤيدين بستار هائل من النيران ، ومتى تم فتح بعض الطرق أو الثغرات تدفقت فيها الدبابات والوحدات الميكانيكية لمقابلة وحدات العدو السريعة وقواته المدرعة .

وقد تقررت المعركة فى الساحة الشمالية حيث أعقب الاختراق معركة الدبابات . وفى الساحتين الوسطى والجنوبية كان القتال ثانوياً وتابعاً للعمليات فى الساحة الشمالية ، وقد أحدثت الضربة الأولى توزيع قوات المحور فى ناحيتين لم يمكن الاتصال بينهما ثانية .

وقد قاتل روميل بشدة لرد الجيش الثامن من الطرف الغربى للثغرة التى فتحها المشاة جنوبى المنطقة الساحلية ، وكان يؤيد قواته المصفحة بستار من النيران المضادة للدبابات ، ولكن قوات الحلفاء تغلبت على مقاومته ، وأسرت عدداً كبيراً من الجنود . وقد قال بعض الأسرى إنهم كانوا فى حالة ذهول من

قنابل الطائرات والمدافع التى كانت تصبّ عليهم باستمرار أثناء الليل والنهار .

فالحدث الأول الفاصل فى معركة العلمين كان اختراق المشاة ، والحدث الثانى كان معركة الدبابات فى العقاقير . وقد مهد الحدث الأول للثانى ، وكان الثانى معززاً للفوز الأول ، وقد حدثت معركة الدبابات هذه يوم ٢ نوفمبر ، وفى ذلك اليوم دفع الألمان كل قواتهم المدرعة حيث كانت القوة الإنجليزية قد أحدثت الاختراق ، وثبتت فى المنطقة ، وتقدمت الدبابات الإنجليزية فدار قتال شاق عنيف ، وحدثت خسائر فادحة فى الناحيتين ، وهزمت الدبابات الألمانية ، وانتهت المعركة فى ساعات ، وفضّل روميل أن يسرع بالعودة ، وأن ينقذ قواته ويخرج بها من براثن الفناء أو الأسر ، وكانت هذه المهمة من أشق المهام العسكرية ، وخصوصاً فى حالة فقد السيطرة الجوية . . .

وقد وصفت ساحة العقاقير فى رسائل المراسلين الحربيين بأنها « مقابر الدبابات » أو معرض المركبات المحطمة .

وفى ليل ٢ــ٣ نوفمبر احتل الإنجليز العقاقير ، وقالت الأنباء إن ٢٦٠ دبابة للمحور قد وقعت فى أيدينا أسيرة أو محطمة .

وبذلك حطمت معركة ٢ نوفمبر قوات المحور ، وفى ذلك اليوم ظهرت علامات انسحابها على طول الخط . وفى يوم

٣ نوفبر بدا ذلك حقيقة واضحة .

وفى الجنوب لم تستطع القوات الإيطالية أن تتراجع كثيراً ولا سيما جنود المشاة الذين جردوا من المركبات ، فأخذت منهم أفواج الأسرى ، كذلك توقفت الفرقة ١٦٤ الألمانية ، ولم تستطع أن تتراجع ، وتراجعت بقية القوات الألمانية تاركة خلفها نحو ثمانية آلاف أسير بين القتلى والجرحى ، وقد قتل الجنرال فون ستوبى نائب روميل وأسر ريترفون توما قائد جيش إفريقيا الألمانى ، وأسر أيضاً قائدا فرقتى برسكيا وترنتو الإيطاليتين . وقد قدرت التقارير الرسمية للقيادة البريطانية خسارة المحور بـ ٧٥ ألف رجل وأكثر من ٥٠٠ دبابة و ١٠٠٠ مدفع على الأقل .

وبعد كسب معركة الدبابات بدأت المطاردة ، وفى ٤ نوفبر أذاعت قيادة الشرق الأوسط بلاغاً جاء فيه : « تتقهقر قوات المحور فى الصحراء الغربية بصفة نهائية بعد هجمات قواتنا البرية والجوية المتواصلة مدة اثنى عشر يوماً وليلة ، وتهاجم قواتنا البرية وقوات الحلفاء ليلا ونهاراً ، وفى غير رحمة ، طوابير العدو التى سادها الاضطراب وعدم النظام .

« وقد دمرنا حتى الآن أكثر من ٢٦٠ دبابة ألمانية وإيطالية ، وغنمنا أو حطمنا ما لا يقل عن ٢٧٠ مدفعاً ، ومن المتعذر فى المرحلة الحالية من القتال إحصاء الغنائم إحصاء تامًّا .

« وفى أثناء هذه الأعمال الحربية دمرت قواتنا الجوية — التى تحملت خسارة طفيفة — وأعطبت أكثر من ٣٠٠ طائرة فى

معارك جوية ، وحطمت أو عطلت مثل هذا العدد على الأرض .

« وفى البحر أغرقت قواتنا البحرية والجوية ما حمولته خمسون ألف طن من السفن ، وأتلفت مثل هذه الحمولة من السفن التى تحمل الإمدادات إلى شمال إفريقيا .

« ولا يزال الجيش الثامن يواصل زحفه إلى الأمام . . . »

وقال البلاغ الإيطالى :

« إن معركة دامية عنيفة دارت فى المنطقة الصحراوية الواقعة بين العلمين وفوكة بين دباباتنا ومشاتنا وبين الوحدات التى تماثلها من قوات العدو ، وبعد مقاومات عنيفة غير عادية انسحبت الجيوش الإيطالية والألمانية غرباً . وكانت خسائرنا فادحة » .

ووجه الجنرال مونتجمرى إلى قواته رسالة جاء فيها :

« لقد استغرقت المعركة الحالية ١٢ يوماً حتى الآن قاتلت فيها قواتنا قتالا عنيفاً رائعاً أنهك العدو ، إن العدو الآن فى قبضة أيدينا ، وهو على وشك الدمار ؛ وإنى أهيب بجميع القوات أن تواصل ضغطها على العدو وألا تتراخى فى ذلك لحظة ، لقد أضحى النصر النهائى قريب المنال . . »

وكان موقف روميل حرجاً ومن المواقف التاريخية العنيفة التى واجهها قادة عظماء ، فقد هزمت قواته بعد أن أخرجت من مراكزها الحصينة ، وفقد مراكز تموينه الأمامية مع استهداف

مواصلاته باستمرار لنيران الطائرات والمدفعية ، وحدث ذلك في نهاية خط تموينه المديد ، فكاد موقفه أن ينقلب كارثة نهائية وقد حاول تدمير كل ما يستطيع تدميره في الصحراء ، وكان يضع كل عراقيل يجيدها لسد الطريق ، وأبدى في فوكة مقاومات ناجحة ريثما اجتمع شمل قواته ، وبدأ خطة الانسحاب ، ثم تخلى عن فوكة يوم ٦ نوفمبر ، واندفع غرباً ، وأعطته الأحوال الجوية ، التي أعاقت التقدم ، فرصة مناسبة لتنظيم قواته .

وفي ٨ نوفمبر استمر الزحف ، وبلغ مرسى مطروح ، واستولى الإنجليز على بقبق يوم ١٠ ، وفي اليوم التالي سقطت حلفاية والسلوم . .

وهكذا كانت الحوادث تتطور بسرعة عاجلة ، وارتدت قوات المحور إلى حدود مصر ، وفي يوم ١٢ تم تنظيف الحدود المصرية وأسر آلاف من الإيطاليين ، ووجد الجيش الثامن الطرق مملوءة باللوريات والمهمات التي دمرتها الطائرات .

أما الفرق الإيطالية في الجنوب ، وقد كانت تتألف من ٦ فرق معظمها من المشاة ، فقد كانت مطوقة ؛ فلما وصل الجيش الثامن إلى الضبعة وفوكة ، وقطع مراكز تموينها وخطوط مواصلاتها ، سلمت جميعاً ، كذلك تم تنظيف « الجيوب » ، وأخمدت جميع المقاومات في صحراء مصر قبل أن ينتصف شهر نوفمبر سنة ١٩٤٢ .

وانتهت الحرب فى مصر . . .

وبدأ القتال فى برقة . . .

وقد كان لهذا الانتصار دوىّ عظيم فى العالم ، وعدّ انتصاراً تاريخيًّا حاسماً ، فاحتفلت به الإمبراطورية البريطانية ، ودقت الأجراس فى جميع أراضيها صباح ١٢ نوفمبر تحية لهذا الحدث العظيم .

وقال مستر تشرشل :

« لقد قال السيد فنزيلوس إن إنجلترا فى جميع حروبها تربح معركة واحدة ، وهى المعركة الأخيرة . ويلوح لى أننا بدأنا هذه المرة مبكرين ! فقد نال الجنرال ألكسندر ومعه قائده ومعاونة العظيم الجنرال مونتجمرى انتصاراً باهراً حاسما فيما ينبغى أن نسميه " معركة مصر " ، فلقد هزم جيش روميل ، وأصابه الاندحار ، وحل به التلف إلى حد كبير كقوة مقاتلة .

« ونحن لم نخض هذه المعركة لنربح فيها مواقع أو مساحات واسعة من الأراضى الصحراوية ، ولكن لنحقق فكرة واحدة وهى تحطيم قوة العدو المسلحة .

« إن النصر الذى أحرزناه قد بعث الأمل الكبير فى نفوسنا بأنه سيكون نصراً حاسماً نهائيًّا فيما يتعلق بالدفاع عن مصر ، على أن هذه ليست النهاية ، ولا هى بداية النهاية ، ولكن ربما تكون نهاية البداية ! »



فیلد مارشال سیر هارولد الکسندر

معركة الجانب الأقوى

ما هى أسلحة النصر فى الحروب الحديثة ؟ !

يؤيد تاريخ الحرب نظرية النشوء والارتقاء ، فكل حرب جديدة تجىء متميزة عن سابقاتها سواء فى عدد المحاربين أو أنواع الأسلحة أو الخطط الاستراتيجية والتكتيكية ، حتى إن الحرب السابقة تبدو موضع دهشة أو تندر ، تماماً كما يحدث عند زيارة المتاحف الحربية ومشاهدة أزيائها وأسلحتها ومركباتها التى كانت تقتل وتدمر وتثير الفزع وتسيل الدم أنهاراً . . فى سابق العصر والأوان !

ولعل أحفل مسارح الحرب بالطرائف والملاحظات الشائقة هى الصحراء ، فقد كانت تعتبر فى الماضى مانعاً حربياً يصعب على الجيوش اجتيازه ، لما كانت تلاقيه من قسوة التحرك وشدة الحرارة وقلة المياه وصعوبة الاختفاء ، فكانت الحملة تتكون من الجمال والبغال والخيل وفناطيس المياه ، وكانت البنادق المستعملة أو المدافع محدودة المجال صعبة التحرك ، ولهذا كان التفكير فى اجتياز الصحراء من أعمال الجسارة والمغامرة .

وكان نابليون يقول :

« إن حدود الممالك إما أنهار كبيرة أو سلسلة جبال أو صحراء ، وإن أقسى هذه العوائق التى تعوق تقدم أى جيش وأعسرها على التذليل هى الصحراء ! »

ولم تستطع القوات التركية أو الإنجليزية فى الحرب العظمى أن تقوم بعمل حاسم خلال عدة سنوات بين الإسماعيلية وغزة قبل أن يتمكن الجنرال أللنبي من مد نهر من أنابيب المياه وخط حديدى وجيش عرمرم من البغال التى تحمل المؤن وتجر المدافع .

وإذا كانت الحرب العالمية الثانية قد جاءت بالدبابات والمصفحات التى تغزو الصحراء تظللها سحابة من الطائرات تكشف أوضاع العدو وتدك تجمعاته ومراكز تموينه ، فقد بقيت صعوبات كثيرة ، فالجيش — فى المعتاد — يقاتل بمعداته ، أما فى حرب الصحراء فإنه يقاتل أيضاً بقطع الغيار وورش التصليح ، ويقاتل بالوقود اللازم للعربات والدبابات .. ويقاتل أيضاً بكفاية القيادة ومعنويات الجنود .

ولهذا فإن ونستون تشرشل قدر خطأ الألمان فى محاولتهم طرد الإنجليز من وادى النيل .

عوامل النصر فى العلمين :

لقد كانت معركة العلمين نهاية عمليات عسكرية واسعة المدى تحركت فيها قوات ضخمة بين السلوم إلى بنغازى

وبالعكس ، وجرت فيها عمليات التفاف وتطويق ، فضلا عن تجارب المواقع الدفاعية كما حدث فى طبرق ، فلما انتهت المعركة إلى العلمين كانت قد أحيطت بخلاصة التجارب وبأحدث ما طرأ على الحرب الصحراوية من تقدم من الأسلحة والوسائل ، وامتازت معركة العلمين بعدة خصائص تجعل النصر فيها واضحاً — حتى قبل بدئها — بأنه للجانب الأقوى .

حدثت معركة العلمين فى منطقة محدودة بثلاثين ميلا من البحر ومنخفض القطارة ، والتقى الفريقان وجهاً لوجه ، دون أية فرصة لحركات الالتفاف والمناورة على الأجناب ، وتحدد الغرض تماماً ، فلم يعد السعي إلى كسب مواقع أو احتلال مساحات من الأرض ، وإنما أصبح الغرض وضع أكبر كمية من النيران لقتل العدو وتدمير مركباته والإجهاز عليه نهائيًّا .

تحددت إذن معركة العلمين — قبل بدئها — شكلا وموضوعاً ، وتأكدت عوامل النصر ، وصارت نتيجة المعركة رهناً بالآتى :

١ — كفاية خطوط المواصلات ، وسلامتها .
٢ — أثر نتائج الميادين الأخرى على هذه المعركة ماديًّا ، ومعنويًّا .
٣ — السيطرة الجوية .
٤ — التفوق البحرى .
٥ — كمية النيران .
٦ — الروح المعنوية .

نظرة إلى الفريقين قبل المعركة :

١ ــ بالنسبة للمواصلات :

كانت خطوط مواصلات المحور قد بعدت ٣٠٠ ميل من طبرق ، و ٧٠٠ ميل من قاعدتها المتقدمة فى بنغازى ، وأكثر من ألف ميل من طرابلس .

وقد تعرضت هذه المواصلات المديدة لهجمات جوية مستمرة ، كما كانت قواعدها الساحلية تحت رقابة وعدوان البحرية .

هذا فى حين كانت مواصلات الجيش الثامن لا تمتد أكثر من مائة كيلو متر من قاعدته فى وادى النيل ، كذلك كان التفوق البحرى والجوى لقوات الحلفاء .

٢ ــ بالنسبة لميادين المعارك الأخرى :

تأثرت قوات المحور فى العلمين بنتائج الحرب فى الميادين الأخرى ، فقد عجزت القيادة الألمانية العليا عن إمداد روميل بفرقة جديدة ــ وإن كانت منحته رتبة الفيلد مارشال كما قال متندراً وآسفاً ــ وكان تموين قواته وبنزين دباباته معرضاً لرقابة الغواصات والطائرات ، وبذلك خسرت ألمانيا فى العلمين معركة التموين .

٣ ــ بالنسبة للتفوق الجوى :

كان التفوق الجوى فى جانب قوات الجيش الثامن منذ

فاتحة الحرب فى شمال إفريقيا ، وكان تعاون الجيش الثامن والقوات الجوية التى تشد أزره كتلة واحدة ، فكلاهما — على حد قول روميل — يعمل لتنفيذ خطة واحدة، لا خطتين إحداهما للبر والأخرى للجو .

وعلى طول ميدان العمليات كانت الطائرات تدق مواقع المحور الخلفية وخطوط مواصلاته ونقط تموينه ومطاراته ، ثم اشتد أثرها عند بدء معركة العلمين ، وسجلت رقماً قياسياً فى عدد عملياتها التى اشتركت فيها قاذفات القنابل الخفيفة والمتوسطة وطائرات القتال ، فأصابت عربات الذخيرة ، ونسفت مستودعات الأسلحة ، وسجلت إصابات بالغة فى مدافع الميدان وسيارات النقل ، وأشعلت الحرائق ، ودمرت بعض مراكز الدفاع ، كذلك وجهت الطائرات من قاذفات القنابل همها إلى الأهداف المجاورة للثغرات التى فتحت فى حقول الألغام لمساعدة القوات البرية على شقها .

أما نشاط المحور الجوى فقد كان محدداً ودفاعياً ، وقد انهزمت طائراته ولم يعد لها نفوذ فى المعركة ، ومنذ يوم ٢٣ أكتوبر أحرز السلاح الجوى البريطانى سيطرة تامة ، فقام بحملات عنيفة وهجوم ساحق على مطارات المحور وخطوط مواصلاته ومواقع المدفعية ونقط تجمع القوات المدرعة والمشاة .

وفى الأسبوع الأول من الهجوم ألقت قاذفات القنابل ما يقرب من ٨٠٠ طن من القنابل على قوات المحور فى منطقة

القتال ومطاراته الأمامية ، وأسقطت ٥٥٠ طائرة للمحور ، فى حين لم تستطع طائرات المحور أن تتدخل بأى تأثير ضد قوات الجيش الثامن ، وبخاصة القوات المدرعة التى قامت بالهجوم الرئيسى ، هذا فضلا عما عجزت عنه طائرات المحور من اكتشاف تحرك الفيلق العاشر الذى كان يستعد لخوض المعركة على بعد ٥٠ ميلا من العلمين !

لقد قامت الطائرات بدور خطير فى معركة العلمين ، ويمكن استقراء ذلك من الفاتحة . . فإن البلاغ الذى أصدرته قيادة الشرق الأوسط عن الهجوم فى العلمين ابتدأ بعبارة :

« هجم الجيش الثامن تؤيده قوة جوية كبيرة . ونشب قتال عنيف اشتركت فيه مقاتلات قسم الصحراء التابع لجيش الولايات المتحدة بالشرق الأوسط ، وقامت فى الوقت نفسه قوات الحلفاء البحرية بغارة على مراكز المحور الساحلية عند مرسى مطروح . . » :

٤ — بالنسبة للسيطرة البحرية :

كذلك تأثرت معركة العلمين بما كان للحلفاء من سيطرة بحرية لم يستطع أن يتوصل إليها الأسطول الإيطالى ، على الرغم من استخدامه المياه الإقليمية التونسية ، وكانت الغواصات التى تؤازر عمليات الجيش الثامن تعمل بنشاط كبير على طول

الشاطئ لتعويق وتدمير الإمدادات من البحر ، حتى إن أربعة أخماس المراكب التى خرجت من الموانئ الإيطالية أواليونانية أغرقت أو ارتدت .

وفى خلال المعارك البرية قامت القوات البحرية البريطانية بإغارات متواصلة على المراكز الساحلية مستخدمة «سفن الجيب» وهى زوارق طوربيد سريعة صنعت حديثاً فى المصانع الأمريكية.

وجاء فى البلاغ الذى أذاعته قيادة الشرق الأوسط يوم ٤ نوفمبر : « وفى البحر أغرقت قواتنا البحرية والجوية ماحمولته ٥٠ ألف طن من السفن ، وأتلفت مثل هذه الحمولة من السفن التى تحمل الإمدادات إلى شمال إفريقيا » .

٥ ــ التفوق فى النيران :

كان تفوق الألمان فى العمليات الصحراوية ــ السابقة لمعركة العلمين ــ مصدره الدبابات والمصفحات التى كانت تتقدم بسرعة وتعتمد على القدرة على المناورة ؛ وبذلك كسبت معارك المجالات الواسعة ، ولكن تغير الموقف عند العلمين ، وتبدلت احتياجات النصر فى المعركة ،فأصبح التركيز الشديد فى ميزان المدفعية ، والتركيز الشديد فى نيران الدبابات ، إلى جانب تركيز شديد من قنابل الطائرات . . أى أن الجانب الذى يملك نصيباً أكبر من النيران هو الذى سيحرق الجانب الآخر .

كانت مدافع الجيش الثامن تقف بفاصل ثلاثين ياردة بين كل مدفعين ، وتضرب دفعات طويلة مستمرة ، فلما انطلقت إشارة المعركة فتحت المدافع أفواهها مرة واحدة ، فاندفع لهيب هائل من النيران ، وأصبح الميدان مضيئاً متوهجاً مدوياً أو شعلة رهيبة من نيران القنابل المتفجرة والأنوار الكاشفة والأغراض المشتعلة بالنيران من ساحل البحر إلى منخفض القطارة .

وهكذا كانت قوات الحلفاء متفوقة فى قوة النيران براً وبحراً وجواً ، ولهذا كانت معركة العلمين معروفة النتيجة قبل التقاء الأسلحة وابتداء الصدام .

٦ ـ بالنسبة للقوى المعنوية :

تأثرت قوات المحور بما أصابها من إجهاد فى معارك صحراوية شاسعة المجال ، قاسية الجو ، طويلة الأمد ، وكانت مواصلاتها تمتد دون أن يصل إليها من الإمداد والمؤن ما يتناسب مع خطورة القتال الدائر ونتائجه .

كذلك تأثرت بما تناهى إلى أسماع الجنود من تطور فى ميادين الحرب الأخرى ، وبخاصة ما حدث فى ستالينجراد ، حيث توقف الهجوم الألمانى ، وأخذ ميزان هذه المعركة الفاصلة يميل إلى جانب روسيا ؛ أو كما قال أحد المراقبين الحربيين : نتقلت المبادأة من يد إلى يد ، وانتقل الحذاء من قدم إلى قدم .

هذا فى حين أن الجيش الثامن قد استقر فى مأمن ، وخلفه على مسافة قليلة قاعدة تموينه الضبخمة فى وادى النيل، وتغمره المؤن الآتية من كافة أنحاء البلاد المتحالفة فى أمن من التهديد الجوى والبحرى ، وتشد أزره طائرات الولايات المتحدة التى بدأت تتدخل بتأثير شديد فى المعركة الجوية .

وقبل العلمين كان القادة الألمان قد فقدوا القدرة على الابتسام ، وزايلهم الأمل والإشراق ؛ وكان روميل قد يئس من القيادة الإيطالية وأعوانه الذين كانوا يميلون إلى الاستسلام، ثم كفر بالقيادة العليا الألمانية وهتلر ،وبدأ يستشعر الخطر الداهم المحدق بمصير الحرب عامة ومصير ألمانيا خاصة، وأدرك أن برلين صارت عاجزة عن القيادة الفنية للحرب ، وسادرة فى خطة لا تقوم على بصيرة .

وعندما تنهزم معنوية القائد ، وتسوء معنويات الجنود ، فإن نتيجة المعركة تتأكد قبل بدئها ، وظهر ذلك واضحاً فى معركة العلمين ، فقد كانت جميع الظروف مادية ومعنوية فى جانب الجيش الثامن ، ثم فصلت فى المعركة قوة النيران ، فالجانب الأقوى هو الذى أحرز النصر .

الأحداث الفاصلة والدروس المستفادة

هل بقيت لمعركة العلمين أهميتها الفنية بعد خمس وعشرين سنة ؟

فصلت معركة العلمين فى مصير الحرب التى دارت رحاها فى شمال أفريقيا بين إنجلترا وحلفائها من ناحية وبين دولتى المحور من الناحية الأخرى . وكان هدف الفريقين : إحراز السيطرة على البحر المتوسط وقناة السويس . وبانتصار الحلفاء فى العلمين تم تحرير شمال إفريقيا من قوات المحور ، وتحقيق أغراض المعركة تماماً .

كانت معركة العلمين أقوى معارك الحرب الإفريقية وآخر فصولها ، ولكن أثرها لم يقف عند هذا الحد ، فقد تحول الحلفاء من الهزيمة إلى النصر فى كافة المعارك التى جرت بعد العلمين .

ومعركة فاصلة كهذه ينبغى ألا توضع فى متحف التاريخ وحسب ، وإنما ينبغى أن تظفر بما هى جديرة به من دراسات وبحوث ومراجعات فى كل ناحية من نواحيها ، وهذا هو ماحدث فعلا ، فقد أصدرت المطابع عديداً من النشرات والكتب والمراجع الرسمية والإحصائية عن معركة العلمين ، تناولت أحداثها الشهيرة ، ووقائعها ، وقادتها ، وأسلحتها ، وخططها . . .

وعلى الرغم من مرور ربع قرن على هذه المعركة استمرت فى إغرائها الكتاب والمعقبين الحربيين الذين يجدون فى العلمين مادة مشعة تهدى إلى كثير من الظاهرات الحديثة والدروس المفيدة . .

وهكذا بقيت لمعركة العلمين أهميتها الفنية ، برغم مرور خمس وعشرين سنة .

قيادة واحدة للبر والجو :

ولعل فى مقدمة الظاهرات التى تميزت بها معركة العلمين ذلك التعاون الوثيق بين قوات البر والجو ، فقد نقل مونتجمرى قيادة الجيش الثامن بحيث تكون إلى جانب قيادة السلاح الجوى ، وقال : « لا توجد قيادة للبر وقيادة للجو وإنما قيادة واحدة .. هذا هو سر قوتنا » :

الهدف هو تدمير العدو :

وقد تطور مفهوم الهدف فى الحرب بما حدث فى معركة العلمين ، فلم يعد الغرض هو الحصول على مساحات شاسعة من الأرض ، أو الاستيلاء على عدد من المدن والمواقع الهامة ، وإنما أصبح الهدف تدمير قوات العدو الرئيسية وخطوط مواصلاته وتموينه ومراكز تجمعه ، وإنهاء قدرته على مواصلة القتال :

أهمية القائد فى المعركة :

كذلك كشفت معركة العلمين عن أهمية القائد، تأكيداً للقول المأثور : « كيفما يكن القائد يكن الجنود » ؛ بل أثبتت هذه المعركة أيضاً أهمية تغيير وتجديد القيادة فى المرحلة الحاسمة ، ووضح أن تغيير القيادة معناه خطط جديدة ، وتصميمات جديدة ، وروح جديدة . . وليس فقط مجرد تغيير رجل لأنه جانبه الصواب أو تخلى عنه التوفيق .

عندما عزي إلى الجنرال ريتشى التهاون والغياب عن أرض المعركة عند هجوم قوات المحور على طبرق ، أسرع الجنرال أوكنلك فأخذ زمام الموقف ، وتولى القيادة ، وأحدث ذلك هياجاً ضد ريتشى فى مجلس العموم البريطانى ، فوقف ونستون تشرشل وقال شيئاً جديداً ، وضع به تقليداً أو مبدأ لم يخطر ببال أحد من قبل ، قال تشرشل :

> « لا بد للحكومة أن تقف كالطود لتدفع عن القواد فى ميادين القتال كل نقد أو لوم ، ولا بد أن نهيئ لهم فرصة أو أكثر من فرصة ، لأنكم لا تجدون قواداً يستهدفون للأخطار ما لم يشعروا بأن من ورائهم حكومة قوية . . فلا يجدون ما يحملهم على النظر من فوق مناكبهم خوفاً مما يقال عنهم فى أرض الوطن » .

كذلك حدث عندما جاء دور المعركة الفاصلة — فى العلمين — أن أجريت عدة تعديلات فى القيادة ، وتولى « الجنرال » مونتجمرى قيادة الجيش الثامن . لم يكن هذا هو كل التغيير الذى حدث ، بل تم تعيين قائد جديد للشرق الأوسط هو الجنرال ألكسندر ، وحدث مع تغيير القيادة إجراءات عديدة استعداداً للمعركة بوصول الإمدادات السخية من الأسلحة والمعدات والمؤن إيذاناً ببدء مرحلة جديدة حاسمة ، واستقبل الجنود ذلك التغيير بالتفاؤل والاطمئنان والتصميم على إحراز النصر .

ولا ريب أن تغيير القيادة وإسنادها إلى شخصيات لامعة موثوق بها قد بعث فى الجنود روحاً جديدة وثقة بالغة .

الجديد فى استحكامات الميدان :

عندما وقف الغريمان فى العلمين ، بعد أن حزما أمرهما للمعركة الحاسمة ، كانت طبيعة الأرض تحكم الخطط ، وتقرر أنواع الأسلحة ، وتحكم بالفوز للفريق الذى يملك التفوق فى النيران .

وكان كل فريق يوطد قدمه حتى لا يقتلعها الفريق الآخر ، ثم يطور نفسه بعد ذلك للقيام بالهجوم متى وجد إليه سبيلا .

والشىء الذى جد على استحكامات الميدان فى هذه الساحة

هو استخدام الألغام البرية استخداماً سريعاً واسع النطاق : وقد حدثت بعض تجارب سابقة فى استخدام الألغام وبخاصة عندما وقف الألمان أمام حقول الألغام البريطانية «فى بير حكيم»، فعمد روميل إلى تطهير طريق فى وسط حقول الألغام بواسطة قنابل المدافع وقنابل الطائرات ، ثم دفع بالمهندسين بعد ذلك لتمهيد طريق تقدم المشاة والدبابات .

فلما انتهى الفريقان إلى مواقعهما فى العلمين عمد كل منهما إلى بث الألغام بكميات كبيرة وبعمق ، ولهذا توقفت المحاولات اليسيرة التى قام بها الفريقان ، وعدلت على إثر ذلك الخطة بعمليات تثبيت وتعميق حقول الألغام .

ووضح أن الهجوم لن يتيسر إلا على طريق مفتوح فى ذلك السد المنيع من الألغام ، فكانت خطة مونتجمرى تبدأ بوابل قوى من قنابل الطائرات ، وعاصفة مدمرة من نيران المدفعية ، لتحطيم الدفاعات ، يتبعها تقدم المشاة بمساعدة المهندسين ، لتمهيد الطريق بين الألغام ، فى حين تستمر الطائرات من قاذفات القنابل فى ضرب الأهداف المجاورة للثغرات التى فتحت لمساعدة القوات البرية على شق طريقها :

الترانزستور فى المعركة :

من الظاهرات التى اتسمت بها معركة العلمين التطور الكبير الذى حدث فى طريقة الاتصال الميدانى ، أى الاتصال بين القائد وقواده المساعدين أو قواد الوحدات الفرعية ، وأيضاً بين القادة والجنود .

قديماً كانت الجيوش تتحرك بإشارة واحدة من القائد ، أو كان القائد يقف فى بقعة مرتفعة فيلوح بقبعته ، وعندها تهدر المدافع ، ويدوّى الرصاص ، ويندفع آلاف الجنود . وكان نابليون يشير فى أحلك أوقات القتال بطرف أصبعه ، فتندفع فرق الفرسان إلى ساحة الموت وهى تصيح : يحيا الإمبراطور !

وكثيراً ما كانت القوات تتحرك فى الحرب دون أن تعرف الغرض إلا عندما تصبح أمامه ، وكان نابليون لا يطلع أحداً على خطته ، ولكنه ينفذها فى اللحظات الأخيرة التى تسبق الاشتباك .

كان يضع فى اعتباره أهمية السرية والأمن ، ويخفى فى نفسه عنصر المفاجأة .

ومع تطور ظروف الحرب واتساع ميادينها ، وتنوع أسلحتها ، وتعدد مركباتها ، صار لزاماً على القائد أن يطلع معاونيه على

الموقف مبكراً ، ويشاورهم فى الأمر ، ويضع معهم الخطة ، ثم يواليهم بالمعلومات والأوامر اليومية .

ولكن لم يعرف قبل العلمين أن القائد يرى واجباً عليه أن يحيط جميع رجاله بتفاصيل الموقف . لم يعد علم القادة الفرعيين بالخطة والأوامر أمراً ثانوياً فى نظر القيادة الحديثة ، ولم تعد الأوامر المكتوبة هى الوسيلة المناسبة فى الحروب الحديثة .

وبدأ الاتصال باللاسلكى . . .

ثم حدث تطور آخر لا يدع فاصلا بين القائد وجنوده : الترانزستور . . القائد يتكلم ، والجنود — كل الجنود — يسمعون .

إنه عصر جديد ، ومرحلة غاية فى التقدم . . .

لم يعد الجندى مفصولا عن قيادته ، ولا ممنوعاً عن أخبار الوطن ، ولا غريباً عما يجرى فى العالم من أحداث وأشياء .

ويؤكد بعض المراقبين لمجريات الحرب أن الذى كسب الحرب العالمية الثانية — أو فى مقدمة أسلحة الفوز فيها — هو الراديو .

استراتيجية الدعاية :

لا ريب أن الجانب السيكلوجى يعتبر كبير الأثر فى الحرب . وما الحرب إلا تصارع القوى الهائلة طبيعية وأدبية ، كما أن التأثير على الجنود ، والتأثير على الشعوب تعتبر فى مقدمة أهداف الحرب .

إن تحطيم إرادة العدو هى الهدف الرئيسى .

وقد أدركت بريطانيا فى الحرب العظمى — كما سيطر هذا الإدراك فى الحرب الثانية — أن التغلب على ألمانيا بالقوة أمر صعب ومطلب مستحيل ، وأنه لا بد لقهرها من استخدام وسائل أخرى غير الوسائل المادية ، ولهذا أنشئت مصلحة خاصة للدعاية ذات مسئوليات واختصاصات واعتمادات ضخمة يرأسها لورد بيفربروك ويديرها نورثكليف وكيبلنج وروذمير ، الذين وضعوا خطة نشر الأكاذيب والأوهام ، وتبشير الناس بالصلح ، وحكم الشعوب نفسها بنفسها ، وتخدير الأمم المتخلفة ، وإحكام روابط الإخاء والتعاون بين أمم العالم .

ولم تستطع ألمانيا أن تتغلب على إنجلترا فى معترك الحرب السيكولوجية ، لأن إنجلترا حذقت الدهاء السياسى ، ووقع الشعب الألمانى فريسة الألفاظ الخادعة والدعاية الجوفاء ، أو كما قال هندنبورج :

« لقد شن العدو حرباً ضد الأنظمة الألمانية ، ووضع الخطط لتسميم رءوسنا ونفوسنا بهذه الحملة التى دبرها بعناية فائقة وبراعة مبتكرة » .

وقال لودوندورف جنرال ألمانيا :

« إن الذى أصيب به الشعب الألمانى أكثر من أزمة الجوع والنقص هو : الدعاية . . إن الأعداء الذين عجزوا عن مقاتلتنا بالسيف عمدوا إلى إضعاف ثقتنا بأنفسنا وقهر معنوياتنا . .

« إن عدم حنكتنا السياسية أوقعتنا فى شباك الشعارات الجوفاء والعبارات الدعائية التى تهزّ الثقة وتهزم النفوس » .

* * *

إن إنجلترا اشتهرت من قديم الزمان بقدرتها على بث الدسائس وإثارة الفتن وإضعاف ثقة الشعب بقيادته، وقد أقر رجالها بأنهم يستطيعون التفرقة والانقلابات كلما شاءوا .. ولقد أدركت إنجلترا أن التغلب على ألمانيا فى ميدان الحرب متعذر، وأنه لابد من تقويض معنويات الجنود ومحاولة هدم دعاة الإمبراطورية بما فى ذلك ركنها الركين : الجيش الألمانى .

وقبل معركة العلمين كان قد استحوذ على الجنود الإنجليز رعب كالإعصار اسمه « روميل » كانوا يشعرون أنه فوق مستوى القادة، أو أن به مسّاً من الجن يجعله قادراً على فعل أى شىء، ومن ذلك هزيمتهم فى أى معترك، ولهذا كانوا يولون الفرار بسرعة غير مألوفة ، ويتراجعون باضطراب ورعب لأن شبح روميل كان يترصدهم ويتعقبهم .

وأحست القيادة الإنجليزية بهذا الانهزام المعنوى الفاجع ، وراح أوكنلك يناشد ضباطه أن يؤكدوا للجنود أن روميل هو قائد ألمانى عادىّ غير خارق للعادة ، وأنه ليس شيطاناً تتعذر هزيمته :

وصدرت نشرات عديدة تحمل هذا المعنى ، وتحاول أن

تقلل من أهمية روميل ، وأن الجيش الثامن هو الذى سيقرر مصير المعركة . .

واستمرت محاولات الدعاية تحمل إلى الجنود أنباء الإمدادات والمؤن والقيادة الجديدة وبشريات النصر ، حتى استعاد الجنود ثقتهم وطردوا الوهم جانباً ، ودخلوا المعركة بثقة وتفاؤل وروح هجومية .

النصر النهائى :

وقد وضحت حقيقة كبيرة فى الحروب العالمية هى أن النصر ليس رهناً بمعركة واحدة ، لأن هناك عدة ميادين فى متعدد الأنحاء ، بل فى أكثر من قارة ؛ هذا بالإضافة إلى معارك الأسلحة المختلفة كالبحرية والطيران .

إن النصر فى معركة لا يعتبر انتصاراً ، لأنه قد يقابل بهزيمة فى معركة أخرى ، والاستيلاء على مساحات شاسعة من الأرض لا يكون فى حد ذاته غرضاً يستحق ما يبذل فيه من جهد ، بل قد يتحول إلى أعباء ومشكلات بالنسبة لامتداد خطوط المواصلات وتعرض قوافل الإمداد والتموين لخطر التعرض البحرى أو الجوى :

وقد كان بسمارك يقول : ليس المهم ما يقع فى آسيا ، إن القول الفصل سيكون فى أوربا :

فهل غيرت معركة العلمين من هذه الحقيقة ؟

لقد كانت معركة العلمين معركة كبيرة وفاصلة ، على إثر تدمير فيلق ألمانيا الإفريقى والقوات الإيطالية المتعاونة معه ، حتى لم تعد قادرة على أى قتال جديد ، فعمدت إلى التغطية والانسحاب وقتال المؤخرة حتى تمت تصفية الموقف أخيراً فى تونس .

أى أن العلمين حققت غرضها فى القضاء على قوات المحور فى شمال أفريقيا ، وهذا فصل كبير ، ولكن الرواية لم تتم فصولا .

فقد كان هناك قتال رهيب فى اليابان ، وقتال دموى فاجع فى ستالينجراد . . .

وكان قد مضى على الحرب العالمية الثانية ثلاث سنوات . .

ثلاث سنوات من الهزائم المتلاحقة للدول التى عرفت باسم « الحلفاء » ، ولكنها كانت جميعاً هزائم فرعية فى بقاع متعددة فى مختلف الميادين ، فلم يكن النصر فى إحداها شفيعاً بإنهاء القتال أو مؤثراً إلى الحد الذى يستوجب التسليم .

على أن العلمين — كما قدمنا — كانت وقعة كبيرة ، انتهت بوثوب قوات الحلفاء إلى الشاطئ الفرنسى وفتح الجبهة الثانية واستسلام إيطاليا .

أما فى الشرق الأقصى فقد فصلت القنبلة الذرية — على هورشيما — فى الحرب واستسلمت اليابان .

وبدأ القول الفصل – كما تنبأ بسمارك ، أو كما أكد – فى أوربا .

كانت الجيوش الروسية تتقدم من الشرق دافعة أمامها فلول الجيش الألمانى ، فى حين كانت الجيوش المتحالفة تتقدم من الغرب – كما تمضى السكين فى الزبد – وكان الهدف برلين .

وربما كان النصر النهائى بلا معركة تتوافر لها طبيعة المعارك من استعدادات سابقة وخطط وعمليات مرسومة ، بل يمكن القول بأن دخول القوات الروسية وقوات الحلفاء إلى برلين لم يكن موقعة حربية ، وإنما كانت عملية تعزيز للمعارك السابقة ، ومتابعة للقوات المندحرة ، واستيلاء على المدينة التى لفظت أنفاسها . . .

وعندها . . انتهت الحرب ، وارتفع علم النصر بعد ست سنوات من حرب صعبة المراس ، متدفقة الدماء شديدة الويلات .

وقال الناس بعدها :

لقد انتهت الحرب .

. . ولكن هذا هو ما يقال دائماً فى أعقاب كل حرب !

الفهرس

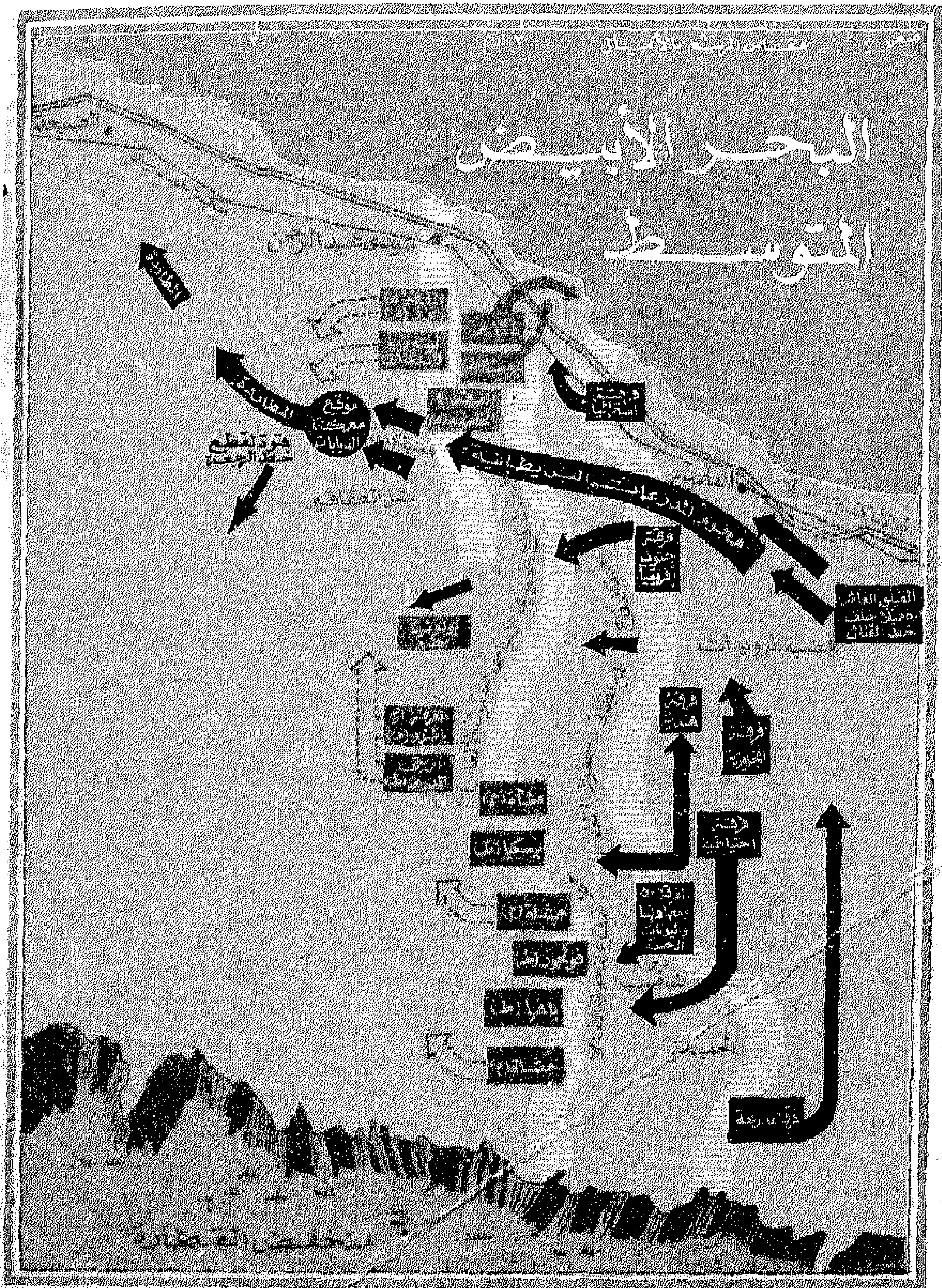
تم طبع هذا الكتاب
على مطابع دار المعارف بمصر





بعد المرح واللعب
حمّام بارد أو ساخن
+
بودرة تلك معطرة **قسمه**
=
حيوية ونشاط .. للكبار والصغار..

صالتنا للعرض والبيع : ٢٤ شارع طلعت حرب (سليمان باشا) مدخل سينما مترو بالقاهرة
١٧ طريق الحرية بالإسكندرية



معركة العلمين الكبرى

اقرأ

كوكب الإنسانية



أحمد حسين المحامي

دار المعارف بمصر

كوكب الإنسانية

أحمد حسين المحامي

كوكب الإنسانية

بحث في وحدة الأرض
موطن الإنسان وجنسه ولغته

اقرأ ٢٩٤
دار المعارف بمصر

اقــرأ ٢٩٤ – يونية سنة ١٩٦٧

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج. ع. م.

كوكب الإنسانية

حدد الأمريكان عام ١٩٧٠ للوصول إلى القمر، وهنالك قول إن الاتحاد السوفييتى سيكون هو الأسبق فى الوصول إلى القمر ، على أن ما يهم الإنسانية فى مجموعها هو أنه أيا كان الواصل إلى القمر ، فإن ذلك يعنى بدء مرحلة جديدة فى حياة الإنسانية ، حيث تخرج من سجنها الذى سجنته عبر الدهور وملايين السنين ، على ظهر هذا الكوكب وتنطلق إلى بقية الكواكب فى أرجاء الكون الفسيح .

وإذا كان الإعداد للوصول إلى القمر قد احتاج إلى عشرين عاماً ، فإن الوصول إلى بقية الكواكب لن يحتاج إلا لبعض هذا الزمن ، فمركبة الفضاء التى تنقل الإنسان إلى القمر وتعيده منه، هى بذاتها بعد تعديل فى الأحجام والمقاييس والأوزان ، التى سوف تنقله إلى المريخ والزهرة وغيرها .

وسيشهد القرن الحادى والعشرون ، انتشار الجنس الإنسانى فى المجموعة الشمسية كلها ، وستبدو الأرض لرواد الفضاء المنطلقين بين المجموعة الشمسية ، كوكباً مضيئاً كبقية كواكب المجموعة كما نراها الآن من الأرض .

ولن يفكر هؤلاء الرواد الفضائيون وهم ينطلقون عبر الفضاء إلا أنهم بشر من بنى الإنسان ، ولن ينظروا إلى الأرض إلا باعتبارها وطنهم ، أو بالأحرى قريتهم وبيتهم الذى يحنون إلى العودة إليه، ستذوب الفوارق الجنسية والقومية ، ولن يبقى إلا الكوكب الأرضى والإنسان .

فما أحوج البشر منذ الآن أن يستعدوا لهذه المرحلة الجديدة بأفكار جديدة ، ودنيا من الفهم جديدة ، وإنى لأرجو بهذا الكتيب أن أسهم فى هذه المحاولة الواجبة ، فأتحدث عن وحدة الكوكب الإنسانى من الناحية الجغرافية ، وعن وحدة الجنس البشرى من الناحية البيولوجية ، وعن وحدة اللغة الإنسانية فى جوهرها ، باعتبارها نتاج العقل الإنسانى ، مهيئا بذلك السبيل لأبحاث فى هذا الاتجاه أكثر عمقاً .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب وهو رب العرش العظيم .

أحمد حسين

الروضة — القاهرة — ١٧ / ٣ / ١٩٦٧

الفصل الأول

كيف تكونت الأرض — الأوربيون فى العصور الوسطى — عمر الأرض والطرق الحديثة لمعرفته — تكون الصخور النارية — تكون الصخور الرسوبية — باطن الأرض — الكرة الأرضية — الأرض كما نعيش عليها — الإنسان وشكل الأرض — انفصال القمر عن الأرض — العصور الجيولوجية — الدهر السحيق — الدهر الوسيط — الدهر الحديث — الأرض التى نعرفها — مساحة المحيطات — مساحة القارات — نشأة الحياة من الأرض — الفكر الإنسانى .

وحدة الوجود :

توصل الإنسان بالإلهام فى بادئ الأمر ، ثم عن طريق الفطرة والاستدلال ثانياً ، وأخيراً عن طريق العلم التجريبى الحديث إلى وحدة مادة الطبيعة التى يتألف منها الكون . وعلماء القرن العشرين يعتبرون الضوء هو الأصل الذى تطورت عنه بقية الموجودات الأخرى ، وأن الشعاع الضوئى لسبب من الأسباب ، قد تحول إلى موجات كهرومغناطيسية ، والموجات الكهرومغناطيسية قد تحولت إلى إلكترونات وبروتونات ومن هذه البروتونات والإلكترونات تكونت الذرات التى تألفت منها مختلف عناصر المادة ، ابتداء من الإيدروجين ، ومن الإيدروجين تكونت شتى أنواع الغازات التى تألفت منها السدم ، ومن السدم نشأت المجرات والنجوم ، وليست شمسنا التى نعرفها والتى تبعث الضوء والحرارة والحياة على الكوكب الأرضى ، سوى نجم من هذه النجوم التى لا حصر لها ، والتى تقوم على احتراق الإيدروجين الدائم ، ومن هذه الشمس انفصلت الأرض ، وبحكم هذا الأصل فإن الأرض ظلت تابعة للشمس تدور حولها كبقية الكواكب التى انفصلت بدورها عن الشمس .

وليس من هدف هذا الكتاب ، ولا هو من اختصاصى أن أخوض فى نظريات طبيعية حول أصل الأرض وهل انفصلت عن الشمس كما تقول بعض النظريات ، أم هى شظية من نجم آخر انفجر فى سالف العصر والأوان ، ثم راحت تدور حول الشمس بفعل الجاذبية ، ولا أن نتعرض لتفاصيل النظريات التى تقول بسبب انفصال الأرض عن الشمس ، وأن ذلك قد تم بفعل تلقائى نتيجة دوران الشمس ، أو نتيجة مرور نجم

آخر بالقرب منها ، فكل هذه نظريات وفروض علمية تقوم على التخمين وتتغير من حين لآخر حسب اختلاف نظرة الإنسان إلى الكون من حوله ، وازدياد معارفه بما يتضح له كل يوم من حقائق وكشوف علمية .

ولا جدال عندنا ، أن إنسان القرن الحادى والعشرين ستكون لديه نظريات أكثر إحكاماً ودقة عن علاقة الأرض بالشمس وبقية الكواكب الأخرى ، وعن أصل الكون ومادته الأولى ، وذلك بعد أن يكون الإنسان قد خرج نهائيا من سجنه فوق سطح الأرض ، وانطلق إلى الفضاء الكونى وارتاد كواكب المجموعة الشمسية ، ونفذ منها إلى باقى الأجرام السماوية والمجرات .

وحسبنا فى هذا المقام ، مقام الحديث عن أمنا الأرض أن نلوذ بالحقيقة المادية التى نعيش فوقها وفيها .

الكوكب الأرضى :

بدأت حياة الكوكب الأرضى على شكل كرة هائلة من المواد الملتهبة ، تنطلق فى الفضاء بسرعة ١٨,٥ ميلا فى الثانية دائرة حول الشمس على بعد ٩٣ مليون ميل تقريباً فيما يوصف هندسيًّا بأنه قطاع ناقص (إهليلجى) أى أقرب إلى شكل البيضة منه إلى الكرة .

متى بدأ هذا الحادث وفى أى عصر سحيق ، وكم مرّ عليه من الزمن؟ تلك مسألة لم يستطع أكثر العلماء جموحاً فى الخيال والافتراض أن يحدد له وقتاً . . . فكل التقديرات لعمر الأرض تبدأ بعد هذا الحادث الأول بمدة لا يستطاع تقديرها ، عند ما بدأ سطح الأرض يبرد وتتكون بالتالى

القشرة الأرضية متألفة من الصخور التى نعرفها ، وبعد أن تكونت بحارها وجبالها وأنهارها .

الأوربيون فى العصور الوسطى وعمر الأرض :

على أن الأوربيين فى العصور الوسطى لم يجدوا أى صعوبة فى تحديد عمر الأرض ، فقد كان بحسبهم أن يرجعوا إلى التوراة (العهد القديم) لكى يعتقدوا اعتقاداً جازماً أن الأرض قد خلقت عام ٤٠٠٤ قبل الميلاد ، وانحصر الخلاف بين الثقات من أهل العلم حول الفصل الذى تمت فيه عملية خلق الأرض ، وهل كان فصل الخريف أو الربيع من عام ٤٠٠٤ ق. م[١] .

ولكن الشعوب التى سبقت أوربيي العصور الوسطى ، كان لهم رأى فى عمر الأرض يختلف كل الاختلاف عن هذا المدى القصير ، وقد بلغ الهنود إلى حد من الدقة فى تعيين عمر للأرض يقرب إلى عمرها الذى أصبح يقدر به فى العصر الحديث على ضوء آخر الحقائق العلمية[٢] .

الطرق الحديثة لمعرفة عمر الأرض :

على أن الأوربيين فى القرن التاسع عشر ، عدلوا عن حكاية خلق الأرض عام ٤٠٠٤ ق . م . ولجأوا إلى عدة وسائل وأساليب جديدة

---

(١) هـ . ج . ويلز مختصر تاريخ العالم (بالإنجليزية) ص ١٣ .

(٢) يقدر الهنود عمر الأرض بـ ٢,١٥٩,١٣٦,٠٠٠ وتقدير عمر الأرض علميا فى العصر الحديث هو ٢,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ .
أحمد زكى — مع الله فى السماء — ص ١٤٢

لتقدير عمر الأرض ، كانت كلها تنتهى بأن الأرض أقدم عهداً مما كانوا يظنون .

أما أول هذه الأساليب فهو قياس عمر الأرض من خلال تقدير كمية الملح المذاب فى مياه البحار والمحيطات ، إذ لما كانت هذه الأملاح قد جاءت بواسطة الأنهار ، فيكون عمر الأرض هو حاصل قسمة كمية الملح الموجود فى المحيطات على مقدار ما تحمله الأنهار إلى البحار من ملح فى كل عام .

وحسب عمر الأرض بطريقة أخرى ، فالملاحظة تثبت أن الرياح والأمطار ينحتان سطح الصخور ، بدون انقطاع ، ويحملان الفتات إلى أماكن أخرى ، حيث تكون نتيجة ذلك طبقات رسوبية . وبمعرفة ما تحمله الريح أو المياه من هذه الرسوبيات كل عام ، وقسمة سمك الطبقة الرسوبية على هذا القدر السنوى ، يؤدى حاصل القسمة إلى عمر الأرض . ولكن علماء الجيولوجيا أخذوا على هذين الأسلوبين استنادهما إلى معدل سنوى ثابت من الأملاح أو الرسوبيات ، وهو ما يخالف الواقع ، إذ أن الظروف متغيرة من عام لآخر ولا يمكن أن يكون معدل الزيادة السنوية ثابتاً سواء فى ملح البحار أو المواد الرسوبية . ولذلك فقد لجأوا إلى طريقة أكثر دقة وإحكاماً ، تكاد تبلغ دقتها (فى تقديرهم) مبلغ الساعة ، وذلك باستخدام خصائص المواد المشعة كالراديوم والثوريوم ، فإشعاع هذه المواد يعنى أنها تتفتت بالتدريج بمعدل ثابت ، اكتشفوا أنه لا يتأثر قط بالحرارة مهما اختلفت ، ولا بالضغوط مهما ارتفعت . وعلى ذلك فقد اعتبرت عملية الإشعاع بمثابة ساعة زمنية متناهية فى الدقة ، ذلك أن اليورانيوم يتحول إلى رصاص بنسبة معينة ، وبحساب كمية الرصاص فى أى صخرة من الصخور ونسبته إلى ما فيها من اليورانيوم يمكن حساب الزمن الذى استغرقه اليورانيوم حتى تحول إلى رصاص .

وعن هذا الطريق أمكن تحديد عمر بعض الصخور بـ ١٣٠٠ مليون سنة [١] ، كما حدد عمر صخور أخرى بـ ١٦٠٠ مليون سنة [٢] . ولما كانت القشرة الأرضية ، قد تكونت فى عصور متأخرة جداً عن حياة الأرض ، فالفرض العلمى الذى يتردد الآن حول تقدير عمر الأرض يتراوح بين ٢٠٠٠ ، ٣٠٠٠ مليون سنة [٣] .

ويقولون إن منظر الأرض كان فى العهد السحيق أكثر ما يكون شبهاً بالمنظر داخل أفران الحديد العالية ، حيث تشتعل خامات الحديد والفحم الحجرى الجيرى مكونة كتلة ذائبة من اللهب المخيف ، وكانت هذه الكرة الملتهبة المنطلقة فى الفضاء (الأرض) مغلفة بأدخنة النيران والسحب الحمراء المتوهجة .

تكون الصخور النارية :

وعلى مر الملايين من السنين بدأ سطح الأرض يبرد ، والسحب النارية التى تغلفها تسقط عليها مطراً ، مطراً لا ينقطع ليلا أو نهاراً ، صيفاً أو شتاء ، وتنقضى ملايين أخرى من السنين على هذه الوتيرة ، وتتكون الصخور الجامدة التى تؤلف القشرة الأرضية . ولما كانت هذه الصخور عندما تتجمد تصبح أثقل وزناً من المواد الأخرى الذائبة فقد بدأت تغوص ، ويحل محلها المواد الذائبة الأخف وزناً ، وتبرد المواد الذائبة الجديدة بدورها ، فتغوص من جديد ليطفو غيرها . وعلى هذا النهج

---

(١) الفلك العام — ص ٣٩ .

(٢) مختصر تاريخ العالم — ص ١٨ .

(٣) الفلك العام — ص ٣٩ .

تكونت القشرة الأرضية الأساسية للكرة الأرضية والتي أصبحت تتألف من نوعين رئيسيين من الصخور النارية المتجمدة ، البازلت وهو الأثقل وزناً، تعلوه صخور الجرانيت الأخف وزناً بعض الشيء .

تكون الصخور الرسوبية :

على أن الأمطار التي كانت لا تنفك تهطل على سطح الأرض بدون انقطاع ، سرعان ما بدأت تؤثر على هذه الصخور إذ تفتتها بالتدريج وتحمل الفتات مع تيارات المياه المتجمعة لكي تترسب من جديد فى مكان آخر ، فنشأت عن هذه العملية ما يعرف بالصخور الرسوبية .

ومن هذه الصخور الرسوبية والنارية ومشتقاتهما تكون سطح الكرة الأرضية فى هذه العصور السحيقة .

القشرة الأرضية :

وهذا السطح الذى نتحدث عنه ، أو بالأحرى القشرة الأرضية لا تعدو أن تكون قشرة رقيقة جداً ، بالنسبة إلى حجم الكرة الأرضية ، ولعل أقرب شبه لها قشرة التفاح الرقيقة بالنسبة لباقى حجمها ، فهى لا تتجاوز ٥٠ كيلومتراً من ٤٠٠٠ كيلومتر مقدار طول نصف الكرة الأرضية ، أى بنسبة $\frac{١}{٨٠}$.

ويذهبون بالشبه بين الكرة الأرضية والتفاحة حتى نهايته فكما أن قشرة التفاحة تتغضن بعد قليل من قطفها ، فكذلك تغضنت القشرة

الأرضية نتيجة ما حدث فى باطن الأرض من تقلصات بعد برودتها .
فكانت الجبال والهضاب والوديان والسهول .

باطن الأرض :

لا يزال باطن الأرض ، يشير إلى أصلها وماضيها عند ما كانت كلها تتألف من مواد ملتهبة ذائبة ومن غازات ملتهبة وأبخرة ، إذ لانكاد نوغل فى باطن الأرض حفراً بمقدار مائة متر فقط ، حتى ترتفع الحرارة ثلاث درجات مئوية . وفى المناجم التى يحفرها الإنسان بحثاً عن مختلف المعادن ، وخاصة الذهب التى وصل عمق بعضها إلى كيلومتر ، فإن الحرارة ترتفع داخل هذه المناجم ثلاثين درجة . وفى أحد مناجم أفريقيا الخاصة بتعدين الذهب والتى ناهز عمقها ثلاثة كيلومترات ، وصلت إلى ما يقرب من درجة الغليان ، ولا يستطيع العمال أن يعيشوا فضلا عن أن يعملوا فى هذا المنجم إلا بعد استخدام آخر مبتكرات العلم الحديث فى تكييف الهواء وجعله مناسباً .

وكثيراً ما تتفجر ينابيع المياه الساخنة والتى تصل إلى درجة الغليان فى أعقاب الزلازل ، وما أكثر الينابيع الحارة التى يستشفى بها الناس فى أرجاء العالم ، والتى تنبثق كلها من أعماق تتناسب مع درجة حرارتها بالمعدل السابق الإشارة إليه .

وتمضى القاعدة فى اطرادها من ارتفاع الحرارة ٣ درجات كل مائة متر ، فعلى عمق ٥٠ كيلومتراً من سطح الأرض تصبح درجة الحرارة ١٢٠٠° مئوية ، وقد أيدت المشاهدة هذه الحقيقة ، فالحمم البركانية التى

تنبثق من عمق قدره ٥٠ كيلو والمؤلفة من صخور ملتهبة ذائبة، تبلغ درجة حرارتها ١٢٠٠°(١) .

وقد ظن فى فترة ما ، أنه يجب تعميم هذا القانون ، وعلى ذلك فإن درجة الحرارة فى مركز الأرض يجب أن يكون ٣٠٠ ألف درجة مئوية وهو ما لا يتصور معه وجود مادة متماسكة ، ولكن أحدث الآراء العلمية تقول إن باطن الأرض لا يمكن إلا أن يكون كرة صلبة إلى حد ما كأثر من آثار الضغوط الرهيبة الواقعة عليه .

وهكذا تتضارب الآراء عما يمكن أن يكون عليه باطن الأرض، ولم يستطع العلم الحديث أن يقطع برأى فى هذا الموضوع الذى لا يبعد عن الإنسان بأكثر من ٤٠٠٠ ميل ، وذلك فى الوقت الذى يرنو فيه إلى القمر وبقية الكواكب الأخرى ويوشك أن يصل إليها ، وهى التى تبعد ملايين الكيلومترات . ولا عجب فى ذلك ولا غرابة ، فأقرب الأشياء إلى الإنسان هو أعصاها على الفهم والعلم ، ولا نحسب أن هناك ما هو أقرب إلى الإنسان من نفسه التى بين جنبيه ، أو أغوار عقله الباطن ، ومع ذلك فإن الإنسان لا يعرف من أمر هذه الأغوار إلا فروضاً وتخيلات، فى الوقت الذى يتصدى فيه للكلام عن السماء والأرض والنجوم والأفلاك ، ويكتشف قوانين الطبيعة ونواميسها .

الكرة الأرضية كما نعيش عليها :

ويمكن تلخيص طبيعة الكرة الأرضية كما نعيش عليها الآن على الصورة الآتية :

---

(١) الدكتور أحمد زكى – مع الله فى السماء – ص ١٢٨ .
إديث راسكين – العالم من حولنا – ص ١١٨ .

● كرة ملتهبة من المواد الحديدية الذائبة ، لا يعرف بالضبط الكيفية التى توجد عليها نواة هذه الكرة .

● تلف هذه الكتلة الكروية الملتهبة المؤلفة من المواد الذائبة قشرة من الصخور البازلتية والجرانيتية والرسوبية والتربة الأرضية .

● يلف الماء الجزء الأكبر من هذه القشرة الأرضية (٧٠٪).

● يلف الصخر والماء معاً طبقة من الغازات تمتد إلى بضع مئات من الكيلومترات تحيط بالأرض ، على أن ثلاثة أرباع هذه الغازات أو الهواء من حيث الكمية تتركز فى تسعة أميال أو خمسة عشر كيلومتراً حول الأرض[١] .

والكرة الأرضية ليست كاملة الاستدارة ، فإن حركة دورانها تجعلها أقرب إلى شكل البرتقالة ، بمعنى أنها مفلطحة بعض الشىء عند القطبين ، فينقص محورها الواصل بين القطبين ٢٤ ميلا عن قطرها المار بخط الاستواء والذى يبلغ طوله ٨٠٠٠ ميل. أما محيط هذه الكرة عند خط الاستواء ، أى فى أوسع أبعادها فهو (٢٤,٩٠٢) من الأميال . وتدور الكرة الأرضية حول محورها مرة فى كل أربع وعشرين ساعة ، وتدور حول الشمس مرة فى كل ٣٦٥ يوماً وربع يوم تقريباً .

وينشأ الليل والنهار نتيجة دوران الأرض حول نفسها ، كما تنشأ الفصول الأربعة نتيجة دوران الأرض حول الشمس . ولو أن مدار دوران الأرض كان عمودياً على خط الاستواء لوجب أن يتساوى الليل والنهار فى الطول ، وتتساوى الفصول الأربعة فى درجات الحرارة ، ولكن الواقع الذى نعرفه يخالف بين الليل والنهار على مدار أيام السنة كما يخالف بين حرارة

---

(١) دائرة المعارف البريطانية .

يتألف الغلاف الجوى من مخلوط من الأزوت والأوكسجين وغازات أخرى .

الفصول ، وهذا ما حدا بالعلماء أن يفترضوا أن محور دوران الأرض حول نفسها يميل عن الخط العمودى بـ ½٢٣ درجة ، وهذا الفرض يفسر تفسيراً دقيقاً وملائماً اختلاف الليل والنهار من ناحية ، واختلاف الحرارة فى فصول السنة من ناحية أخرى.

الإنسان وشكل الأرض :

ولما كان الإغريق القدماء ، هم أول من تركوا لنا كتباً فى علم الطبيعة والجغرافيا الطبيعية ، فإنه يتبين منها أنهم اعتقدوا الأرض فى بادئ الأمر قرصاً مستديراً مركزه بلاد الإغريق ، وأن هذا القرص عائم على الماء كالسفينة . وقال البعض الآخر إنها جسم مسطح يحمله الهواء وهى لا تتحرك نتيجة حجمها الكبير واتساعها ، وهذا ما يعالى عدم سقوطها فى تيهور الفضاء . وكان فيثاغورس هو أول من قال بكروية الأرض وحركتها . وقد تابعه أرسطو على كروية الأرض ، حتى إذا وصلنا إلى أرسطرخس Aristracachos ، وجدناه يقول لنا ما نعتبره اليوم حقيقة علمية ثابتة ، من أن الأرض تدور حول محورها مرة فى كل ٢٤ ساعة ، وحول الشمس مرة فى كل عام ، وأن الشمس لا الأرض هى مركز الدوران ، وهى ثابتة فى مكانها وليست رؤيتنا لها متحركة إلا كما يرى المسافر الأشجار وأعلام الطريق وهى تندفع فى الاتجاه المضاد لسيره ، مع أن حقيقة الأمر أنها ثابتة وهو الذى يتحرك . وظل هذا الرأى سائدا ، حتى كان بطليموس الفلكى الإسكندرى الذى عاش فى القرن الثانى قبل الميلاد ، وقد وافق الإغريق على كروية الأرض ، ولكنه نفى أن تكون الأرض متحركة وعزا الحركة إلى الشمس وأنها هى التى تدور حول الأرض.

وقد توصل الهنود بدورهم إلى كروية الأرض ودورانها ، فيقول لنا

« إريا بهاتا » أعظم علمائهم فى الفلك والرياضة : « إن عالم النجوم ثابت ، والأرض فى دورانها هى التى تحدث كل يوم ظهور الكواكب والنجوم من الشرق واختفائها فى الغرب» [١] .

على أن خليفة هذا العالم المشهور ، نقض هذا القول تأثراً فيما يبدو ببطليموس الفلكى ، فقال بثبوت الأرض ودوران الشمس [٢] .

أما العرب الذين ورثوا الحضارات القديمة كما سوف نرى ، فقد سلموا جميعاً بكروية الأرض ، ولكنهم اختلفوا فى موضوع حركتها كما اختلف كل من سبقهم ، فنرى أبو ريحان البيرونى يناقش الرأيين دون أن يرجح أحدهما على الآخر فيقول :

« إن النظريتين ، نظرية الثبوت أو الحركة نظريتان متكافئتان بكلتيهما تتفسر الأرصاد الفلكية ، وإن من الصعوبة بمكان ترجيح إحداهما على الأخرى» [٣] .

ولم يكن البيرونى إلا أحد حلقات العلم العربى الذى ازدهر منذ الفتح الإسلامى ، والتاريخ الإسلامى يسجل لنا فيما يسجل أن علماء المسلمين قد قاسوا محيط الكرة الأرضية بناء على أمر الخليفة المأمون ، وقسموا محيط الدائرة إلى ٣٦٥ درجة وقدروا الدرجة بـ ٧٦ ميلا وثلثى الميل وعلى ذلك فقد حسبوا محيط الكرة الأرضية على أنه ٢٠٤٠٠ ميل وهو ما يقرب من تقديرنا الحالى كثيراً ، كما قدروا قطر الكرة الأرضية بـ ٦٥٠٠ ميل وهو عند علماء اليوم ٧٩١٣ ميلا تقريباً [٤] .

---

(١) قصة الحضارة – الجزء الثالث – ص ٢٣٦ .

(٢) قصة الحضارة – الجزء الثالث – ص ٢٣٦ .

(٣) الدكتور أحمد زكى – مع الله فى السماء – ص ٤٤ ، والعجيب أننا سنرى بعد قليل أن هذا هو نفس ما يقول به العلم النظرى الحديث فى الفلك . .

(٤) الدكتور أحمد زكى – مع الله فى السماء – ص ٤٢ .



ويقول الإمام فخر الدين الرازى فى تفسير قوله تعالى : « الذى جعل لكم الأرض فراشاً » : وقد استدل أقوام بهذه الآية على أن الأرض ليست كرة ، وهذا بعيد جداً لأن الكرة إذا عظمت جداً كانت القطعة منها كالسطح فى إمكان الاستقرار عليها . ثم انتهى من تفسيره بعد مناقشة طويلة إلى القول بأنه لا يشك فى كروية الأرض « إلا من لا تدبر له »(١) .

أما بالنسبة لدوران الأرض ، فقد رأينا ما قرره البيرونى بصدده ، وقد تكررت الإشارة إليه فى كتاب عضد الدين بن أحمد المتوفى سنة ٧٥١ هـ فى كتابه المواقف ، وتابعه على رأيه شارح المواقف على بن محمد الجرجانى المتوفى سنة ٨٩٦ هـ . وكان ممن تحدثوا عن دوران الأرض بهاء الدين العاملى فى رسالته تشريح الأفلاك(٢) .

أوربا المسيحية وشكل الأرض :

على أن الأوربيين فى العصور الوسطى ، قد تصوروا القول بكروية الأرض ودورانها ، أمراً يخالف العقيدة المسيحية ، فالأرض عندهم قرص مستدير مركزه بيت المقدس (حيث ولد المسيح) وهو طاف فوق الماء . حتى كان كوبرنيكس فى القرن السادس عشر فابتعث قول الإغريق القديم الذى قال به فيثاغورس وأرسطرخس من كروية الأرض ودورانها حول الشمس ، ولكنه ظل يكتم هذا الرأى طوال أربعين سنة ولم يسمح بطبع كتابه الذى يحتوى على هذا الرأى إلا قبيل وفاته ، ولو تأخرت هذه لوفاة قليلا لمات فوق المحرقة باعتباره كافراً وملحداً .

---

(١) فريد وجدى — دائرة معارف القرن العشرين — مادة أرض .

(٢) فريد وجدى — دائرة معارف القرن العشرين — مادة أرض .

حتى إذا تمكن جاليليو عام ١٦٠٩ من صنع المنظار المكبر (التلسكوب) لأول مرة ، استطاع بواسطته أن يجمع بعض الأدلة الحسية على دوران الأرض ، بالإضافة إلى البراهين الرياضية والحسابية البحتة التي قال بها كوبرنيكس . وكاد هذا القول يودى بجاليليو إلى المحرقة ، لولا أنه اعتذر عنه علناً وتاب وأناب ، وتعهد بكل ذلة ومسكنة أنه لن يعود لهذا الكفر ، وسيقف بالمرصاد لكل من تحدثه نفسه أن يردد هذا السخف والكفر والهذيان ، بل سيبادر بإبلاغ السلطات عنه[1] .

حقيقة مقررة :

وكروية الأرض ودورانها حول نفسها وحول الشمس قد أصبحت اليوم من الحقائق العلمية الثابتة التي تدرس للأطفال ، ولم يعد إثباتها مسألة براهين رياضية أو منطقية بل مسألة واقع محسوس يمكن لكل إنسان أن يتحقق منه بنفسه .

وقد بدأت هذه التجارب المادية برحلة ماجلان في القرن السادس عشر ، عند ما عادت إحدى سفنه الثلاث من تطوافها حول الأرض ، إلى ميناء القيام ، بالرغم من أنها ظلت تسير في اتجاه الغرب دائماً . وإذا كانت هذه الرحلة حول الأرض قد استغرقت في القرن السادس عشر ثلاث سنوات ، فقد أصبحت الطائرات النفاثة تدور حول الأرض في أقل من ٢٤ ساعة ، بل إن سفن الفضاء الروسية والأمريكية على السواء قد أصبحت تدور حول الأرض في ٩٠ دقيقة . وإذا كانت كروية الأرض قد أصبحت ترى بالعين المجردة من ركاب سفن الفضاء ، بل يسجلونها

---

(١) طالع بالتفصيل ، كل ما اشتملت عليه محاكمة جاليليو من طرائف ومهاترات في كتاب برتراند راسل — النظرة العلمية — ص ٢٤ وما بعدها .

فى الصور ، فإن حركة الأرض ودورانها ، قد أصبحت تكاد تلمس باليد، حيث تقوم عمليات إطلاق سفن الفضاء وإعادتها سالمة إلى الأرض ، على أساس سرعة دوران الأرض حول نفسها ، ومدى سرعتها فى دورانها حول الشمس وانتقالها من مكان إلى آخر ، ويؤكد نجاح عمليات سفن الفضاء ووصولها إلى الأرض سالمة ، دقة هذا الحساب .

انفصال القمر عن الأرض :

وقد أكون استطردت طويلا فى التحدث عن كروية الأرض ودورانها حول نفسها وحول الشمس ، وتاريخ نظرة الإنسان إلى هذه القضية ، ولكنى أحسب أن ذلك لازم ما دمنا نتحدث عن أمنا الأرض ، أو عن وطن الجنس الإنسانى .

ونعود إلى ما كنا بسبيله من استعراض تاريخ هذا الكوكب الذى نرتبط به . ولعل أعظم حادث فى تاريخ الكوكب الأرضى بعد انفصاله من الشمس ، إذا أخذنا بالرأى الذى يقول بذلك، أو بعد دوران الأرض حول الشمس بفعل الجاذبية إن لم تكن قد انفصلت عنها ابتداء، هو حادث انفصال القمر عن الأرض وتحوله إلى تابع يدور حولها ، كما تدور هى حول الشمس .

وانفصال القمر عن الأرض ، مسألة لا تفترق حولها الآراء كما تفترق حول انفصال الأرض عن الشمس ، فالعلماء المحدثون متفقون على انفصال القمر عن الأرض ، حتى ليحددوا الموضع الذى انفصل منه القمر عن الأرض ، وهو هذه الفجوة الضخمة التى تؤلف المحيط الهادى[1] وستشهد السنوات المقبلة عند ما يصل الإنسان إلى القمر ،

---

(١) الفلك العام — ص ١٩٤ .

ويكتشف سطحه ونقف على تركيبه الجيولوجى ، إذا كان هذا الرأى المجمع عليه سيتأكد ، أم أنه سينقض .

تطور الأرض ونشوء الحياة :

ومضت ملايين السنين تتلوها ملايين السنين ، وكبر عمر الأرض ، واستطال النهار ، وبدت الشمس أبعد عن الأرض ، وخفت بالتالى حرارتها ، وتباطأت سرعة القمر فى الدوران حول الأرض ، وقل هطول الأمطار وخفت حدة الأعاصير والرياح العاتية وزادت كمية المياه التى تملأ البحار والمحيطات ، فى الوقت الذى طفت فيه اليابسة وعلت فوق سطح الماء ، ومع ذلك فإن الكوكب الأرضى لم يكن قد عرف الحياة بعد ، فالبحار لا تزال خالية من كل مظاهر الحياة ، والصخور عقيمة مجدبة من كل أثر للحياة .

وتوالت الحقب على الأرض ، فى ترتيب زمنى أصبح بقدرة علماء العصر الحديث أن يتتبعوه ، مستخدمين ما أشرنا إليه من قبل وهو (الساعة الزمنية) حيث يحدد الإشعاع عمر الصخور المختلفة والمعادن بل الثلوج ، ويضعون لنا قائمة بأسماء الحقب المختلفة ويحددون أزمنتها ، وفى أى منها بدأت مظاهر الحياة فى صورها الأولى ، ثم المتطورة بعد ذلك . وغنى عن البيان أن ذلك كله ليس إلا على سبيل الفرض والتخمين . وإن كان فرضاً وتخميناً يستند إلى أسس وعناصر تجريبية متفق عليها بصفة عامة .

العصور الجيولوجية والدهور السحيقة :

١ ــ الدهر السحيق ــ ما قبل الكامبرى :

ويختلف العلماء فى تقدير بدايته ما بين ٤٠٠٠ آلاف مليون و ٢٠٠٠ مليون سنة ولكنهم يكادون يتفقون على مدة نهايته وهى ٥٠٠ مليون سنة .

وواضح أن هذا هو أطول الدهور الأرضية ، والقول على أن الأرض لم تعرف الحياة فى الجزء الأكبر من هذا الزمن ، أو بالأحرى ثلثى هذا الزمن . وقد تكون الحياة قد وجدت فى البحار فى الثلث الأخير ، ولكنها على كل حال لم تخلف وراءها أى أثر يمكن أن يدرك ، ولا غرابة فى ذلك ، فما لم يكن الكائن الحى قد وصل إلى درجة من التصلب بحيث تكون له قشرة أو هيكل عظمى ، فلا يمكن أن يترك وراءه أثراً فى الأحجار الرسوبية .

٢ — الدهر القديم (الباليوازى) :

ويبدأ من ٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠ وينتهى حوالى ٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سنة . وبدخول تاريخ الأرض فى الدهر القديم ، تتحدد معالم الأرض ، ويصبح كتابها أيسر فى المطالعة ، فباستطاعتنا أن نطالع فى الصخور الرسوبية من هذا العهد ، كيف طغى البحر على اليابسة ثم انحسر عنها مرات كثيرة ، تاركاً آثاره فى كل مرة على الصخور الرسوبية ، ونرى على صفحات هذه الصخور الحياة فى صورها الأولى البدائية مذ كانت كائنات بسيطة ، حتى الكائنات الأكثر تعقيداً . وفى هذا الدهر القديم نشأت الأسماك لأول مرة ، وظهرت فى أواخره الحيوانات البرمائية أى التى تعيش فى الماء والأرض على السواء . وبدأت الحياة النباتية تزدهر فى المستنقعات والبحيرات وعلى شواطئ المياه الواطئة .

على أن الهضاب والتلال والسهول كلها ظلت عقيمة بغير حياة . لقد بدأت الحياة تتعلم كيف تتنفس ، ولكن جذورها ظلت فى المياه حيث نبتت ، ولذلك كان عليها دائماً أن تعود إلى الماء ، لتضع بيضها وتكثر نوعها .

٣ ـ الدهر الوسيط (الميزوزى) :

ويشمل الفترة من ٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سنة حتى ٧٠,٠٠٠,٠٠٠ سنة وفى هذا العصر الوسيط الذى استغرق ما يقرب من مائة وثلاثين مليوناً من السنين ، وقعت الحوادث الجيولوجية العنيفة التى أدت إلى ظهور الجبال الشاهقة التى نعرفها اليوم كسلسلة جبال الروكى والأنديز فى أمريكا الشمالية والجنوبية . وفى هذا الدهر ظهرت الزواحف الأرضية بكل أنواعها بعد أن غطت الحشائش الضخمة العملاقة ظهر الأرض ، فكان حيوان الديناصور الجبار ، الذى كان ملك الأرض فى هذه الحقبة ، وقد كان طوله من الرأس حتى نهاية الذنب يبلغ ٨٤ قدماً ، وكانت هناك زواحف أخرى يزيد طولها على مائة قدم ، ومن هذه الزواحف تطور نوع من الطيور الجبارة .

ولأمر ما انقرضت هذه الكائنات الجبارة ، ولا يعرف السبب الذى أدى إلى انقراضها .

٤ ـ الدهر الحديث (السينوزى) :

ويبدأ هذا الدهر من ٧٠,٠٠٠,٠٠٠ سنة ويستمر حتى الآن . وقد كان المناخ فى أول هذا الدهر حاراً جداً ، ثم أخذ الجو فى البرودة (لسبب مجهول) حتى أصبح جليداً فى آخره .

ويتحدث الجيولوجيون عن أربعة عصور جليدية ، يقع الأول منها منذ ٦٠٠,٠٠٠ سنة ووصل العصر الجليدى الرابع ذروته منذ ٥٠,٠٠٠ سنة .

وفى هذا الدهر الحديث انحسر البحر عن الجزء الأكبر من القارات كما نعرفها الآن ، وتكونت فيه جبال الهملايا والألب . وبدأت الأرض

تعرف نوعاً جديداً من الحيوانات ، لم تعد تقنع فى عملية إكثار النوع ، بوضع بيض ثم تتخلى عنه ، بل أصبحت تحتضن الجنين فى داخلها ، وتغذيه من دمها (داخل الرحم) حتى إذا خرج الجنين إلى الحياة ، أقبلت عليه الأم تغذيه بغذاء تفرزه من إحدى غددها وهى الثدى ، ومن هنا أطلق العلماء على هذا الطراز الجديد من الحيوانات اسم الحيوانات الثديية (نسبة إلى غدة الثدى) أو الحيوانات اللبونة (نسبة إلى اللبن الذى تغذى به) .

وليست الحيوانات الراقية التى تعيش حولنا والتى نعرفها جيداً ، ابتداء من الأرنب والقطة والشاة والبقرة والحصان والكلب ، حتى الأسد والنمر والفيل والغزال والقرد ، إلا فروعاً من هذه الحيوانات الثديية ، التى يطلق عليها علماء الحيوان اسم الحيوانات الراقية ، فالمشاهدة تدل على أن هذه الحيوانات تتمتع بقدر كبير من الفهم والإدراك وهذا ما يجعل الإنسان قادراً على استئناسها والاستفادة منها ، فإن هذا الاستئناس ما كان يمكن أن يتم لولا تحقق قدر من التفاهم بين الإنسان وبينها .

وتبلغ هذه الحيوانات الثديية ذروة رقيها فيما يسمى القردة العليا الغوريلا والأورانج تانج والشمبانزى ، حيث نرى لدى هذه القردة أول مظاهر الاجتماع ، إذ تعيش فى جماعات متجاورة ، يراقب بعضها بعضاً ، ويقلد بعضها بعضاً ، ويحذر بعضهم بعضاً من بعض الأخطار الوافدة . ويقول علماء التطور : إن الإنسان ليس سوى نوع من هذه القردة العليا ، وقبل أن نعرض لهذه القضية فلنمض فى متابعة تاريخ هذا الكوكب الأرضى وتطوراته حتى نصل إلى أيامنا هذه .

الأرض التى نعرفها :

نحن الآن عند خمسين ألف سنة مضت منذ الآن ، وقد أصبحت الكرة الأرضية أكثر ما تكون شبهاً بالصورة التى نراها عليها الآن فى



الخرائط والمصورات والكرات الأرضية .

فاليابسة قد ثبتت فى مكانها نهائيا ولم تعد تتحرك ، بعد أن برزت العناصر التى تقوم عليها نهائيا .

وملأت المياه الفجوات والشقوق التى فصلت نهائيا بين القارات الست ، فامتلأ حوض البحر المتوسط الذى فصل أوربا عن أفريقيا ، وقد كانتا متصلتين .

وامتلأ الشق الذى نطلق عليه اسم البحر الأحمر فاصلا بين آسيا وأفريقيا . وغمرت المياه الجسر الأرضى الذى كان يربط آسيا بالأمريكتين محولا إياه إلى ممر بهرنج .

وجاء الإنسان ، وبدأ يترك آثاره على أديم الأرض ، وبدأ يطلق شتى الأسماء على كل ما يقع عليه بصره ، وبدأ يتجول فيما يحيط به ، ويتعلم ويزيد من معارفه ، ويؤلف الجماعات والقبائل والأمم والدول .

وكان أول ما عرف من سطح الكرة الأرضية بتفصيل دقيق ، هو هذا الجزء الذى يحيط بالبحر الأبيض المتوسط ، وقد سمى متوسطاً لأنه كان يتوسط العالم كما عرفه إنسان ذلك التاريخ . ولا شك أن معرفة الإنسان لجنوب آسيا قد سبقت ذلك ، فمن جنوب آسيا سار الإنسان دائماً صوب الشمال نحو شمالها الغربى ونحو شمال أفريقيا وجنوب أوربا ، أما شمال أوربا فقد كان لا يزال رازحاً تحت عبء عصر الجليد الرابع ، ولم يكن باستطاعة الإنسان أن يحيا فى دنيا الجليد .

وقد استطاع الإنسان منذ عصر مبكر أن يصل إلى الأمريكتين ، ولكن السبل سرعان ما انقطعت بين سكان هذا القسم من العالم ، والعالم القديم ، فظلا مجهولين لبعضهما ، حتى أعاد خريستوف كولمبس اكتشافهما عام

١٤٩٢ [١] ، ثم توالت الاكتشافات لباقى أجزاء العالم . ولم يحل القرن العشرون حتى كانت خريطة العالم المتداولة لا يوجد فيها شبر واحد لم تطأه قدم الإنسان ، فهو لم يسمح لأعلى القمم أن تتحدى قوة إرادته فتسلقها [٢] . أو أعمق نقطة فى المحيط لا يصل إليها بآلاته وأدواته [٣] . وقد قسم الإنسان الكرة الأرضية إلى خطوط بالطول وأخرى بالعرض يبلغ عدد كل منها ٣٦٠ بقدر درجات الدائرة ، وتبدأ خطوط العرض من خط الاستواء (صفر) وتتدرج صعوداً حتى تصل إلى القطبين فى الشمال والجنوب . كما تبدأ خطوط الطول من جرينيتش بالقرب من لندن (صفر) وتتدرج بعد ذلك حتى ١٨٠ درجة شرقاً وغرباً. ومقدار درجه الطول الواحدة ٦٩,٢ ميلا وكل درجة من هذه الدرجات تمثل ٤ دقائق من الناحية الزمنية . ولم تعد ثمة بقعة على ظهر الأرض لا يستطيع الإنسان أن يحدد مكانها على الخريطة ، أوأن يصل إليها بشتى أنواع المواصلات التى تسير فوق الماء وتحت الماء، أو على الأرض أوعلى متن الهواء . وتبلغ مساحة سطح الكرة الأرضية ١٩٦,٨٣٦,٠٠٠ ميل تقريباً أو ٥٠٩,٦١٠,٠٠٠ كيلومتر مربع تقريباً أو ١٢٥,٩٧٥,٠٤٠,٠٠٠ فدان .

ولا تزيد مساحة اليابسة على قدر يتراوح بين الثلث والربع من هذه المساحة أى ٥٥,١٦٨,٠٠٠ ميل .

---

(١) أحدث الآراء التى تبنتها بعض الجامعات الأمريكية ، أن النرويجيين (الفايكنج) قد وصلوا إلى أمريكا الشمالية قبل كولمبس .

(٢) قمة جبال هملايا — ٢٩,٠٢٨ قدما .

(٣) أعمق نقطة فى المحيط الهادى ٣٥٠٠٠ قدم تحت سطح الماء .

أما البحار والمحيطات فتؤلف الجزء الباقى موزعة على الوجه التالى :

المحيط الهادى	٦٨,٦٣٤,٠٠٠ ميل
المحيط الأطلسى	٤١,٣٢٢,٠٠٠ ميل
المحيط الهندى	٢٨,٣٥٠,٠٠٠ ميل

وباقى المحيطات والبحار الجزء الباقى . والبحر الأبيض وهو أكبر بحار العالم تبلغ مساحته ١,١٤٥,٠٠٠ ميل مربع .

أما أصغر بحار العالم فهو بحر البلطيق فى أوربا ، وتبلغ مساحته ١٦٠,٠٠٠ ميل .وتبلغ مساحة الماء العذب فوق اليابسة فى صورة بحيرات وأنهار ١,٠٠٠,٠٠٠ ميل مربع . وأطول أنهار العالم هو نهر النيل ويقع فى أفريقيا ويبلغ طوله ٤٠٠٠ ميل ويليه نهر المسيسبى والمسورى معاً ٣٩٨٨ ميلا .

مساحة القارات :

أما القارات فمساحاتها على الوجه التالى (١) :

آسيا	١٧,٠٠٠,٠٠٠ ميل تقريباً
أفريقيا	١١,٥٠٠,٠٠٠ ميل تقريباً
أمريكا الشمالية والوسطى	٩,٣٥٥,٠٠٠ ميل تقريباً
أمريكا الجنوبية	٦,٨٠٠,٠٠٠ ميل تقريباً
أوربا	٣,٧٥٠,٠٠٠ ميل تقريباً
الأقيانوسية	٤,٠٠٠,٠٠٠ ميل تقريباً
المنطقة القطبية الجنوبية	٦,٢٠٥,٠٠٠ ميل تقريباً

(١) هذه الأرقام تختلف حسب اختلاف المراجع ، وما يعد جزءاً من القارة وما لا يعد .

والاتحاد السوفييتى هو أوسع دول الأرض مساحة إذ تبلغ مساحته بمفرده ٨,٦٤٥,٠٠٠ ميل، تليه كندا ٣,٨٥١,٠٠٠ ميل تقريباً ، فالصين فالولايات المتحدة الأمريكية فالبرازيل فأستراليا فالهند فالأرجنتين فالسودان ٩٦٧,٠٠٠ ميل تقريباً فالكونغو فالمكسيك .

ويبلغ عدد سكان العالم فى الوقت الحاضر ٣,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ مليون نسمة [1] .

وأكثر بلاد الدنيا سكاناً هى الصين ٧٠٠,٠٠٠,٠٠٠ وتليها الهند ٤٤٠,٠٠٠,٠٠٠ فالاتحاد السوفيتى ٢٦٤,٠٠٠,٠٠٠ فالولايات المتحدة الأمريكية ١٩٢,٠٠٠,٠٠٠ ، فإندونيسيا ٩٦,٠٠٠,٠٠٠ فاليابان ٩٤,٠٠٠,٠٠٠ فألمانيا بقسميها ٧٠,٠٠٠,٠٠٠ فإنجلترا ٥٢,٠٠٠,٠٠٠ فإيطاليا ٥٠,٠٠٠,٠٠٠ ففرنسا ٤٥,٠٠٠,٠٠٠

انعدام المسافات والحواجز :

ولقد انهارت الحواجز التى كانت تفرق الإنسان عن أخيه الإنسان ، وأصبحت المحيطات تقطع فى بضع ساعات . ولم يعد هناك ركن من أركان العالم، سواء على سطح الأرض أو تحت الماء أو فى طبقات الجو القريب لا يصل إليه الإنسان بعلمه وآلاته ، فأصبح يعلم ما يجرى فى أرجاء الكوكب الأرضى إن لم يكن ساعة حدوثه فبعد ذلك بلحظات ، أى بمقدار إبراق الخبر وإذاعته التى تنتقل بسرعة الضوء .

وهكذا أصبح الكوكب الأرضى كله يؤلف وحدة جغرافية واحدة بالنسبة لكل من يقيم على ظهره من بنى الإنسان ، وقد حانت الساعة

---

(١) يتزايد هذا الرقم بمعدل ٥٠ مليوناً كل عام .

لنعرف صلة الإنسان بهذا الكوكب الأرضى ، وهو ما يعود بنا للتحدث عن نشأة الحياة .

نشأة الحياة وعلاقتها بالأرض :

رأينا فيما مرّ بنا كيف يحاول الجيولوجيون ، أن يقدروا للأرض عمراً من خلال قياس عمر الصخور التى تتألف منها القشرة الأرضية ، وقد قسموا عمر الأرض إلى دهور مختلفة ، قدروا لكل دهر منها عمراً خاصا به ، وقد حاولوا أن يجعلوا لكل دهر من هذه الدهور خصائص تميزه عما سبقه أو لحقه من دهور ، وقد رأينا أنهم أطلقوا على الفترة القريبة من عمر الأرض اسم « الدهر السينوزى » وقالوا لنا إن صخور هذا الدهر بدأت تحوى آثار الحيوانات الثديية ، وكلما مرّ الزمن تطورت الثدييات حتى وصلت إلى القردة العليا . حتى إذا كانت الصخور التى لا يزيد عمرها على ٥٠ ألف سنة ، بدأنا نجد آثار وحفريات ما يمكن اعتباره شبيه الإنسان أو الإنسان الأول .

وعندنا أن هذا الذى انتهى إليه العلم الحديث ، بعد الجهدوالاستقراء والملاحظة والتجريب ، لا جديد فيه بالنسبة للإنسان فى أى عصر من العصور ، فالرابطة بين الحياة فى شتى صورها وأشكالها من ناحية ، وبين الأرض من ناحية أخرى ، هى ظاهرة مؤكدة لم تغب عن أى إنسان . تحدثت عنها أساطيره ، وأحلامه وخيالاته ، بل تاريخه ومعارفه ، فالإنسان لم يتردد فى أى وقت من الأوقات من تصور نفسه من سلالة الحيوانات حتى لقد عبد الحيوانات فى شتى صورها وأشكالها باعتبارها الأصل الذى منه جاء ، وقدّس كل ما يحيط به من كائنات حية وغير حية ، قدّس الأنهار والجبال والأشجار ، ولم يفته فى أى لحظة العلاقة الوثيقة بين

الإنسان وكل ما يحيط به . ولا عجب في هذا الشعور والإحساس فحياتنا اليومية تؤكده وتقرره ، فما من كائن حي إلا يولد صغيراً ثم يمتد ويكبر ويزيد في الحجم ، وليس هذا الحجم إلا متحصلات الأرض ، من هواء وماء وتراب بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، من خلال النباتات والحيوانات التي هي بدورها من نتاج الأرض . ولا يكاد الإنسان يموت حتى يرى بالعين المجردة أنه يتحول إلى تراب الأرض ، ويصبح بدوره غذاء طيباً لهوام الأرض وحشراتها ونباتاتها .

فالدورة إذن بين الحياة وعلى رأسها الإنسان ، وبين كل ما يحيط بها هي ظاهرة محسوسة ملموسة لكل ذي عينين وعقل يفسر ما ترى العينان.

وإذا كان القرآن الكريم يمثل ذروة ما وصل إليه الإنسان من معارف عن طريق الوحي والإلهام فإنه يقرر هذه الحقيقة في وضوح لا مزيد عليه ، إذ يتحدث عن خلق الحي من الميت . وخلق الميت من الحي .

« يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون » .

كما يتحدث القرآن عن علاقة الماء بالحياة ، مقرراً أن الماء هو أصل الحياة :

« وجعلنا من الماء كل شيء حي » ، حتى إذا وصل إلى الإنسان زاد الأمر تفصيلا فأضاف إلى الماء تراب الأرض أي ما نسميه الطين « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » .

ويعجب الإنسان ، كيف ينتهي العلم بعد أن يشرق ويغرب إلى استعمال نفس العبارات التي حاول أن ينكرها في بادئ الأمر ويتمرد عليها باعتبارها لا تقوم على أساس علمي تجريبي ، فترى واحداً من أعظم علماء الحياة في أمريكا (لورنس هندرسون) يقول لنا : «لا بد أن

ظهور الحياة بدأ أول ما بدأ فى أحد مجارى الطين الدافئ أو بين طيات زبد هذا الطين ورغاويه » [١] .

أما كيف نشأت الحياة من غير الحياة ، فذلك لا يزال سرا مستعصياً على عقول أعتى العلماء .

وقد حدث أن اجتمع مئات من العلماء فى مؤتمر دولى لعلوم البحار فى شهر أغسطس سنة ١٩٥٩ فى مدينة نيويورك ، وخصصوا قسما كبيراً من نشاط المؤتمر لبحث نشأة الحياة ، واشترك فى أعمال المؤتمر أعظم علماء الروس المشتغلين بمعرفة أصل الحياة ، والذى نسب إليه أكثر من مرة أنه أوشك أن يكتشف سر الحياة وهو العلامة « أوبارين » فلما جاء دوره فى التحدث إلى المؤتمر قال للمؤتمرين هذا الحكم القاطع :

« إن جميع المحاولات التى أجريت لتوليد الحياة من المواد غير العضوية تحت ظروف طبيعية أو فى المعمل باءت بالفشل » [٢] .

وستمضى الأجيال تلو الأجيال باحثة عن السر الرهيب .

الفكر الإنسانى :

وكما يقف علماء الحياة ، عاجزين عن إدراك كيفية نشأة الحياة من المادة الجامدة ، ويواجهون بفجوة كبيرة لا يعرفون كيف يسدونها ، ولا يملكون إلا أن يسلموا بعجزهم كما فعل الإنسان على مر العصور ، فكذلك الشأن بالنسبة لعقل الإنسان . إذ يقف علماء التطور حيارى إزاء الفكر الإنسانى ، فما أسهل عليهم أن يتتبعوا مراحل التطور وعملية النشوء والارتقاء ، من

---

(١) انظر كتاب الطاقة الإنسانية للمؤلف ص ١٧٨ .

(٢) الحياة ونشأتها – أنور عبد العليم ص ١١٢ .

الأميب حتى القردة العليا ، فهذه من تلك لها خصائص واحدة ، وتعمل كلها بغريزة الحياة الثابتة التى لا تتغير أو تتبدل ، فأرق حيوان ، كأدنى حيوان ، يقوم بنفس الحركات التى كان أسلافه يقومون بها منذ ملايين وملايين السنين ، بنى عشه كما كانوا يبنون ، ويضع بيضه أو يربى وليده كما كانوا يفعلون . لا فارق بين الحشرة وبين الفيل . حتى إذا جئنا للإنسان فى أول صوره وأكثرها بدائية وجدنا عنده الاختلاف الجذرى مع سائر الكائنات الحية ، وجدنا عنده العقل الذى جعله ينتج اللغة ويتكلم ويتعلم كل يوم ما لم يكن يعلم ، ويصبح له فى كل يوم أساليب غير الأساليب وحاجات غير الحاجات ، ونجد عنده شعراً وموسيقى وفلسفة وديناً ، ومذاهب وعقائد ، وملكيات وجمهوريات ، وأنظمة لا تفتأ تتغير يوماً بعد يوم ، واختراعات واكتشافات تجعله فى كل يوم يقدر على ما لم يكن يقدر عليه قبلا . . . وهكذا يقف العلماء المحدثون مرة أخرى ، كما وقف الإنسان فى كل عصر من العصور حائرين مبهوتين أمام هذا السر الرهيب ، سر العقل الإنسانى وطبيعته ، فيقول ألكسيس كاريل الحائز على جائزة نوبل فى العلوم الطبيعية :

« ما هو الفكر ، ذلك الكائن العجيب الذى يعيش فى أعماق ذاتنا دون أن يستهلك أى قدر قابل للقياس من النشاط الكيمائى ؟ هل يتصل بأشكال النشاط المعروفة ؟ ألا يمكن أن يكون هو منظم الكون ، وأنه بالرغم من تجاهل الأطباء له أهم من الضوء ؟ أهو نتاج الخلايا (المخية) كما ينتج البنكرياس الأنسولين ، والكبد الصفراء ، وهل يحتوى على نوع من النشاط يختلف عن ذلك الذى يدرسه الأطباء ؟ أيعبر عن نفسه بقوانين أخرى وتولده خلايا الغشاء المخى ، أم يجب اعتباره كائناً غير مادى يوجد خارج الفراغ والزمن ، خارج أبعاد العالم الكونى ، ويدخل فى مخنا بطريقة مجهولة لنا ؟! » .

وثمة إمام آخر من أئمة علماء الطبيعة الماديين وهو شرنجتون لا يقل بدوره فى إعلان حيرته عن كاريل إذ يقول :

« لقد أصبح بقدرة العلم الطبيعى أن يفسر الحياة باعتبارها تنفساً وحركة ونمواً وتوالداً وتحليلا للأغذية فى الأنسجة . . . إلخ ذلك أنه لا يوجد شيء من هذه الظواهر لا يقع تحت سلطان العلم ، إنها كيمائيات وطبيعة ، أما هذا الشيء الآخر المصاحب للحياة وهو الفكر ، فإنه يهرب من دائرة العلم الطبيعى ويظل بعيداً عنه ، حتى لقد بدأ العلم الطبيعى يتجاهله باعتباره شيئاً يخرج عن دائرة بصره ، وبهذا نشأ فارق أساسى بين الحياة والعقل ، فالحياة موضوع للكيمياء والطبيعة ، أما العقل فيهرب منها ، بحيث يمكن تلخيص الإنسان فى أنه يتألف من طاقة وعقل » ، ويهرب شرنجتون من أن يقول شيئاً عن ماهية هذا العقل ولا مصدره [1] .

وهكذا ينتهى العلم المادى التجريبى ، إلى ما انتهى إليه الإنسان فى كل عصر وزمان ومكان ، من جهله سر الحياة ، وسر العقل الإنسانى .

على أنه أيا كانت حقيقة هذا السر ، فالأمر الواقع الملموس الذى لم يمار فيه البشر فى أى يوم من الأيام ، هو ما ذكرناه من قبل ، أن الأرض هى مصدر هذه الحياة ، وأن الإنسان ابن هذه الأرض . هى الأصل الذى جاء منه ، هى مسقط رأسه ، وهى مدرجه ومنشؤه وملعبه وهى مصدر معاشه وقوام حياته ، وهى فى نهاية الأمر ، غايته ومثواه ومستقره الأخير ، لا يختلف فى ذلك إنسان عن إنسان ، أيا كان مولده ، فى الشمال أو الجنوب ، فى الشرق أو الغرب . فى قمم الجبال أو عند منحدر الوديان ، على شواطئ البحار أو فى أعماق الصحراء ، أبيض كان أو أسود أو أحمر أو أصفر .

---

(١) الطاقة الإنسانية – للمؤلف .

وليس وراء ذلك جامع يجمع بين أفراد البشر على السواء ، بل لا يوجد ما يسوى بين البشر ولا يشذ فيه إنسان عن إنسان ، سوى هذه العلاقة بينه وبين الأرض وعودته إلى أحضانها . فهى الأم والبشر أبناؤها ، كذلك نظر لها الإنسان دائماً ، فعبدها وقدسها ، حتى إذا أدرك أنها من خلق كائن أعلى ، ظل محتفظاً لها فى لغته بلفظ الأمومة والأنوثة ، إشارة إلى هذه الرابطة الوثيقة .

وإذا كان علماء الاجتماع والسياسة ، يشترطون لقيام الأمة أن يكون لها أرض واحدة تعيش عليها ، فإن هذا الشرط لا يتحقق إلا بالنسبة لبنى البشر أجمعين .

والكوكب الأرضى الذى يؤلف وحدة مستقلة قائمة بذاتها تختلف عن بقية الكواكب الأخرى حقيق أن يلقب بالكوكب الإنسانى ، تمييزاً له عن سائر الكواكب الأخرى ، التى إن صح فرضاً أن بها حياة ، فالأرجح أنها حياة غير إنسانية .

الفصل الثانى

الجنس الإنسانى ووحدته

التوراة وقصة الخلق — الاستعلاء الجنسى فى العصر الحديث — مباحث علم الأجناس — المجموعة البيضاء — المجموعة الزنجية — المجموعة المغولية — قانون ماندل وفصائل الدم — مؤتمر عالمى للأجناس البشرية — هتلر والنازية — جنس إنسانى واحد — زنوج أمريكا — زنوج أفريقيا — العلماء يذيعون بياناً نهائيا بوحدة الجنس البشرى .

التوراة وقصة الخلق :

لم تكن وحدة الجنس البشرى موضع شك لدى البشر فى أى عصر من العصور الموغلة فى القدم ، فالأصل الواحد المشترك لجميع الآدميين كان يعتبر دائماً حقيقة واحدة ، فهم جميعاً قد انحدروا من الشمس أو السماء أو هذا الجبل أو هذا الحيوان ، أو هذا الجد المعين ، أو من سلالة هذا الإله .

وتصور التوراة التى تعتبر أقدم كتاب متداول بين البشر تصدى لوصف عملية الخلق وتاريخ الإنسان الأول ، وحدة الجنس البشرى ، فالله بعد أن خلق السموات والأرض ، وبعد أن خلق الماء والأسماك والزواحف والطيور ثم حيوانات الأرض ، قضى أن يخلق الإنسان [1] : « فصنع الله وحوش الأرض بحسب أصنافها والبهائم بحسب أصنافها ، وكل دابات الأرض بحسب أصنافها ، ورأى الله أن ذلك حسن . وقال الله لنصنع الإنسان على صورتنا ومثالنا وليتسلط على سمك البحر وطير السماء والبهائم وجميع الأرض وكل الدابات الدابة على الأرض . فخلق الله الإنسان على صورته » .

« وأن الرب الإله جبل الإنسان تراباً من الأرض ونفخ فى أنفه نسمة حياة فصار الإنسان نفساً حية » [2] .

---

(١) هذا الترتيب فى خلق الكائنات ، هو ما يقول به علم الأحياء الحديث ، فالحياة نشأت فى الماء ، ثم كانت الأسماك فالزواحف فالحيوانات .

(٢) سفر التكوين — الفصل الأول والثانى .



وبعد أن خلق الله آدم وأراد أن يخلق له شريكة من جنسه « أوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام فاستل أحد أضلاعه وسد مكانها بلحم ، وبنى الرب الإله الضلع التى أخذها من آدم امرأة وأتى بها إلى آدم، فقال آدم هذه هى المرأة عظم من عظامى ولحم من لحمى هذه تسمى امرأة ، لأنها من امرئ أخذت ، ولذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلزم امرأته فيصيران جسداً واحداً »(١) .

وعرف آدم حواء امرأته فحملت وولدت قابيل فقالت قد رزقت ولداً من عند الرب ، ثم عادت فولدت أخاه هابيل ، ثم ولدت له شيثاً ، ثم جاءته ببنات وتزوج البنون البنات ، فكثروا ونموا حتى جاء نوح وفى أيامه وقع الطوفان الذى أغرق كل الأحياء على الأرض إلا الذين أخذهم نوح فى سفينته ، وبعد ذهاب الطوفان وعودة نوح ومن معه من الحيوانات والدواب إلى الأرض ، رزق نوح أولاداً ثلاثة سام وحام ويافث ، ومن الثلاثة تفرع البشر الذين يملأون الدنيا وهم جميعاً أبناء عمومة يرجعون إلى جد واحد هو نوح ومن قبله آدم أبو البشر وحواء أمهم .

يافث ــ المغول :

فأما يافث فهو أبو الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج أو بالأحرى ما يسمون فى التاريخ باسم المغول .

---

(١) سفر التكوين ــ فصل ٢ ــ توحى هذه القصة إلى أن خلق حواء جاء عن طريق الانفصال من آدم ، لا عن طريق الخلق المستقل ، وهذا يماثل ما يقول به علم الحياة من أن الأحياء البدائية تتكاثر من طريق الانفصال .

سام ــ العرب والروم والفرس :

وأما سام فهو الجد لشعوب العرب والروم والفرس أو من تسميهم التوراة ــ عيلام وأشور ولود وآرام .

حام ــ السودان والبربر :

وأما الابن الثالث حام فهو والد القبط والأحباش والسودان والبربر أو من نسميهم فى العصر الحديث باسم الزنوج ، أو من تسميهم التوراة ، كوش ومصرافيم وفوط وكنعان. وتأبى التوراة بعد أن تعدد هذه التفرعات إلا أن تذكر مرة أخرى بالأصل المشترك فتقول :

« هؤلاء هم عشائر بنى نوح بمواليدهم وأممهم ، ومنهم تفرقت الأمم فى الأرض بعد الطوفان . وكانت الأرض كلها واحدة وكلاماً واحداً »(١) .

وسنرى كيف أن هذا التقسيم الثلاثى للأصل الإنسانى المشترك هو الذى سينتهى إليه العلم الحديث فى خاتمة المطاف. . . بل سنرى كيف تنتهى الأبحاث التجريبية المعملية إلى إثبات وحدة الجنس البشرى .

والحق أن هذه الواقعة الثابتة ، مسألة تكاد ترقى إلى مستوى البديهيات التى لا تحتاج إلى برهان ، فإذا كان سكان العالم اليوم قد بدءوا يتجاوزون الثلاثة آلاف مليون ، فإن هذا العدد الضخم هو سلالة العدد الأقل الذى كان يسكن الكرة الأرضية ، ومنذ سبع وستين سنة فقط أى عام ١٩٠٠ كان عدد سكان العالم ١٥٠٠ مليون أى نصف القدر الحالى ، وهذا العدد الضخم بدوره قد انحدر من عدد أقل فأقل وهكذا ، حتى نرى أنفسنا فى نهاية الأمر أمام بداية واحدة للإنسان ، أو أسرة واحدة :

---

(١) سفر التكوين ــ الفصلان العاشر والحادى عشر .

ذكر وأنثى كانا هما أول آدميين حقيقيين تتوافر فيهما صفات الإنسان ، أطلقت عليهما التوراة اسم آدم وحواء .

القرآن ووحدة الجنس البشرى :

وقد صوّر القرآن الكريم هذه البداية الواحدة وتفرع البشرية وتسلسلها من هذا الأصل بقوله :

«يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً » (١) .

وما أروع القرآن الذى يذكر الإنسان بوحدة الأصل ، داعياً إلى المحبة والترابط بين أفراد الجنس البشرى باعتبارهم جميعاً ذوى رحم واحدة ، أى أنهم أبناء أم واحدة فى خاتمة المطاف .

تنكر الشعوب لهذه الحقيقة :

ومع وضوح هذه الحقيقة وثبوتها ، فما أكثر ما تنكر لها بنو البشر فى مختلف العصور وتجاهلوها وأهملوها عامدين ، مدعين أن الأجناس البشرية درجات وطبقات يعلو بعضها بعضاً . . . وكان اليهود أنفسهم فى مقدمة المؤمنين بهذه الفكرة ، فهم وحدهم أى (بنى إسرائيل) هم الناس المفضلون المعتبرون عند الله ، أما بقية البشر فلا قدر لهم ولا قيمة عند الله ،

---

(١) سورة النساء ١ .

زاعمين أن الرب قد عقد اتفاقية مع جدهم إبراهيم ، أن يختصهم من دون العالمين ببركاته ونعمائه فى مقابل أن يعبدوه ويكونوا شعبه المختار .

ولا شك أن بنى إسرائيل قد أخذوا هذه الفكرة من المصريين الذين عاشوا بين ظهرانيهم بضع قرون ، فقد كان المصريون القدماء ، يتصورون أنفسهم هم وحدهم الناس ، وأنهم أبناء الشمس وشعب السماء وشعب الإله ، وأنهم صورة من ربهم الأكبر ، فقد تشكلوا من لحمه ، وخلقوا من عينيه ، ونزلوا من دموعه [١] .

ومثل هذا التصوير نراه عند الإغريق ، فهم بدورهم ، المتمدنون من دون العالمين ، ومن عداهم فهم برابرة ومتوحشون ، لا تسرى عليهم قوانين الإغريق ، ولا يعاملون بنفس المعاملة سواء فى حالتى السلم أم الحرب . ومن المؤسف أننا نجد أثر هذه الفكرة عند أرسطو ذلك الرجل العظيم ذى العقل الجبار ، والرؤية العميقة ، فهو يقول لنا إن الطبيعة قد خلقت جنسين من البشر ، أحدهما الجنس الحر ، والثانى الجنس العبد والرقيق ، ولا سبيل لإقرار السلام بين الجنسين إلا بأن يستسلم العبيد لمصيرهم ويدركوا أن ذلك قدر مقدور قد فرضته الطبيعة عليهم [٢] .

وعلى هذا القول الخاطئ من أقوال أرسطو ، استند دائماً دعاة التمييز العنصرى وما زالوا يستندون حتى الآن ، ويتخذون من هذه الفكرة الزائفة الأساس لموقفهم العدوانى .

واستمرت هذه البدعة عند الرومان ، فأبناء روما هم وحدهم من دون العالمين ، من يتمتعون بحقوق الإنسان الحر الكامل ، أما بقية الناس

---

(١) الدكتور عبد العزيز صالح — حضارة مصر القديمة وآثارها — ص١٣ .

(٢) دائرة المعارف للعلوم الاجتماعية — مادة — جنس .

فإما عبيد أرقاء ، أو أجانب يخضعون لقانون خاص بهم دون قانون المدينة .

وكان الحال فى الشرق مثل ما فى الغرب ، فالصينيون ، اختصوا أنفسهم بالتمدن والحضارة ومن عداهم خارج حظيرتها ، ولقد كان من الطريف أن أول سفير بريطانى ذهب فى أواخر القرن الثامن عشر ليمثل بلاده فى بلاط أباطرة المانشو كان عليه أن يركب فى ذهابه إلى الإمبراطور زورقاً ركب على ساريته لافتة كبيرة كتب عليها « أحد البرابرة الحمر يحمل الجزية للإمبراطور » وبغير هذا السبيل ما كان له أن يمثل فى حضرة إمبراطور الصين (١) .

هداة البشر ونبى الإنسانية محمد :

على أن الإنسانية أخرجت دائما من بين صفوفها ، نجوما وأعلاماً من بنى الإنسان ، رفضوا فكرة اختلاف الأجناس وبشروا بوحدة الجنس الإنسانى .

على أن الذى لا جدال فيه ، أن الرجل الذى رفع لواء هذا المبدأ إلى الذروة وأعطاه كل قوته فى النظر والتطبيق هو محمد بن عبد الله (صلعم) مما أهله ليكون نبى الإنسانية بحق ، حيث كان ينادى بنداء القرآن :

« يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

ومن كلماته المشهورة وأحاديثه الخالدة : كلكم لآدم وآدم من تراب . أو قوله : لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى .

(١) حياة ماوتسى تونج — روى ماك جريجور ، ترجمة حسين الحوت .

ولم تكن هذه مجرد دعوة نظرية خيالية دعا إليها القرآن وحضت عليها تعاليم الإسلام ، بل إن الدولة والحضارة الإسلامية قامتا من أساسهما على هذه الفكرة . فكان صحابة الرسول المقربون يجمعون العربى إلى جوار صهيب الرومى وسلمان الفارسي ، وبلال الحبشى ، بين الحر والعبد بغير تفرقة أو تمييز ، وكثيراً ما أمر الرسول زيد بن حارثة الذى كان رقيقاً ، على أقطاب قريش وسادتها ، فلم يجدوا فى ذلك غضاً من كرامتهم أو حرجاً فى أنفسهم وهم الذين كانوا فى الجاهلية لا يعتزون بشىء قدر اعتزازهم بالأحساب والأنساب .

وعلى الرغم من أن روح المسيحية تقوم على هذه الفكرة فى المساواة بين البشر وسائر الأجناس ، فالرب هو الأب وكل من آمن بالمسيح أصبح من أبنائه وأحبائه بل إن جوهر الربوبية كله هو الحب فالله محبة ، ومع ذلك لم تستطع المسيحية بعد أن أصبحت الدين الرسمى للدولة الرومانية أن ترتفع إلى مستوى المناداة بالأخوة البشرية [١] .

ولم يختف الحديث عن الجنس كعنصر مميز بين البشر ، إلا بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية ، وتوالى القرون على أوربا المسيحية ، وإن كان الاستعلاء بالإيمان المسيحى قد حل محل الاستعلاء الجنسى ، فالمسيحيون هم وحدهم البشر والناس ، ومن لم يكن مسيحياً فهو من سقط المتاع ، وهو غير جدير بالحياة نفسها .

---

(١) تقول دائرة معارف العلوم الاجتماعية :

إن الإسلام من الناحية العقائدية ومن الناحية الواقعية لم يعرف حاجز اللون ، وهو ما يفسر سرعة انتشاره فى أفريقيا ، فى حين أن المسيحية لم تستطع أن تنهض إلى مستوى دعوتها المسيحية .

الاستعلاء الجنسى فى العصر الحديث :

حتى إذا كان العصر الحديث ، عصر الاستكشافات والبخار والاستعمار ، حيث ضعفت الروح الدينية ، وحل محلها الإيمان بالعلم والتفوق المادى ، بدأ الاستعلاء الجنسى يأخذ قوة وشكلا جديدين . بمحاولة تأصيل القضية وإرسائها على قواعد وأصول وحقائق علمية ، فنشأ ما يسمى بعلم الأجناس Anthropolgy وبدأت دراسات هذا العلم ومباحثه تكون أساس العبارات التى بدأت تتردد عن « سيادة الرجل الأبيض » وعن « انحطاط الجنس الأسود » وعن « خبث الجنس الأصفر » .

واستحل المستعمرون البيض لأنفسهم التصرف فى أقدار بقية الأجناس بما فى ذلك إبادتهم إذا لزم الأمر .

وكان الإسبان سباقين فى هذا الطريق ، فقد هون لهم مفكروهم وعلماؤهم ، إساءة معاملة الهنود من سكان أمريكا الجنوبية الأصليين ، وسوغوا لهم معاملتهم معاملة غير إنسانية على أساس أنهم من أصل غير إنسانى [١] .

وفعلت العناصر الأوربية الأخرى التى هاجرت إلى أمريكا الشمالية ، مثل فعل الإسبان ، فحصروا كل همهم فى ضغط الهنود الحمر وإجلائهم عن أراضيهم ثم قتلهم بالجملة وإبادتهم ، باعتبارهم جنساً غير قابل للتمدن والحضارة لأنهم أقرب إلى الحيوان .

وكذلك عمد البيض الذين نزحوا إلى أستراليا ، حيث عملوا على إبادة السكان الأصليين ، وإذا كان لا يزال من هؤلاء السكان بقايا حتى الآن

---

(١) دائرة المعارف البريطانية مادة — جنس .

فى قارة أستراليا ، فما ذلك إلا لأن أيدى البيض لم تصل إليهم لصعوبة المواصلات فى المرحلة الأولى ، ولكن البيض نجحوا فى استئصال شأفة سكان جزيرة تسمانيا بحيث لم يبق منهم إنسان واحد ، وأصبح يشار إليهم باسم « الجنس الذى انقرض » (١) .

وقد أعطت الدارونية ، التى تقوم على فكرة التطور من خلال « الانتخاب الطبيعى » وأن الحياة صراع دائم بين الأحياء ينتصر فيه الأقوى والأصلح ، الأساس العلمى لأمثال هذه الحركات فما دام الإنسان قد تطور عن الحيوان ، فإن بعض الأجناس الإنسانية لا تزال أقرب إلى الحيوان منها إلى الإنسان فيجب أن تعامل بهذا المستوى .

وأصبح من الحقائق المقررة والمقبولة ، أن الزنوج أمس رحماً بالغوريلا والشمبانزى منهم بالإنسان .

مباحث علم الأجناس :

وتعددت مباحث علم الأجناس ، والأسس التى تقوم على التفرقة بين البشر . ولقد سقط منذ عصر مبكر الادعاء بوجود أى خلاف تشريحى بين أجناس البشر ، لا أجناس البشر الأحياء اليوم ، بل البشر الذين عاشوا منذ عشرات الألوف من السنين .

ولذلك فقد اتجهت المباحث نحو بعض الظواهر الثانوية كلون البشرة ، فقسم البشر إلى أنواع ثلاثة ، الأبيض والأسود والأصفر . أو من حيث الشعر ونوعه ، ومن جديد قسم البشر إلى أقسام ثلاثة أصحاب الشعر الصوفى (الجعد) والشعر السبط والشعر الناعم (المتموج) .

---

(١) Memoires sur le contact des Races G. Spiller — p. 121.

كما قسموا من حيث شكل الرأس وما إذا كان مستديراً أو مستطيلا، ومن حيث شكل الأنوف، وما كان منها أفطس أو مرتفعاً، ومن حيث طول القامة، حتى إذا لم يوصلهم أى تقسيم من هذه التقسيمات إلى ما يمكن اعتباره فوارق حقيقية بين إنسان وإنسان . . . انتهوا إلى تقسيم الإنسان إلى أجناس جغرافية نسبية إلى المناطق التى يسكنها، فقالوا بجنس البحر الأبيض المتوسط، وقالوا بالجنس القوقازى ، والجنس الآسيوى . . . .

وخلصوا من هذه المباحث كلها إلى تقسيم البشر إلى ثلاث مجموعات أقرب ما يكون كل منها تجانساً مع فروعه وتفصيلاته، وهذه المجموعات الثلاث هى : المجموعة البيضاء ، والمجموعة الزنجية ، والمجموعة المغولية .

فأما المجموعة البيضاء :

فموزعة على الأجزاء الغربية والشمالية من العالم القديم ، وفى سلسلة من الهجرات بعضها معروف، والبعض لا يزال مجرد تخمين ، احتل النورديون (الشماليون) وهم الشقر الطوال الرؤوس نسبيا ،الثلث الشمالى من أوربا . واحتلت العناصر الألبية العريضة الرءوس منطقة وسطى تمتد من روسيا إلى فرنسا .

وانتشر فرع البحر الأبيض المتوسط ، الأسمر الطويل الرؤوس وأقاربهم من العرب والبربر فى جنوب أوربا وشمال أفريقيا والشرق الأدنى، على حين يعتقد أن فرعاً آخر قد اندفع نحو الهند وإندونيسيا وأقصى الجزر الشرقية فى الباسفيكى .

المجموعة الزنجية :

انتشرت فى النصف الجنوبى من العالم ، وامتدت العناصر التى

تكونها ، فى نطاق غير منقطع عبر أفريقيا وجنوب شرق آسيا ، والنجريتو القصار القامة المستديرو الرءوس بعض الشىء (الأقزام) فى أفريقيا وجنوب شرق آسيا وإندونيسيا ، ونوع آخر عادى الطول طويل الرأس يحتل معظم الجهات نفسها ، ومنه الزنوج الحقيقيون ، أو زنوج الغابات ويعيشون فى وسط وغرب أفريقيا — ومنهم زنوج المحيط البابوان والميلانيزيون فى المنطقة الجزرية الواقعة إلى الجنوب الشرقى من آسيا .

المجموعة المغولية :

وكان مركزها فى آسيا الشرقية والوسطى ، ومن هناك انتشرت العناصر المختلفة التى تنتمى إليها نحو الشمال الشرقى إلى سيبريا وشرقاً إلى الصين واليابان وجنوباً بشرق إلى الملايو وماليزيا وبولينزيا ، وغرباً فى سلسلة طويلة من الهجرات فى الشرق الأدنى وروسيا[1] .

وقد بقى أن نلاحظ أن هذا التقسيم الثلاثى الذى انتهى إليه علماء الأجناس فى خاتمة المطاف ، ينطبق كل الانطباق على ما قالت به التوراة وما ردده فيما بعد علماء المسلمين والمسيحيين ، من أن الأجناس البشرية تعود إلى أولاد نوح الثلاثة : سام وحام ويافث . . . على ما ذكرنا من قبل .

والتاريخ الدينى يصل بالأمور إلى منطقها الصحيح ، فهؤلاء الأولاد الثلاثة هم أبناء أب واحد فى نهاية الأمر . . . أما العلم الحديث ، فقد حاول فى بادئ الأمر ، أن يفصل بين الأجناس الثلاثة ولا يردهم إلى أصل واحد، ولكن علم الأجناس التطبيقى سرعان ما قضى على كل وهم

---

(١) موسوعة تاريخ العالم — لانجر — جزء ١ ص ٢٥ .

من وجود فوارق طبيعية جبلية بين هذه الأجناس الثلاثة . فما من خصيصة يتصورون أنها من لزوميات الرجل الأبيض ، إلا يجدونها محققة فى كمالها فى الجنسين الآخرين ، فقد حاولوا أن يصفوا الرجل الأبيض بطول القامة وأن الجنسين الآخرين وهما الزنجى والمغولى أقصر قامة منه ، فإذا هم يعثرون فى أفريقيا على زنوج يعتبرون أطول الجنس البشرى جسوماً ، فى الوقت الذى يسكن بالقرب من هؤلاء الزنوج المفرطون فى الطول . . . أقصر أناس فى العالم وهم الزنوج الأقزام الذين يعيشون عند خط الاستواء .

وتصوروا حيناً أن حجم رأس الرجل الأبيض يكبر حجم الجنسين الآخرين ، وأرادوا أن يتخذوا من كبر حجم الرأس دليلا على كبر حجم المخ بالتالى ، ويستدلون من ذلك على تفوق الرجل الأبيض . . فإذا هم يجدون أن أكبر الرؤوس حجماً يوجد لدى الإسكيمو . ووجدوا بين الشعوب البيضاء من هو مستدير الرأس ومن هو طويله كما هو الشأن عند الزنوج .

حتى اللون الأبيض الذى تصوروه نوعاً من الامتياز الفسيولوجى أو البيولوجى ، سرعان ما اكتشفوا أن هذا اللون الأبيض ينشأ نتيجة اختفاء نوع معين من الصبغيات (pigments) الذى يوجد فى جلد الإنسان الذى يعيش طويلا فى وهج الشمس حيث تساعده هذه الصبغيات على احتمال حرارة الشمس ، فاللون الأبيض جاء نتيجة البعد عن حرارة الشمس فاستغنى الجسم عن هذه المادة ، فهو مظهر نقص فى التركيب الجسمانى لا مظهر كمال .

قانونماندل وفصائل الدم :

وجاءت الضربة القاضية لكل الأبحاث التى تهدف إلى التفريق بين الأجناس ابتداء من عام ١٩٠٠ عند ما بعث قانون ماندل فى الوراثة

واعتبر الأساس العلمي لانتقال الصفات من الأسلاف إلى الأحفاد .

فحتى قانون ماندل فى الوراثة ، يعتبر الدم العامل الوحيد لنقل خصائص الإنسان إلى سلالته ، ولما كان الدم ينتقل دائماً من الأم إلى وليدها ، فالخصائص تنتقل مع الدم وبذلك تبقى ثابتة .

ولم يكن ذلك إلا أحد توهمات العلم ، فقد ثبت أن عوامل الوراثة إنما تنتقل بواسطة المورثات (الجينات genes) وهى أحد أجزاء الكروموزومات التى توجد فى الخلايا الحية . وقد قيل إن الخلية التى تؤلف الحيوان المنوى ، وكذلك الخلية التى تؤلف البييضة عند الأنثى ، تفقد كل منهما نصف كروموزوماتها عند الاتحاد الذى يتم عند عملية الإخصاب ، ومعنى ذلك أن نصف مورثات الأنثى وكذلك نصف مورثات الذكر تضيع أثناء هذه العملية ، مما يترتب عليه أن الوليد يجىء دائماً مختلفاً فى تكوينه عن أمه وأبيه معاً ، وقد يرث لون الجلد من أحدهما ويرث لون الشعر من الآخر ، أو قد يرث لون العينين من أحدهما دون الآخر وهكذا . وقد أصبح ذلك يفسر لماذا يختلف أحد الشقيقين عن شقيقه . . بل أحد التوأمين فى بعض الأحيان عن شقيقه التوأم (١) .

ومؤدى ذلك من الناحية العلمية أن فضل الصفات الوراثية قد تظهر فى الوالدين وتتلاشى فى ذريتهما ، وأن العبقرية التى تتوافر فى بعض الأسلاف ، قد تنعدم ويحل محلها انعدام المقدرة ، بل البلاهة أو الجنون عند أحد أفراد الذرية (٢) .

---

(١) كان من نعم الله على أن رزقنى ابنتين توأمتين ، ومع ذلك فهما يختلفان فى الشبه كل الاختلاف . . . بل يختلفان بالأكثر فى الطباع .

(٢) كتاب المجتمع — تأليف رام ماكيفر وشارلى ، ترجمة الدكتور أحمد عيسى ص ١٨٠ .

فصائل الدم :

ثم كانت الأبحاث العلمية الحديثة فى تحليل الدم وتقسيمه إلى فصائل، وكان هذا الكشف العلمى بدوره تسفيهاً لكل الأبحاث السابقة التى دارت حول تقسيم الأجناس البشرية على أساس من لون البشرة أو الشعر أو حجم الجمجمة ، فللدم كما هو مقرر اليوم فصائل أربع . ا ، ب ، س ، ا ب A. B. C. AB. وهذه الفصائل ثبت أنها لا تورث فقد يكون دم الأب أو الأم من إحدى الفصائل ثم يأتى دم الوليد من نوع آخر . وقد وجدت هذه الفصائل الأربع فى كل المجاميع البشرية أياً كان نوعها ومكانها على ظهر الأرض ، فوجدت كلها عند الإسكيمو وعند الزنوج وعند البيض والصفر ، بل وجدت عند قبائل نيو غينيا وأستراليا المنقرضة .

الاستقراء التاريخى :

وقد قوت هذه الأبحاث العلمية التجريبية ، من الحقيقة التاريخية التى يسجلها التاريخ ، من أنه لا يوجد شىء اسمه الجنس الإنجليزى مثلا أو الجنس اللاتينى أو الجنس اليونانى ، فما من جنس من هذه الأجناس إلا وهو خليط من عديد من الأجناس التى جاء كل منها ثمرة اختلاط عديد من الأجناس .

وحسبنا أن نضرب على ذلك مثلا واحداً من الجزر البريطانية والتى قيل عنها إن كونها جزيرة منفصلة عن أوربا قد جعلها فى معزل عن الاختلاط الشديد بين الأجناس .

---

(١) دائرة المعارف الأمريكية Americana مادة race

يقول لنا وليم لانجر فى موسوعته عن تاريخ العالم :

« من الواضح أن سكان بريطانيا فى عصر ما قبل التاريخ ، كانوا مزيجاً من عناصر البحر المتوسط والعناصر الألبية والنوردية ، أى أنها اشتملت على عناصر إيبيريه سوداء الشعر وعناصر أخرى شقراء الشعر »[1] .

ثم يمضى أخونا الدكتور نظير سعداوى مستعرضاً الأجناس التى تألف منها الإنجليز فى كتابه تاريخ إنجلترا فيقول مانلخصه فيما يلى :

« فإذا وصلنا إلى الفترة ما بين ١٢٠٠ و ٦٠٠ ق . م . نجد أن الكلتيين الخلص قد انقسموا إلى عنصرين ، الغاليين الذين ما زالت سلالتهم تعيش فى شمال أيرلندا أو أعالى اسكتلندا ، والكريون والبريطانيين الذين يعيشون فى إقليم غالة (ويلز) .

حتى إذا وصلنا إلى عام ٥٧ ق . م . دخلت بريطانيا فى حكم الرومان الذين حملوا معهم عناصر جديدة من شعوب البحر الأبيض المتوسط الذين سكنوا الجزيرة وعملوا على تعميرها . ولم تكد الفرق الرومانية العسكرية تجلو عن الجزيرة حتى بدأت الجزيرة تتعرض لسلسلة من غارات التيوتون والسكوت (S-o) والسكسون . وفى عام ٧٨٧ انهال على إنجلترا ما يسمى غارات الدانيين Danes الذين راحوا ينهبون ويسلبون ثم شرعوا يستقرون ، ثم عاد الدانيون فى موجة جديدة تخرب وتحرق ثم تحتل إنجلترا مؤلفة إمبراطورية شملت غرب أوربا ومزجت كل عناصرها ، حتى إذا كان القرن الحادى عشر فتح وليم النورماندى إنجلترا حاملا معه اللسان النورماندى والعناصر التى يتألف منها النورمان »[2] حتى إذا بدأ العصر الحديث ، وتحولت إنجلترا إلى مستعمرة ، امتلأت الجزر البريطانية بعناصر من الهنود

---

(١) جزء ١ ص ٤٥٣ .

(٢) الدكتور نظير سعداوى ، تاريخ إنجلترا .

والزنوج وسائر شعوب الأرض ، التي اختلطت كلها بالعنصر الإنجليزى .

وهذا الذى حدث فى إنجلترا قد حدث أضعاف أضعافه فى أى شعب من شعوب العالم ، وحسبنا أن نسترجع ما حدث فى بلادنا مصر بالذات ، وكيف أنها كانت دائماً أبداً بوتقة لسائر شعوب الدنيا وأجناسها ، وتمثل الولايات المتحدة فى عصرنا الحاضر ، أكبر مزيج واختلاط بين الأجناس .

نتيجة البحث :

وقد انتهت هذه المباحث التاريخية ، والمباحث العلمية إلى حقيقتين متفق عليهما الآن تجدهما فى كل دوائر المعارف وكتب العلم . وهاتان الحقيقتان هما :

أولا — ليس هناك جنس بشرى لم يختلط ببقية الأجناس .

ثانياً — ليس هناك جنس أرقى من جنس آخر .

مؤتمر عالمى فى مطلع القرن :

والعجيب أن هاتين الحقيقتين العلميتين كانتا محل بحث مؤتمر عالمى عقد فى لندن فى مستهل القرن أى فى سنة ١٩١١ فى المدة من ٢٦ يوليو حتى ٢٩ منه وقد حضره علماء الأجناس من أربعين دولة(١) ، وذلك فى الوقت الذى بلغ فيه النهم الاستعمارى أشده ، وبلغ غرور الرجل الأبيض بنفسه الذروة ، ومع ذلك انتهى هذا المؤتمر إلى نفس هاتين النتيجتين .

---

(١) مثلت مصر فى هذا المؤتمر بوفد كان يرأسه الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد وكان من بين أعضائه حسن (بك) صبرى الذى أصبح رئيساً للوزارة سنة ١٩٤١ ، والدكتور محمد بدر .

وإنه ليطيب لى أن أنقل فقرات مما ألقى فى هذا المؤتمر من الأبحاث ، تخليداً لذكرى هذا النفر من العلماء الإنسانيين الذين تحدوا شعوبهم فى ذلك الوقت بهذه الآراء العلمية الأمينة الصادقة .

يقول Dr. Felix von Luschen أستاذ علم الأنثروبولوجيا فى جامعة برلين : « إننا نعلم الآن أن لون الجلد والشعر إنما يرجع فى الدرجة الأولى إلى عامل البيئة ، فنحن الأوربيين إذا كان لون جلدنا أبيض وشعرنا على ما هو عليه ، فليس ذلك إلا بسبب معيشة أجدادنا ألوفاً من السنين فى أرض محرومة من أشعة الشمس ومغلفة على الدوام بالضباب . وبياض الجلد لا يعنى شيئاً سوى نقصان مادة التلوين pigments ، وإذا كان أجدادنا قد فقدوا عنصر التلوين هذا ، فذلك لأنهم لم يكونوا فى حاجة إليه ، ومن الطبيعى أن يكون لون جلد بعض الأجناس الهندية أو السنغالية داكناً ، فأى سخف أن نصفهم لهذا السبب بالتوحش . لقد كان لهذه الشعوب مدنيات عريقة ، وكانوا يمارسون ديناً رفيعاً سامياً فى الوقت الذى كان مثل أجدادنا الأعلى فى الحياة ، متواضعاً جدا . ويزعم البعض أن شكل الأجناس الملونة قبيح ، وينسى هؤلاء أن الجمال والقبح مسألة نسبية بحتة ، فاليابانيون وهم من هم من رفاهة حس وروعة فن ، يرون أعيننا الواسعة وأنوفنا المحدودبة غاية القبح .

كما يحلو للبعض أن يتشدق بالقول إن الأجناس البدائية ليست نظيفة مثلنا ، وهؤلاء ينسون أولا ما توجد عليه شعوب أوربا الشرقية من القذارة ، وينسون بالأكثر الحقيقة الشاهدة على أن بعض الشعوب البدائية يستحم كل يوم ، بل إن جنس البانتو وغيرهم من الأجناس الأفريقية ينظفون أسنانهم عقب كل أكلة نصف ساعة (بمساويكهم) فى حين لا يستعمل ملايين من الأوربيين فرشة الأسنان مرة واحدة . ويشيرون أحياناً إلى الملابس ، وكيف أن بعض الشعوب البدائية تعيش عارية غير مدركين

أن هذا العرى لم يمنع تطور أحاسيسهم الرقيقة المهذبة [١] ، ونحن نعلم كيف أن الكثيرين من بين صفوفنا ، لم يحل لبسهم الحرير والصوف أن يكونوا ألفاظاً أشراراً شرسين .

واعتبر البعض أن فقدان بعض الشعوب البدائية للكتابة ، هو دليل على انحطاطهم ، وصحيح أن الأغلبية العظمى من الشعوب البدائية لا تعرف القراءة أو الكتابة ، ولكن يجب ألاّ ننسى أن ٩٠٪ من الشعب الروسى لا يعرف بدوره القراءة أو الكتابة وقد بقى أن نعرف أن هذه الشعوب البدائية التى لا تكتب تتمتع بذاكرة خارقة أقوى بكثير من ذاكرتنا مما يجعلنا نجزم أن اختراع الكتابة قد أدى إلى تدهور الذاكرة . وكثيراً ما حاول البعض أن يتخذوا من السمات والتقاطيع ما يثبتون به وضاعة بعض الأجناس ، فالزنجى بجلده الأسود وشفاهه الغليظة الدامية ، وأنفه المفلطح لا يمكن أن يكون إنساناً ، بل هو حيوان أليف ، بحيث يترك لكل إنسان كيفية معاملته حسب هواه ، كما لا يسأل الإنسان عن كيفية معاملته لحيواناته وخيوله .

ويحاول بعض العلماء أن يجدوا أصولا متفرقة للجنس البشرى فيرجعون الجنس الباليولوثى إلى الغوريلا وجنساً آخر إلى الأورانج ، ولكن الأغلبية العظمى من المؤلفين العصريين الثقات يرجعون الجنس البشرى بأكمله إلى أصل واحد ، فالإنسانية واحدة » .

ثم عرج هذا العالم الإنسانى الكبير على استعراض فروع الأجناس البشرية كلها مثبتاً تفرعها وتسلسلها من بعضها ثم ختم بحثه العلمى الإنسانى بقوله :

---

(١) طالع للمؤلف كتاب «من وحى الجنوب» طبع دار المعارف ، حيث تحدث بتفصيل عن قبائل الدنكا التى تعيش عارية ، ومدى ما يستمتعون به من فضائل وأخلاق .

« وبعد فقد قلت مرة فى إحدى محاضراتى فى الجامعة إن المتوحشين الحقيقيين الوحيدين فى أفريقيا هم بعض عناصر الرجل الأبيض الذين اتخذوا القتل حرفة لهم ، وإنى أكرر الآن أمامكم ، أنى ما زلت مؤمناً أن بعض البيض يمكن أن يوجدوا فى مستوى عقلى وخلقى أدنى من بعض الأفريقيين السود » (١) .

أما العلامة G. Spiller سكرتير عام المؤتمر فقد ألقى بحثاً فى حقيقة التساوى بين الأجناس البشرية ، فكان من بين ما قال :

« لقد قيل أحياناً إن أى فرد لا ينتمى إلى الجنس القوقازى (الأبيض) لا يمكن أن يحصل على شهادة جامعية ، بل قيل إن عدداً من الشعوب لا يستطيع متابعة التعليم الأولى ، ولكن الوقائع والحقائق الثابتة تكذب هذا الادعاء ، فالجامعات الأوربية تضم العدد الكبير من مختلف الطلاب المنتمين إلى شعوب غير أوربية وشعوب ملونة ، وكلها تحصل على أرقى الدرجات الجامعية ابتداء من البكالوريوس حتى الدكتوراه » .

ومن بين العشرة ملايين زنجى الذين يوجدون فى الولايات المتحدة ، الكثير من المحامين والجراحين والأطباء ، وعشرات الألوف الذين حصلوا على أرقى الشهادات الجامعية . وما أكثر ما تردد وصف بعض الأجناس بعدم القدرة على التقدم ، فى حين يحدثنا المؤرخون أنه فى أيام دانتى كانت الأساليب الزراعية المستعملة فى دول أوربا الغربية باقية من أيام الحضارة الرومانية . وفى مطلع العصر الحديث فإن التيوتون ذوى الشعر الأحمر والذين كانت درجة تمدنهم لا تزال بدائية جدا ، لم يبدوا أى رغبة فى محاكاة المدنية الرومانية أو الأخذ بأساليبها ، أفيحق لنا أن نستخلص من

---

(١) Memoires sur le Contact des Races — P. 16.

ذلك أن الجنس الأوربى بعامة والتيوتونى بخاصة ، أجناس عاجزة عن التقدم .

الحق أننا يجب أن نؤمن بقول راتزل :

إنه لا يوجد سوى نوع واحد من الإنسان ، حقًا قد تتنوع أشكاله وصفاته ولكن هذه الخلافات لا تعدو أن تكون سطحية بحتة » .

وحسبنا هذا القدر مما قيل فى هذا المؤتمر ، الذى انتهى بتقرير وحدة الجنس البشرى .

هتلر والنازية :

وقد كان يظن أن هذه القضية قد فصل فيها نهائياً ، وأنها قد زادت تدعما بإنشاء عصبة الأمم التى اعترفت بحق شعوب الأرض كلها على اختلاف ألوانها وأجناسها بحق تقرير المصير ، وبانتشار المبادئ الشيوعية التى تبشر بوحدة الكادحين فى الجنس البشرى ، أجل كان يظن أن وحدة الجنس البشرى قد تأكدت ، فإذا هى تتعرض لنكسة كأشر ما عانت فى يوم من الأيام ، وإذا هتلر زعيم ألمانيا يطلق نيران التعصب الجنسى من عقالها ، ويرى ألا سبيل لانتقام ألمانيا لهزيمتها فى الحرب العالمية الأولى ، إلا أن يجعل اليهود السبب فى هذه النكبة . وإذ كان اليهود ينحدرون فى رأى هتلر وحزبه النازى من أصول سامية ، فقد بدأ التبشير بالعداء للسامية ، والإعلاء من شأن الآرية التى ينتمى إليها الجنس الألمانى ، وعزو كل الفضائل ، وكل الحضارة الإنسانية إلى العنصر الآرى ، والجرمانى بصفة خاصة ، وأن هذا الشعب وحده صاحب الحق فى السيادة على العالمين .



وليس هناك ما هو أدعى لسخرية علماء الأجناس فى الوقت الحاضر من التحدث عن جنس آرى ، فالآرية هى لغة وليست جنساً محدداً من البشر ، ومع ذلك فقد كانت هذه الحقيقة الزائفة هى التى رفعها هتلر وحزبه النازى ، وجعل منها عقيدة وديناً رسميا للشعب الألمانى ، وباسمها وتحت لوائها خاض الحرب العالمية الثانية لتحقيق سيادة الشعب الألمانى.

ومن عجب أن هذه الدعوة التى حمل لواءها الألمان ، كانت من أفكار فرنسى وآخر إنجليزى . أما الفرنسى فهو الكونت آرثر جوزيف دى جوبينو الذى نشر كتاباً فى منتصف القرن التاسع عشر يدور حول « عدم التساوى بين الأجناس البشرية » ونادى فى هذا الكتاب بسمو الجنس الأبيض وبعلو الجنس الآرى على بقية الأجناس واعتبر التيوتون هم أصفى عناصر الحضارة الآرية .

أما الإنجليزى الذى يعتبر الأستاذ المباشر لهتلر فى هذه الدعوة كما قرر ذلك فى كتابه « كفاحى » فهو هـ . س تشمبرلين الذى ألف كتاباً فى « أسس القرن التاسع عشر » جاعلا من الجنس الآرى الدعامة الكبرى لحضارة العالم وإنسانيته وأنه صاحب الحق فى سيادة العالمين .

وكان الذى نعرفه من اندلاع نيران الحرب العالمية الثانية ، وانتهائها بهزيمة الألمان المروعة ، حيث لا تزال بعد أكثر من عشرين عاماً على انتهائها ممزقة إلى كتلتين متباغضتين متعاديتين ولا تزال عاصمتها مقسمة ومحتلة بأربعة جيوش أجنبية . أما هتلر نفسه نبى الآريين والداعى إلى سيادتهم ، فقد وضع حدا لحياته بعد أن لم يبق له من ملكه العريض إلا بضع أقدام يدفن فيها نفسه قبل أن يقع فى يد الروس .

جنس إنسانى واحد :

واليوم تنتصر فكرة وحدة الجنس البشرى من جديد، بعد أن أصبح العلم النظرى والتجريبى يؤكدها ، والواقع الحى يشهد لها ، وليس يقلل من قسوة هذه الحقيقة ألا يزال بعض المتعصبين فى الولايات المتحدة الأمريكية وفى جنوب أفريقيا يمارون فيها ، حيث لا تزال مظاهر التمييز العنصرى تمارس على صورة كريهة .

زنوج أمريكا :

وليس أدل على أن آخر مظاهر التمييز العنصرى فى النزع الأخير ، أنه من هذين البلدين بالذات وأعنى بهما الولايات المتحدة الأمريكية وأفريقيا ، يأتى الدليل على سخافة كل حديث عن التفوق العنصرى . فأما الولايات المتحدة الأمريكية فقد أثبت الزنوج — على الرغم من أنهم لم يتحرروا من أسر الرق والعبودية من الناحية الرسمية إلا منذ مائة عام، وعلى الرغم من كل الظروف المعاكسة التى وضعت فى طريقهم — أنه لا يوجد ميدان من ميادين النشاط الإنسانى لم يلحقوا فيه بالرجل الأبيض، بل إنهم يتفوقون عليه فى ميادين الرياضة والفنون وخاصة الموسيقى والرقص والغناء ، وإذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية قد خرجت فائزة منتصرة فى دورة طوكيو للألعاب الأولمبية ، وأحرزت المكانة الأولى ، واحتل الاتحاد السوفييتى المكانة الثانية ، فقد حققت هذا النصر بفضل تفوق أبطالها من الزنوج ، فمن بين العشرين بطلة أمريكية اللواتى اشتركن فى مسابقات العدو كانت خمس عشرة منهن زنجية . ومن بين الأبطال العشرة الذين تقدموا للملاكمة كان تسعة منهم من الزنوج . ومن بين الاثنى عشر لاعباً

من لاعبي الباسكت بول كان خمسة من الزنوج [١] ، وهذه هي الألعاب التي حققت سيادة أمريكا .

أما في الموسيقى والغناء والرقص ، فقد أصبحت السيادة في هذه الفروع للزنوج . . ولم يقف تأثير هذه الفنون على البيض في أمريكا بل لقد تعداهم إلى التأثير على الموسيقى والغناء والرقص في كل أوربا .

وأخيراً تقول لنا دائرة المعارف البريطانية : « لا يوجد فرع من فروع العلوم والتكنولوجيا والدراسات والاختراعات العلمية إلا وللزنوج الأمريكيين فيها نصيب كبير » ، ثم تروح دائرة المعارف تنشر القوائم الطوال بأسماء النوابغ والعلماء والفلاسفة والفنانين والكتاب ، الذين حصلوا على تقدير العالم وليس الأمريكان فقط . . . ومن بينهم عدد ممن أحرز جائزة نوبل للسلام .

زنوج أفريقيا :

أما زنوج أفريقيا المعذبة التي طال امتهانها وامتهان شعوبها ، فهاهي ذي ترد بقوة وعنف ، وترفع رأسها في كبرياء وشموخ ، بعد أن أصبحت تضم ٣٤ دولة مستقلة تؤلف أكبر كتلة من الدول في قارة من القارات . . وبدأ زعماؤها وممثلوها السياسيون ومفكروها يلعبون دورهم على قدم المساواة مع أقرانهم من بقية الأجناس ، ويبهرون شعوب العالم من حين لآخر بما يبذلونه من جهد غير عادي للقضاء على التخلف في بلادهم واللحاق بركب الحضارة الإنسانية التي حجزوا عنها حجزاً طوال القرن الماضي .

---

(١) مجلة لايف الأمريكية عدد ١٦ نوفمبر سنة ١٩٦٤ — ص ٥٥ .

اليابان والصين :

ولا نحسب أن أحداً فى العالم ، بات لا يعرف للشعب اليابانى قدرته العجيبة التى فاقت قدرة كل شعوب أوربا وأمريكا . . . فهى لم تكد تخسر الحرب العالمية الثانية حتى نهضت نهضة تذهل كل الباحثين والدارسين ، فاليابان تعتبر بهذه الأيام أكثر أمم الأرض إنتاجاً ونجاحاً وذلك بفضل قرائح أبنائها وعزائمهم .

أما الصين فحسبها أنها استطاعت أن توحد بين سبعمائة مليون من البشر فى ظل حكومة مركزية واحدة ، وهو شىء لا مثيل له فى أى ركن من أركان العالم . . . ولقد كان نجاحها فى تفجير قنبلتها الذرية الأولى ، أكبر تحد لمن يستطيل بقوته المادية .

أوثانت البوذى :

ويتربع على كرسى سكرتارية هيئة الأمم المتحدة ، بوذى من بورما ، اختاره ممثلو دول العالم ليكون حكماً محايداً بينهم وليس وراء ذلك تكريم لإنسان من غير البيض .

العلماء يذيعون بياناً نهائياً بكلمة العلم :

وقد أرادت هيئة الأمم أن تجهز بطريقة علمية نهائية على كل حديث عن التفرقة العنصرية وعن التمايز بين الأجناس ، فدعت مؤتمراً من أعلام سبع عشرة دولة فى علم البيولوجيا ، وهى دول بلجيكا والبرازيل وكندا وتشيكوسلوفاكيا وجمهورية ألمانيا الاتحادية وفرنسا والهند واليابان

والمكسيك ونيجيريا والنرويج وبولندا والسنغال والمملكة المتحدة والولايات الأمريكية المتحدة وروسيا وفنزويلا .

وقد اجتمع علماء هذه الدول فى مدينة موسكو عام ١٩٦٤ وأصدروا بياناً من ثلاث عشرة نقطة أهمها على الإطلاق النقطة الأولى التى تقول :

« كل الكائنات البشرية التى تعيش اليوم تنتمى إلى نوع واحد هو النوع البشرى ، وكلها ترجع إلى سلالة مشتركة وأصل واحد . وهناك خلاف فى وجهات النظر فيما يتعلق بالكيفية والزمن اللذين تفرقت فيهما الجماعات البشرية عن هذا الأصل المشترك »[١] .

وهكذا لم تعد مسألة وحدة الجنس الإنسانى محل جدل أو نقاش بل حقيقة مقررة تسير شئون العالم على أساسها . وعلينا أن ننظر إلى الخلافات السطحية التى تفرق بين ألوان البشر ، وأمزجتهم ، نظرتنا إلى الخلافات التى توجد بين أفراد الأمة الواحدة ، بل أفراد الأسرة الواحدة ، ذلك أن روعة الطبيعة لا تتجلى أكثر من تجليها فى حياة البشر ، فلكل إنسان شخصيته وطابعه الخاص الذى يفرقه عن أى إنسان آخر فى الوجود ، ولكن هذا لا ينفى الحقيقة الثابتة ، التى بدأنا بها هذا الفصل ، من أن البشر جميعاً قد جاءوا من أصل واحد مشترك وهو الأب الأول ، وعلى أية حال فهم يولدون جميعاً بأسلوب واحد وبغير استثناء ، ثم يختمون حياتهم جميعاً بالموت بدون استثناء ولهم جميعاً وبدون استثناء خصائص تفرقهم عن باقى الأجناس وأنواع الحيوانات التى تغص بها الحياة . . . وأما هذه الخصائص فهى :

١ — القوام المعتدل .

٢ — القدرة على استخدام اليدين لصنع الآلات .

---

(١) رسالة اليونسكو — عدد ٤٧ .

٣ — القدرة على التكلم واختراع لغة ترمز لشتى المسميات المادية والمعنوية . أو بالأحرى القدرة على التفكير والتخيل والتدليل والاستنتاج .

هذه الخصائص الإنسانية ، لا تتوافر فى كل إنسان يوجد على ظهر الأرض فى الوقت الحاضر فحسب ، بل إنها توافرت دائماً فى أى إنسان عرفته هذه الأرض ، وإلا لما استطاع الجنس البشرى أن يتقدم خطوة واحدة إلى الأمام[1] ......

أما الآن فحسبنا أن نخرج من هذا البحث المستفيض ، بأن الأرض لم تعرف إلا إنساناً واحداً فى كل تاريخها ، وأن الإنسان قد ولد كاملا أو بالأحرى منطوياً على كل الاستعداد للتطور وبلوغ الكمال ، أو كما يقول القرآن الكريم :

« وعلم آدم الأسماء كلها » أى جهزه بالقدرة على تعلم كل شيء وألا مناص للجنس البشرى من أن يعترف بوحدة أصله بعد وحدة كوكبه ، وأن يحس بالأخوة التى تجمعه إلى كل فرد من أفراد البشرية.

---

(١) اقرأ للمؤلف كتاب « الأمة الإنسانية » .

الفصل الثالث

اللغة الإنسانية

وحدة اللغة — اللغة تعنى الإنسانية — تعريف اللغة — كيف نشأت اللغة — ابن جنى وأصل اللغة — محاكاة الطبيعة — كلمات اصطلاحية — لغة الإشارة العالمية — اللغة الملفوظة — الأسباب التى تؤدى إلى اختلاف اللغات — الجهاز الصوتى — اختلاف البيئة الطبيعية — اختلاف البيئة الاجتماعية — اللغة كائن حى — وظيفة اللغة الأساسية — الكتابة — الكتب المقدسة — القرآن الكريم — تدخل السلطة المركزية — اللغة العربية — القرآن والكلمات الأعجمية — وحدة العلم والثقافة — لغة واحدة برموز مختلفة — العلم الحديث يحل مشكلة اختلاف اللغات.

وحدة اللغة الإنسانية :

لست أشك لحظة فى أن هذا العنوان وأعنى به وحدة اللغة الإنسانية سيفاجئ القارئين والباحثين للوهلة الأولى ، فليس هناك ما يفرق فى نظر الكثيرين بين طوائف البشر ، سوى تعدد اللغات ، بل لعل الأساس الأوحد الذى تقوم عليه القوميات المتعددة هو اللغات المتعددة ، ولكنا سنرى بعد المتابعة فى هذا البحث ، أن ذلك كله لا يعدو سطحية فى النظر والفكر ، والجرى وراء أفكار أوربية متطرفة ، جاءوا بها فى القرن التاسع عشر ، عندما بالغوا فى الاعتداد بقوميتهم ولغتهم ، نتيجة للتفاخر بأجناسهم والادعاء بأنها تفوق سائر الأجناس ، وإلا فلم يحدث أن بالغ البشر فى موضوع اللغة قبل القرن التاسع عشر ، فقد عاشت الأمم والجماعات عبر التاريخ تتفاهم وتتعاون وتتبادل المنافع والخدمات ، وتنقل عن بعضها مقومات الثقافة والحضارة ، دون أن يحول اختلاف اللغات عن تمام ذلك . فالمصريون القدماء اتصلوا بالفينيقيين والآشوريين والبابليين والحيثيين والفرس والإغريق والرومان ، ولم يحل اختلاف اللغات دون سير الأمور داخل هذه الإمبراطوريات المتنوعة المترامية الأطراف ، ولعل آخر نموذج من هذا الطراز سجله لنا التاريخ بكامل تفاصيله ، دخول العرب إلى إمبراطوريتى فارس والروم فى آسيا وأفريقيا ، فقد كانت هذه الشعوب التى دخلها العرب تتكلم بلغاتها الخاصة ، وقد احتاج الأمر إلى بضعة قرون قبل أن تصبح اللغة العربية هى لغة السواد الأعظم من هذه الشعوب ، ومع ذلك فإن هذا لم يمنع من تفاعل العرب مع ثقافات

هذه الشعوب وحضاراتها ، وتحويل ذلك كله إلى أعظم حضارة إنسانية عرفها البشر ألا وهى الحضارة الإسلامية ، التى كانت ثمرة امتزاج الحضارات الإنسانية القديمة كلها ، بعد أن سرت فيها روح القرآن ومبادئه الإنسانية الرفيعة ، وإن الإنسان ليدهش ، عندما يرى أن أئمة الفكر والعلم والفلسفة والفن بل اللغة والدين ، كانوا جميعاً من غير العرب أو إن شئت الدقة أغلبيتهم العظمى من غير العرب ، ما بين فارسى وروى وحبشى وتركى وهندى ومصرى .

فلم يحدث أن حال اختلاف اللغات إذن ، دون اختلاط الأجناس والتعاون على إنشاء الحضارات ، كما أن التاريخ يقطع من ناحية أخرى بأن وحدة اللغة بين جماعات من الناس لم يكن لها أثر فى التقريب بينهم وحملهم على تأليف وحدة اجتماعية واحدة ، فالعرب عاشوا قبائل متفرقة فى جزيرة العرب يحارب بعضهم بعضاً ، ويقتل بعضهم بعضاً دون أن يكون لتخاطبهم جميعاً بالعربية أو بلهجات متقاربة منها ، أثر فى تخفيف حدة الخصومات بينهم ، وذلك فى الوقت الذى كانوا يعيشون فى ود مع الشعوب المجاورة ، فرساً كانوا أو أحباشاً أو روماناً ، وهم الذين يخالفونهم فى اللغة . . . ولم يعرف العرب الوحدة السياسية والروحية فى حياتهم إلا فى ظل الإسلام ، أو بالأحرى فى ظل صدر الإسلام . . . ثم عاد العرب إلى منازعاتهم القبلية وخلافاتهم الموروثة فكادوا أن يودوا بوحدة العالم الإسلامى وبالدين الإسلامى من أساسه ، لولا أن حافظ على هذا الدين وأبقاه ، شعوب الأرض التى دخلت فى الإسلام أفواجاً ، ورضيته لأنفسها ديناً واتخذته أساساً لحضارتها .

ومثل العرب فى جاهليتهم ، قبائل الإغريق ، فلقد عاشوا بدورهم قروناً عديدة وهم يقاتل بعضهم بعضاً ، مع أنهم يتكلمون اللغة الإغريقية ، فى الوقت الذى انساحوا فيه فى مناطق الشرق الأدنى ، يؤلفون المجتمعات

وسط شعوب أخرى تتكلم غير لغتهم ويتعاونون معها فى سلام ووئام، كما كان شأنهم فى مصر أيام أبسماتيك . ولقد ظل الإغريق يقاومون الوحدة فى بلادهم حتى فرضها عليهم الإسكندر المقدونى بقوة السيف ، ولم تلبث بعد موته أن انفرط عقدها من جديد .

وعاشت الشعوب الجرمانية فى أوربا طوال العصور الوسطى وهى تتكلم الألمانية دون أن تفكر فى الوحدة ، بل لقد قاوم الوحدة الألمانية كل علمائها الأعلام وجهابذتها وأبطالها وفنانوها من أمثال كانت ، وجوته ، وشيلر ، وبتهوفن ، وكان بعضهم يستعيذ من فكرة الوحدة الألمانية ، ويرى أن ذلك من شأنه القضاء على الحرية والعلم والفن ، ولم تتحقق الوحدة الألمانية إلا فى عصر متأخر جدا من القرن التاسع عشر (١٨٧٠) على يد بسمارك ، وتمت بقوة الحديد والنار ، لا اللغة .

وفى عصرنا الحديث توجد دول ومجتمعات من كل صنف وطراز وعلى كافة المستويات تسودها أكثر من لغة رسمية دون أن يكون لذلك أى أثر فى رقيها أو تطورها ، ابتداء من سويسرا والبلجيك حتى جنوب أفريقيا وكندا ، ولعل الهند أعظم مثل على أن تعدد اللغات لا يحول دون الوحدة القومية ، فيقول البعض إن بالهند ٢٤٠ لغة و ٣٠٠ لهجة ويردها غوستاف لوبون إلى خمس فصائل أساسية يختلف بعضها عن بعض أكبر من اختلاف اللغات الأوربية فيما بينها ، وعلى الرغم من ذلك، فليس ثمة من ينازع فى وجود وحدة روحية بين الشعب الهندى ، تعلو على اختلاف اللغات .

فالمبالغة فى إظهار خطورة اللغة فى حياة الجماعة أو الأمة واعتبارها هى العنصر الحاسم والأساسى فى التفريق بين الأمم هو وهم من نوع الوهم الذى عرضناه سابقاً من تقسيم البشر إلى جنسيات مختلفة ، وهو بدوره من مخلفات التراث الأوربى فى القرن التاسع عشر ، والذى بدأ يعدل عنه

نهائيا فى النصف الثانى من القرن العشرين ، فالإجماع منعقد اليوم بين الأعلام الثقات فى علوم اللغة ، أن ليس هنالك ما هو أمعن من الخطأ ، من القول بتفضيل لغة على أخرى ، أو تقسيم اللغات إلى لغات راقية وأخرى متخلفة (١) ، فكل لغة تؤدى بالنسبة إلى أصحابها الدور نفسه الذى تؤديه فى حياة أى جماعة أخرى ، وما من لغة حتى لو كانت لغة أكثر الجماعات بدائية بين زنوج أفريقيا أو شعوب أستراليا ، إلا فيها جميع الخصائص التى توجد فى بقية اللغات . ومن هذه الحقيقة التى انتهى إليها الباحثون ، نبدأ نحن بحثنا فى وحدة اللغة الإنسانية ، من حيث هى أصوات ترمز لمعانى ومسميات يتفق عليها ، وأن اللغة أى لغة سواء كانت الإنجليزية أو العربية أو الفارسية أو الهندية ، هى حصيلة التراث الإنسانى كله ، وقد ساهم فى تكوينها جميع الأمم والشعوب والأجناس البيضاء والصفراء والسوداء ، وكما أن أجناس البشر كلها ترتد إلى أصل واحد مشترك ، كذلك اللغة قد نبعت كلها من أصل مشترك هو هذا الإنسان الأول الذى نسل كل هؤلاء البنين والبنات ، مورثاً إياهم هذه الوديعة الكبرى ، وديعة اللغة ، فتشكلت وتنوعت كأى نتاج إنسانى آخر ، دون أن يفقدها ذلك جوهر وحدتها .

اللغة تعنى الإنسانية :

الإنسانية لا تعرف إلا باللغة ، واللغة هى المميز للإنسانية عن غيرها من الكائنات ، فالإنسان لم يسم إنساناً ويختص بوجود يفرقه عن الحيوانات إلا لأنه يتكلم هذا الكلام الذى نسميه لغة والتى هى شىء آخر غير مجرد

(١) محاضرات فى اللهجات — الدكتور أنيس فريحة ..

الأصوات والصرخات التى تنبعث من فم الحيوان . فليس من شك أن الحيوانات تصدر مجموعة من الأصوات التى يدل كل منها على معنى معين ، فثمة صرخات للتحذير ، وصيحات للنداء ، وأخرى للتعبير عن السرور ، ولكن هذه الصيحات والهمهمات تتم كلها بحركات غريزية تلقائية أشبه بردود الأفعال ، وهى تقف عند هذا القدر لا تعدوه ولا يمكن أن تعدوه ، لأنها غير مزودة بالعقل الذى هو سر خاص بالإنسان ينفرد به كما قدمنا ، وبواسطة هذا العقل توسع الإنسان فى مدركاته ، ووضع لكل شىء ولكل معنى ولكل حالة اسما تختص به ، وهذه هى اللغة التى هى من نتاج البشر .

تعريف اللغة :

واللغة فى أبسط تعريف لها ، هى أصوات تخرج من حنجرة الإنسان لترمز إلى مدلول معين ، بحيث يكفى التلفظ بهذا الرمز لكى يتمثل السامع على الفور صورة هذا المدلول بغير حاجة إلى وجوده أو رؤيته فضلا عن لمسه أو الإحساس به بأى حاسة من الحواس . وبهذا الأسلوب يمكن لأى إنسان أن يتفاهم مع الإنسان الآخر على ما يريد ، وأن ينقل له صورة مما يجرى فى فكره ، عن أيسر طريق وأسرعه ، فاللغة هى وسيلة من وسائل المواصلات الذهنية ، وهى لا يمكن إلا أن تكون أول أداة اخترعها الإنسان [١] ، وهى فى الوقت نفسه أعظم أداة ، وهى التى مكنت الإنسان من أن يصبح

(١) الرأى على أن اللغة وجدت مع الإنسان منذ مليون سنة أو أكثر ويستدلون على ذلك بوجود بعض الحفريات من الأدوات الحجرية مع بقايا الإنسان . والرأى على أن اللغة لا يمكن إلا أن تكون قد سبقت صنع أى أداة . (دائرة المعارف البريطانية) مادة لغة .

كائنا اجتماعيا إذ جعلته يحدد الروابط التي تربطه بأفراد عائلته ، ويؤدى الحقوق والواجبات ، ويقسم العمل ، ويستفيد من تجارب الآخرين ، ويعمل الفكر فى كل ما يجرى حوله ، فنحن نفكر بواسطة الكلما والألفاظ . والفكر هو الذى مكن الإنسان ، وسيظل يمكنه من التخيل والإبداع والخلق ، وهو ما جعله قادراً على السيادة فى هذا الكون على بقية الكائنات ، فما كان ذلك ليكون أو يتحقق إلا بواسطة هذه اللغة التى هى أصوات ترمز لمسميات ، يستعملها الإنسان لتحقيق أغراضه وإشباع حاجاته المادية والروحية على السواء .

كيف نشأت اللغة :

وقد جرت مباحث كثيرة منذ أقدم العصور لمعرفة كيف نشأت اللغة ، وقال أقوام بأنها إلهام من الله رب العالمين للإنسان ، وقد استدل علماء اليهود والمسيحيين على ذلك بقول التوراة : « وجبل الرب الإله من الأرض جميع حيوانات البرية وجميع طير السماء وأتى بها آدم ليرى ماذا يسميها ، فكل ما سماه به آدم من نفس حية فهو اسمه فدعا آدم جميع البهائم وطير السماء وجميع وحوش الصحراء باسمها »[١] .

وغنى عن البيان أن آدم لم ينطق بهذه الأسماء إلا بوحى من رب العالمين ، ومن هنا قيل إن أصل اللغة هو الإلهام والوحى من الله . وتابع كثير من علماء المسلمين هذا الرأى ، حيث يدل ظاهر آيات القرآن على هذا الرأى :

« وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى

---

(١) الفصل الثالث — سفر التكوين .

بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » [١] .

وتقول المباحث العلمية الحديثة التى تعتمد على المشاهدة والتجربة والملاحظة ، إن اللغة نتاج بيولوجى تفرضه سنن الحياة فرضاً على الكائن الحى ، وهى تتطور طبقاً لحاجات الإنسان وغريزة الإبقاء على ذاته .

ويقول علماء الاجتماع المحدثون ، إن اللغة ظاهرة اجتماعية وليست مجرد ظاهرة بيولوجية ، فهى ليست وليدة الحياة بقدر ما هى وليدة الحياة الاجتماعية والمعيشة المشتركة ، ولذلك فهى تنمو وتزدهر نتيجة اتفاق الجماعة على ألفاظها ومفرداتها التى هى رموز أولا وأخيراً [٢] .

ابن جنى وأصل اللغة :

ولقد كان موضوع أصل اللغة ، من المسائل التى أظهرتنى على عظمة التراث الإسلامى فقد تصورت أن القول بأن اللغة ظاهرة اجتماعية وأنها من خلق الجماعة واتفاقها على مفرداتها هو قول لم يسبق إليه قول ، فإذا أبو الفتح عثمان بن جنى الذى عاش فى القرن الرابع الهجرى ، يتناول هذا الموضوع بكل وضوح ونصاعة ويظهر فى معالجته ما يوصف فى عصرنا الحديث بالشجاعة الأدبية ، حيث يصرف مدلول آية قرآنية عن ظاهر اللفظ إلى تقدير المعنى فيقول :

---

(١) البقرة – ٣١ – ٣٣ .

(٢) اللغة والمجتمع – الدكتور على عبد الواحد وافى .

« باب القول على أصل اللغة إلهام أم اصطلاح ؟

إن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح ، لاوحي وتوقيف . إلاأن أبا على رحمه الله (هو أبو على الفارسى أستاذ ابن جنى) قال لى يوماً : هى من عند الله واحتج بقوله سبحانه : وعلم آدم الأسماء كلها . وهذا لا يتناول موضع الخلاف ذلك أنه يجوز تأويله : أقدر آدم على أن واضع عليها . وهذا المعنى من عند الله سبحانه وتعالى ، فإذا كان ذلك محتملا غير مستنكر سقط الاستدلال به . ثم مضى ابن جنى فى بحثه يقول : والذين ذهبوا إلى أن الأصل فى اللغة هو المواضعة لا الوحى قالوا : وذلك بأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعداً فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء المعلومة فيضعوا لكل واحد سمة ولفظاً ، إذا ذكر عرف ما به ما سماه ليمتاز به عن غيره وليغنى بذكره عن إحضاره إلى مرآة العين ، فيكون ذلك أقرب وأخف وأسهل من تكليف إحضاره ، لبلوغ الفرصة فى إبانة حاله . بل قد يحتاج فى كثير من الأحوال إلى ذكر ما لايمكن إحضاره ولا إدناؤه كالمعانى ، وحال اجتماع الضدين على المحل الواحد كيف يكون ذلك لو جاز وغير ذلك »(١) .

وهذا الذى يقول به ابن جنى منذ ألف سنة هو خلاصة ما انتهت إليه الآراء والمباحث ، فى أن اللغة ظاهرة اجتماعية بمعنى أنها وليدة المجتمع الإنسانى ، وليست ظاهرة بيولوجية بحتة كغيرها من الظواهر البيولوجية ، كما أنها لم تخلق جملة مع الإنسان خلقاً .. وإنما نشأت وتطورت واختلفت وتفرعت تحت ضغط شتى الظروف والحاجات .

والرأى عندى ، أن اللغة مزيج من الظواهر البيولوجية والاجتماعية ، فهى من ناحية جبلية من طبيعة الإنسان بجزأيه المادى والعقلى ، وهى من

---

(١) الخصائص — الجزء الأول — ص ٤٤ .

ناحية أخرى وليدة الجماعة الإنسانية والاتفاق بين أفرادها على رموز معينة للدلالة على مسميات محدودة .

فالإنسان باعتباره كائناً حيا لديه القدرة على إخراج الأصوات من حنجرته وفمه وهذه الأصوات تختلف وتتلون حسب حالته المادية والمعنوية ، فإذا أصيب بألم ، خرج منه صوت يختلف عن الصوت الذى يصدر منه فى غير حالة الألم ، والصوت الذى يصدر منه فى حالة الفزع والاضطراب غير الصوت الذى يصدر منه للتعبير عن أمنه واطمئنانه . والصوت الذى يصدر عنه إبان الحزن أو الغضب غير الصوت الذى يصدر إبان الرضا والفرح . ومن هذه الأصوات التلقائية من حركات الألم والتعجب والفرح والفزع والدهشة نشأت الكلمات الأولى التى لا تزال آثارها موجودة فى كل لغة ويفهمها كل إنسان على ظهر الأرض مثل أصوات آه ، أوه ، ووى للتعبير عن الدهشة والتعجب ، وآى وآ ، وآخ للتعبير عن الألم وهكذا . ولا جدال أننا بالتنقيب فى كل لغة نستطيع أن نجد فيها ألفاظاً يمكن إرجاعها إلى هذه الأصوات الغريزية التلقائية . وتكون اللغة من هذه الناحية ظاهرة بيولوجية جبلية فى الإنسان باعتباره كائنا حيا .

محاكاة الطبيعة :

ولكن اللغة كما هو مشاهد وواقع لا تقف عند حد الأصوات أو الحركات التى تجىء نتيجة عوامل فسيولوجية أو سيكولوجية من ألم وفرح وحزن وغضب ، بل إن فيها العديد من الألفاظ التى لا ترجع إلى حركة داخلية فى الإنسان ، قدر ما ترجع إلى قدرته على محاكاة أصوات الطبيعة مما جعل بعض علماء اللغة يقولون بأن هذا هو منشأ اللغة ، ومن هذا الرأى صاحبنا القديم ابن جنى حيث يقول فى كتابه الخصائص (ص ٤٦) .

« وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدوى الريح وخرير الماء ونعيق الغراب وصهيل الفرس ونحو ذلك ، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد وهذا عندى وجه صالح ومذهب متقبل » .

وهذه الألفاظ العربية التى توحى بأنها مشتقة من أصوات الطبيعة لها مثيل فى سائر اللغات ، وفى لغتنا العامية المتداولة التى هى فى الحقيقة من اللغة المصرية القديمة كلمات قوية الدلالة فى هذا الصدد ككلمات « تف ونف وكح وبح » . وهو ما يقطع بأن جانباً من اللغة قد نشأ عن هذا الطريق .

كلمات اصطلاحية :

ولكن كلمات اللغة حتى ما كان منها بدائيا أى يتصل بأول مظاهر الوجود والعمران ككلمة رجل أو ولد أو بنت أو بيت ، هذه كلها ألفاظ لا تمت إلى أى حركة صوتية من أى نوع كان فهى لا يمكن إلا أن تكون اصطلاحية جرى عليها الاتفاق . ويتجلى ذلك أكثر ما يتجلى فى الكلمات التى تدل على مسميات لا وجود لها فى الطبيعة المحسوسة ، حتى يقال إنها تتصل بالأصوات سواء التى يصدرها الإنسان أو التى تحدثها الطبيعة ، كالغول والعنقاء والعفريت ، ويدخل تحت هذا الباب كل الكلمات التى ترمز لما وراء الطبيعة من الغيبيات ابتداء من الله حتى الملائكة والبعث والنشور والخلود والروح .

وكذلك الكلمات التى تدل على المعانى المطلقة والمجردة ، كالسعادة والكمال . . وهذه كلها كلمات تدق معانيها حتى على المتعلمين والمثقفين فهى دائماً فى حاجة إلى من يشرحها ويفسر معناها ليقربها إلى الأذهان

ويوضح المقصود بها ، فهى والحالة هذه لا يمكن إلا أن تجىء ثمرة الاتفاق ، فهى وليدة العقل الجماعى والمجتمع الإنسانى ، وكون الإنسان عضواً فى جماعة يحرص على العيش فيها وتبادل المنفعة مع سائر أفرادها.

لغة الإشارة العالمية :

وقبل أن نمضى فى تتبع سير اللغة وكيف تطورت وتتطور دائماً، والنواميس التى تحكم هذا التطور ، يجدر بنا أن نشير إلى وسيلة أخرى للتفاهم بين البشر ، يرى المؤمنون بالتطور أنها قد سبقت اللغة ، ونراها نحن ظاهرة إنسانية تساير اللغة وتصاحبها ، بل تقوم مقامها عند فقدانها لأى سبب من الأسباب ، وتلك هى لغة الإشارة ، فالتعبير بالجسم والرأس والوجه واليدين ، وسيلة يدركها كل إنسان ويحس بها فى نفسه ، فنحن إذا غضبنا قطبنا وجوهنا واستطاع من ينظر إلينا أن يعرف تغير حالنا إلى الغضب وكذلك إذا ابتهجنا أو فرحنا انفرجت أساريرنا ، وإذا انفعلنا اصفرت وجوهنا أو احمرت على حسب الأحوال .

وكل هذه علامات وإشارات يستطيع كل إنسان أن يفهم منها حالة الإنسان الآخر .

وهناك بعد ذلك تحريك الرأس واليدين ، بما يدل على الموافقة أو المخالفة . ومن مجموعة هذه الظواهر الجسدية والحركات العضوية تألفت لغة خاصة بالإشارة بغير حاجة إلى النطق وإخراج الأصوات بحيث يمكن القول إنه إذا كان المقصود باللغة هو مجرد التعبير ، فإنه يجب فى هذه الحالة أن تقسم إلى نوعين . . التعبير بالإشارة والتعبير بالصوت وكلا النوعين هما من نتاج العقل الإنسانى .

ولا جدال فى أن التفاهم عن طريق الإشارة هو لغة إنسانية عالمية ، لا يختلف فى إدراكها إنسان عن إنسان إلا بمقدار التفاوت بين القوى العقلية .

وبهذه اللغة لغة الإشارة يتفاهم أى إنسان غريب إذا حل فى مجتمع لا يعرف لغته ، وباستطاعته دائماً أن يشبع حاجاته الأساسية عن طريق هذه الإشارة ، بل لاسبيل لتعلم أى لغة أجنبية إلا عن طريق الإشارة ، فيشار باليد على المسمى ثم يلفظ الصوت الخاص به ، أوأن تعرض صورة الشىء ثم يشار إليه ويلفظ الصوت الخاص به ، فالإشارة إذن ، هى أولى مراحل اللغة وجزء أساسى فيها .

وهناك أناس يعيشون طول حياتهم لاسبيل لهم للتفاهم مع بنى الإنسان إلا بواسطة الإشارة وهم هؤلاء الذين حرموا من نعمةالنطق ونعنى بهم (الخرس) والتاريخ يحدثنا أنه حيث التقى أقوام بآخرين لا يعرفون لغتهم ، استطاعت الإشارة دائماً أن تحقق التفاهم ، كما حدث بين خرستوف كولمبس عندما نزل أمريكا لأول مرة حيث استطاع أن يتفاهم مع الهنود الحمر عن طريق الإشارة .

والشعوب البدائية تتخاطب فيما بينها عن بعد بالإشارة ، مستخدمين دقات الطبول ، وإشعال النيران ، وقد تعلمت منهم الشعوب المتحضرة هذه اللغة منذ أقدم العصور ، فكانت الطبول ، وإشعال النيران وتحريك الأعلام ، وسيلة للتخاطب عن بعد ، حتى إذا كان العصر الحديث عصر الكهرباء والتلغراف والتليفون ... بدأ التخاطب يجرى على البعد من خلال الإشارات الصوتية التى اشتهرت باسم « إشارات مورس » . فالتفاهم بالإشارة ، ابتداء من تحريك اليد ، حتى اصطناع الرموز المتفق عليها عالمياً هو وسيلة عالمية من وسائل التفاهم بين البشر على اختلاف درجاتهم من المدنية والحضارة مما يؤكد قدرة البشر على الالتقاء والتفاهم حتى لو لم تكن لهم لغة ملفوظة مشتركة .

اللغة الملفوظة :

على أن الذى لا شك فيه، أن لغة الإشارة وإن استطاعت أن تسد بعض حاجات الانسان المادية الأساسية ، فهى قاصرة عندما يراد بها التعبير عن أشياء لا عهد لأحد المتخاطبين بها من قبل، وهى عاجزة عن أن تصور أشياء غيبية أومجهولة . ومن هنا كانت اللغة الملفوظة هى وحدها الجديرة باسم اللغة حيث أصبح كل صوت يرمز لمسمى معين، وإذ كان لاحد لما يستطيع الإنسان أن يحدثه من أصوات، فقد أصبح بقدرته أن يضع من الرموز الصوتية بقدر ما فى الكون من مسميات .

ولا ينبغى التشكك بحال فى أن اللغة الملفوظة قد بدأت كلغة الإشارة، لغة واحدة يعرفها أبناء البشر الذين كانوا أول من نطقوا وتفاهموا .

وإذا كانت التوراة تقول لنا « وكانت الأرض كلها لغة واحدة وكلاماً واحداً » وإذا كان القرآن الكريم يؤكد هذا المعنى بقوله « وعلم آدم الأسماء كلها » فإن منطق الأشياء يقطع بأن الأمر كان كذلك . فما دام الأصل فى الجنس البشرى هو التسلسل من أصل واحد مشترك ، فإن الأبناء قد تلقوا دائماً اللغة عن آبائهم ، وإذا كانت اللغات قد تفرقت وتعددت فيما بعد فذلك أمر طبيعى جداً نظراً للأسباب التى تؤدى إلى تطور اللغات وتعدد اللهجات مما سنعرض له فيما بعد .

ولقد استطاع علماء اللغة اكتشاف الأصل المشترك للعديد من اللغات ، فيتتبعون تفرع اللغات الإسبانية والإيطالية والفرنسية من اللغة اللاتينية ، ثم يتتبعون اللغة اللاتينية نفسها ، فيرونها فرعاً من اللغات « الهندية الأوربية » التى تشمل فيما تشمل اليونانية والسنسكريتية . ويتتبعون عدداً من اللغات الأخرى كالعربية والعبرية والأرامية والأمهرية والمصرية القديمة فيرونها

ترجع كلها إلى لغة واحدة يطلقون عليها اسم السامية . [١] ويتعقب بعض العلماء بعض الكلمات الأساسية فى حياة الإنسان فيجدونها واحدة فى كل اللغات أو بالأحرى تدور كلها حول صوت واحد مما يقطع بوحدة الأصل .

الأم :

فهذه كلمة الأم نجد أن الصوت الأساسى فيها هو حرف الميم وهى من أول الأصوات التى يتناغى بها الأطفال ، ولذلك فإن الكلمات التى ترمز للأم فى مختلف اللغات تحتوى على حرف الميم هذا ، فهى فى اللغة العربية أم كما تعرف ، وهى فى الفرنسية مير ، وبالإنجليزية موذر ، وبالسويدية مودر ، وبالألمانية موتر ، وبالروسية مات ، وبالدانمركية مودر ، وباللاتينية ماتر ، وبالإغريقية موتر ، وبالإيطالية مادرى ، وبالإسبانية مادرى ، والبرتغالية مادرى ، وبالسنسكيريتية ماتا . . . وهكذا [٢] .

---

(١) يرجع علماء اللغة المحدثون اللغات المختلفة إلى ثلاثة فروع أساسية .
- الهندية الأوربية .
- السامية .
- الفينية (نسبة إلى فنلندا) .
- خليط من اللغات لا يستطيعون وضعه تحت أى من هذه التقسيمات

(دائرة المعارف البريطانية)

(٢) تاريخ الجنس البشرى — ص ٢٥ .

سماء وأرض وشمس :

والحرف الأول من كلمة سماء هو حرف السين ، فإذا جئنا إلى اللغة الإنجليزية وجدنا حرف السين هو نقطة بدايتها كذلك « سكاى Sky » وفى الفرنسية تبدأ بحرف السين « Ciel » وقد تحل الشين محل السين فى بعض اللغات ، والاتفاق على أن السين والشين يتبادلان دائماً .

وكذلك كلمة أرض ، فإن حرف الراء أو بالأحرى صوت الراء نجده فى كثير من الكلمات الدالة على الأرض فى اللغات المختلفة ، فهى فى الإنجليزية ارث earth ، وهى فى الفرنسية تر terre ، وهى فى الألمانية أرد erde.

وبالنسبة لكلمة الشمس نجد الصوت الدال على السين أو الشين فى أغلب الكلمات الدالة على الشمس فى مختلف اللغات ، فهى فى اللغة الإنجليزية سن sun ، وهى فى اللغة الفرنسية سولى soliel ، وهى بالإيطالية شيولو ، وهى شمس فى اللغة الآرمية ، وهى شمسو باللغة الأكادية ، وشمس باللغة العبرية ، ولمن أراد المزيد من هذه الكلمات فعليه أن يطالع الكتب المختصة فى هذه الموضوعات .

انحصار الوحدات الصوتية للإنسان :

والرأى العلمى اليوم ، بعد أن أصبحت اللغات لا تدرس إلا باعتبارها أصواتا ، متفق على وحدة الأصل لجميع اللغات ، وهى هذه المجموعة المحدودة من الأصوات التى تصدر من الحنجرة البشرية المؤلفة من الرئتين والقصبة الهوائية والتجويف الفمى واللسان والشفتين ، ويتراوح عدد الأصوات من ٢٢ ــ ٢٦ صوتاً يحدث اختلافها نتيجة وضع اللسان ومدى التصاقه بالحلق أو الأسنان ، وفتح الفم أو إغلاقه وتدويره ، ودرجة خروج

الهواء من الفم أو الأنف وهكذا ... وهذه الأصوات هي التي نطلق عليها اسم الحروف الأبجدية ، وهي التي يطلق عليها الآن اسم « الفونتكس » ولم تعد دراسة اللغات تعتمد على الكتب والمخطوطات والأعمال المكتبية ، وإنما تدرس اللغات الآن في المعامل و بواسطة استعمال آلات التسجيل والمكبرات الصوتية ، فاللغة الملفوظة لا المكتوبة هي التي أصبحت محور الاهتمام في دراسة اللغات، على أساس أن الكتابة ليست سوى اختراع حديث جداً بالنسبة للغة . . فإذا كان الإنسان ينطق باللغة منذ مليون سنة على أقل تقدير ، فإن الإنسان لم يعرف اللغة المكتوبة إلا منذ ستة آلاف سنة فقط وهو عمر لا يكاد يذكر بالنسبة لعمر اللغة الملفوظة . إن شأن اللغة الكتابية بالنسبة للغة الملفوظة ، كمثل الأصوات الموسيقية عرفها الإنسان مذ كان إنساناً ، عندما أطلق حنجرته لأول مرة يشدو بالغناء ، بل عرفها وهو يستعمل أول ما عرف من آلات موسيقية ، ولكنه لم يستخدم النوتة لكتابة الموسيقى إلا منذ عهد قريب جداً .

وحتى في عصرنا الحديث فإن الذين يقرءون ويكتبون من البشر بالنسبة لمن لا يقرءون أو يكتبون ، هم العدد الأقل .

وكم من لغات محفورة على الصخور والآثار ، بل تتضمنها بعض الكتب لاتجد من يهتم بها هذه الأيام فضلا عن أن يتكلم بها فهي في عداد اللغات الميتة ، لأن اللغة الحية هي التي يتكلم بها . وعلى رأس هذه اللغات الميتة لغات عظيمة ورائعة كاللغة اليونانية القديمة أو اللغة المصرية أو اللغة الحميرية ، بل إن لغة كانت لغة أوربا كلها في عصر من العصور كاللغة اللاتينية ، أصبحت اليوم في عداد اللغات الميتة ، حيث لا يتعلمها إلا الدارسون والعلماء الذين ينقبون في التاريخ .

فعلماء اللغة المحدثون لا يعنون إلا باللغة الملفوظة عند محاولتهم تقويم أي لغة ، وهذه اللغات الملفوظة تؤكد بوضوح وحدة المادة الصوتية التي تألفت منها اللغات .

الأسباب التي تؤدى إلى اختلاف اللغات وتعدد اللهجات :

حاول الكثيرون ، أن يتخذوا من اختلاف اللغات ، سبيلا للقول بتقسيم الجنس البشرى إلى أمم وجماعات ، بحيث يؤلف المتكلمون بلغة معينة أمة واحدة ، تختلف شخصيتها عن باقى الجماعات الإنسانية الذين يتكلمون بلغة أخرى... مرجعين الاختلاف فى اللغات إلى خلاف أساسى فى مقومات الشعوب وخلق الفوارق فيما بينها .

وسيكشف لنا البحث العلمى فى الكيفية التى تفترق فيها اللغات وتتعدد وتتنوع عن زيف هذا التصور ، فاللغة أى لغة ، هى فى تغير وتبدل دائمين ، ينتهى دائماً إلى تفرعها إلى لهجات جديدة بلغات متباينة ، بحيث كان يمكن أن تظل هذه العملية إلى ما لا نهاية لولا قيام العوامل المضادة التى تحول دون ذلك. ففى قارة مثل أفريقيا يبلغ عدد لغاتها ولهجاتها رقماً يتراوح بين ٦٠٠ — ٨٠٠ لهجة ولغة . . . وقد تفرع هذا العدد العديد من ثلاثة أصول رئيسية ، وهى : السواحلية فى شرق أفريقيا ، والهوسا فى غرب أفريقيا واللانجالا فى الكونغو ، ومن هذه الأصول الثلاثة تفرعت كل هذه الفروع .

ومثل ذلك يقال عن باقى لغات العالم ولهجاته التى تتراوح بين ٢٥٠٠ — و ٥٠٠٠ لغة ولهجة . فهذا العديد من اللغات واللهجات يرتد بدوره إلى ثلاثة أصول رئيسية على ما يقول علماء اللغة المحدثون وهى الهندية الأوربية — والسامية — والفنلندية .

وهذا التنوع والتعدد يتم بطريقة تلقائية كنتيجة حتمية لنواميس الطبيعة والحياة التى تأبى إلا أن تجعل لكل كائن حى ابتداء من أصغر خلية نباتية حتى أكمل صورة إنسانية شخصيته المستقلة التى تختلف عن أقرب شخصية إليها .

ويقع هذا الافتراق والخلاف بين الكائنات الحية، وسيظل يحدث ما بقيت الحياة، إلى عوامل متعددة :

الأول : العامل الوراثى ، الذى يجعل كل وليد يرث بعض خصائص والديه على ما فصلنا فى الفصل السابق ، والذى يجعل تركيبه الجسدى مختلفاً عن تركيب كل من الأب أو الأم . . ولما كانت الحبال الصوتية هى أحد أجزاء الجسد فإن الاختلاف يقع فيها ، كما يقع فى كل أجزاء الحنجرة ، ومع الاختلاف فى تركيب الجهاز الصوتى يقع الخلاف فى الأصوات الصادرة عنه كما سنرى .

الثانى : تأثير البيئة الجغرافية على الكائن الحى بتأثيرات تختلف باختلاف الطبيعة فالذين يعيشون فى الصحراء يتأثرون بمؤثرات غير الذين يعيشون على شواطئ بحر أو نهر أو فوق قمة جبل ، والذين يعيشون فى المناطق الباردة يتأثرون بمؤثرات غير الذين يعيشون فى المناطق الحارة وهكذا.

الثالث : وضع الإنسان الاجتماعى ، أى مكانه ودوره الذى يؤديه فى المجتمع ، فكما أن البيئة الطبيعية تحدث أثرها فى الإنسان فكذلك الشأن بالنسبة للبيئة الاجتماعية .

وقد ترتب على هذه العوامل الثلاثة ، وسيظل يترتب عليها ، أن تختلف اللغات واللهجات وتظل تتعدد بمقدار ما فى البشر من جماعات بل بمقدار ما فيها من أفراد ، ولنبحث هذه القضية بشىء من التفصيل .

الجهاز الصوتى :

قدمنا من قبل أن الحنجرة البشرية قادرة على إحداث عدد من الأصوات المختلفة المتباينة يتراوح ما بين ٢٢ ــ ٢٦ صوتاً، وهى الأصوات التى يؤلف كل منها حرفاً خاصاً من حروف الأبجدية . على أن الإنسان

لكي يكون قادراً على إحداث هذه الأصوات كلها يجب أن يكون جهازه الصوتي ابتداء من الرئتين حتى القصبة الهوائية والحنجرة واللسان والأسنان والشفتين فى حالة صحة وكمال . بل أن يكون استعداده لتعلم اللغة كاملا كذلك ، لأن اللغة يتحصل عليها بالتعليم والاكتساب وليس بالغريزة . وعلى ذلك يكفى أن تكون إحدى أسنان الإنسان مكسورة ، بل يكفى أن يزيد مقدار الانفراج بين الأسنان الأمامية لكي لا يكون باستطاعة الإنسان أن يخرج الأصوات المطلوبة بالكمال والدقة المعينين لإخراج الأصوات المختلفة ، وكذلك الشأن إذا كان باللسان نقص فى أداء حركاته ، فإنه يترتب على ذلك اختلاف فى النطق . . ونحن نرى فى حياتنا اليومية أشخاصاً كثيرين لا يستطيعون أن ينطقوا حرف (الراء) فينطقونه (غيناً) ، أو حرف القاف فينطقونه (كافا). وحرف (الثاء) فينطقونه (سيناً)أو السين إذ ينطقونها ثاء . . وهكذا ، وبعض الجماعات ، لا تستطيع أن تنطق حرف (الحاء) أو الضاد نتيجة خلو لغتها من هذين الحرفين ، فى حين يكثران فى لغات أخرى وهكذا .

وهناك أصوات يستثقلها الناطقون ، ويستخفون أصواتاً فسيتبدلون هذه بتلك ، كما يحدث فى لغتنا اليومية حيث نستبدل حرف الثاء (لثقله) إلى حرف التاء ، فترانا نقول « تعلب بدلا من ثعلب ، وتوب بدلا من ثوب ، وتلج بدلا من ثلج ، وتعبان بدلا من ثعبان ، وتلاتة بدلا من ثلاثة . . . وهكذا .

وكذلك استخفاف حرف الدال عن الذال ، فترانا فى حديثنا اليومى نقول « دهب بدلا من ذهب ، ودبح بدلا من ذبح ، ودراع بدلا من ذراع ، وديل بدلا من ذيل إلخ وكذلك الضاد بدلا من الظاء ، فتقول ضلام بدلا من ظلام ، وضفر بدلا من ظفر ، وضهر بدلا من ظهر . .

أو استبدال القاف بهمزة فنقول : آلت بدلا من قالت ، وفرأعت بدلا من فرقعت وهكذا .

هذا الخلاف فى الأجهزة الصوتية ومدى كمالها وصلاحها ، والرغبة فى تسهيل النطق واستثقال بعض الأصوات دون البعض الآخر ، وما ترتب على ذلك من آثار يعددها ويفصلها علم اللغات كالقلب والإدغام والحذف . . إلخ ، كان هو أول ما أدى إلى تنويع الحروف الأبجدية وطريقة النطق ، مما أحدث اللهجات المختلفة الخاصة بكل جماعة ، وكل طائفة وكل فئة .

اختلاف البيئة الطبيعية والجغرافية :

أما ثانى العوامل التى تؤدى إلى التمايز بين اللغات ، فهو انتشار الإنسان وانطلاقه من بيئته الأصلية إلى بيئات جديدة ، حيث تصادفه ظروف جديدة ، ومعالم جديدة ، ومشاكل لا عهد له بها من قبل ، فيدفعه ذلك إلى نحت كلمات جديدة ليطلقها على هذه المسميات الجديدة ، أو يستعمل الكلمات القديمة استعمالات جديدة ، فالذين رأوا البحر لأول مرة هم الذين أطلقوا عليه هذا الاسم ، على حين يظل هذا الاسم لا مدلول له عند من لم ير البحر ، والذين شاهدوا منتجات البحر لأول مرة كان عليهم أن يطلقوا عليها الأسماء التى لا يعرفها من لم يروا هذه المنتجات ، والذين رأوا الأشجار والغابات والحيوانات والحشرات والظواهر الجوية لأول مرة كان عليهم أن يطلقوا الأسماء الأولى لهذه الظواهر والمسميات .

وهكذا أصبح موجوداً لدى أى جماعة ، مجموعة من الأسماء لا يعرفها غيرهم ممن لم تتح لهم رؤية ما رأوا . ومن مجموعة هذه الألفاظ الجديدة ، والطريقة الخاصة بالنطق بها تتولد اللغات المختلفة .

اختلاف البيئة الاجتماعية :

وليس أدل على أن هذا الخلاف الذى ينشأ بهذا الأسلوب لا يعنى بحال أى اختلاف بين البشر وإنما هو لون من ألوان التنوع الذى هو سمة الحياة ، أن الجماعة الواحدة فى ظل البيئة الجغرافية الواحدة التى تقع كلها على شاطئ البحر ، أو على قمة الجبل ، أو فى أحشاء الصحراء والتى تتكلم كما يقولون بلغة واحدة ، سرعان ما يختلف أفرادها بدورهم فيصبح لكل جماعة فرعية لهجتها الخاصة . ذلك أن أفراد أى جماعة من الجماعات يختلفون فى كل شىء . . فى أعمارهم ، فى حرفهم وأعمالهم ، فى حظهم من التعليم والثقافة ، فى حظهم من السلطة والأهمية الاجتماعية ، فالذين يشتغلون بالصيد سرعان ما يؤلفون كلمات خاصة بهم ، والذين يزرعون الأرض يؤلفون كلمات خاصة بهم ، والتجار والفنانون والمخنون والمحامون والقضاة والمهندسون ، بل حتى المجرمون واللصوص الذين يستترون من القانون ويرتكبون جرائمهم فى الظلام سرعان مايصطنعون لأنفسهم لغة خاصة يتفاهمون بها فيما بينهم ولا يدرك معناها أو المقصود منها إلا من كان من طائفتهم . . ومن هنا قال علماء اللغات واللهجات ، إن اختلاف اللهجات واللغات يرجع إما إلى أسباب جغرافية إقليمية ، وإما إلى أسباب اجتماعية تنشأ عنها « اللهجات الاجتماعية » .

اللغة كائن حىّ :

فكأن تعدد اللهجات واختلاف اللغات عملية مستمرة دائمة لا تقف أبداً ، متطورة أبداً ، متغيرة أبداً ، باعتبارها أحد مظاهر الحياة لها كل خصائص الحياة ، فهى تتغذى وتنمو وتتلاقح ، وهى تموت كما يموت كل كائن حى ، حيث تتحول إلى بطون الكتب ولا تعود تنطق بها الشفاه .

وكما أن علم الحياة يقول لنا إن الجسم الحى تموت بعض خلاياه فى كل لحظة ،/ كما تتولد فيه خلايا جديدة فى كل لحظة كذلك ، فهكذا الشأن بالنسبة للغة ، فى كل لحظة من لحظاتها تولد كلمات جديدة ، كما تموت فى كل لحظة كلمات ، ويعنى بالكلمات التى تموت ، تلك التى لا تجد إنساناً واحداً بين ألوف ملايين البشر من ينطق بها فى لحظة ، فإن ذلك يعنى أنها قد ماتت ووريت التراب أو بالأحرى بطون الكتب ، والكلمات التى تولد هى تلك التى ينطق بها فرد من الناس لأول مرة أو يكتبها . وحسب الإنسان أن يطلع على أى قاموس من قواميس اللغة ليراها محتوية على عشرات الألوف من الألفاظ المهجورة التى بطل استعمالها ، ولو استعملت فى جملة من الجمل لبدت نابية ميتة بالنسبة للألفاظ الحية التى تحيط بها ، ولم يكن باستطاعة أى قارئ أن يعيها إلا أن يخرج معناها من القاموس .

وهذا الأمر لا يختص بلغة دون لغة . . بل هو عام شامل للغات كلها بما فى ذلك اللغة العربية بطبيعة الحال .

فاللغة كائن حى يجرى عليها كل ما يجرى على الكائنات الحية من تغير وتبدل وتطور واتساع وانتشار ثم موت فى خاتمة المطاف .

والحق أنه لولا وجود عوامل أخرى مضادة تعمل على توفير أكبر قدر من الثبات والاستقرار وطول العمر للغة ، وتجعل الطابع الغالب على اللغة هو المحافظة والتمسك بأهداب القديم وإضفاء لون من القداسة عليه ، والحرص على استخدام هذا القديم ، نقول لولا هذه العوامل ، لكانت عوامل الفناء للغة أسرع مما هى عليه ، ولتبددت وتبلبلت الألسن وعز التفاهم بين القديم والحديث . وهذه العوامل التى تعمل على تدعيم اللغة وتثبيتها وإطالة عمرها ، تمثل فى الطبيعة القوى الجاذبة ، التى تؤدى دورها فى مواجهة القوى الطاردة . . القوى التى تفرق وتشتت وتبدد .

وظيفة اللغة الأساسية :

وأول هذه العوامل ، هو طبيعة وظيفة اللغة نفسها ، فاللغة كما قدمنا هى الأداة التى اخترعها الإنسان للتعبير عن إنسانيته وللتفاهم مع الجماعة التى يعيش فيها ، فيأخذ عنها ويعطيها وذلك لا يتحقق إلا بتحديد معنى الألفاظ ومدلولاتها . وقد أدرك الإنسان الأول بمجرد أن تلفظ بأول كلمة ذات مدلول خاص يفهمه عنه الآخرون ، ما فى هذه القدرة التى زود بها ، أو التى توصل إليها من سر عميق يعلو على الطبيعة العادية التى تحيط به ، ومن هنا كانت نظرته إلى بعض الألفاظ وتصوره انطواءها على قوة سحرية غامضة تسيطر بها على الطبيعة نفسها ، مما جعله يضفى عليها نوعاً من القداسة تعلو بها على سائر الكائنات . وقد كان هذا شأن الكلمة فى القديم وهو شأنها فى كل المجتمعات الفطرية حتى فى وقتنا الحاضر . فللكلمة سلطان وللكلمة تأثير ، وليس هناك شىء لا تستطيع الكلمة أن تحققه بما فى ذلك التأثير على الآلهة نفسها .

ويحمل كتاب العهد الجديد « إنجيل يوحنا » أثر هذا التقديس للكلمة حيث يبدأ بالعبارة المدوية التالية : « فى البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله » .

هذا التقديس للكلمة قد صانها من التبدد الذى كان يمكن أن تتعرض له ، وجعل البشر يستعملونها فى تقدير واحتراس ، وحرص على المحافظة عليها .

الكتابة :

وكان اختراع الكتابة بلا جدال أو شبهة أعظم العوامل فى العصور القريبة التى مكنت من المحافظة على وحدة اللغة وثباتها واستمرارها أطول مدة ممكنة فى القسم القريب من حياة الإنسان . وإذا كان تاريخ الكلام الإنسانى يرجع كما قدمنا إلى مليون سنة فأكثر ، فإن تاريخ الكتابة لا يرجع إلى أكثر من ستة آلاف سنة ، وهو كسر صغير جداً من حياة الإنسان ، وقد اخترعت الكتابة عندما أحس الإنسان بضرورتها لتخليد ذكراه ونقل سيرته وأعماله إلى من يجيئون بعده بطريقة لا يتناولها التحريف .

والرأى على أن أصل الكتابة قد نشأ فى مصر ، فاللغة الهيروغليفية هى أقدم كتابة عرفها البشر ، أما الخطوات الأولى التى نشأت منها الكتابة ، فقد بدأت مع الإنسان مذ كان يعيش فى الكهوف ، فما لا جدال فيه أن أول محاولة للإنسان أن يرسم صورة لحيوان من الحيوانات على جدران كهفه كانت هى الخطوة الأولى نحو الكتابة . . . فقد أصبحت صورة الأسد ترمز للأسد ، وعلى هذا الغرار بدأت صورة أى شىء تدل عليه ، ثم بسطت خطوط هذه الصورة فاستغنى فيها عن التفاصيل ، ثم زيد فى تبسيطها فأصبح مجرد خطين متعارضين يرمزان للإنسان مثلا ، ودائرة ترمز للشمس ، وخط منحن للقمر وهكذا . . ثم بدأت هذه الرموز تأخذ صورة مربعات ومستطيلات وزوايا وتستخدم للدلالة على أصوات ، ومن هنا بدأت حروف الأبجدية الهيروغليفية .

وكما اعتبرت الكلمة الملفوظة من قبل مقدسة ذات تأثير لا حد له . . . فبعد اختراع الكتابة انتقلت القداسة من الكلمة الملفوظة إلى الكلمة المكتوبة . وهذا ما يجعلنا ندرك لماذا كان معنى الكتابة الهيروغليفية الكتابة المقدسة . وأصبح إيمان الناس لا حد له فى سحر الكلمة

المكتوبة وقدرتها على جلب النفع أو دفع الأذى مما نرى آثاره لا تزال موجودة بين الناس الذين يعتقدون بالأحجبة والتمائم التي تتضمن كلمات مكتوبة . وقد كانت هذه القداسة عنصراً فعالاً في المحافظة على اللغة وألفاظها وطريقة استعمالها [١] .

الكتب المقدسة :

وثالث العوامل التي تحفظ اللغات وتحول دون تشتتها وتبقى على جوهرها هي الكتب المقدسة ، وقد رأينا من قبل أن الكلمة الملفوظة كانت مقدسة ، ثم تلتها الكلمة المكتوبة فأصبحت هي المقدسة ، فكان من الطبيعي أن تمتد القداسة إلى الكتب ، فأي كتاب في القديم كان يعتبر مقدساً ، ولم تكن القداسة تلحق الكلام المكتوب ، بل تشمل الكتاب نفسه بورقه وجلده ، فكان الهنود يعتقدون أن كتابهم الفيدا من عند الله ومن صنعه ونعني بالكتاب مادة الكتاب التي صنع منها ، وكذلك الشأن بالنسبة لكل المجتمعات القديمة ، فكتاب اليهود القديم كان يعتبر أنه من عند الله ، وليس يعني ذلك أحكام الكتاب أو ألفاظه ومعانيه بل المادة المصنوع منها الكتاب نفسه وهي الأحجار وهكذا .

---

(١) لعبت العوامل الطاردة . . . عوامل التغيير والتطوير والتنويع دورها في الكتابة كما لعبت من قبل في اللغة الملفوظة ، حيث بدأت تتغير كلما نقلت من مكان إلى مكان ، ومن شعب إلى شعب ، إلى أن تعددت صور الحروف الهجائية وأشكالها ، ولم تلبث الكتابة أن تحولت إلى سلاح ذي حدين يعمل في الاتجاهين المضادين ، فهي من ناحية تعمل على تثبيت اللغة والمحافظة عليها ، ولكنها من ناحية أخرى تساعد على تعميق الفوارق بين اللغات وتأكيدها ، وهي التي خلقت الشعور الخاطئ بوجود فوارق أساسية بين اللغات .

وغنى عن البيان أن هذه الكتب اعتبرت دائماً أصولا للغة يجب ألا تعدوها وإلا اعتبر ذلك تجديفاً فى حق الله ، فكان لذلك أعظم الأثر فى المحافظة على اللغات التى كتبت بها هذه الكتب .

ويلحق بالكتب المقدسة ، كل الكتب القديمة حتى ولو كانت من تأليف البشر ، فإن قدمها قد أضفى عليها جو القداسة كما هو الشأن فى إلياذة هوميروس وأوديسيته فقد اتخذ منها الإغريق أساساً لعقائدهم وتاريخهم ولغتهم وأصبحت لديهم شيئاً مقدساً لعبت دورها فى صيانة اللغة الإغريقية قروناً من الزمان .

وعلى غرار هوميروس فإن العباقرة من رجال الفن فى كل أمة قد اعتبرت كتبهم دائماً شبه مقدسة من حيث إنها أساس للغة وألفاظها وأساليبها ، كما هو الشأن بالنسبة لشعراء الجاهلية بالنسبة للعربية ، ودانتى فى الإيطالية ، وشكسبير فى الإنجليزية الحديثة وجوته فى الألمانية الحديثة .

على أن عوامل التغير والتبدل كانت لها الكلمة الأخيرة فى النهاية ، فاللغة الهيروغليفية المقدسة ، واللغة الإغريقية ، وجميع اللغات القديمة والكتب المقدسة القديمة من أمثال الفيدا الهندية ولغتها السنسكريتية ، والأفستا الفارسية ، كل هذه الكتب قد زالت ودالت ، وتشتت اللغات وتنوعت وتعددت اللهجات بحكم العوامل الزمنية والمكانية وتطور المتطلبات الإنسانية المتغيرة أبداً .

القرآن الكريم :

ولعل القرآن الكريم يعتبر فى أيامنا ، ومنذ قرون خلت فريداً وفذاً بين ما عرفت البشرية من كتب مقدسة . فقد ظل بنص ثابت واحد لم يعتوره أى تحريف فضلا عن تغيير وتبديل ، ومهما نقب الإنسان وبحث وفتش

فى أرجاء العالم الإسلامى الذى يمتد عبر القارات الست ، ومهما عاد إلى الوراء عبر الزمن خلال أربعةعشر قرناً إلاقليلا ، فلن يجد إلا نصًّا واحداً وكتاباً واحداً هو القرآن الكريم المكتوب باللغة العربية . وهى ظاهرة تتصل بإعجاز القرآن وينفرد بها كما قدمنا ، فإن الكتب الأخرى التى اعتبرت مقدسة ، قد ترجمت إلى شتى اللغات ، واعتبرت الترجمة دائماً أساساً وأصلا للغات التى نقل إليها ، ومن هنا لم تقم هذه الكتب فى حياة اللغة التى كتبت بها فى الأصل بالدور الذى قام به القرآن ، وما زال يقوم به وسيظل يقوم به فى حفظ اللغة العربية ، حيث يحرص المسلمون حتى من كان منهم لا يعرف العربية على تلاوة القرآن بلغته العربية ، إذ لا تصح له عبادة بصفة عامة والصلاة بخاصة إلا بتلاوة القرآن .

والقرآن والقرآن وحده ، هو الذى يجعل باستطاعتنا أن نطالع كتباً كتبت منذ ألف سنة دون أن نجد فى مطالعتها كبير صعوبة ، وهو ما لا يتحقق فى كثير من تراث اللغات الأخرى بالنسبة لقرائها العاديين .

تدخل السلطة المركزية :

أما رابع العوامل التى تؤدى إلى حفظ اللغات وإطالة بقائها ، فهو عمل السلطة المركزية صاحبة السلطان فى الجماعة ، سواء كانت هذه السلطة تقوم على زعامة دينية أو قيادة سياسية أو تسلط أجنبى ، فقد كان لهذه السلطة دائماً أثر فى تدعيم أى لغة من اللغات ، وفرض سلطانها على أوسع رقعة ممكنة ، وأطول مدة ممكنة كذلك .

وأغلب اللغات التى تسود أوربا فى الوقت الحاضر من فرنسية وألمانية وإنجليزية وإيطالية وبلغارية وصربية ورومانية . . . إلخ والتى تتخذ أساساً للتفريق بين شعوب أوربا باعتبارها أمماً مختلفة وقوميات متباينة ،

ليست كلها إلا من فرض السلطات المركزية على الخاضعين لحكمها ، حيث استثارت لهجات معينة وجعلت منها لغات ، وراحت تدرس بها فى المدارس وتعلو بها الصلوات فى المعابد ، ويجرى التعامل بها فى دواوين الحكومة . . فتصبح بعد حين لغة قومية تحل محل لغات أخرى كان التعامل يجرى بها ، فاللاتينية كانت لغة أوربا خلال العصور الوسطى ، حتى إذا جاء عصر القوميات فى القرن التاسع عشر ، بدأ كل جماعة يخصون أنفسهم برفع لهجتهم الخاصة إلى مرتبة اللغة القومية ، وبدءوا يؤسسون على ذلك أوهاماً من حيث امتياز لغتهم ، نتيجة لرقى جنسهم . ولعل أقرب مثل يظهرنا على دور السلطة المركزية فى بسط سلطان اللغات ، هو ما حدث فى الولايات المتحدة الأمريكية ، فقد كان المهاجرون إلى الولايات المتحدة من سائر شعوب أوربا وآسيا ، وكل يتكلم بلغته الخاصة ، حتى قررت السلطة المركزية أن تكون اللغة الرسمية للدولة الجديدة هى الإنجليزية ، فأصبحت هى دون غيرها لغة الولايات المتحدة الأمريكية ، مع أنه كان من الممكن أن تكون اللغة التى تسود هى الألمانية أو الفرنسية أو أى لغة جديدة غير هذه وتلك .

وعندما استعمر الانجليز الهند ، فرضوا اللغة الإنجليزية لغة رسمية للبلاد ، ولقد خرج الإنجليز من الهند منذ عشرين سنة تقريباً ، ومع ذلك فلاتزال اللغة الإنجليزية هى اللغة الرسمية فى كثير من أنحاء الهند ، ذلك أن كل أعمال الدولة كانت تجرى بالإنجليزية وكل الموظفين والمثقفين قد تلقوا علومهم بالإنجليزية فأصبح من الصعب عليهم ترك الإنجليزية إلى لغتهم القومية الأصلية إلا بعد انقضاء عشرات من السنين تخرج فيها أجيال تلقت علومها باللغة الهندية .

ومثل ذلك ينطبق على اللغة الفرنسية فى الجزائر ، حيث فرضها الفرنسيون لتكون اللغة الرسمية ، والتى يجرى بها التعليم ، واليوم — وبعد أن

استقلت الجزائر – هى فى حاجة لعديد من السنوات قبل أن تصبح العربية هى التى يجرى بها التعليم العالى .

اللغة أداة للإنسانية كلها :

ولعلنا قد رأينا من كل ما سبق، ومن استعراض العوامل التى تؤدى إلى تنوع اللغات وتفرقها بل إلى موتها ، والعوامل التى تعمل على حفظها، وصيانتها من ناحية أخرى ، أنها لا تعدو أن تكون كما قلنا منذ البداية أنها أداة من خلق العقل الإنسانى ، ذلك الجوهر الغامض ، كأى أداة أخرى اكتشفها أو اخترعها ليستخدمها فى إشباع حاجاته ، وإثبات ذاته ، وتحقيق حياة أفضل وأكمل، باعتباره مجرد إنسان ينتمى إلى الجنس البشرى ، وليس لأمة معينة أو جماعة بذاتها .

وعلى ذلك فكل محاولة لتصوير اختلاف اللغات على أنه نتيجة فوارق طبيعية بين أجناس البشر ، وكل محاولة لتحويل اللغات المختلفة إلى سدود وقيود تحول دون الاعتراف بحقيقة الجنس البشرى وأنه ينحدر من أصل واحد مشترك ، ويتكلم لغة إنسانية واحدة ، هى محاولات عقيمة فضلا عن أنها ضارة .

ما من لغة إلا هى حصيلة التراث الإنسانى كله :

وليس أدل على أن البشر جميعاً يتكلمون لغة واحدة إنسانية وإن اختلفت طريقة نطق أى إنسان بها، من أنه ما من لغة من لغات الأرض إلا تعكس التراث الإنسانى كله لا تراث جماعة مخصوصة أو أمة من الأمم .

ولا عجب فى ذلك ، فقد نشأت اللغات كما رأينا من أصل واحد ، ونشأت كلمة كلمة ثم جملة جملة ، وتألفت لغة أى جماعة من هذه الكلمات الموروثة مضافاًإليها ما تضيفه هذه الجماعة من كلمات جديدة ، وهكذا مهما تنقلت اللغة عبر الزمان والمكان فهى لا يمكن إلا أن تتألف من تراث سابق زائد إضافات جديدة ، وهذا التراث السابق ظل لمئات الألوف من السنين يمثل تجربةالإنسانية كلها والتى كانت لا تزال تتألف من عدد محدود فى بقعة من الأرض ضيقة ، قبل أن يتكاثر الإنسان ويسبح فى أرجاء الكوكب الأرضى .

اللغة العربية :

ولعل اللغة العربية التى يخيل للكثيرين أنها ذات طابع خاص، هى أكبر دلالة على ما قدمناه من أن اللغة أى لغة هى حصيلة التراث الإنسانى كله ، هى مزيج من كل الأصوات التى نطق بها الإنسان كل إنسان عبر التاريخ للتعبير عن مختلف المسميات المادية وغير المادية .

ولنبدأ مع اللغة العربية عندما خرجت من جزيرة العرب تحت لواء الإسلام ، لتدخل إلى الشام والعراق وفارس ومصر وشمال أفريقيا ، فقد جاءت اللغة العربية إلى هذه البلاد بذخيرتها من الألفاظ والرموز الصوتية الدالة على معانى ، فوجدت فى هذه البلاد كلها أصواتاً أخرى ترمز بدورها على مسميات ومعانى لا عهد للعرب بها من قبل ، فلم يكن هناك مناص من أن تستوعب اللغة العربية كل هذه المسميات الجديدة ، دون أن تحدث بها أى تغيير إلا هذا التغيير الطبيعى الذى يحدث دائماً وهو أن يلفظ الإنسان الكلام بالطريقة التى اعتاد أن ينطق بها . ولم يكن باستطاعة نسابى العرب ومؤرخيهم إذا تحدثوا عن أنساب الشعوب وتواريخها

إلا أن يكرروا أسماء الأشخاص والأماكن والوقائع كما تقال لهم وأن يصبح ذلك كله جزءاً من اللغة العربية ، ولم يكن باستطاعة جغرافيي العرب وهم يجوبون الآفاق ، وهم يصعدون الجبال ويخترقون الوديان ويخوضون البحار ويرون من حيوانات ونباتات ، إلا أن يرددوا أسماء هذه الأماكن والبقاع بلغة أصحابها العائشين بالقرب منها ، وتصبح الأسماء هذه كلها كلمات عربية .

وعند ما ذهبوا إلى أبعد من ذلك فبدءوا ينقلون علوم هذه الشعوب وآثار من سبق ، فترجموا عن الفارسية والهندية واليونانية ، لم يكن فى استطاعتهم إلا أن ينقلوا العلوم الجديدة التى لا عهد لهم بها من قبل ، بأسمائها ، وأن ينقلوا اصطلاحات هذه العلوم بألفاظها التى وضعت لأول مرة من أجلها ، غير محدثين فيها من تغيير إلا التغيير اللازم لإحسان نطقها وإعرابها وتصريفها بوضعها فى القالب العربى على الأوزان العربية واستخدام الحروف الأسهل . وعن هذا الطريق دخلت كلمة الفلسفة والفيلسوف والإيساغوجى والإصطقس وعشرات بل مئات من الكلمات التى تصادف دارس الفلسفة فى الكتب العربية .

وعند ما نقلوا علم الطب عن جالينوس وسقراط ، لم يكن باستطاعتهم إلا أن ينقلوا أسماء الأمراض كما نطق بها جالينوس ، وأن يستعملوا أسماء الأدوية الجديدة عليهم بأسمائها الإغريقية .

وهكذا كان الشأن وهم ينقلون عن هذه المجتمعات كلها نظمها وعلومها . إذ لم يكن أمامهم إلا استعمال الألفاظ المستعملة نفسها ، فإذا كان الدرهم والدينار أسمى العملة المتداولة وهما كلمتان روميتان ، أو بالأحرى يونانيتان فإنهما يصبحان كلمتين عربيتين بعد أن تصاغا هذه الصياغة لتناسب الوزن العربى والنطق العربى .

وعندما ينظمون الدواوين فلا مناص من استعمال هذه الكلمة الفارسية التي ترمز لهذا النوع من التنظيم، وعندما ينظمون البريد مثلا فلا مناص من استعمال هذه الكلمة الفارسية التي تطلق على الأفراس أو البغال التي كانت تنقل البريد .

ومن هذا الطريق استوعبت اللغة العربية كل التراث الإنساني الذي ساهمت في تكوينه جميع الشعوب .

وهذه الحقيقة الخاصة بتأثر اللغة العربية بعد الإسلام باللغات المختلفة ، من الأمور التي يسلم بها جميع الباحثين في اللغة العربية ، ولكن الجديد والطريف في الوقت عينه ، هو أن يعرف أن تأثر اللغة العربية بسائر لغات العالم لم يحدث فقط بعد الإسلام، بل إنه كان قبل الإسلام وإبان الجاهلية بحيث إن ألوف الكلمات التي يتصور المتصورون أنها عربية ممعنة في العروبة ، ليست في حقيقتها إلا كلمات فارسية أو لاتينية أو يونانية أو هندية أو حبشية وهكذا .

ولا ينبغي أن يفاجأ أي قارئ بهذا الذي نقوله فليس ذلك إلا تطبيقاً لما جعلناه عنواناً لهذه الفقرة من أن اللغة لا يمكن أن تكون إلا حصيلة التراث الإنساني كله . ولو استحضرنا في أذهاننا أن العرب أقوام يعيشون في الصحراء عيشة بداثية بحتة ، حيث لا علوم أو فنون أو صناعات فضلا عن حضارة ، فباستطاعتنا أن ندرك أن كل ما جاء في اللغة العربية منذ الجاهلية من أسماء أنواع الملبوسات والمفروشات والمطاعم والأدوات والمهمات والأدوية وغيرها لا يمكن إلا أن تكون مستوردة من الخارج بعد ما نطقت بأصوات العرب ووضعت في قوالبهم وأوزانهم .

فعندما نجد في العربية القديمة أسماء الزهور من أمثال الآس والياسمين والنرجس والبنفسج والجلنار والسوسن والقرنفل والورد.. فلا يجب أن ندهش إذا علمنا أن هذه كلها كلمات فارسية الأصل فليس في صحراء العرب

زهور . . وكان على العرب عندما يرون هذه الزهور لأول مرة أن يكرروا الأصوات التى قيلت لهم باعتبارها أسماءها .

وعندما نجد فى العربية القديمة كلمات تدل على مواد العطارة كالفلفل والكراوية والزنجبيل والقرفة والكافور والمسك والعنبر والصندل . . . إلخ

أو أسماء مختلف أنواع الأقمشة كالخز والديباج والإستبرق والسندس .

أو أسماء الأحجار الكريمة كالياقوت والزبرجد والفيروز والبلور والماس

أو أسماء الأطعمة كالكعك والسميذ والفالوذج والموذنج والجلاب. إلخ

أو الأدوات المصنوعة ، كالكوز والإبريق والطشت والخوان والطبق والقصعة . . .

أو أسماء بعض الآلات والمهمات كالقبان والإصطرلاب والإزميل والقسطل والقنطار والترياق والقنطرة والقسطاس والصراط والفندق .. إلخ

بل إن بعض الكلمات الدينية نفسها ككلمة نبى وفردوس وجهنم نجدها مأخوذة إما من العبرية أو الحبشية أو اليونانية (١) .

القرآن والكلمات الأعجمية :

وقد تصور كثير من علماء المسلمين منذ عصر مبكر أن هذه الحقيقة ، وهى أن العديد من الألفاظ العربية مستمد فى حقيقته من اللغات الأعجمية ، يتعارض مع ظاهر القرآن ، من أنه قرآن عربى نزل باللغة العربية ولا يستعمل غير كلمات عربية « إنا أنزلناه قرآناً عربياً » ...

---

(١) اقرأ كتاب اللغة العربية لجورجى زيدان وتعليقات الدكتور مراد كامل أستاذ اللغات السامية على هامش هذا الكتاب .

والحق أن هذا الأمر لا يؤلف إشكالا من أى نوع كان ، فالعربية هى ما كان العرب يتكلمون بها ، وما دامت هذه الألفاظ كانت جارية على ألسنتهم ، وفق النطق العربى موزونة على الموازين العربية ، معربة بالإعراب العربى ، فهى كلمات عربية ولم تعد أجنبية ، وفى هذا يقول ابن جنى فى الخصائص : « إذا قلت طاب الخشكنان (كلمة فارسية تعنى البسكويت) فهذا من كلام العرب لأنك بإعرابك إياه قد أدخلته كلام العرب » [1] .

وقد بحث العلامة الإمام الأسيوطى هذا الموضوع . . موضوع الكلمات الأعجمية فى القرآن فى كتابه الاتقان فقال ما ننقله عنه فيما يلى :

« وأقوى ما رأيته فى الموضوع وهو اختيارى ما أخرجه ابن جرير بسند صحيح عن أبى ميسرة التابعى الجليل قال (فى القرآن من كل لسان) وروى مثله عن سعيد بن جبير ووهب بن منبه ، فهذا إشارة إلى أن حكمة وقوع هذه الألفاظ فى القرآن أنه حوى علوم الأولين والآخرين ونبأ كل شىء فلا بد أن تقع فيه الإشارة إلى أنواع اللغات والألسن لتتم إحاطته بكل شىء ، فاختير من كل لغة أعذبها وأخفها وأكثرها استعمالا » [2] .

وبعد أن اطمأن السيوطى إلى هذا الرأى ، راح يستعرض العديد من الألفاظ التى وردت فى القرآن ويردها إلى أصولها من اللغات الفارسية والعبرية والقبطية والحبشية والرومية . فذكر الكلمات الآتية التى يتصور كل ناطق بالعربية أنها من أعرق الألفاظ العربية .

---

(١) ابن جنى – الخصائص – ص ٣٥٧ .

(٢) الإتقان – للسيوطى – ص ١٣٧ .

« بعير — جهنم — حواريون — الأرائك — الأسباط — الجبت — الرحمن — الرقيم — سفر — السجل — سرادق — الصراط » .

وهكذا يؤدى بنا البحث فى اللغة العربية كما سجلها القرآن وحفظها حتى اليوم ، أنها حصيلة لغات الإنسانية التى سبقتها كلها . . أما لماذا نقول إن هذه الكلمات هى من هذه اللغات ولا نقول إنها من العربية فى هذه اللغات ، فمرجع ذلك إلى أن هذه الأشياء كانت دائماً مجلوبة ومستوردة ، فعندما نجد كلمة القلم فى اللغة العربية ثم نراها فى اللغة اليونانية (كلامس) ، فلا يجوز أن يقال إن أصلها عربى ثم انتقلت إلى اليونانية ، لأن العرب كانوا لا يكتبون وسبقهم الاغريق إلى الكتابة فيكون الأقرب إلى التصور أن اسم أداة الكتابة وهو القلم يونانى انتقل إلى العربية وليس عربياً انتقل إلى اليونانية .

على أن الأمر يستوى فى نظرنا نحن الذين نقول بأن أى لغة من اللغات هى حصيلة التراث الإنسانى كله . . فسواء كان الأصل فى هذه الكلمات هو العربية وانتقلت منها إلى باقى اللغات أو العكس فالنتيجة واحدة فى الحالين ، وهى وحدة التراث الإنسانى .

اللغة العربية كما نستعملها اليوم :

وإذا كان هذا البحث فى الأصول التاريخية يحتاج إلى شىء من الجهد والمشقة ، فإننا لو درسنا اللغة العربية كما نستعملها فى الوقت الحاضر لتبينت لنا هذه الحقيقة التى نقول بها فى يسر وسهولة ، وحسبى أن أثبت لك بعض الألفاظ التى أصبحت تجرى على ألسنتنا فى حياتنا اليومية ، ونكتبها فى صحفنا ، وننطق بها فى إذاعاتنا على أنها لغة عربية من صميم لغتنا وهى كما قلنا ونقول ، حصيلة اللغات الإنسانية كلها منطوقاً وملفوظاً

بأصواتنا ومخارج حروفنا ، ومكتوباً ومعرباً بقوالبنا وقواعدنا النحوية .

وإليك على سبيل المثال :

الميكروسكوب — التلسكوب —

الراديو — التلفزيون — التلفون — التلغراف — الرادار — الميكرفون — السينما — الفيلم — الأتوموبيل — الكاميرا — الفوتوغرافيا — الفونوغراف — البيك آب — الكابريه — الترام — المترو — البص أو الأتوبيس . . . إلخ

ومن الكلمات الدالة على ملابس :

الجاكته — البنطلون — البالطو — الفستان — الإشارب — الروب — النيلون — وجميع أسماء الملابس النسائية .

ومن كلمات الزينة :

البودرة — الروج — المكياج — البارفان — الكوافير .

وجميع الألفاظ والمشتقات الخاصة بهذه العمليات .

كلمات منزلية : الصالة — الصالون — التواليت — الفرندة — البلكونة — الأسانسير — الكنبة — الاستديو — البرفان — البوتاجاز — الفريجيدير . إلخ

ومن أسماء الأمراض :

الأنفلوانزا — التيفود — التيفوس — الروماتيزم — اللمباجو — الدفتريا — الإنكلستوما — البلهارسيا — الدوسنتاريا . . إلخ

ومن أسماء الأدوية :

الأسبرين — البنسلين — الكورامين — المورفين — السلفا — الكينين إلخ . . .

وليست هذه الألفاظ إلا عينة أردت بها أن ألفت نظر القارئ إلى مدى تغلغل الكلمات الأجنبية فى حياتنا اليومية ، كل ذلك ولم تطرق بعد إلى مختلف فروع العلم إذ تكاد اصطلاحات تسعة أعشار هذه

العلوم تنطق بلغاتها الأجنبية ، وما عليك إلا أن ترى الأطباء وهم يتحدثون أو المهندسين وهم يتدارسون لترى مصطلحاتهم كلها من عديد من اللغات.

كلمات عربية لا يفهمها السابقون :

بقى أن فى لغتنا العربية المعاصرة ، كلمات وإن كانت حروفها عربية وهى من نحتنا نحن العرب ، ولكنا اوجئنا بعربى منذ مائة سنة فقط لما فهم منها ما نفهمه منها اليوم ولكانت بالنسبة له كلمة أعجمية بحتة . مثال ذلك كلمة الطيارة ، أو السيارة أو المسرح أو الإذاعة ، أو الجامعة ، أو الكلية ، أو الحياة النيابية أو الاشتراكية والشيوعية ، فهذه الكلمات التى نعتبرها اليوم عربية من صميم العربية ، لا يمكن أن يفهمها عربى منذ مائة سنة فقط فضلا عن ألف من السنين ، فكلمة سيارة مثلا وردت فى القرآن بمعنى القافلة . كما لا يمكن أن يفهم من ألفاظنا التى نحتناها كالقومية والشيوعية أو الاشتراكية شيئاً من المعانى التى نرمز إليها بهذه الكلمات .

الحكم واحد بالنسبة لسائر اللغات :

ولا يتصور متصور أن هذا الذى ذكرناه خاص باللغة العربية دون سائر اللغات ، فلو أنا رجعنا إلى اللغة الإنجليزية على سبيل المثال لوجدناها تحقق نفس الظاهرة ، وهى أن اللغة أى لغة لا يمكن إلا أن تكون حصيلة التراث الإنسانى كله .

فاللغة الإنجليزية هى فرع من الأنجلوسكسونية ، التى هى بدورها فرع من اللغة الجرمانية التى هى فرع من اللغة الآرية ، أى أن أصول اللغة الإنجليزية

تحمل تراث البشرية فى القديم مجتمعاً ، حتى إذا جاءت العصور الحديثة أى منذ ألفين من السنين استطعنا أن نميز فى اللغة الإنجليزية على ما تقول دائرة المعارف الإنجليزية :

- طبقات من اللغة اللاتينية
- وفرنسية العصور الوسطى
- ولاتينية حديثة وإغريقية
- ثم فرنسية حديثة
- وإيطالية

وعند هذا الحد تقف دائرة المعارف البريطانية فلا تشير أن فى اللغة الإنجليزية عشرات بل مئات من الكلمات العربية التى تدل على الفواكه والأقمشة والمنتجات والأغذية والأدوية التى نقلها الأوربيون فى العصور الوسطى من أمثال Lemon أى الليمون ، و sugar أى السكر ، و Cotton أى القطن ، والقهوة Coffee ، واللون القرمزى Crimson وحرير الموصل Muslin وغيرها .

بل فات دائرة المعارف أن تذكر أن كلمات علوم بأسرها هى كلمات عربية من أمثال Algebra - Kemistry أى الجبر والكيمياء هى كلمات عربية . . . بل فاتها أن تذكر وقد كانت إنجلترا فى وقت من الأوقات سيدة البحار أن رتبها البحرية ليست سوى كلمات عربية . فالأميرال Admiral ليست سوى أمير البحر العربية ، والكابتن Captain ليست سوى الكلمة العربية قبطان ، وكلمة Arsenal أى الترسانة هى « دار الصناعة » .

ولا عجب فى ذلك فقد كانت الحضارة وكانت العلوم فى العصور الوسطى علوماً عربية ، وكان على أوربا لتأخذ العلم والحضارة أن

تأخذها عن العرب ، فنقلت المعارف بأسمائها العربية ولم يكن باستطاعتها أن تفعل غير ذلك . ولا تزال الأرقام فى اللغات الأوربية كلها تنم عن أصلها العربى ، ولا تزال ترسم كما رسمها العرب تقريباً ، ولا يزال يطلق عليها اسم الأرقام العربية . أما كلمة الصفر فلا تزال تستعمل بنصها العربى . وعندما امتدت الإمبراطورية الإنجليزية وشملت شعوباً من أفريقيا وآسيا ، كان لا مناص من أن تستوعب اللغة الإنجليزية ، أسماء كل المسميات بلغة أصحابها ، وأن يصبح ذلك كله جزءاً من بنية اللغة الإنجليزية ، كما أصبح من بنية اللغة العربية فيما مضى . . .

وهكذا يتضح ما قلناه من أن أى لغة حية تتفاعل مع الأحداث ولا تعيش فى عزلة عن تيار الحياة لا يمكن إلا أن تكون حصيلة التراث الإنسانى كله ، بكل فروعه وتشعباته وتجاربه .

وحدة العلم والثقافة :

وبغير هذه الحقيقة لم يكن من المستطاع أن يكون للإنسانية علم واحد ينتفع به على مر العصور والدهور ، وثقافة مشتركة هى ثقافة بنى الإنسان مجتمعين ، فكيف كان من الممكن أن تترجم الآثار الإنسانية العقلية منها والفنية من لغة إلى أخرى ، إلا إذا كان هناك أساس مشترك لهذه اللغات كلها ، وما الأساس فى حقيقته إلا العقل الإنسانى خالق اللغة وسيدها ، وقد رأينا فى تاريخ الإنسانية ، كيف انتقلت دائماً المعارف الإنسانية فى يسر وسهولة من شعب إلى شعب ومن أمة إلى أخرى ، دون أن يقف اختلاف اللغات حائلا دون تمام ذلك .

فالمعارف المصرية القديمة قد انتقلت إلى الإغريق ، ومن خلال الإغريق انتقلت إلى اللاتين أى الرومان ، ثم انتقل ذلك كله إلى العرب فى القرون الثلاثة الأولى للإسلام بصفة خاصة .

وبدأت أوربا نهضتها الحديثة فى العصور الوسطى بالنقل من العربية إلى اللغات الأوربية ، وعندما رغب بطرس الأكبر فى النهوض بروسيا للحاق بركب الحضارة الأوربية بدأ بالنقل والترجمة .

ولم تنهض اليابان إلا بعد أن أقدمت على ترجمة أمهات الكتب العلمية الأوربية .

ونحن العرب لم نبدأ نهضتنا الحديثة منذ أيام محمد على إلا عندما شرعنا نترجم عن اللغات الأوربية .

ولم يكن عجيباً ولا مستغرباً أن نكتشف ونحن ننقل عن الغرب ، أنهم قد سبقونا للاستفادة من تراثنا العربى والإسلامى ، فوجدنا عندهم عشرات الألوف من الكتب والمباحث والدراسات فى أخص خصائصها التاريخية والأدبية والدينية ، حتى لقد وجدنا عندهم الكتب العربية التى تسجل سيرة نبينا وقد أعيد طبعها وتنظيمها وتبويبها كسيرة ابن هشام ، وجدنا عندهم قرآننا مفهرساً ومرتباً على حسب الموضوعات ، بل وجدنا عندهم مفتاحاً لكنوز السنة ، حيث يكفى أن يعرف الإنسان لفظة واحدة من أى حديث نبوى لكى يستدل على نص الحديث بتمامه وكماله وعن مكانه . ووجدنا عندهم دائرة معارف إسلامية ووجدنا عندهم كبرى موسوعاتنا التاريخية كتاريخ الطبرى ، ووجدنا عندهم المباحث العميقة للغتنا وأصولها واشتقاقاتها وأدبها وشعرها ونثرها ، ووجدناهم يجوبون العالم بحثاً خلف مخطوطاتنا القديمة وبحثاً خلف جزء ناقص من كتاب ، أو لتصويب نسبة ديوان شعر إلى صاحبه ، وهكذا رأينا أنفسنا مضطرين أن نوفد البعوث إلى جامعاتهم ، والجلوس منهم مجلس التلميذ لتلقى الكثير

من أصول لغتنا وتاريخنا بل ديننا [1] ، بحيث قاد نهضتنا الأدبية الحديثة من تخرجوا من جامعات أوربا .

وهذا إن دل على شيء ، فعلى أن العلم لا وطن له والمعرفة تراث إنسانى ، وأنه لا الخلاف فى اللغة أو الدين أو الحظ من السلطان بالذى يحول دون وحدة التراث الإنسانى ، واهتمام كل عالم وكل مثقف وكل باحث ودارس ، بالإنسانية فى مجموعها ، يرجع إلى أنه غير قادر على أن يضيف للعلم جديداً ، أو يخترع أو يكتشف أو يستنبط إلا أن ينظر فى آثار كل من سبق ، وقد حقق العلماء ذلك عن طريقين ، إما بأن يطالعوا هذه الآثار فى لغتهم بعد أن يكون الآخرون قد تولوا ترجمتها إلى لغتهم ، وإما أن يكون بتعلم اللغة الأجنبية لمطالعة هذه الآثار فى لغاتها الأصلية .

وما من متعلم فى عصرنا الحديث فضلا عن مثقف أو عالم إلا يعرف لغة أجنبية أو أكثر ، أو على أقل تقدير يطالع إنتاج العلماء الآخرين أو الأدباء والمفكرين والفنانين منقولا إلى لغته الخاصة . وهذا ما يجعل المثقفين فى مختلف شعوب الأرض يحسون بقدر من التعاطف فيما بينهم، بل يحسون برباط خاص يربطهم بعضهم ببعض ، مهما اختلفت أجناسهم أو شعوبهم أو الأوضاع السياسية ، بأكثر مما يتعاطفون مع مواطنيهم من غير العلماء والمثقفين . وكم من عالم تطالع كتبه وتدرس فى غير بلاده ، بأكثر مما تقدر فى موطنه ، وكم من أديب أو فنان يلقى النجاح والرواج بين شعوب غير شعبه وخارج حدود بلاده ، إحساساً منه بوحدة التراث الإنسانى ، وكم شهدنا من علماء أفنوا حياتهم لإحياء

---

(١) أوفد الأزهر أعظم جامعة إسلامية وأقدم جامعة فى العالم بعثة إلى ألمانيا « بعثة محمد عبده » للاستفادة من البحوث الألمانية فى الدراسات الإسلامية .

تراث شعوب غير شعوبهم و بلاد غير بلادهم ، ولعل من أظهر الأمثلة فى عصرنا الحديث هو مساهمة علماء العالم ومثقفيه للعمل على إنقاذ معبد أبى سنبل من الغرق نتيجة إنشاء السد العالى فى مصر ، حيث تسارع الجميع مابين نداء مصر لمد يد العون المادى والأدبى لتحقيق هذا الغرض النبيل .

لا يعرف التاريخ حروباً بسبب اختلاف اللغة :

وآخر ما نسوقه فى هذا الموضوع لإثبات أن اختلاف اللغات لا يشكل أى حاجز بين الشعوب ، ولم يكن فى يوم من الأيام مصدر متاعب للإنسانية ، أن التاريخ قد حوى بين صفحاته المعجب والمطرب من أسباب قيام الحروب واشتعالها بين الشعوب والأمم ، فقامت الحروب للخلافات الدينية والمذهبية والسياسية ، وقامت لاغتصاب هذا الشيء أو ذاك ، وقامت للأخذ بالثأر والانتقام والرغبة فى الاستعلاء ، وقامت نتيجة الطمع ومجرد الرغبة فى الإيذاء ، ولكن التاريخ لم يسجل لنا حرباً واحدة . . واحدة فقط قامت بين أمة وأمة بسبب اختلاف اللغة أو لغرض فرض لغة قوم على آخرين ، حقا لقد قامت حركات فى داخل البلد الواحد فى القرن التاسع عشر لفرض لغة معينة على المحكومين أو لمقاومة فرضها ، ولكن الحرب لم تقع أبداً بسبب اللغة ، وهو ما يقطع بأن اللغة لا تؤلف أحد أسباب الخلاف أو المنازعات بين البشر .

لغة واحدة برموز مختلفة :

وإلى هنا نكون قد انتهينا سواء من الناحية البيولوجية الفسيولوجية ، أو من الناحية التاريخية والاجتماعية ، أو من الناحية الواقعية ، إلى إظهار وحدة اللغة الإنسانية ، وأن الرموز الدالة على شيء واحد إن اختلفت ، فليس أيسر على العقل من أن يحل رمزاً مكان رمز ، وكان من نتيجة ذلك أن أصبح من أيسر الأمور أن يتفاهم الإنسان مع أخيه الإنسان بمجرد تلاقيهما وإن جهل كل منهما لغة الآخر ، بل حتى لو كان أحدهما أو كلاهما فاقد القدرة على النطق من أساسها .

ورأينا فيما مرّ بنا ، أن اختلاف اللغات لم يؤلف أبداً حاجزاً بين الشعوب فضلاً عن انتقال المعارف وآثار المدنية من مكان إلى مكان .

العلم الحديث والتكنولوجيا يقضيان على آخر صعوبة من جراء تعدد اللغات :

وقد بقي أن نضيف إلى ما سبق آخر ما انتهت إليه التطورات العلمية ، التي مكنت الإنسان من اختراع الآلات التي أجهزت نهائياً على أي صعوبة تنشأ من جراء اختلاف اللغات ، وذلك ابتداء من الراديو والترجمة الفورية ، وانتهاء بالترجمة الآلية عن طريق العقول الألكترونية .

فأما بالنسبة للراديو ، فقد أصبح بقدرة أي إنسان أن يقف على ما يجري في أنحاء العالم بلغته الخاصة وقت حدوثه ، ليس فقط من مذياع دولته بل من مذياع أي دولة أخرى ، حيث بدأت كل أمة تذيع أخبارها

وإنتاج ثمرات عقول أبنائها بمختلف اللغات ، كما بدأت كل دولة من ناحيتها تنقل ثمار العقول الإنسانية المختلفة إلى لغتها .

الترجمة الفورية فى المؤتمرات الدولية :

وفى المؤتمرات الدولية التى أصبحت شعار العصر وطابعه ، والتى بدأت تعقد فى كل يوم بل فى كل ساعة فى مختلف أقطار العالم لمعالجة شتى الموضوعات التى تمس البشرية سواء فى الميادين السياسية أو الفكرية أو العلمية أو الأدبية أو الرياضية ، نرى المجتمعين فى هذه المؤتمرات لم يعودوا يجدون أى صعوبة للتفاهم فيما بينهم كما لو كانوا أبناء أسرة واحدة ، وذلك عن طريق الترجمة الفورية لكل لغة يتلفظ بها ، ثم إعادة إذاعة ما قيل بشتى اللغات التى تناسب كل واحد من المؤتمرين وهكذا يصغى الجميع للمتكلم ويتلقون عنه كلامه كلمة كلمة بلغاتهم الخاصة ، ثم يردون عليه بنفس الأسلوب .

الترجمة الآلية الألكترونية :

ويأبى العصر الحديث إلا أن يثبت بطريقة حسابية واقعية لا تحتمل الجدل وحدة اللغة الإنسانية وإن اختلفت رموزها ، إذ جعل بقدرة الآلات أن تحول هذه الرموز مكان بعضها البعض ، فأصبحوا يحدثوننا عن العقول الألكترونية الجبارة التى تملكها البحرية الأمريكية وغيرها والتى توضع بها المؤلفات الروسية والمقالات والأبحاث الخاصة بالذرة والفضاء بل الصحف اليومية ، لتخرج بعد ذلك مترجمة إلى اللغة الإنجليزية فى دقائق إن لم يكن لحظات . وليس ذلك سوى البداية ، فقد أعلن أخيراً

عن البدء فى إنتاج أجهزة ألكترونية صغيرة الحجم يستطيع أى إنسان أن يحملها ، لتقوم له بعماية ترجمة الكلمات الأساسية فى أى لغة من اللغات وإذا كان ما يقال من أن هذه الآلات ستكون قاصرة فى بادئ الأمر على ترجمة خمسمائة كلمة فليس ذلك سوى البداية . . ومعنى ذلك أنه لن يمر وقت طويل حتى يكون بقدرة أى إنسان أن يحمل جهازاً صغيراً فى حجم الترانزستور ، لكى يتفاهم مع أى إنسان فى أرجاء العالمين بأى لغة .

والخلاصة :

والخلاصة أن الوقت قد حان للكف عن المبالغات والتهويلات التى تضفى على اللغة وإظهارها فى صورة الأساس الأول إن لم يكن الأوحد الذى يقسم البشر إلى أمم وشعوب وقوميات متباينة . فمثل هذه الأقوال إن صلحت فى القديم ، حيث كانت القداسة تضفى على الكلمات والألفاظ وتعزو إليها قوى سحرية وقدرات غامضة ، فإن ذلك لم يعد يناسب زمناً أصبحت الآلات فيه تتولى الترجمة ونقل رموز الكلمات من لغة إلى لغة . وإذا كنا نحن ممن يؤمنون بما للألفاظ من قوة بالفعل ، فإن هذه القوة هى قوه الناطق بهذه الألفاظ لا فى الألفاظ نفسها .

وقد آن الأوان لكى نتواصى بوضع اللغة فى مكانها الصحيح وهو ما لانفتأ نقوله ونكرره من أنها أداة كأى أداة أخرى اخترعها العقل الإنسانى لإشباع حاجاته ، وتحقيق أغراضه فى حياة أسعد وأكمل ، فينبغى النظر إلى اللغة دائماً على أنها من صنع الإنسان ومن أجل الإنسان ، وليس الإنسان من أجل اللغة .

وإنه لا يوجد بين البشر سوى لغة واحدة ، هى اللغة الإنسانية التى مهما تعددت رموزها ، واختلفت أصواتها ، فدلولاتها واحدة وأصلها فى

عقل الإنسان ، ولولا أن اللغة واحدة لما كان باستطاعة الآلات ، أن تقوم بترجمتها أى إحلال رموز محل رموز ، لأن الرموز كلها من طبقة واحدة ، حيث لا تستطيع آلات الدنيا كلها مجتمعة أن تغير من لون الإنسان فتحوله من أسود إلى أبيض أو من أصفر إلى أحمر ، فضلا عن أن تطيل فى قامته أو تنقص من طوله ، وما ذلك إلا لأن هذه الخلافات من طبيعة مختلفة ، وليس كذلك الخلاف بين اللغات والكلمات والألفاظ .

خاتمة

فى وحدة التاريخ والمصلحة والمصير

قلنا فى مقدمة هذا البحث إننا يجب أن نروض أنفسنا على أسلوب جديد من التفكير، يتناسب وما وصل إليه الإنسان من رقى علمى وتكنيكى جعل من الكرة الأرضية وطناً واحداً للنوع الإنسانى، بحيث أصبح باستطاعة أى إنسان أن يقول العالم قريتى.

ولقد انتهينا فى الفصول الثلاثة المتقدمة إلى إثبات وحدة الأرض باعتبارها منبت الإنسان ومآله فى النهاية، ثم كشفنا عن وحدة الجنس الإنسانى المنحدر من صلب إنسان أول، أيًّا كان الخلاف على تصوره، فالاتفاق على وحدته. وانتقلنا بعد ذلك للحديث عن وحدة اللغة، باعتبارها نتاج العقل البشرى ومناط إنسانيته وأظهرنا كيف أن أى لغة من لغات العالم فى العصر الحديث لا يمكن إلا أن تكون حصيلة التراث الإنسانى السابق عليها.

وحدة التاريخ :

ومثل ذلك يقال عن تاريخ الإنسان، الذى يقدر له البعض عمراً على هذه الأرض مليوناً من السنين فى حين يهبط البعض بهذا الرقم إلى مائة ألف سنة أو أقل من ذلك، وأيًّا كان القدر الذى عاشه الإنسان الأول، الذى تمت له بصلة القربى، على هذا الكوكب، فقد عاش القدر الأكبر من حياته وهو لا يعرف له وطناً إلا هذه الدنيا الفسيحة من حوله

لا يصده عن التنقل فيها حدود سياسية أو حواجز جمركية ، أو جوازات سفر وتأشيرات دخول وخروج .

عاش الإنسان الجزء الأكبر من حياته على هذا الكوكب يرى فى نفسه نوعاً ، يختلف عن سائر ما فى الدنيا من أنواع ، فلم يبذل نشاطه فى معاداة نوعه ، فضلا عن أن يعمل على القضاء عليه ، وإنما كرس كل جهده فى التغلب على ما يعرض له من مشاكل طبيعية ، ساعياً لتوفير التعاون مع أبناء جنسه وأفراد نوعه .

والرأى على أن الإنسان لم يعرف الحرب بين جماعاته إلا فى وقت قريب جداً ، وفى هذا يقول لنا جوليان هوكسلى العالم المادى الكبير ، فى كتابه « الإنسان فى العالم الحديث » :

« الحرب ظاهرة بيولوجية نادرة جداً ، وليس يوجد إلا نوعان من الحيوانات ، من عادتهما الاشتباك فى الحروب ، وهما الإنسان والنمل . بل إن النمل لا يمارس الحرب منه إلا جماعة واحدة فى الغالب ، وكثير من علماء تاريخ السلالات البشرية يعتقدون أن الحرب ، أو على أية حال الحرب المنظمة المألوفة ، لم تنشأ فى مراحل تطور الإنسان ، إلا عند ما وصل إلى طور المدنية المستقرة ، وبدأ يكنز الحبوب وغيرها من صنوف الثروة » .

ونحن نعلم أن عصر المدنيات والحضارة ، لم يبدأ إلا منذ سبعة أو ثمانية آلاف سنة على الأكثر ، على حوضى الدجلة والفرات من ناحية وحوض النيل من الناحية الثانية ، عند ما بدأت القبائل تستقر فى مدن لتمارس الزراعة ، وبدأت المدن المتقاربة تخضع لحكم أمير واحد ، ومن ثم بدأت هذه الوحدات الجديدة تدخل فى حروب مع جيرانها ، لتؤلف وحدة أكبر ، وهكذا نشأت الدول والإمبراطوريات ، التى

حاول كل منها أن يفرض سلطانه على من يجاوره من خلال المعارك والحروب .

على أن الظاهرة المؤكدة أن الحروب والمعارك ظلت فى أضيق نطاق لا تتعرض فيه لغير المحاربين ، مما جعل تيار الحضارة يتدفق دوماً للأمام لا يعرقله زوال إمبراطورية وقيام إمبراطورية جديدة .

بل ربما كان الاحتكاك بين الجماعات ، والمعارك بين الدول ، من أكبر الحوافز للخلق والابتكار والإبداع .

ولقد كتبت منذ أكثر من عشرين سنة والحرب العالمية الثانية مشتدة الأوار رسالة فى موضوع الحرب ، أثبت فيها أن كثيراً مما حققه الإنسان من اختراعات واكتشافات إنما تم من خلال الحروب والمعارك ، حيث كان كل إنسان يقدح زناد فكره لابتكار أسلحة ووسائل يهزم بها خصمه ، وقد استخدمت هذه المبتكرات بعد ذلك فى أيام السلم فضاعفت فى رخاء الإنسان وقدرته على الإنتاج .

وهكذا عاشت البشرية حتى الآن وهى تمسك بالفأس فى يد تزرع بها وتنتج ، وتمسك بالسيف فى اليد الأخرى ، تحارب بها وتفتك .

الأسلحة النووية الحديثة :

على أن البشرية قد وصلت اليوم إلى نقطة ، لم تعد الفأس تكفى فيها لإطعام بنى الإنسان ، فلا بد من مشروعات جبارة لإقامة السدود والخزانات لاستغلال موارد المياه ، ولا بد من آليات ومحاريث وجرارات وكيماويات ، كما لم يعد السيف أو الرمح أو حتى المدفع هو آلة القتال ، المحدودة الأثر ، وإنما قنابل ذرية وهيدروجينية وكوبالت ، مما أصبح يطلق عليه اسم قنابل « يوم القيامة » ، ذلك أن الثقات يقررون بالإجماع

أنه لو قامت حرب نووية فإن ضحاياها فى الساعات الأولى للمعركة سوف يتجاوز ثلثمائة مليون نسمة من سكان المدن الكبرى ومراكز الإنتاج الصناعى والعلمى والثقافى . أما استمرار الحرب بعد ذلك لبضعة أيام أخرى ، فإن هذا يعنى فناء البشرية كلها .

ولننقل لك فقرة من تقرير هيئة الأمم عن نزع السلاح لعام ١٩٦١ :

« إننا نشك فى استمرار وجود العالم بأى شكل من الأشكال دون نزع السلاح ، إن شبح الموت يسيطر علينا ، فإن طيران سرب من الإوز البرى فى هدوء عبر أركاتيكا البيضاء (القارة القطبية) ، ثم دخوله فى نطاق تحذير شاشة رادار أمريكى أو سوفييتى ، تتصوره الشاشة على أنه صواريخ ، فتتأهب حكومة الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفييتى للقيام بالضرب النووى المضاد كما تقضى الحالة ، فيبدأ إعصار الحرب النووية ، فى حين يطير الإوز فى هدوء إلى الأمام . والحق أن الإوز سيكون هو المخلوق الوحيد الذى يظل حيا بعد حرب عالمية » .

ولا يظن القارئ أن هذا الذى ختمت به لجنة نزع السلاح تقريرها مجرد فرض نسجته من وحى الخيال ، فهى إنما تشير إلى حادث وقع بالفعل ، فإن محطة الرادار النووية الموجودة فى شمال جرينلند المخصصة للإنذار عند اقتراب قاذفات القنابل السوفييتية ، قد أعطت الإنذار فقام الطيارون المدربون على أن يكونوا فى الجو فى ظرف دقيقتين بطائراتهم ، حاملة القنابل الهدروجينية ، بالطيران ، ثم اتضح للرادار أن القذيفة التى شوهدت على شاشة الرادار لم تكن إلا سرباً من الإوز[١] » .

فالحروب الذرية اليوم إذا اندلعت ، لن تكون كحروب الأمس ، التى سمحت للحياة الإنسانية ، وللحضارة الإنسانية ، بالنمو والتطور ،

---

(١) كتاب « الأمة الإنسانية » للمؤلف .

بله الازدهار ، إنها حرب إفناء ، إن لم يكن للجنس البشرى فعلى الأقل لحضارته.

الانفجار السكانى :

على أن ثمة خطراً آخر أصبح يهدد الإنسانية ، يكاد لا يقل أثراً فى المدى الطويل عن خطر الحرب النووية ، وهذا الخطر هو ما أصبح يعرف باسم الانفجار السكانى ، والذى يقربه إلى أذهاننا أن البشر يتزايدون بمعدل ثلاثة أشخاص كل ثانيتين ، أى بمعدل تسعين شخصاً فى الدقيقة الواحدة ، و ٥٤٠٠ شخص كل ساعة ، أو ١٢٩,٦٠٠ شخص كل يوم و ٤٧,٣٠٠,٠٠٠ شخص فى السنة ، أى ما يزيد على مجموع سكان فرنسا بأكملها .

وقد أجمعت كل الكتب التى ألفت قبل عام ١٩٦٠ على أن سكان العالم سيصلون فى ختام القرن العشرين ، أى بعد ٣٣ سنة من الآن إلى ثلاثة آلاف مليون نسمة . وقد استند المؤلفون على بيانات هيئة الأمم الدقيقة التى تصدرها كل عام حول عدد المواليد . وكان هناك تخوف من بلوغ العالم لهذا القدر من السكان .

ويتجلى لك خطر الانفجار السكانى ، عندما تعلم أن الأمر لم يحتج إلى انقضاء ثلاث وثلاثين سنة لكى يصل سكان العالم إلى هذا القدر ، فقد تجاوز عدد البشر الآن فى عام ١٩٦٧ ، هذا القدر بعدة ملايين . وأصبح التقدير الجديد لما سيكون عليه عدد السكان فى نهاية القرن ، أى عام ٢٠٠٠ عدداً يتراوح بين ستة آلاف وسبعة آلاف مليون نسمة ، أى ضعف ما كان مقدراً منذ بضع سنوات .

ويقول الخبراء إن العالم لو استمر فى الزيادة السنوية بهذا المعدل ،

فإن سطح الأرض لن يتسع لموطئ أقدام البشر بعد بضعة قرون فقط[1] . ومعنى ذلك أن إنقاذ العالم من حرب ذرية ، من شأنه أن يفضي بالبشرية إلى سلام لا يقل أثراً في تدميرها وإفنائها .

ضرورة التعاون بين البشر :

ولا سبيل لإنقاذ البشرية من هذا الخطر ، إلا بالعمل على رفع مستوى الشعوب المتخلفة شعوب آسيا و إفريقيا وأمريكا اللاتينية ، ذلك أن هذه الزيادة الوفيرة من النسل ، إنما تنشأ نتيجة التخلف ، وكلما ازداد رقى الإنسان قل نسله ، وهى ظاهرة محققة ومؤكدة ، فحيث لا يتزايد سكان أوربا إلا بنسبة ٩ من عشرة من الواحد الصحيح فى المائة ، نرى شعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية تتزايد بنسبة ٢,٣٪ كل عام .

وقد أصبح من المتفق عليه ألا سبيل لرفع مستوى الشعوب المتخلفة ، إلا من خلال تعاون دولى ، حيث يضع القادرون إمكانياتهم المالية والعلمية ، والتكنولوجية ، تحت تصرف الأمم المتخلفة ، وذلك لمضاعفة الإنتاج عن طريق التصنيع ، واستغلال موارد الأرض إلى أقصى حد ، وزراعة المستنقعات والغابات والصحارى ، وتحويل مياه البحر التى تؤلف ثلثى مساحة الكرة الأرضية ، إلى مصدر رئيسى للغذاء ، وكل ما يحتاج إليه الإنسان من معادن لازمة لصناعاته .

المائة العام القادمة :

وقد وضعت خطط محسوبة ومدروسة للارتفاع بمستوى الإنسانية كلها فى المائة العام القادمة ، إلى مستوى الحياة الأمريكية الحاضرة ،

---

(١) « الأمة الإنسانية » للمؤلف .

وقد وجد أن فى الأرض من الموارد والمصادر ما يكفى لتحقيق هذا الهدف شريطة أن يبدأ البشر منذ الآن تعاونهم فى إخلاص وصدق فى ظل هيئة الأمم وسيادة حكم القانون فى العلاقات بين الدول بعضها ببعض (١) .

نموذج من العالم العربى :

وحسبنا أن نلقى نظرة على العالم العربى فى حاضره ، وماذا يمكن أن يكون عليه حاله فى غده لو أنه تعاون فيما بينه ، لكى تتضح لنا صورة العالم كله إذا تعاون .

فالعالم العربى يبلغ من حيث المساحة ١١ مليون كيلو متر مربع ، أى قدر مساحة أوربا مجتمعة . وفى هذه المساحة الكبيرة لا يوجد من السكان سوى ٩٠ مليون نسمة ، حيث تغص أوربا بـ ٤٣٤ مليون نسمة .

وبالرغم من أن سكان العالم العربى لا يؤلفون إلا أقل من ٣٪ من سكان العالم ، فإنهم ينتجون من القمح ٣٥٪ من الإنتاج العالمى أى ٧ ملايين طن بل إن مقدار ما ينتجه العالم العربى من الحبوب الغذائية (قمح وشعير وذرة) يبلغ ١٧ ملايين طن ، أى أنه يخص الفرد الواحد ٢٠٠ كيلوجرام سنويا وهو قدر يفيض عن الحاجة (٢) .

كما ينتج العالم العربى ٣ ١/٤ ملايين طن من الكروم وهو ما يساوى ٨٪ من الإنتاج العالمى ، و ١,٥ مليون طن من الحمضيات ، وهو ما يساوى

---

(١) « الأمة الإنسانية » للمؤلف .

(٢) الموارد الاقتصادية فى العالم العربى — الدكتور محمد صبحى حكيم .

٩٪ من الإنتاج العالمى . ويوجد بالعالم العربى من الثروة الحيوانية أكثر من مائة مليون رأس ما بين أبقار وجاموس وإبل وأغنام ، أى بنسبة أكثر من رأس لكل فرد من السكان؛ وندع حديث الحديد والفوسفات الذى تنتجه بلاد شمال أفريقيا الثلاث : المغرب والجزائر وتونس ، والذى يؤلف نسبة كبيرة من تجارة الحديد الخام والفوسفات فى العالم ، وحسبنا أن نشير إلى البترول العربى الذى أصبح يتدفق من كل شبر من البلاد العربية ، حيث أصبح أكثر من ٦٠٪ من البترول فى العالم موجود فى البلاد العربية . ويوجد فى السودان من الأرض الزراعية ، ما يزيد على مائة مليون فدان ، لا تزرع فى الوقت الحاضر لافتقار السودان فى الدرجة الأولى إلى الأيدى العاملة ، وكذلك الحال فى العراق وسوريا ، التى كانت كل منهما تضم فى عهودها الزاهرة عشرات الملايين من السكان حيث تشكو فى الوقت الحاضر من قلة اليد العاملة .

وتعانى ليبيا بعد اكتشاف البترول بها من قلة اليد العاملة كذلك .

وهذا كله فى الوقت الذى تعانى فيه مصر مشكلة تزايد السكان ، بصورة تعرقل محاولاتها الصادقة ، لرفع مستوى معيشة أبنائها .

القارة الإفريقية :

هذا الوضع بالنسبة للعالم العربى ، هو نفسه وضع القارة الإفريقية كلها ، فحيث تعتبر أفريقيا أغنى قارات العالم على الإطلاق، فإن سكانها القليلى العدد جداً يعانون شظف الحياة .

فأما أنها أغنى قارات العالم ، فإن ذلك يتضح من كونها تمتلك من موارد توليد الكهرباء من مساقط المياه ثلاثة أضعاف ما تنتجه أوربا من هذه

الطاقة(١) ، وتنتج ٩٨٪ من الماس فى العالم ، وأكثر من نصف ذهب العالم ، وكانت حتى سنوات مضت هى المصدر الوحيد لمعدن اليورانيوم .

وهى تملك أغنى ثروة حيوانية فى العالم .

كل ذلك وعدد سكانها لا يزيدون على مائتين وخمسين مليوناً .

علاج العالم العربى والأفريقى والإنسانى :

ولا علاج للعالم العربى ، كما لا علاج للعالم الإفريقى ، والعالم الإنسانى فى مجموعه إلا إذا ارتفع إلى مستوى المسئولية التى أصبح العلم الحديث يفرضها عليه . فيعيد صياغة العلاقات الدولية ، على أساس من التعاون لتحقيق المصلحة المشتركة فى ظل سيادة القانون ، مما فصلناه فى كتابنا « الأمة الإنسانية » .

وبغير هذا التعاون الصادق ، سيبقى مستقبل البشرية بعامة ومستقبل الحضارة الإنسانية بخاصة فى خطر .

والكلمة الآن لبنى الإنسان ، إن شاءوا عاشوا وارتفعوا بمستواهم ، وحسنوا أحوالهم فى ظل السلام والتعاون الإنسانى .

وإن شاءوا عرضوا أنفسهم للخراب والدمار الشاملين ، وجعلوا ما على سطح الكوكب الإنسانى حصيداً كأن لم يغن بالأمس .

وفقنا الله وهدانا إلى سبل السلام والرشاد .

---

(١) دائرة المعارف البريطانية .

مراجع الكتاب
حسب ورودها في فصول الكتاب

- مختصر تاريخ العالم (بالإنجليزية) ه . ج . ويلز
- مع الله فى السماء — الدكتور أحمد زكى
- الفلك العام — هربرت سبنسر جونس ترجمة عبد الحميد سماحة والدكتور حلمى عبد الرحمن
- العالم من حولنا — أديث راسكن — ترجمة الدكتور أحمد أبو العباس
- قصة الحضارة — ول دورانت — ترجمة محمد بدران والدكتور زكى نجيب محمود
- دائرة معارف القرن العشرين — للعلامة محمد فريد وجدى
- النظرة العلمية — برتراند راسل — ترجمة عثمان نويه
- الحياة ونشأتها — أنور عبد العليم
- حضارة مصر القديمة وآثارها — الدكتور عبد العزيز صالح
- ماوتسى تونج — روى ماك جريجور — ترجمة حسين الحوت
- مذكرات على العلاقات بين الأجناس (بالفرنسية) ج سبللر
- موسوعة تاريخ العالم — وليم لانجر ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة
- المجتمع — رام ماكيفى — ترجمة الدكتور أحمد عيسى
- تاريخ إنجلترا — الدكتور نظير سعداوى
- محاضرات فى اللهجات — الدكتور أنيس فريحة
- اللغة والمجتمع — الدكتور على عبد الواحد وافى

ـــ فجر العرب	عبد العزيز الدسوقي
ـــ الخصائص	أبو الفتح عثمان بن جني
ـــ اللغة العربية كائن حي	جورجي زيدان
ـــ قصة الجنس البشري	هندريك فان لون ـــ ترجمة إبراهيم زكي خورشيد وأحمد الشنتناوي
ـــ الاتقان	للسيوطي
ـــ الإسلام والثقافة العربية	أنور الجندي

مراجع عامة

ـــ القرآن الكريم
ـــ العهد القديم
ـــ العهد الجديد
ـــ دائرة المعارف البريطانية (بالإنجليزية)
ـــ دائرة المعارف الأمريكية (بالإنجليزية)
ـــ دائرة معارف العلوم الاجتماعية (بالإنجليزية)
ـــ تاريخ الطبري

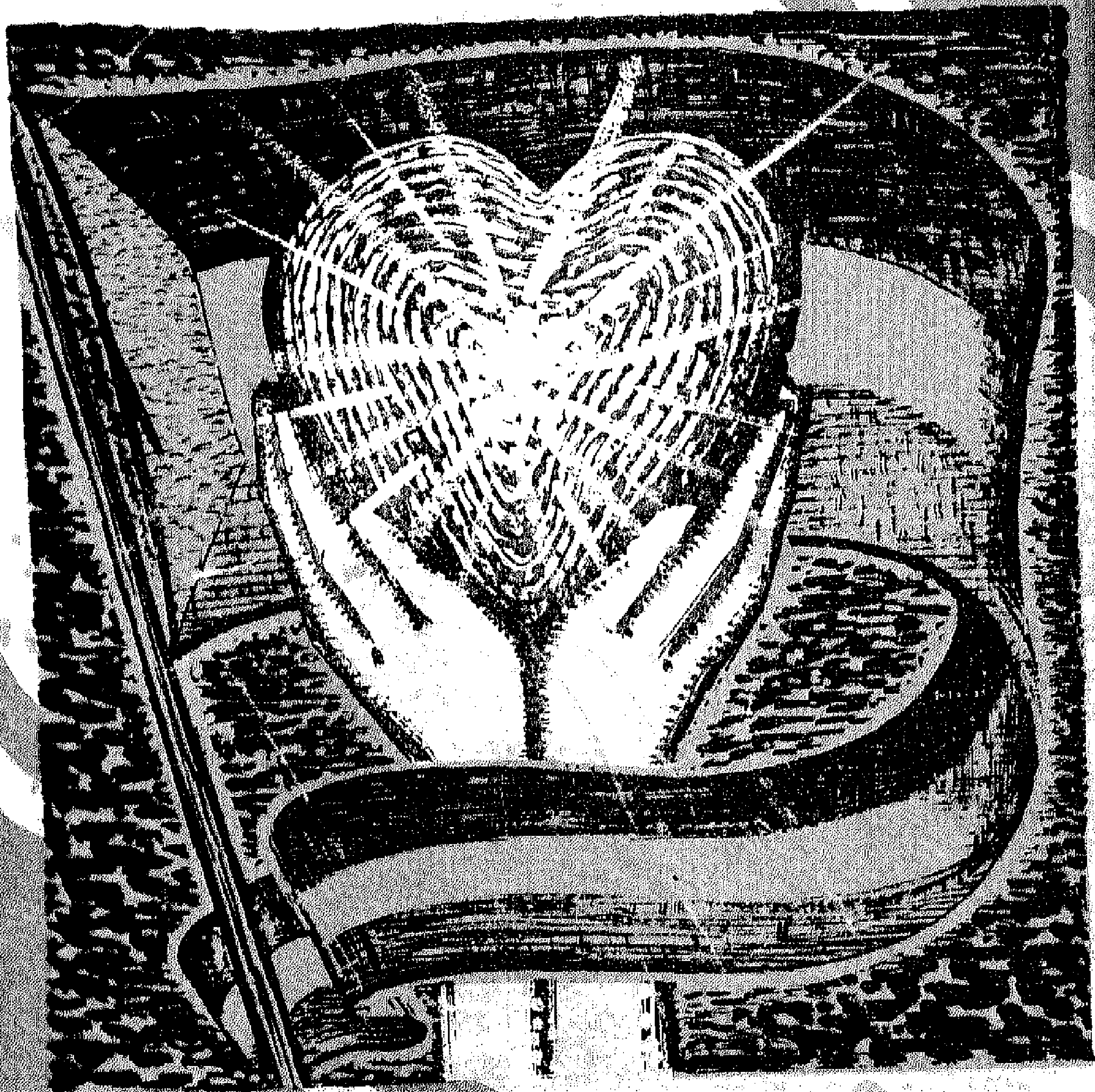
مراجع للمؤلف

ـــ الطاقة الإنسانية
ـــ الأمة الإنسانية
ـــ من وحي الجنوب

تم طبع هذا الكتاب
على مطابع دار المعارف بمصر

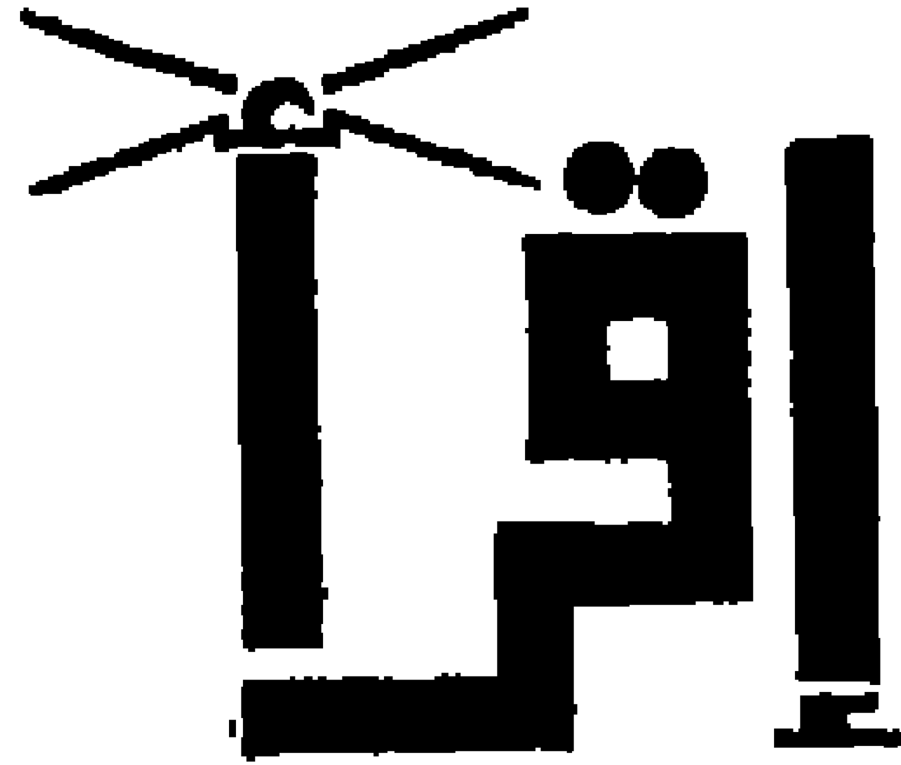
إقرأ

فلسطين قلب العروبة



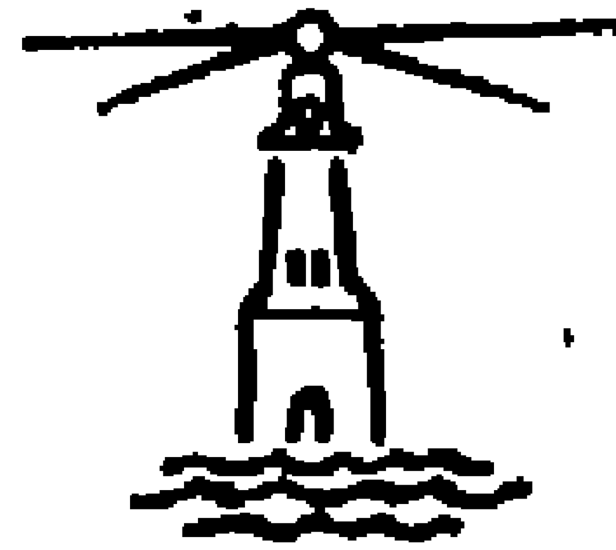
محمد فيصل عبد المنعم

دار المعارف بمصر



مجلة شهرية تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير : عادل الغضبان



دار المعارف بمصر



محمد فيصل عبد المنعم

فلسطين

قلب العروبة

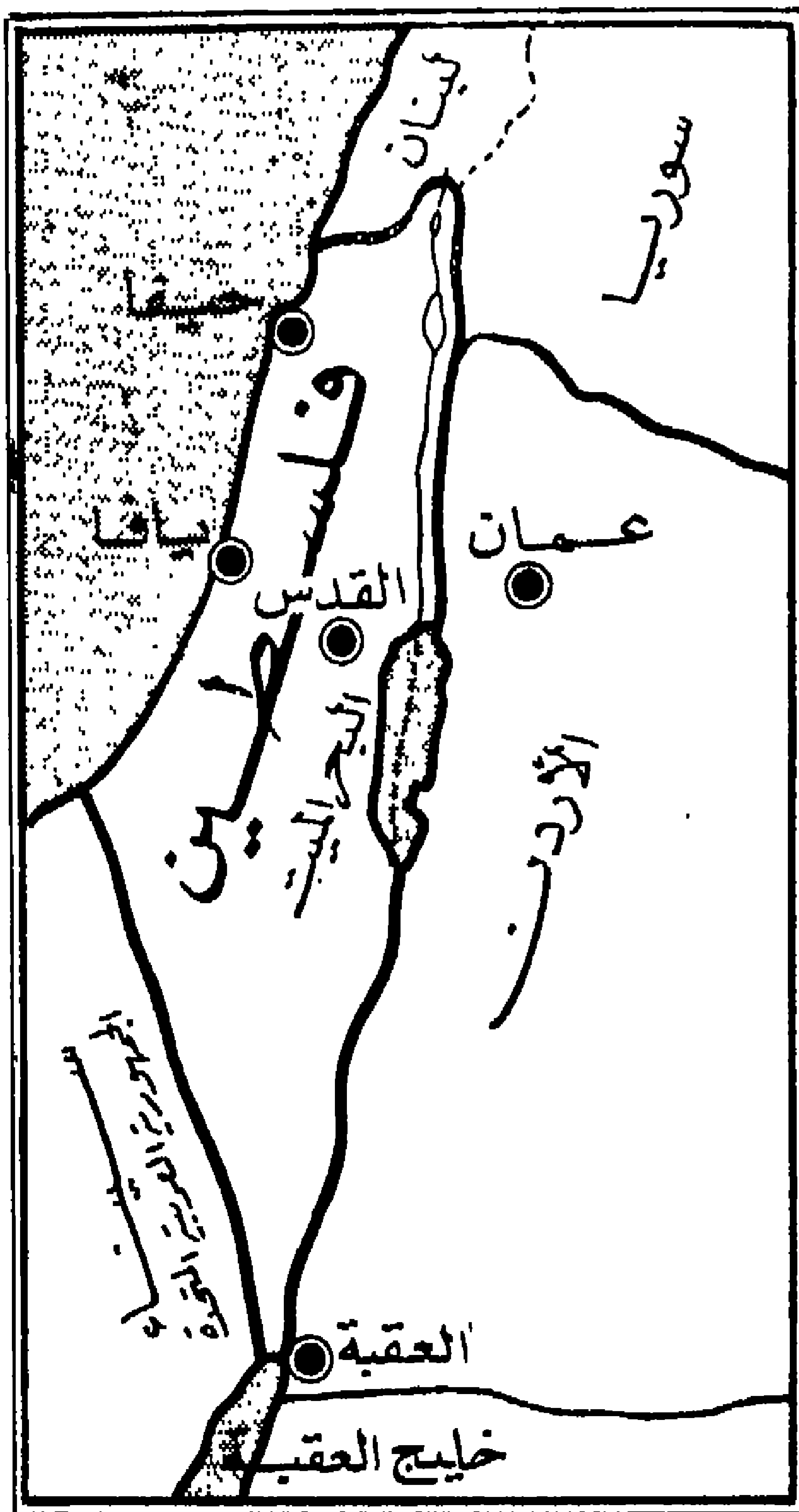
اقرأ ٢٩٥

دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٩٥ – يوليو سنة ١٩٦٧

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . ع . م .

فهرس



قلب العروبة.. فلسطين

الصهيونية

- نشأتها
- تطور الدعوة الصهيونية
- ظهور جمعية « عشاق صهيون »
- ظهور الحركة الصهيونية الحديثة
- المؤتمر الصهيونى الأول
- المؤتمر الصهيونى الثانى
- المؤتمرات الصهيونية الثالث والرابع والخامس والسادس
- الانتداب البريطانى على فلسطين
- أسباب اهتمام بريطانيا بفلسطين
- وعد بلفور
- قيمة وعد بلفور من الناحية القانونية
- النتائج التى ترتبت على وعد بلفور

نشأة الصهيونية

● الصهيونية كلمة اشتقت من لفظ صهيون، وهو جبل يقع إلى الشرق من مدينة القدس القديمة (أورشليم) .

● يعتقد البعض أن الصهيونية حركة دينية وأنها مرتبطة بما ورد من وعود الرب للخليل إبراهيم عليه السلام ، ولكن الواقع أنها ليست بالحركة الدينية وليست بالحركة القديمة فى بنى إسرائيل أنفسهم ولكنها حركة عنصرية سياسية بحتة .

تطوّر الدعوة الصهيونية

● فى عام ٧٠ ق . م قضى الرومان على مملكة يهوذا التى أقامها اليهود لأنفسهم على أرض فلسطين وسيق منهم الآلاف مكبلين بالأغلال إلى روما وهرب بقيتهم إلى الأقطار المجاورة .

● حرّم الرومان على سائر اليهود الباقين بفلسطين زيارة معبدهم سوى مرة واحدة فى العام للتأمل والبكاء على هدمه ، ومن هنا نشأ التقليد الدينى اليهودى بزيارة القدس وأطلال المعبد والبكاء على حائطه المهدم .

● فى أواخر عهد الرومان وأوائل حكم « بيزنطة » ازدهرت الحياة فى فلسطين واشتغل معظم سكانها بالزراعة والحرف اليدوية ، وشهدت مدن اللدّ وطبرية عدداً من اليهود الذين وضعوا أحكام التلمود والمشنة . . وظلت فكرة إعادة شمل اليهود على أرض فلسطين تراود أذهان اليهود وتقترن بالغيبيات كحلم دينى غامض صعب التحقيق .

● فى أواخر القرن التاسع عشر ظهرت الحركة الصهيونية التى دعت إلى إحياء الوطن القومى اليهودى على أرض فلسطين . . ذلك الوطن الذى اندثر وزال من الوجود منذ عام ٧٠ ق . م ولم تقم له قائمة بعد ذلك .

ظهور جمعية « عشاق صهيون »

● فى خلال القرن التاسع عشر ازداد اضطهاد اليهود فى روسيا ، وعلى إثر ذلك تكونت جمعية « شيبات زيون » أى « عشاق صهيون » ، وكان الغرض الأول لها الحث على إحياء اللغة العبرية القديمة تمهيداً للهجرة إلى فلسطين (التابعة للإمبراطورية العثمانية فى ذلك الوقت) واستعمار أراضيها.

● ولكن الحكومة العثمانية — صاحبة الأمر فى فلسطين وقتذاك — أصدرت أمراً يحرم على اليهود دخول فلسطين ، كما منعت الحكومة القيصرية فى روسيا الدعوة للهجرة .

● بذلك انهارت آمال اليهود فى احتمال استيطان فلسطين على نطاق واسع ، ولم ينجح فى الوصول إليها من اليهود سوى عدد قليل من الشباب الذين أنشأوا عام ١٨٨٢ على مقربة من يافا أول مستعمرة زراعية تحت اسم « ريشون لزيون » أى « الأولون فى صهيون » .

● توالى بعد ذلك إنشاء المستعمرات على أيدى المهاجرين فى سائر أنحاء فلسطين . . وكانت كل مستعمرة تمثل نواة تتركز حولها المستعمرات الأخرى فى جودا والجليل والسامرية بتمويل أغنياء اليهود فى الولايات المتحدة الأمريكية وإنجلترا .

ظهور الحركة الصهيونية الحديثة

● وهكذا دعا الصحفى النمسوى اليهودى « تيودور هرتزل » إلى عقد مؤتمر يحضره مندوبون عن يهود العالم لبحث مسألة إقامة وطن قومى لليهود .

● الواقع أن « هرتزل » لم يحدد البقعة التى يستوطنها اليهود ، وإنما أعلن على يهود العالم : « أن الدولة اليهودية لازمة للعالم ويجب أن تنشأ » وترك الخيار للرأى العام اليهودى ، فإما الأرجنتين ، وإما فلسطين ، وإما منطقة العريش بصحراء سينا .

المؤتمر الصهيونى الأول

● انعقد بمدينة بال بسويسرا عام ١٨٩٧ ودام ثلاثة أيام وشهده مائتا مندوب عن يهود العالم .

● وكان هذا المؤتمر نقطة تحول هامة فى تاريخ اليهود ، فلأول مرة يجتمع ممثلوهم حول مائدة واحدة منذ أكثر من ثمانية عشر قرناً للتدارس فى إعادة للدولة التى دالت على أيدى الرومان .

وقد تلخصت نتائج المؤتمر فيما يلى :

١ ــ تشجيع الاستعمار اليهودى فى فلسطين بطريقة منظمة .

٢ ــ تنظيم الحركة اليهودية واتحاد الهيئات المتفرقة فى شتى أنحاء العالم .

٣ ــ إيقاظ الوعى اليهودى .

٤ ــ القيام بمساع لدى مختلف الحكومات للحصول على موافقتها على أهداف الحركة الصهيونية .

● وتنفيذاً لهذه التوصيات أصبح كل من يعتنق هذه المبادئ صهيونياً يدفع اكتتاباً قدره شلن واحد .

المؤتمر الصهيونى الثانى

● عقد بنفس المدينة التى عقد بها المؤتمر الأول ، ورأسه « هرتزل » أيضاً .

● فى هذا المؤتمر تضاعف عدد مندوبى اليهود .

● أسفر المؤتمر عن إنشاء بنك لتمويل حركة الهجرة اليهودية وحدد رأسماله بمليونى جنيه استرلينى ، وبدأ نشاطه يظهر للوجود خلال عام ١٩٠٢ .

المؤتمرات الصهيونية

الثالث والرابع والخامس والسادس

● لم ينجح المؤتمر الثالث المنعقد بمدينة بال عام ١٨٩٩ ، فرأى « هرتزل » أن يعقد المؤتمر الرابع فى لندن لاستدرار عطف الشعب البريطانى ولحث الحكومة البريطانية على التدخل لدى الباب العالى لمنح اليهود نظاماً استقلالياً بفلسطين .

● تحقق هذا الأمل فى أعقاب المؤتمر أو كاد ، إذ اجتمع هرتزل بلورد « لانزدوان » وزير خارجية بريطانيا حينذاك وشرح له مطالب اليهود ، فأبدى له الوزير عطفاً شديداً على هذه المطالب .

● عقد « هرتزل » فيما بعد المؤتمرين الخامس والسادس عام ١٩٠٣ ، وكان المؤتمر الأخير هو آخر مؤتمر يحضره « هرتزل » إذ توفى عام ١٩٠٤ ، فلبس عليه الحداد يهود العالم أجمع .

الانتداب البريطاني على فلسطين

● عندما بدأت الدولة العثمانية تنهار عقب الحرب العالمية الأولى ، أخذت كل دولة من دول أوربا تنظر بعين الجشع إلى الجزء الذى منت نفسها بالتهامه من مستعمرات الإمبراطورية العثمانية الواسعة الأرجاء ، وبحثت كل منها عن ذريعة للتدخل فى شئون الإمبراطورية المتداعية ، فتدخلت فرنسا لحفظ مصالح الكنيسة الكاثوليكية ، ولما لم يبق بلا حماية أجنبية من رعايا الإمبراطورية الهرمة سوى اليهود ، فقد سارعت بريطانيا لاحتضانهم وكان هذا هو الوقت الذى بدأت تشتد فيه الدعوة الصهيونية التى كانت تنادى بإقامة الوطن القومى اليهودى فى فلسطين .

أسباب اهتمام بريطانيا بفلسطين

● كانت بريطانيا قد استولت على مصر عام ١٨٨٢ ، ولكنها لم تكن قد بسطت سلطانها بذلك إلا على الأراضى المسيطرة على إحدى ضفتى قناة السويس — طريق الهند — وكانت تتوق إلى مد هذا السلطان إلى فلسطين لتتم لها السيطرة على الضفة الأخرى .

● موقع فلسطين الجغرافى على الطرف الشرقى للبحر الأبيض المتوسط وكمعبر بين القارات الثلاث وملتقى لها ، كان دواماً مطمع الفاتحين جميعاً .

● ظل زعماء اليهود بعد موت « هرتزل » يحاولون الوصول إلى هدفهم فى إحياء الوطن القومى اليهودى بفلسطين ، فانضم عدد كبير منهم إلى جيوش الحلفاء وتكون منهم لواء مقاتل .

● تزعم الدكتور حايم وايزمان (خليفة هرتزل) القضيةاليهودية ، وتمكن من مقابلة وزير خارجية بريطانيا الذى أبدى عطفاً كبيراً على مطالبه . وهكذا تم الاتفاق بين الصهيونية و بريطانيا على أساس أن تتعهد بريطانيا بتمكين اليهود من الهجرة إلى فلسطين واستعمارها فى حين يؤيد اليهود انتداب بريطانيا على فلسطين بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وانتصار الحلفاء الذى كان وشيكاً .

● رأت بريطانيا فى مطامع اليهود فرصة طيبة لبقائها فى فلسطين . . فطالما سيتنازع الطرفان ــ العرب واليهود ــ فسترسخ أقدامها فى البلاد ويصبح استمرار انتدابها للأراضى المقدسة ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها . .

وعد بلفور

● فى ١٧ نوفمبر سنة ١٩١٧ أصدرت بريطانيا وعد بلفور ، وبذلك أصبحت الصهيونية ــ لأول مرة ــ برنامجاً سياسياً معترفاً به تناصره دولة استعمارية كبرى ، فقد بعث لورد بلفور ــ وزير خارجية بريطانيا فى ذاك الوقت ــ برسالة رسمية إلى اللورد روتشيلد يقول فيها :

عزيزى اللورد روتشيلد

يسرنى أن أبعث إليكم باسم حكومة جلالة الملك هذا التصريح المشوب بالعطف على الأمانى الصهيونية والذى عرض على الحكومة و وافقت عليه. تعتزم الحكومة البريطانية إقامة وطن للشعب اليهودى فى فلسطين . . وستبذل كل ما لديها من جهد فى سبيل تحقيق هذه الغاية ، هذا مع العلم بأن حكومة جلالة الملك لن تفعل شيئاً ينطوى على أى مساس بالحقوق المدنية والدينية للطوائف الأخرى غير اليهودية بفلسطين .

وأكون شاكراً لو تكرمتم بإبلاغ هذا التصريح إلى اتحاد الهيئات الصهيونى .

لورد بلفور
وزير خارجية بريطانيا

قيمة وعد بلفور من الناحية القانونية

● الواقع أن وعد بلفور فى حد ذاته غير ذى موضوع من الناحية القانونية :

١ – فلم يكن هذا الوعد سوى خطاب صدر من وزير بريطانى إلى أحد أثرياء اليهود من الإنجليز ، وبذلك فهو لا يربط سوى الحكومة البريطانية وحدها .

٢ – لم تكن فلسطين من أملاك بريطانيا حتى يحق لها أن تتصرف فيها ، فهى كمن يهب ما ليس له .

٣ – الشخص الذى وُجه إليه الخطاب لم تكن له صفة دولية أو رسمية .

أو كما عبر الرئيس جمال عبد الناصر عن ذلك الوعد بقوله :

« لقد أعطى من لا يملك وعداً لمن لا يستحق ؛ ثم استطاع الاثنان : من لا يملك ومن لا يستحق ، بالقوة وبالخديعة ، أن يسلبا صاحب الحق الشرعى حقه فيما يملكه وما يستحقه » .

النتائج التى ترتبت على وعد بلفور

● اجتمع اليهود حول هدف واحد هو إقامة الوطن القومى اليهودى بفلسطين ، فحتى صدور هذا الوعد لم تكن الصهيونية تفكر جدياً فى إقامة الدولة اليهودية .

ومن الثابت أن اليهود ترددوا كثيراً فى اختيار مكان هذه الدولة ، بل كانت هناك جماعات كثيرة من اليهود تعارض — حتى أيام الحرب العالمية الأولى — فكرة إقامة هذا الوطن ولم تغير موقفها إلا بعد صدور وعد بلفور .

● أشعر وعد بلفور اليهود بإمكان وسهولة تحقيق فكرة الوطن القومى .

● أزال كل اختلاف فى وجهات النظر حول مكان هذه الدولة اليهودية .

● بدأت مجهودات الصهيونية العالمية بعد صدور وعد بلفور — تتخذ طابعاً عملياً لإقامة الوطن القومى اليهودى على أرض فلسطين مستغلة للدول الاستعمارية التى لم يكن يعنيها من الأمر سوى إحكام سيطرتها الاقتصادية على العالم العربى .

٢

مزاعم اليهود فى فلسطين

- المزاعم الدينية
- المزاعم التاريخية
- المزاعم القومية

مزاعم اليهود فى فلسطين

أولا — المزاعم الدينية

يزعم الصهاينة أنهم أصحاب حق فى فلسطين باعتبارها الأرض التى وعدهم الله بها ، فقد جاء فى التوراة أن الله قد وعد سيدنا إبراهيم وذرّيته من بعده أن يعطيه فلسطين لإقامة دولة فيها ، « لنسلك أعطى هذه الأرض .. من نهر مصر إلى النهر الكبير .. نهر الفرات » وإن هذا الزعم — إن سلمنا بصحته باعتبار التوراة كتاباً مقدساً من عند الله .. فإننا نلاحظ الآتى :

١ — أن هذا الوعد الإلهى ليس موجهاً إلى اليهود فقط ، وإنما هو وعد لسيدنا إبراهيم عليه السلام وذريته من بعده ، يتساوى فى ذلك إسرائيل (يعقوب) وذريته وإسماعيل وذريته أيضاً ، ومعنى هذا أن ذلك الوعد ليس مقصوراً على بنى إسرائيل وحدهم وإنما هو لسلالة إبراهيم على الإطلاق . وقد ثبت أن أنبياء الديانات الثلاث : موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام كلهم يرجعون إلى جدهم الأكبر إبراهيم ، وبالتالى فكلهم أصحاب حق فى فلسطين ، وليس لليهود وحدهم هذا الحق .

٢ — أن هذا الوعد قد تحقق فعلاً — بالنسبة لبنى إسرائيل — فى عهد موسى عليه السلام حين أخرج بنى إسرائيل من مصر إلى سينا ثم إلى فلسطين حيث كوّنوا ما أسموه بدولة قائمة على أسس دينية.

فوعد الله إذن قد تحقق على يد موسى ، وكان ذلك فى صورة دولة دينية ، فلما انحاز اليهود عن تعاليم الرب وعصوا ما أمرهم به موسى وفسدوا وضلوا ، تخلى الله عنهم وتركهم لبطش جيرانهم وأزال عنهم ماوهبه لهم من قبل .

٣ — وقد تحقق وعد الله فى عصر آخر غير عصر موسى ، ونقصد

به عصر الملكين داود وسليمان وهما من ملوك وأنبياء بنى إسرائيل.

وعلى ذلك يمكن القول إن وعد الله إن لم يكن قد تحقق فى عهد موسى ، فهو قد تحقق فى عهد سليمان فقد عرف عنه الحكمة والعقل ورجاحة التفكير .

٤ – لم يكن وعد الله مقصوراً على بنى إسرائيل وحدهم كما أسلفنا ، وقد كان لإبراهيم ابن آخر هو إسماعيل – الجد الأكبر لسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، فمن الجائز إذن أن نقول إن هذا الوعد ممكن تحقيقه فى بيت إسماعيل ، بل يمكن أن نقول إن وعد الله لإبراهيم قد تحقق على يد سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام حينما جاء بالدعوة الإسلامية التى هى فى الحقيقة استعادة لمبادئ الدعوتين اليهودية والمسيحية مع بعض الاختلافات اقتضتها الظروف التى كانت سائدة وقت ظهورها .

ثانياً – المزاعم التاريخية

● فى العصور الغابرة كان الكنعانيون يسكنون فلسطين ولهذا سميت بأرض كنعان.

● حوالى عام ٢٨٠٠ ق. م بسط الفراعنة المصريون نفوذهم على فلسطين ، ثم بسط الهكسوس سلطانهم عليها بعد أن طردوا المصريين حوالى عام ١٧١٠ ق . م . وظلوا يحكمونها حتى عام ١٤٨٠ ق . م . حين قام المصريون بطرد الهكسوس مرة أخرى و بسطوا سلطانهم على أرض كنعان حتى عام ١٣٥٠ق . م ثم تلاهم الحيثيون ثم المصريون مرة أخرى وظلت أرض السلام موضع شد وجذب من قبل الدول الطامعة فى مفترق الطرق .. بحكم موقعها الجغرافى الممتاز الذى يمثل نقطة اتصال الشرق بالغرب حتى عام ١٠٠٠ ق . م حين استولى الملك داود على بيت المقدس ..

● وحكم أرض كنعان أربعين سنة ، ثم تلاه ابنه سليمان الذى حكم ثلاثة وثلاثين عاماً أخرى ثم زالت تلك المملكة – مملكة يهوذا – من الوجود بعد

وفاة سليمان حوالى عام ٩٢٧ ق . م بأن انقسمت على نفسها ، فشكلت قبائل يهوذا مملكة يهوذا فى الجنوب ، فى حين شكلت باقى القبائل اليهودية مملكة إسرائيل فى الشمال.

● توالت الفتوحات الأجنبية بعد ذلك التى أزالت كلا من مملكتى يهوذا الجنوبية وإسرائيل الشمالية ، إذ كانت كل منهما أضعف من أن تقاوم الغزو الأجنبى وتقف على قدميها أمام جحافل الجيوش الغازية .

والجدول التالى يبين مدد حكم الدول المختلفة لفلسطين . . ومنه يمكننا أن نناقش مدى أحقية اليهود المزعومة فى إقامة الوطن القومى اليهودى على أرض فلسطين .

جدول لبيان مدد حكم الدول المختلفة لفلسطين

حكام فلسطين	تاريخ حكمهم من	تاريخ حكمهم إلى	مدة الحكم بالسنوات
الكنعانيون	..	..	غير معروفة
المصريون	..	..	»
الهكسوس	١٧١٠	١٤٨٠ق.م	٢٣٠
المصريون	١٤٨٠	١٣٥٠	١٣٠
الحيثيون	١٣٥٠	١٢٩٠	٦٠
المصريون	١٢٩٠	١١٥٤	١٣٦
حكام محليون	١١٥٤	١٠٠٠	١٥٤
اليهود (داود وسليمان)	١٠٠٠	٩٢٧	٧٣
اليهود (إسرائيل الشمالية)	٩٢٧	٧٢٢	١٠٥
اليهود (يهوذا الجنوبية)	٩٢٧	٥٨٦	٣٤١
بابل	٥٨٦	٥٣٨	٤٨
فارس	٥٣٨	٣٣٠	٢٠٨
اليونان	٣٣٠	٣٢٣	٧
المصريون	٣٢٣	٢٠٠	١٢٣
السلوقيون	٢٠٠	١٢٤	٥٨

حكام فلسطين	تاريخ حكمهم من	إلى	مدة الحكم بالسنوات
اليهود (جزئياً)	١٤٢	٧٠	٧٢
أرمينيا	٧٠	٦٣	٧
روما	٦٣	٦١٤ ب . م	٦٧٧
فارس	٦١٤	٦٢٨	١٤
روما	٦٢٧	٦٣٨	١٠
العرب	٦٣٨	١٠٨٥	٤٤٧
الأتراك (عرب)	١٠٨٥	١٠٩٩	١٤
الصليبيون (جزئياً)	١٠٩٩	١٢٩١	١٩٢
السلاجقة والعرب	١٠٩٩	١٢٩١	١٩٢
المصريون	١٢٩١	١٥١٧	٢٢٦
الأتراك (مسلمون)	١٥١٧	١٩١٨	٤١٠
بريطانيا	١٩٢٣	١٩٤٨	٢٥
لليهود (إسرائيل)	١٩٤٨	١٩٦٧	١٩

ملحوظة : كلمة جزئياً تعنى حكم جزء فقط من فلسطين كما يظهر من حكم الصليبيين ، فإننا نلاحظ أنهم حكموا فلسطين جزئياً من عام ١٠٩٩ إلى عام ١٢٩١ ب . م فى حين أن السلاجقة والعرب حكموا البلاد فى نفس المدة وهذا يعنى أن كل فريق منهم كان يحكم جزءاً من البلاد فى الوقت نفسه .

● من هذا العرض نستخلص أن مصر القديمة حكمت فلسطين لمدة تبلغ فى مجموعها نحو ٦١٥ سنة (فى التاريخ المعروف بخلاف المدد غير المعروفة) .

● أما اليهود فلم تدم مملكتهم سوى ٧٣ سنة فقط من عام ١٠٠٠ ق . م إلى عام ٩٢٧ ق . م
وهى عمر مملكة داود وسليمان .

● وبعد ذلك لم تتمتع كل من الدولتين اللتين انقسمتا عن ملك سليمان (إسرائيل ويهوذا) بالاستقلال الحقيقى إذ كانت كل منهما تدفع الجزية إلى إحدى الدول الكبرى الغازية .

● ودام احتلال الرومان لفلسطين حوالى ٦٧٧ سنة من عام ٦٣ ق . م إلى عام ٦١٤ ب . م .

● أما العرب فقد حكموها لمدة ٤٧٧ سنة فى المدة من سنة ٦٣٨ إلى ١٠٨٥ ب . م علاوة على حكمهم بعد الفتح الإسلامى وبذلك يبلغ مجموع مدة حكمهم ١٣٠٠ سنة .

وعلى أساس هذا البحث التاريخى نرى أنه ليست لإسرائيل اليوم ذرة من الحقوق فى فلسطين ، مما يجعل دعواها اليوم مضحكة كدعوى موسولينى منذ ثلاثين عاماً حين قام يطالب بإمبراطورية روما الاستعمارية القديمة .

ثالثاً — المزاعم القومية

والقومية ترتكز على المقومات التالية :

١ — التاريخ المشترك

٢ — التقاليد المشتركة

٣ — اللغة المشتركة

٤ — المصالح المشتركة

٥ — الأرض

ولنستعرض هذه المقومات لدى اليهود لنرى مدى صحتها :

● أما التاريخ المشترك

فإن اليهود يؤسسونه على أنه تاريخ وجودهم فى أرض كنعان — أى منذ نحو ٤٠٠٠ سنة — وأنهم منذ أخرجوا من فلسطين يعيشون غرباء مضطهدين يطردون من دولة إلى أخرى .

وليس أسهل من تفنيد هذا الزعم

● فالتاريخ المزعوم هو تاريخ فترة قصيرة لم تتجاوز مرحلة واحدة من مراحل تطور المجتمع وهى الفترة المحددة من عام ١٠٠٠ إلى عام ٩٢٧ ق . م (وهو عمر مملكة إسرائيل تحت راية مملكة داود وسليمان التى زالت من الوجود عام ٩٢٨ ق . م بانقسام المملكة إلى مملكتى يهوذا وإسرائيل ثم فنائهما بعد ذلك) ولم تلبث القبائل اليهودية أن تاهت فى جوف التاريخ وتشتت فى مختلف الشعوب .

● ومن السخرية أن نقول إن اليهود الذين عاشوا فى إنجلترا منذ عشرات القرون يؤلفون تاريخاً مشتركاً مع اليهود الذين عاشوا فى روسيا ودول البلقان!

● وأما التقاليد والثقافة المشتركة :

فيكفى للرد عليها ما يتعرض له المجتمع اليهودى اليوم من متناقضات وتفرقة بين اليهود الغربيين الذين لم يستطيعوا حتى اليوم – وبعد مرور تسعة عشر عاماً على وجودهم فيها – أن يندمجوا مع اليهود الشرقيين الذين هاجروا إليها فى نفس الوقت لبعد الشقة بين تقاليد وثقافة أولئك وهؤلاء .

● وأما اللغة المشتركة

فلا يتكلم بها أكثر من ٤٪ من مجموع يهود العالم ، وإذا كانت اللغة هى وسيلة الثقافة وإذا لم يكن لليهود لغة خاصة مستعملة ، فليست لهم بالتالى ثقافة خاصة .

● وأما الأرض المشتركة

فمن السخف القول بأن الأرض التى شهدت حضارات متعاقبة منذ خمسة آلاف سنة إلى اليوم تظل حكراً لليهود لأن القبائل العبرانية أقامت فيها مملكة لم تدم على مر التاريخ كله قرناً واحداً كاملاً .

● من الغريب أن يقال عن اليهود الذين انقطعت صلتهم بفلسطين منذ أكثر من ألفى سنة إن لهم حقوقاً تاريخية أو قانونية فى تلك البلاد فى حين تنكر هذه الحقوق على العرب الذين استوطنوها بصفة مستمرة دائمة منذ أكثر من ألفى عام .

● ومن الغريب أيضاً أن يقال إن الصلة الروحية لم تنقطع أبداً بين اليهود وبين فلسطين طوال هذه الآلاف من السنين ذلك أن الصلة الروحية التى تربط مسلمى الاتحاد السوفييتى بمكة المكرمة لا تجعل لهم حقوقاً قانونية فى الحجاز وكذا الصلة الروحية التى تربط مسيحى أمريكا وإنجلترا بالفاتيكان لا تجعل لهم حقوقاً قانونية فى روما .

● إن فلسطين هى منطقة ذكريات بالنسبة للأديان السماوية الثلاثة .
● فالناصرة هى مسقط رأس السيد المسيح .
● والمسجد الأقصى كان مسرحاً للإسراء .

فلماذا إذن إصرار الصهاينة على أن ذكرياتهم الدينية الأولى تعطيهم — دون سواهم — حق الاستيلاء على فلسطين؟[1] .

---

(١) فى هذا الخصوص ألقى المؤرخ البريطانى « أرنولد توينبى » محاضرة فى جامعة ماكجيل بكندا فى يناير عام ١٩٦٠ قال فيها :

« إن مطالبة اليهود بفلسطين أمر مشكوك فى صحته ، فلو اعترف بالحقوق المسلوبة منذ سنة ١٣٥ ميلادية لما استطعنا إعادة توزيع الأراضى فى أنحاء العالم ولكان عليكم إعادة كندا إلى الهنود الحمر ! ! »

٣

كيف ضاعت فلسطين ؟

دور بريطانيا

المؤامرة وتكتيكاتها

- إنهاء الانتداب البريطانى
- دور الولايات المتحدة الأمريكية
- جهود رئيس الولايات المتحدة لإنشاء إسرائيل
- موقف الكونجرس الأمريكى
- دور هيئة الأمم المتحدة
- اعتراف الولايات المتحدة بإسرائيل
- دور الدول العربية
- مراحل الصراع بين العرب

تضافرت عوامل عدة كى تمثل الفصل القائم حالياً فى مأساة فلسطين وتشريد الشعب العربى الفلسطينى الذى ظل قرابة ألفى عام يعيش فوق أرضه العربية الخالصة . . .

وفيما يلى موجز لهذه العوامل :

أولا – دور بريطانيا

« ألا يدرى يهود فلسطين أن عددهم قد زاد »
« من ٤٨,٠٠٠ عام ١٩٢٢ إلى »
« ٦٤٠,٠٠٠ عام ١٩٤٨ وذلك تحت »
« حماية السلاح البريطانى وبفضله ؟ »
سير آلان كاننجهام

● تعتبر بريطانيا مدبرة المؤامرة الأولى لإنشاء الوطن القومى اليهودى على أرض فلسطين ، فإن وعد بلفور الذى أصدرته عام ١٩١٧ وما ترتب عليه من نتائج بالغة الأثر كان اللبنة الأولى فى إنشاء إسرائيل فيما بعد .

● تم بعد هذا الوعد وضع فلسطين تحت الانتداب البريطانى – عام ١٩٢٢ – حتى تتمكن بريطانيا بذلك من وضع المخطط الصهيونى العالمى موضع التنفيذ .

● شعر الفلسطينيون بالخطر المقبل عليهم فقاموا بعديد من الثورات الدامية كما نظموا مظاهرات الاحتجاج على سلطات الاحتلال البريطانية وأرسلوا وفوداً منهم إلى عواصم دول الحلفاء ، وهاجموا المستعمرات اليهودية ولكن جيوش اللنبى كانت دائماً لهم بالمرصاد .

● ظلت حكومة الانتداب البريطانية تشجع الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، وما إن حل عام ١٩٣٣ حتى استولى هتلر على الحكم فى ألمانيا ، فكان ذلك

نقطة تحول هامة فى تاريخ الصهيونية كان من نتيجته تدفق الهجرة اليهودية من ألمانيا إلى فلسطين ، فى عام ١٩٣٦ كان عدد اليهود فى فلسطين قد قارب ٣٦٥,٠٠٠ يهودى [١] معظمهم من الإرهاربيين المدربين والمسلحين بمختلف أنواع الأسلحة ، معدين للحرب وأعمال التخريب والعصابات .

المؤامرة وتكتيكاتها

● ظل تحالف اليهود مع الإنجليز تحالفاً مثالياً مخططاً حتى تم تنفيذ المرحلة الأساسية من برنامج الصهيونية وصدور وعد بلفور ، وبعد أن أصبح لليهود فى فلسطين مدن وقرى ومستعمرات وقوات مسلحة شبه نظامية .

وبعد أن أصبحت لهم إدارات سياسية خاصة بهم لإدارة شئونهم الداخلية . . ومجالس للمدن ، ولهم لغتهم العبرية التى فرضها الإنجليز لغة رسمية ، ونشاط اقتصادى واسع النطاق ، وبمعنى أدق أصبحوا دولة داخل الدولة .

● واستمرت الصهيونية تنفذ جرائمها التى كانت تستهدف الإضرار بالعرب وكيانهم الاجتماعى والاقتصادى . . هذا وحكومة الانتداب مستسلمة مذعنة لما يفعلون .

● وكان من المؤسف أن تصدر حكومة الانتداب البريطانية أوامرها بالقبض على أعضاء لجنة المقاطعة العربية الذين لم يرتكبوا ذنباً سوى أنهم كانوا يعملون بدافع من وطنيتهم على تنظيم قطع الصلات التجارية بين التجار والمستهلكين العرب .

● وكان آخر مظهر من مظاهر استسلام الحكومة البريطانية للإرهاب

---

(١) الصهيونية وربيبتها إسرائيل : فريق أول محمد فوزى وعمر رشدى

الصهيونى أنها سمحت لليهود بإعادة تجنيد بوليس المستعمرات اليهودى المسلح ، فكان هذا بمثابة ترخيص صريح لليهود بالتمادى فى إرهابهم .

إنهاء الانتداب البريطانى

وكانت نهاية المهزلة التى قامت بريطانيا بدور البطولة فيها قرارها المفاجئ بإنهاء الانتداب يوم ١٥ / ٥ / ١٩٤٨ بعد أن ضمنت التفوق الساحق لليهود فى كل شىء على أراضى فلسطين . .

ضمنت لهم القوات المسلحة الإرهابية وضمنت لهم التفوق على العرب فى معركة المصير ، بل قامت بتسليم اليهود معظم المنشئات الحيوية والموانى والمطارات قبل انسحاب قواتها ليلة ١٥ مايو عام ١٩٤٨ .

إن مسلك بريطانيا فى فلسطين لن ينسى . . وليذكر العرب دائماً أن المخطط الاستعمارى الصهيونى الذى نفذته بريطانيا بدقة كان له أكبر الأثر فى النتيجة الحزينة التى وصل إليها عرب فلسطين .

ثانياً — دور الولايات المتحدة الأمريكية

● عندما شعر اليهود بأن بريطانيا بدأت تسير نحو تقييد الهجرة لعدم فقدان مصالحها مع الدول العربية بدءوا يحوّلون ثقلهم إلى أمريكا . . الحليفة الجديدة التى كانت الزعامة الصهيونية قد انتقلت إليها وبلغ فيها النفوذ الصهيونى ذروته . .

● يعتبر دور أمريكا فى ضياع فلسطين حلقة متممة للدور الذى قامت به إنجلترا أثناء فترة انتدابها ، فقد لمس الصهاينة الناحية الإنسانية لدى الأمريكيين فاستغلوا اضطهاد النازى لهم للمطالبة بتكوين ملجأ لهم فى فلسطين ، ومن ناحية أخرى وجد زعماء الحزبين : الديمقراطى والجمهورى

فى أمريكا أن فى استطاعتهم الحصول على مكاسب كبيرة بتأييدهم للصهيونية ، ولهذا وضعوا قضية الوطن القومى اليهودى على أرض فلسطين ضمن برامج انتخابهم ، وأخذ كل حزب يتنافس فى تقديم الخدمات لهم ضماناً لكسب أصواتهم .

جهود رئيس الولايات المتحدة لإنشاء إسرائيل

وقد لخص أبا إيبان موقف ترومان من اليهود فى الخطاب الذى ألقاه فى حفل تكريم له فى مايو عام ١٩٥٢ إذ قال :

« شعر اليهود بعظم هذه الصداقة الخالصة فى زمن الشدة حينما تخلت ضمائر العالم عن اليهود ، فعرفنا أن ترومان هو الصديق الوفى ، وحكومة إسرائيل وشعبها لن ينسوا له هذا المعروف . . وقد سجلنا اسمه فى صفحات تاريخنا . . إلخ ».

● موقف الكونجرس الأمريكى

وفى ١٩ / ١٢ / ١٩٤٥ اتخذ الكونجرس الأمريكى قراراً جماعياً جاء فيه :

« حيث إن الكونجرس فى اجتماعه السابق قرّر بالإجماع أن الولايات المتحدة تؤيد إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين ، وحيث إن الحاجة الماسة قد أيدها طلب الرئيس بالسماح حالاً بالهجرة إلى فلسطين ، فإن المجلس الممثل للأمة يقرر بالإجماع أن الاهتمام الذى أبداه الرئيس فى محله ، وأن الولايات المتحدة سوف تستعمل مساعيها الحميدة لدى إنجلترا لجعل أبواب فلسطين مفتوحة لدخول اليهود بحرية إلى ذلك القطر بحيث تكون لهم الحرية فى استئناف بناء فلسطين كوطن قومى لهم » .

ولم تكتف الحكومة الأمريكية بتأييد الهجرة وإنشاء وطن قومى عن طريق جهودها فقط ، بل دخلت هيئة الأمم لتنهى القضية وتؤثر على الدول الأعضاء بالمنظمة الدولية .

● فعندما أرسلت بريطانيا مذكرتها إلى هيئة الأمم فى ١٩٤٧/٤/٢ تطلب فيها عرض القضية فى دورة خاصة أيدت الولايات المتحدة ذلك الطلب ، وسنرى الدور الذى قامت به من خلال نشاطها فى هيئة الأمم .

ثالثاً – دور هيئة الأمم المتحدة

(١) تشكيل اللجنة الأولى للتحقيق

● بناء على طلب بريطانيا اجتمعت الجمعية العمومية لهيئة الأمم بنيويورك واتخذت قراراً بتشكيل لجنة خاصة من أعضائها للتحقيق فى قضية فلسطين ورفع تقريرها إلى الجمعية العمومية عند اجتماعها فى دورتها العادية فى شهر سبتمبر عام ١٩٤٧ .

● عملت الولايات المتحدة الأمريكية على ألا تشرك الدول الكبرى فى هذه اللجنة منعاً لتدخل السوفييت فى شئون الشرق الأوسط ، فتألفت لجنة من ١١ دولة من غير الدول الكبرى وهى : « أستراليا – كندا – تشيكوسلوفاكيا – جواتيمالا – الهند – إيران – هولندا – بيرو – السويد – أرجواى – يوغوسلافيا » .

وعمل اليهود كل ما فى وسعهم لكسب القضية لصفهم منذ انتقالها إلى هيئة الأمم المتحدة وخروجها إلى المجال الدولى وبذلوا جهوداً جبارة لضمان تأييد مختلف دول العالم لهم علاوة على تأييد أمريكا وإنجلترا من قبل .

● فى المدة من ٢٦/٥ إلى ١٩٤٧/٨/٣١ عقدت لجنة التحقيق ١٦

جلسة علنية و ٣٦ جلسة سرية بين ليك سكسس وبيروت والقدس وجنيف وقد اقترحت الآتى :

(ا) اقترحت أكثرية اللجنة تقسيم فلسطين بين العرب واليهود مع ربط الدولتين باتحاد ووضع نظام دولى للقدس وقد أيدت بريطانيا هذا الاقتراح فى بيان جاء فيه « إن مشروع التقسيم الذى أوصت به اللجنة يمثل أفضل حل لهذه المشكلة ».

(ب) اقترحت الأقلية الباقية من اللجنة (الهند - يوغوسلافيا - إيران) إقامة دولة فلسطينية واحدة على أساس اتحادى .

(ب) تشكيل اللجنة الثانية

كان من نتيجة انقسام اللجنة الأولى فى الرأى أن قررت الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة فى ١٩٤٧/٩/٣ تشكيل لجنة خاصة جديدة لبحث الاقتراحين المقدمين من اللجنة الأولى .

● ولكن الموضوع برمته تقرر عرضه على المنظمة الدولية للاقتراع عليه ، وبرغم الجهود الكبيرة التى بذلتها أمريكا عند الاقتراع الأول فإن مشروع التقسيم لم يفز إلا بأغلبية صورية فقط (إذ وافقت عليه ٢٥ دولة فقط) ، وتأجلت الجلسة الختامية للتصويت على المشروع ٤٨ ساعة بسبب عيد الشكر الأمريكى . وفى خلال هذين اليومين بذلت أمريكا مع الصهيونيين أكبر جهد أدى إلى تحول كبير لمصلحة إسرائيل.

● فقد اتصلت عدة شخصيات أمريكية رسمية بممثلى البلاد المختلفة مثل « هايتى ، الحبشة ، الفلبين ، باراجواى ، لوكسمبرج » وكانت هذه الدول تعتمد من الناحية الاقتصادية على الولايات المتحدة ، فقد صرح

روبرت لافيت فى ١ / ١٢ / ١٩٤٧ بأنه لم يتعرض أبداً فى حياته لمثل هذا الضغط الذى استمر طيلة ٣ أيام ، أما شركة فايرستون للمطاط صاحبة الامتياز فى ليبريا ، فقد أرسلت رسالة إلى ممثليها فى ليبريا للقيام بالضغط على الحكومة للتصويت فى صالح مشروع التقسيم ، وفى ذلك يقول أحد زعماء الصهيونيين : « لقد روجع كل شيء بدقة وبذل كل جهد فى تذليل كل صعوبة . . حتى الدول الصغيرة أمكننا الاتصال بها ، فلم نترك شيئاً للصدفة » .

الاقتراع النهائى على مشروع التقسيم

وفى يوم ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ اجتمعت الجمعية العمومية لهيئة الأمم بعد أن كانت مختلف الإجراءات الشاذة التى أعدّها الأمريكيون واليهود قد اتخذت والضغط الذى بذلته أمريكا على الدول التى تعتمد عليها اقتصادياً قد بلغ مداه . .

وهكذا فاز مشروع التقسيم بالأغلبية المطلوبة . . ولكن حتى الدول التى صوّتت لصالح المشروع لم تكن متحمسة له على الإطلاق ، وكان أكثر مندوبى الدول تأييداً للمشروع يبررون تأييدهم له بأنهم لم يجدوا حلا أقل سوءاً للمشكلة ، فقد جاء فى أقوال مندوب نيوزيلندة : « إنه للمشروع نواحى نقص بالغة الخطورة » ، وقال مندوب بلجيكا : « إننا غير واثقين تماماً من أن هذا المشروع عادل تماماً ، ونشك فى كونه عملياً ، ونخشى أن يكون مشتملاً على أخطار عظيمة . . ولكن أين هو الحل الآخر ؟ »

اعتراف الولايات المتحدة بإسرائيل

● لم يضيع الرئيس ترومان وقتاً وقرر الاعتراف بالدولة الإسرائيلية فور قيامها لحث باقى الدول على الاعتراف بها ، فنى ليك سكسس وقف جيبسون فى هيئة الأمم ، وتلا البيان التالى الصادر من البيت الأبيض :

« لقد بلغ مسامع الحكومة الأمريكية أنه قد أعلن فى فلسطين عن قيام دولة يهودية وقد طلبت الحكومة المؤقتة فى فلسطين أن نعترف بها . . إن الحكومة الأمريكية تعترف بأن الحكومة المؤقتة المذكورة هى السلطة المشروعة لدولة إسرائيل » .

وهكذا توجت الولايات المتحدة جهودها فى مناصرة الصهيونية بالاعتراف الفورى بدولة الصهاينة على أرض فلسطين .

● يعلق الكاتب الأمريكى اليهودى ألفريد ليلنتال بهذا الخصوص فى كتابه « وهكذا ضاع الشرق الأوسط » قائلاً : « وهكذا تمكن الإسرائيليون فى ١٥ مايو عام ١٩٤٨ من إقامة دولة مستقلة فى فلسطين على أرض لم تكن يهودية طيلة ألفى عام ، كما أن الحوادث أثبتت الخطأ الشنيع الذى وقع فيه ترومان وهو اعتقاده أن التقسيم سيمهد الطريق لتعاون سلمى بين اليهود والعرب ، فلا يزال الصراع دائراً فى الشرق الأوسط بلا هوادة بين الدول العربية وإسرائيل » .

رابعاً — دور الدول العربية

كان للدول العربية ونظم الحكم الرجعية المتحجرة السائدة فيها ، أثر

لا ينكر فى ضياع الوطن الفلسطينى ، وبالتالى فى إقامة إسرائيل على الأرض العربية . .

لقد أعوزتنا وحدة الهدف ووحدة العمل فى الماضى ، وكنا نرزح تحت سيطرة الاستعمار الذى كان بذاته المناصر الأول للصهيونية واليهود مما أدّى إلى أن يدفع الحكام الخونة بقواتهم إلى معركة لم يعدوا لها . وفى هذا كتب الرئيس جمال عبد الناصر فى فلسفة الثورة :

« لقد غرر بنا . . دُفعنا إلى معركة لم نعد لها : لقد لعبت بأقدارنا مطامع ومؤامرات وشهوات وتركنا هنا . . تحت النيران بغير سلاح » .

مراحل الصراع بين العرب

١ — ظهر جلياً خلال سلسلة المؤتمرات العربية أن العرب يعارضون إقامة دولة يهودية فى فلسطين ، وفى نفس الوقت لم يكن لديهم استعداد لفقد صداقتهم مع إنجلترا بسبب المشكلة الفلسطينية .

٢ — فى ٩ يونية عام ١٩٤٦ عقد مؤتمر بلودان لمندوبى الدول العربية ، وقد ظهرت بوادر الخلاف العربى فى هذا المؤتمر . . ولا نرى وجوباً للإفاضة فيها الآن بعد أن عرفت الدول العربية المتحررة الطريق الذى سيؤدى بها إلى الوحدة والنصر . .

٣ — عقد اجتماع فى « عالية » فى أكتوبر سنة ١٩٤٧ ، وفيه طالب المفتى بإنشاء حكومة لفلسطين ، ولكن العراق وسوريا عارضتا هذا الرأى كما عارضه الملك عبد الله.

٤ ــ فى ١٢ ديسمبر سنة ١٩٤٧ عقد اجتماع فى القاهرة وتضخمت فيه الخلافات ، ففيه رفضت السعودية قطع أنابيب البترول ، ورفض المفتى دخول جيوش نظامية إلى فلسطين لعدم إشراك الملك عبد الله بجيوشه فى المعركة ، أما الملك عبد الله فقد عارض دخول الجيوش العربية إلى فلسطين ، حتى لا تساعد المفتى ، وطلب دخول الجيش الأردنى فقط لاحتلال القسم المعطى للعرب بموجب قرار التقسيم .

٥ ــ ظلت الخلافات بين الدول العربية تتضخم وتكبر مع الأهواء والمصالح الشخصية لحكام العرب حتى وجد العرب أنفسهم أخيراً أمام عدو دُرّب فى معسكرات أوربا وخاض معظم أفراده معارك الحرب العالمية الثانية ، ولم يكن أحد يتصور أن دولة لم يمض على قيامها أكثر من أيام معدودات وتعدادها ثلاثة أرباع مليون تتغلب على سبع دول عربية عريقة فى الحضارة والتاريخ .

ولكنها الخلافات . . والمنازعات والأهواء الشخصية .

٤

مرحلة الصراع المسلح

- فترة ما قبل الحرب
- مذبحة يافا
- مذبحة دير ياسين
- أثر مذبحة دير ياسين
- خطة حدوة الحصان
- جناية إنجلترا
- الصراع المسلح
- استمرار العدوان الصهيونى

« إن سخرية القدر من الأمة العربية وصلت إلى حد أن جيوشها التى دخلت فلسطين لتحافظ على الحق العربى فيها كانت تحت القيادة العليا . . . . فى يد ضابط إنجليزى يتلقى الأوامر من نفس الساسة اليهود ليعطوا للحركة الصهيونية وعد بلفور الذى قامت على أساسه الدولة »

الميثاق

فترة ما قبل الحرب

١ ــ فى يناير عام ١٩٤٨ عين فوزى القاوقجى قائداً عاماً لقوات المتطوعين والمجاهدين فى فلسطين لمقاومة خطة العصابات الصهيونية التى ترمى إلى إجلاء العرب من ديارهم وإلقاء الذعر فى نفوسهم .

وفى فبراير أذاع بياناً إلى الشعب الفلسطينى يطلب منه البقاء فى بلاده .

٢ ــ وفى نفس الشهر تم إنشاء المناطق والقيادات التالية :

(ا) قوات المجاهدين فى الشمال : بقيادة القاوقجى .

(ب) قوات المجاهدين فى القدس : بقيادة الحسينى .

(حـ) قوات المجاهدين جنوب فلسطين : بقيادة أحمد عبد العزيز .

(د) قوات المجاهدين فى منطقة اللد : بقيادة الشيخ حسن سلامة .

٣ ــ تطورت الأحداث بعد ذلك وساهم المتطوعون المصريون واشتركوا فى معارك ضد المستعمرات اليهودية ، واستطاع فوزى القاوقجى أن يتقدم بقواته إلى تلال السامرة شمال فلسطين ويستولى على مستعمرة « مشمار هايميك » وهى من أهم المستعمرات فى مديرية جنين .

٤ ــ فى مارس عام ١٩٤٨ اصطدم العرب واليهود بين القدس والخليل ووقعت بينهم عدة معارك أهمها « صوريف ــ سوريك ــ سلمة ــ يافا » هزمت فيها القوات اليهودية .

٥ ــ خلال هذه الفترة قام اليهود بارتكاب عدد من المذابح الوحشية ضد سكان القرى والمدن العربية العزل من السلاح ويمكننا إيجازها فيما يلى :

مذبحة يافا (١٤/٥/١٩٤٨)

● من مجموع سكان يافا البالغ عددهم أكثر من ١٢٠ ألفاً من العرب .. لم يكن قد بقى فيها يوم دخلتها عصابات الصهيونية سوى حوالى ثلاثة آلاف نسمة لم يتمكنوا لسبب أو لآخر من الانضمام إلى موكب الهجرة

الذى تدفق من المدينة كالسيل العارم لا يوقف اندفاعه شيء . . بعد خمسة أشهر من القتال المستميت المرير ، وقبل انهيار مقاومتها نهائياً .

● فى ١٤ مايو عام ١٩٤٨ ، تجمع أهل يافا فى مينائها الصغير بعد أن ضاق بهم الحصار الذى ضرب حول مدينتهم وأصبحت قنابل المدفعية اليهودية الثقيلة تطير من فوق رؤوس المدافعين عن حدودها وتدك كل شارع فيها وتحصد رجالها ونساءها وأطفالها حصداً ، وأصبح واضحاً أن من بقى على قيد الحياة من رجال حاميتها لن يستطيعوا بسلاحهم الهزيل القليل الباقى وذخيرتهم البالية الموشكة على النفاد صد الغزاة عن اقتحام المدينة لأكثر من ساعات معدودة أو أيام معدودة على أحسن تقدير .

● من الطريق البرّى الوحيد — طريق القدس الذى ظل استعماله ممكناً فى بعض الأحيان — عن طريق هذا المسلك الوحيد الذى يربط يافا ببقية البلاد ، ومن الميناء الوحيد الذى أصبح منفذها الأخير إلى الخارج ، من هذين المنفذين الوحيدين تدفق المهاجرون محاولين الإفلات من جحيم الحصار الذى طوّق مدينتهم وهدّم مساكنهم وهدّد كرامتهم الإنسانية . وهلك كثيرون أثناء الهجرة . . فقد كان جنود اليهود بالمرصاد للمهاجرين بطريق البر والبحر على السواء وكانت المعارك الطاحنة لا تزال دائرة فى أماكن كثيرة على جانبى طريق القدس ، وكانت قذائفها تتساقط على قافلة الهاربين فتنقص عدد أفرادها فى كل خطوة تخطوها وهكذا تبعثرت فلول القافلة التعسة فى أنحاء شتى من البلاد العربية ، فالذين نجوا عن طريق البر استقر بهم المقام فى الأردن وغزة ، والناجون عن طريق البحر انتهى المطاف بكل فريق منهم فى مكان . . . بيروت أو الإسكندرية . .

مذبحة دير ياسين (١٠/٤/١٩٤٨)

● ستظل مذبحة دير ياسين وصمة عار تلتصق بجبين الصهيونية إلى أن يأتى اليوم الذى ننتقم فيه لعرب فلسطين .

● يكفى أن نذكر هنا أن دير ياسين هى تلك القرية العربية الآمنة التى اعترف الصهيونيون أنفسهم بأنها كانت قرية هادئة آمنة لم يشترك سكانها فى أى ناحية من نواحى الصراع المسلح الذى كان دائراً فى فلسطين .

● جاءت حملة مسلحة من عصابتى الأراجون وشتيرن وأكرهت السكان الآمنين على إخلاء القرية ، فأذعن فريق منهم ، وبقى فريق آخر . . فما كان من الإرهابيين إلا أن هاجموا القرية بالمدافع والقنابل هجوماً وحشياً ذهب ضحيته مائتان وخمسون عربياً أغلبهم من النساء والأطفال الأبرياء . . وقد شهد مندوبو الصليب الأحمر فى فلسطين برغم تهديدات الصهاينة لهم ومنعهم من مشاهدة آثار تلك الجريمة الشنعاء ــ بأن مذبحة دير ياسين كانت مجزرة بشعة تنم عن وحشية متعمدة لا مبرر لها على الإطلاق سوى الزهو بالقتل والتنكيل بالعرب الآمنين .

أثر مذبحة دير ياسين

● يقول الجنرال جلوب البريطانى وقائد الجيش الأردنى السابق وأحد أبطال كارثة فلسطين التى أدت إلى تشريد اللاجئين فى كتابه « جندى مع العرب » الذى نشر عام ١٩٥٨ :

« لقد سمعت بأذنى رجال الهاجاناه اليهود يعلنون بمكبرات الصوت فى مدينة القدس بعد مذبحة دير ياسين وكان طريق أريحا لا يزال مفتوحاً . . أيها العرب اختاروا بين هذا الطريق أو مصير دير ياسين » .

● أيدت المصادر الموالية للصهيونية الأثر الذى أحدثته مذبحة دير ياسين ،

فقد نشر الكاتب اليهودى « ليرمان هال » فى مجلة كومنترى مقالاً قال فيه : « إن خوف الأهالى العرب من تكرار مذبحة دير ياسين يعتبر أحد الأسباب التى أدت إلى إسراع العرب بالهروب ، حتى إنه عندما نفذ قرار التقسيم فى منتصف مايو عام ١٩٤٨ كان قد ترك فلسطين أعداد كبيرة منهم » .

وفى كتاب الثورة الذى وضعه « مناحم بيجين » تفاخر قائد الجيش الإسرائيلى غير النظامى بأن القصص البشعة التى دارت حول وحشية أرجون زفاى ليومى قد سرت سرياناً سريعاً بعد مذبحة دير ياسين من عربى إلى عربى وتسببت فى فرار ٦٣٥ ألف عربى بطريقة جنونية مذعورة وأخذ العرب يولون الأدبار مرددين . . دير ياسين . . دير يا سين . . ولم يبق فى صفد بشمال فلسطين مثلا شخص واحد من الأربعة عشر ألفاً من العرب بعد ست ساعات من بدء الهجرة .

● يذكر مناحم بيجين بوصفه قائد مذبحة دير ياسين والذى أشرف عليها فى كتابه « تاريخ الأراجون » طبعه عام ١٩٥١ بنيويورك « أن مذبحة دير ياسين كان لها أثر بالغ فى نفوس العرب يساوى ستة أفواج من الجنود وأن قرية قالونية العربية التى كانت قد صدت كل هجوم شنته عليها قوات الهاجاناه قد أخليت فى ليلة واحدة ، وقد ساعدتنا مذبحة دير ياسين على إنقاذ طبرية وحيفا بصورة خاصة ولم يبق من العرب الذين كانوا يقطنون فلسطين — التى أصبحت إسرائيل — وعددهم ٨٠٠,٠٠٠ ، سوى ١٦٥ ألف عربى فقط .

خطة حدوة الحصان

● أثناء المذابح التى ارتكبها اليهود فى فلسطين ابتكروا طريقة جديدة للتخلص من العرب ــ أصحاب البلاد ــ والاستيلاء على أراضيهم خالية منهم جاهزة لاستقبال اليهود من كل مكان ؛ وقد عرفت هذه الطريقة باسم « حدوة الحصان » فعندما كان اليهود يتمكنون من الإحاطة بمنطقة عربية إحاطة تامة ، وتصبح تحت رحمتهم تماماً ، كما حدث فى بعض القرى العزلاء ، كان اليهود يدركون أن فى إمكانهم الاستيلاء على هذه القرى بلا أى جهد يذكر . . وأن فى إمكانهم الاستيلاء على القرى بدون أصحابها العرب . . مما يحقق لهم علاوة على المكاسب العسكرية ، أرباحاً ضخمة جداً بلغت حسب تقدير هيئة الأمم فيما بعد حوالى ٢٠٠٠ مليون جنيه .

● ولما كانت إبادة مجموعات كبيرة من البشر فى وقت قصير أمراً مستحيلاً ، حتى مع كون هذه المجموعات عزلاء من السلاح ، ونظراً لما يمكن أن يحدثه هذا العمل من رد فعل سيىء ضد اليهود فى الرأى العام العالمى فقد لجأ اليهود إلى طريقة « حدوة الحصان » ، وتتلخص هذه الطريقة فى فرض حصار غير كامل على القرية على شكل حدوة الحصان بحيث يتحكم هذا الحصار فى مصير المنطقة ولكنه لا يمنع هروب السكان

منها . وجعلوا يجبرون أصحاب الأرض على الهروب بتسليط النيران عليهم من كل اتجاه عدا فتحة الحدوة المتروكة عمداً ، ولكي يضمن المجرمون عدم تسرب أي جزء مهما كان زهيداً من الأسلاب مع أصحابها ، أخذوا يضعون دوريات مجهزة بالمصفحات من رجالهم عند طرفي الحدوة تتولى القضاء على كل من لا يذهله سيل النيران المنهمر عن كل شيء سوى محاولة النجاة بجلده .

● وعينوا لهذه الدوريات مهمة ثانية هي تأمين ابتعاد أهالي المنطقة عن أرضهم بأسرع ما يمكن قبل أن تتاح لهم فرصة التجمع قريباً منها أو فكرة العودة إليها ولو للموت فيها وذلك بإلهاب ظهور الهاربين بأسواط الرصاص التي تمنعهم من الالتفات للخلف ولو لإلقاء نظرة أخيرة على بيوتهم ومزارعهم وتدفعهم إلى السير في التلال والهضاب على غير هدى أو بصيرة.

جناية إنجلترا

« إن قطعة من الأرض العربية فى فلسطين قد أعطيت من غير سند من الطبيعة أو التاريخ لحركة عنصرية عدوانية . . أرادها المستعمر لتكون سوطاً فى يده يلهب به ظهر النضال العربى إذا استطاع يوماً أن يتخلص من المهانة وأن يخرج من الأزمة الطاحنة . . كما أرادها المستعمر فاصلا يعوق امتداد الأرض العربية ويحجز المشرق عن المغرب »

الميثاق

١ ــ جرت جميع تلك الأعمال الإجرامية على مسمع من أمريكا وبريطانيا والأمم المتحدة ، فلم تتخذ أية إجراءات للدفاع عن العرب وإنقاذهم من التنكيل والإرهاب .

٢ ــ لم تقم بريطانيا وزناً لتعهداتها بالمحافظة على أرواح السكان وأموالهم إلى أن تنسحب من فلسطين بالرغم عن وجود جيوشها فى البلاد ، بل إن هذه المذابح كانت تقع على القرى العربية دون أن تحول دون وقوعها الجيوش البريطانية ، فى حين كانت تمنع وصول النجدات العربية لإنقاذها .

٣ ــ قرر اليهود ، وقد شجعهم تأييد الإنجليز لهم وسكوت الأمم

المتحدة عنهم ، مهاجمة المدن الكبرى وطرد أهلها عن طريق الإرهاب والإجرام ، فهاجموا مدينة طبرية ، فلما صمد عربها فى وجه العدوان اليهودى هرعت القوات البريطانية لمنع النجدات العربية من الوصول إليها ، ثم جعلت تنقل العرب من المدينة إلى ما وراء الحدود بحجة إنقاذهم من الفظائع اليهودية ، فكنت اليهود بذلك من الاستيلاء على طبرية .

٤ ــ وكان الإنجليز قد أعلنوا أن انسحابهم من ميناء حيفا سيكون فى أغسطس سنة ١٩٤٨ وحالوا دون تسلح العرب فى حيفا واستعدادهم للدفاع عن أنفسهم بحجة أن الحكومة البريطانية المنتدبة هى المسئولة عن حمايتهم ، وفجأة قرر الإنجليز الانسحاب من حيفا فى ١٥ مايو عام ١٩٤٨ فأخلوا الأحياء اليهودية والمراكز الاستراتيجية فى المدينة وسلموها لليهود ، فهاجم اليهود العرب بشكل وحشى ، وهرعت القوات البريطانية لا لتحمى العرب كما كان واجباً ، بل لتعمل على نقلهم إلى مناطق أخرى ، وكذلك فعلوا بباقى المدن.

الصراع المسلح

١ ــ انسحب الإنجليز من فلسطين فى ١٥ مايو عام ١٩٤٨ بعد أن مكنوا لليهود من احتلال معظم مدنها ومساحات شاسعة من أراضيها زادت كثيراً على الأراضى المخصصة لليهود حسب قرار التقسيم ، وأعلن اليهود قيام دولتهم فأسرعت الولايات المتحدة إلى الاعتراف بها فور إعلانها كما تقدم ، وتبعتها دول أخرى .

٢ ــ ونظراً لاستمرار الإرهاب والإجرام اليهودى ضدعرب فلسطين وطردهم بالقوة من ديارهم دخلت الجيوش العربية النظامية أراضى فلسطين لإعادة السلام إليها وإنقاذ العرب من الإجرام اليهودى فنشب قتال كاد يقضى على الكيان اليهودى فتدخل مجلس الأمن بتوجيه من أمريكا وبريطانيا وطلب إيقاف القتال .

٣ ــ أوفدت الأمم المتحدة وسيطاً يمثلها لمحاولة حل المشكلة هو الكونت فولك برنادوت ، واستمر إيقاف القتال أربعه أسابيع حافظ العرب خلالها على جميع الشروط والأحكام التى وضعها مجلس الأمن ، فى حين أخذ اليهود بمعرفة الإنجليز والأمريكيين يخرقونها وينتهكونها :. فعززوا قوتهم العسكرية وضاعفوا أسلحتهم ، وجلبوا الكثير من المتطوعين والجنود المحترفين من أمريكا وأوربا ، ولما انتهت مدة الأسابيع الأربعة لوقف إطلاق النار استؤنف القتال وتقدمت الجيوش العربية للقيام بالمهمة التى دخلت البلاذ من أجلها ، ولكن مجلس الأمن تدخل مرة أخرى وفرض إيقاف إطلاق النار .

وضغطت الدول الغربية على العرب وأكرهتهم على قبول قرار مجلس الأمن بالرغم من سكوته عن احتلال القوات اليهودية بعض المدن والقرى العربية خلال سريان وقف إطلاق النار وبعده مثل عكا والقرى المجاورة لها .

٤ ــ أخلى الملك عبد الله اللد والرملة وعشرات القرى المجاورة لها فاحتلها اليهود بدون قتال .

٥ ـ سعى وسيط الأمم المتحدة لحل المشكلة الفلسطينية وقدم بعض المقترحات لمجلس الأمن بصدد حل المشكلة اعتبرها اليهود مغايرة لمطامعهم السياسية والتوسعية فقاموا باغتيال الكونت برنادوت في القدس دون وازع من ضمير .

٦ ـ نتيجة للمساعي والجهود التي بذلتها الأمم المتحدة والتي لازمها ضغط من الدول الغربية على العرب عقدت هدنة بين حكومات مصر وسورية ولبنان والأردن وبين اليهود في رودس في شتاء وربيع عام ١٩٤٩ .

استمرار العدوان الصهيوني

١ ـ وعلى الرغم من القرارات التي أصدرتها الجمعية العامة ومجلس الأمن بوجوب التمسك بأحكام الهدنة وعدم القيام بأية أعمال عدوانية مهما يكن نوع المسوغات لقيامها فإن اليهود ما زالوا يواصلون أعمالهم العدوانية حتى يومنا هذا دون أن تعمل الدول الغربية والأمم المتحدة على وقفها وحماية العرب من شرورها .

٢ ـ ويضيق المجال عن تفصيل جميع الأعمال العدوانية التي يقوم بها اليهود ضد العرب والأراضي العربية منذ توقيع اتفاقيات هدنة رودس عام ١٩٤٩ كما يحول دون ذكر الوحشية البالغة التي لازمت تلك الأعمال العدوانية ـ لذلك نكتفي بالإشارة إلى حوادث العدوان الوحشية التي وقعت في قبية ونحالين وغزة وخان يونس وغيرها .

٣ ـ لم يكتف اليهود بأعمالهم العدوانية الهمجية ضد الأراضي والسكان

فراحوا يعتدون على الأماكن المقدسة الإسلامية والمسيحية فى القدس وغيرها ، فقصفوا المسجد الأقصى وكنيسة القيامة وسائر المساجد والأديرة والكنائس واعتدوا على حرمات المقدسات والمقابر والآثار وحولوا الكثير من المساجد والكنائس إلى معابد يهودية .

وقد أصدر مجلس الأمن عدة قرارات أدان فيها اليهود باقتراف جرائم العدوان وندد بأعمالهم وطلب إليهم فيها الانسحاب من المناطق التى احتلوها بعد اتفاقيات الهدنة ولكن دون جدوى حيث ظل اليهود يسيرون على تطبيق سياسة الأمر الواقع فى حين ظلت الدول العربية والأمم المتحدة تغمض العين عن تلك السياسة العدوانية .

٤ ــ وكان عدوان اليهود فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٥٥ على غزة ثم على الكونتلا ثم الصبحة فى ٢ نوفمبر سنة ١٩٥٥ يمثل المقدمة للعدوان المبيت الذى مهد للهجوم الغادر الذى شنه اليهود بالتعاون مع بريطانيا وفرنسا على قطاع غزة وشبه جزيرة سيناء مما يدل على روح العدوان المتأصلة فى نفوس اليهود والمبيتة ضد الدول العربية وضد القومية العربية .

٥

أطماع اليهود

- **المطمع الأول :**

توسيع حدود إسرائيل من النيل إلى الفرات

- **المطمع الثانى :**

سرقة المياه العربية لنهر الأردن

- **المطمع الثالث :**

التسلل إلى القارة الإفريقية

المطمع الأول

توسيع حدود إسرائيل من النيل إلى الفرات

وهكذا قامت الدولة اليهودية فى فلسطين بعد ألفى عام من اندثارها . . قامت دولة غاصبة طامعة على الأرض العربية منذ آلاف السنين . . قامت على حساب شعب عربى طرد خارج بلاده .

وتمكنت بالدسيسة والخديعة والتعاون مع الاستعمار من تحقيق حلمها القديم . . ولكن هل تقف أطماع الصهيونية عند هذا الحد وتقنع بما استطاعت اغتصابه من الأرض العربية ؟ إن لليهود أطماعاً ثلاثة :

المطمع الأول :

توسيع حدود إسرائيل من النيل إلى الفرات

إن زعماء الصهيونية لا يملون من تكرار حلمهم الأكبر وهو استكمال إقامة الوطن القومى اليهودى على الأرض الواقعة بين النيل والفرات .

١ — فقد ألقى دافيد بن جوريون فى أول يوم لقيام دولته الدخيلة خطاباً جاء فيه :

« ليست هذه نهاية كفاحنا . بل إننا اليوم قد بدأنا . وعلينا أن نمضى لتحقيق قيام الدولة التى جاهدنا فى سبيل قيامها . . من النيل إلى الفرات . . وتتميز دولتنا بأنها الوحيدة التى لا تعتبر غاية فى ذاتها بل هى وسيلة فقط لتحقيق رسالة الصهيونية وجمع اليهود المشتتين فى جميع أنحاء العالم ، فهى بذلك ليست دولة الذين يستوطنونها فقط بل هى دولة الشعب اليهودى كله » .

ثم أشار إلى خريطة لفلسطين قائلا :

« إن لنا خريطة أخرى عليكم أنتم مسئولية تصميمها خريطة الوطن الإسرائيلى الممتد من النيل إلى الفرات »[١] .

٢ ـ صرح موشى ديان قائد الجيش الإسرائيلى إلى مندوب جريدة هآرتس ليلة ١٩٥٥/٧/١٠ ببيان قال فيه :

«يجب ألا نضيع دقيقة واحدة من الوقت فى الاستعداد لهجوم خاطف نشنه على أعدائنا .. ولنتأهب لهذه المعركة القادمة حتما .. إن جيشنا قادر على السير فى الحرب داخل بلاد الأعداء . . فإن حدود إسرائيل ليست طبيعية ويجب تعديلها » .

٣ ـ صرح فلاديمير جابونتسكى رئيس الحزب الإصلاحى الإسرائيلى قائلا :

« وسنطرد العرب من فلسطين وشرق الأردن ونقذف بهم إلى صحاريهم وسنقيم الدولة اليهودية على ضفتى الأردن أولاً ثم نمتد بها إلى ما وراء حدود فلسطين فيما بعد » .

٤ ـ صرح موشى شرتوك فى حديث له إلى جريدة « جيروزاليم بوست » قائلا :

« إن إسرائيل لن يكتب لها البقاء ما لم تشن حرباً شاملة ضد الدول العربية وتمد حدودها داخل أراضى هذه الدول حتى تضمن سلامتها » .

٥ ـ ألقى دافيد بن جوريون ـ خلال المعركة السياسية ـ خطبة فى اجتماع حزبى عام ١٩٥٢ قال فيها :

---

(١) انظر نص خطاب بن جوريون فى حفل تخريج المدرسة الحربية ص ١٢٥ .

« فليفهم الجميع أن إسرائيل قد قامت بالحرب . . وأنها لن تقنع بما بلغته حدودها حتى الآن . إن الإمبراطورية الإسرائيلية سوف تمتد من النيل إلى الفرات » .

٦ ــ كما جاء فى تصريح لبن جوريون « إن الانتصارات العسكرية هى بداية لأهداف إسرائيل البعيدة ، وإن على الشعب اليهودى تجميع قواه للوصول إلى الهدف النهائى فى بناء الدولة اليهودية التى تضم يهود العالم أجمع لتحقيق النصوص الواردة فى التوراة » كما قال : « إننى أتوقع أن يبلغ سكان إسرائيل قريباً عشرة ملايين ، فإننا ما كنا لنخوض هذه الحرب لنكتفى بهذه الدولة الصغيرة فإننا لم نحقق هدفنا بعد وهو النصر النهائى ، ولم نحرر حتى الآن سوى قسم واحد فقط من الوطن ، وسنحقق رؤيا أنبياء إسرائيل ليعود الشعب اليهودى بأسره إلى أرض الآباء والأجداد » .

٧ ــ جاء فى خطبة لمناحم بيجين الإرهابى الصهيونى المعروف « إن إسرائيل بوضعها الحالى لا تمثل سوى خمس ما يجب أن تكون عليه أرض الآباء والأجداد ، وإنه يجب العمل على تحرير الأربعة الأخماس الباقية » .

٨ ــ الخريطة الجغرافية التى رسمها اليهود لدولتهم المرتقبة تشمل فلسطين والأردن وسوريا ولبنان وقسم من العراق وقسم من أرض سيناء والدلتا . . وعلى هذا تسمى الخريطة تلك الأجزاء العربية : « إسرائيل التى يحتلها العرب » .

٩ ــ ما زالت إسرائيل ــ حتى اليوم ــ بدون دستور مكتوب ويتبجح ساستها بأن دولتهم تحذو حذو إنجلترا التى تفاخر بأنها « الدولة ذات الدستور غير المكتوب » . والواقع أن إسرائيل ترفض وضع دستور مكتوب باعتبار أنها لا تزال « الدولة فى الطريق ، فهى بوضعها الحالى ليست سوى موطئ قدم لإسرائيل . . . »

المطمع الثانى

سرقة المياه العربية لنهر الأردن

- أهمية المياه فى فلسطين
- اليهود ونهر الأردن
- مشروعات نهر الأردن
- مشروع لودر — ملك
- مشروع جونستون
- المشروع الإسرائيلى الأول
- المشروع الإسرائيلى الثانى
- تعديل المخطط الإسرائيلى
- المشروع العربى
- تطوير المشروع العربى

سرقة المياه العربية لنهر الأردن

ويخدم هذا المطمع فكرة توسيع الدولة من النيل إلى الفرات ، فلكى تقوى الدولة اليهودية ويشتد عودها لا بد لها من أسباب النمو الاقتصادى فى الناحيتين الزراعية والصناعية حتى يمكنها أن تحقق حلمها فى التوسع على حساب الدول العربية المجاورة ، ولكى نعرف سبب اهتمام إسرائيل بتحويل مجرى نهر الأردن لا بد لنا أن نعرف أولاً أهمية المياه فى فلسطين .

أهمية المياه فى فلسطين

● ترجع أهمية المياه فى فلسطين المحتلة إلى العلاقة الوثيقة بين كمية المياه المتوافرة وحجم الهجرة اليهودية إليها فكلما توافرت المياه اللازمة لرى واستصلاح المزيد من الأراضى جنوباً فى منطقة النقب الصحراوية أمكن لإسرائيل إقامة مستعمرات عدوانية جديدة تستوعب عدداً أكبر من الغزاة اليهود .

أهمية المياه بالنسبة لإسرائيل

● وحتى تتمكن إسرائيل من تحقيق ذلك ، لا بد لها من تعمير صحراء النقب التى تمثل حوالى ٤٧٪ من مجموع مساحتها ، خصوصاً إذا علمنا أن صحراء النقب ينقصها كل من المياه والسكان لتعميرها واستصلاح أراضيها ، فى حين تزيد وتتعادل كمية المياه المتوافرة فى المنطقة الشمالية والوسطى على التوالى مع حاجة السكان والأرض .

اليهود ونهر الأردن

١ — نهر الأردن يعتبر مصدر المياه الرئيسى فى البلاد وتقع عليه بحيرة

طبرية والبحر الميت ، ويبلغ طوله ٢٥٢ كم منها ١١٨ كم فى الأرض التى يحتلها اليهود .

ومنابعه الأصلية فى سوريا ولبنان ، وينقسم النهر إلى قسمين رئيسيين :

(ا) نهر الشريعة :

قبل دخوله طبرية — وروافده بانياس والحصبانى والدان .

(ب) نهر الأردن :

من مخارج طبرية حتى البحر الميت — وروافده اليرموك والزرقا وجالوت .

٢ — لهذا السبب أصبح نهر الأردن على رأس المطامع اليهودية فى فلسطين — منذ نحو مائة عام — وذلك نتيجة للدراسات التى قام بها اليهود لمسألة المياه فى فلسطين وكيفية رى واستصلاح صحراء النقب ، فقد ذكر جنرال تشارلز وارن فى كتابه « أرض الميعاد » عام ١٨٧٥ : « أنه بالاستطاعة إسكان خمسة ملايين يهودى فى أراضى فلسطين والنقب إذا توافرت المياه اللازمة من الشمال من نهر الأردن » .

٣ — حرص اليهود الأوائل الذين هاجروا إلى فلسطين فى عهد الدولة العثمانية على شراء الأراضى قرب مجرى نهر الأردن فى الشمال الشرقى من فلسطين تمهيداً للاستيلاء على النهر فى المستقبل كما قاموا ببناء المستعمرات القريبة منه مثل « المطلة — روشبينا — مشمار هاردن إلخ » .

مشروعات نهر الأردن

١ — مشروع لودر ملك (الخبير الأمريكى) عام ١٩٤٤ :

وكان يتضمن الاستيلاء على مياه نهر الأردن ومصادرها وتجفيف بحيرة

الحولة وفتح قنوات واسعة تجرى فيها مياه نهر الأردن لرى بعض الأراضى ونقل الفائض من المياه إلى النقب لريه .

٢ — مشروع جونستون (هيئة نهر تنيسى ١٩٥٥) :

لم يتمكن اليهود من تنفيذ هذا المشروع الاستعمارى فتشكلت لجنة « نهر تنيسى » بالولايات المتحدة الأمريكية لاقتراح مشروع موحد لاستغلال مياه نهر الأردن ، فأوفد رئيس الولايات المتحدة الأمريكية مندوبه الشخصى « إريك جونستون » لمباحثة الدول المعنية ، ووضع مشروعاً للاستفادة من مياه نهر الأردن رفضته الدول العربية جميعاً لاحتوائه على أخطار عظيمة لا نرى هنا مجالا للإفاضة فيها .

٣ — المشروع الإسرائيلى لسرقة مياه نهر الأردن :

(ا) المشروع الإسرائيلى — ١٩٥٤ / ١٩٦٠

ويهدف إلى زيادة كمية المياه المستغلة للزراعة :

من ٨١٠ ملايين متر مكعب سنويًا .

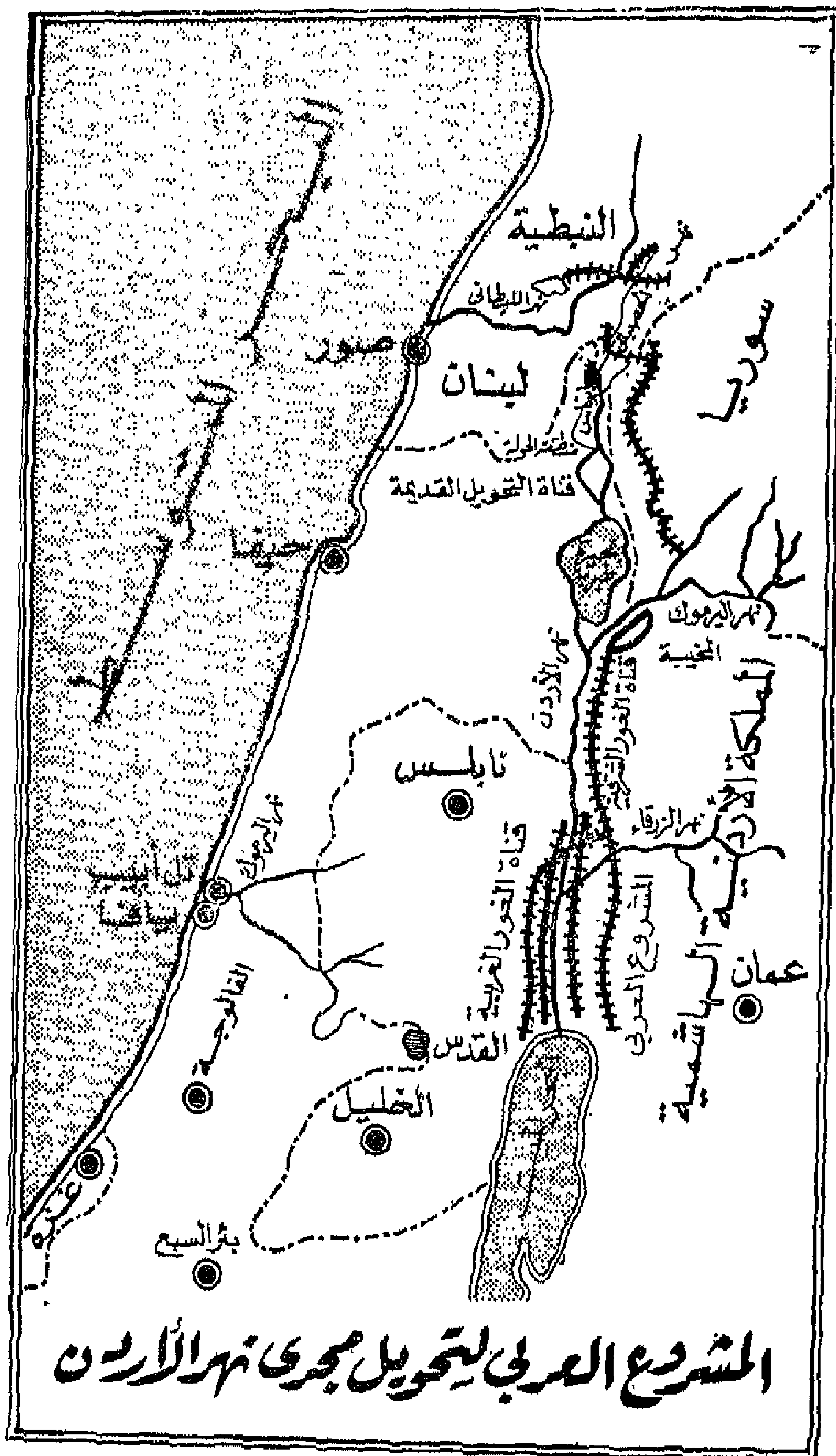
إلى ١٧٣٠ مليون متر مكعب سنوياً (منها ٧٠٠ مليون متر مكعب من مياه نهر الأردن)

وبذلك تتمكن إسرائيل من رى مليون و ٣١٤ ألف دونم فى نهاية المشروع .

تفاصيل المشروع

مرحلة ١ : الانتفاع من المياه الجوفية . . تمت سنة ١٩٥٦ .

مرحلة ٢ : تنفيذ ٤ مشروعات فرعية تستهدف زيادة إمكانيات



المشروع العربي لتحويل مجرى نهر الأردن

الموارد الطبيعية لمياه الرى واستصلاح مساحات كبيرة من الأرض وأهمها تجفيف بحيرة الحولة ومستنقعاتها ــ تمت عام ١٩٥٧ .

مرحلة ٣ : تحويل مجرى نهر الأردن .

ويتم على فترتين

الفترة الأولى :

إنشاء قناة كبيرة تمتد من جسر بنات يعقوب لحمل المياه جنوباً إلى بحيرة طبرية ثم تحويل المياه إلى قناة فرعية تمتد إلى النقب جنوباً بعد مرورها على مضخات البطوف (تم إنشاؤها عام ١٩٥٩) ثم تخرج من خزان البطوف إلى الجنوب قناة كبيرة مبطنة بالأسمنت بطول ١٤٠ كم حتى الفالوجا جنوباً ، ومنها تخرج شبكة منظمة من الأنابيب لتوزيع المياه على مناطق النقب القاحلة .. ويتم خلال هذه الفترة نقل ٣٤٠ مليون متر مكعب من مياه نهر الأردن إلى صحراء النقب .

الفترة الثانية :

ويتم خلالها إنشاء قناة كبيرة من كنيرت إلى بيسان ، وهى تخرج من بحيرة طبرية وتتجه جنوباً إلى بيسان ويمكن لإسرائيل بواسطة هذه القناة الاستيلاء على كمية تقدر بحوالى ٨٠ مليون م٣ سنوياً من مياه نهر الأردن .

وبذلك يكون مجموع الزيادة من المياه لإسرائيل بموجب هذا المشروع ٥٤٠ مليون متر مكعب سنوياً .

(ب) المشروع الإسرائيلى الثانى

فى عام ١٩٥٦ أعدت إسرائيل مشروعاً للعشر سنوات التالية لتحويل

مياه نهر الأردن إلى صحراء النقب ، وهو لا يخرج عن المشروع الأول فى مضمونه إلا أنه يمكن إسرائيل من استغلال مياه أعلى النهر وروافده السورية واللبنانية استغلالا أكثر عمومية وشمولا ، وبصفة عامة يعطى إسرائيل كمية إضافية من المياه العربية بمقدار ١٦٠ مليون متر مكعب سنويا أكثر مما كان يعطيه إياها تنفيذ المشروع الأول .

ويقوم المشروع الثانى على إنشاء خمس قنوات كبيرة لنقل المياه واستغلال بحيرة طبرية كخزان للمياه الزائدة وإنشاء سد على نهر اليرموك عند بلدة المقارن يتسع لتخزين ١٩٥ مليون متر مكعب من المياه .

القناة الأولى : وتبدأ من نهر الدان حتى سدّ البطوف ، وتستمد هذه القناة مياهها بصفة أساسية من : نهر الليطانى الذى ينبع من لبنان وتأخذ من مياهه ما يقرب من ٤٠٠ مليون متر مكعب سنويًا — ومن الأجزاء الشمالية لنهر الأردن : وتأخذ من مياهها ما يقرب من ٣٤٠ مليون متر مكعب سنويًا ، كما ترتبط بنهر بانياس السورى بقناة توصيل فرعية كما تتفرع من مدخل هذه القناة الرئيسية قناة رى فرعية تستغل فى ريّ منطقة الحولة بمياه نهر الدان .

القناة الثانية : وتتفرع من نهر الأردن نفسه فى منطقة جنوبى بحيرة الحولة عند جسر بنات يعقوب فى المنطقة المنزوعة السلاح وتتجه هذه القناة إلى الجنوب شأنها فى ذلك شأن القناة السابقة ويبلغ طولها حوالى ٣٨ كم إلى أن تنتهى عند خزان سهل البطوف ، ويبلغ معدل تصريف المياه فى هذه القناة حوالى ٢٠٠ مليون متر مكعب سنوياً ، كما تنشأ محطة لرفع المياه من هذه القناة إلى خزان سهل البطوف وتدار هذه المحطة كهربائياً وتعرف باسم « محطة الطابغة » .

القناة الثالثة : وتمتد من خزان سهل البطوف إلى صحراء النقب وهى عبارة عن ٣ قنوات من الأسمنت بقطر ٩ أقدام وتمتد جنوباً إلى النقب وتقوم بنقل المياه المتجمعة فى خزان البطوف من القناتين الأولى والثانية إلى منطقة النقب حيث تلتقى بشبكة القنوات المعدة فى تلك المنطقة لتنفيذ مشروعات تحويلها إلى منطقة زراعية .

وتحل هذه القنوات الثلاث فى المشروع الثانى محل القناة الوحيدة التى كانت مخصصة لنقل المياه لمنطقة النقب فى المشروع الأول .

القناة الرابعة : وتشق فى المنطقة من بحيرة طبرية إلى بيسان عند حدود الأردن وهى مطابقة لبديلتها المشار إليها فى المشروع الأول وتنقل ٢٢٠ مليون متر مكعب سنوياً من كنيرت إلى بيسان : منها ١٠٠ مليون متر مكعب من المياه المخزونة فى بحيرة طبرية ، و ١٢٠ مليون متر مكعب من مياه الوديان والينابيع فى المنطقة .

القناة الخامسة : وتقع فى منطقة الغور الشرقية وتبدأ من منطقة العدسية وتمتد جنوباً إلى أن تصل إلى البحر الميت ، ثم تنقل المياه بعد ذلك إلى أريحا بواسطة قناة أخرى فى الخطة التوسعية للمشروع اليهودى .

وترتبط قناة شرقى الغور ببحيرة طبرية وتستمد مياهها منها بواسطة قناة فرعية يكون مسارها بحذاء الشاطئ الشرقى لنهر الأردن .

الخزانات :

وتتغذى القنوات الخمس السابقة من مياه نهر الأردن وروافده العليا وبانياس والحصبانى والليطانى والدان واليرموك بعد أن يتم تخزينها فى خزانين كبيرين هما :

١ ـــ خزان بحيرة طبرية .

٢ ـــ سد المقارن .

القوى الكهربائية

يعطى المشروع الإسرائيلى كميات كبيرة من الطاقة الكهربائية تستمدّها من عدة محطات لتوليد الكهرباء خططت فى المشروع ، ويبلغ عددها نحو ١٧ محطة ، وبصفة عامة فإن مجموع القوى الكهربائية التى ستحصل عليها إسرائيل من محطاتها جميعاً بعد إتمام تنفيذ المشروع يبلغ حوالى ٢٦٦,٥٠٠ ك وات / ساعة .

تعديل المخطط الإسرائيلى

نتيجة للنزاع الإسرائيلى العربى على الحدود الشمالية أدخلت إسرائيل تعديلا طفيفاً ومؤقتاً على مشروعاتها فمن المعروف أن المشروع يتضمن تحويل مجرى نهر الأردن إلى مجرى جديد بصورة تساعد على إنتاج قوة كهربائية هائلة من اندفاع المياه من ارتفاع كبير إلى بحيرة طبرية .

وبموجب المشروع الأصلى سيجرى ضخ المياه بعد بحيرة طبرية التى ستستخدم كخزان للمياه .

أما الآن فتقوم إسرائيل بتنفيذ المرحلة الأولى على أساس سحب المياه من بحيرة طبرية بمضخات ستقام قرب البحيرة وتعمل عن طريق استخدام الوقود ، ويمكن تحويلها فى مرحلة ثالية إلى محطات تعمل بقوة ضغط المياه .

المشروع العربى
للاستفادة من مياه نهر الأردن

المبادئ الأساسية للمشروع

ـ عدم إغفال الحدود السياسية بين الدول الواقعة فى أحواض الأنهار.

ـ ضمان انتفاع كل دولة برىّ الأراضى الصالحة للزراعة الموجودة فى مناطق منابع وأحواض هذه الأنهار مع استفادة هذه المناطق بما يمكن توليده من القوى الكهرباثية فيها .

الخطوط الرئيسية للمشروع

أولا ـ استغلال مياه اليرموك

ـ إنشاء سد تخزينى بحوض النهر عند « المقارن » أو وادى خالد، وإقامة سد آخر على نهر اليرموك بالقرب من العدسية .

ويوفر السدان ٤٢٠ مليون متر مكعب من المياه سنويًا لرىّ أراضى الغور بالأردن ومنطقة اليرموك العليا بسوريا تستغل كالآتى :

فى سوريا

● تأمين احتياجات رى الأراضى السورية الصالحة للزراعة أمام خزان المقارن أو وادى خالد والتى يعلو منسوبها ٢٥٠ م بسهول حوران وتبلغ مساحتها ٦٨,٠٠٠ دونم تم استصلاح ورى ٣٣,٠٠٠ دونم منها ، والمياه اللازمة ٨٠ مليون متر مكعب .

● رى الأراضى الصالحة للزراعة فى وادى اليرموك بين موقع السد عند المقارن أو وادى خالد وعدسية .

فى الأردن

● سحب ما مقداره ٣٣٠ مليون متر مكعب فى ترعة الغور الشرقى لأغراض الرى.

● إنشاء قناة تأخذ مياهها من أمام سد خزان اليرموك عند المقارن أو وادى خالد وتتجه إلى الغرب حتى عدسية ، وتقام محطتان لتوليد القوى الكهرباثية إحداهما عند موقع السد والأخرى عند العدسية ، حيث يمكن استغلالهما لصالح الأردن وسوريا حسب الاتفاقية المعقودة بينهما فى ٤ يونيو سنة ١٩٥٣ .

ثانياً ــ استغلال مياه نهر الأردن وروافده شمال بحيرة طبرية

● إقامة سد تخزينى على نهر الحصبانى أمام موقع التقائه بنهر الأردن بحنو ٣٠ كم .

● إنشاء قناة تأخذ من أمام سد الحصبانى لرى ٣٥,٠٠٠ دونم فى الأراضى اللبنانية .

● إقامة محطة توليد قوى كهرباثية ناتجة من سقوط المياه من قناة الرى سالفة الذكر إلى نهر الحصبانى .

● إنشاء قناتين تستمدان مياههما من نهر بانياس لرى ٢٠,٠٠٠ دونم من الأراضى السورية الصالحة للزراعة تحتاج إلى ٢٠ مليون متر مكعب من المياه سنوياً .

● تجميع التصرفات الباقية من أنهار البانياس والدان والحصبانى ــ بعد

استقطاع احتياجات لبنان وسوريا – فى قناة تسير شمال منطقة الحولة مبتدئة من نهر البانياس ومتجهة نحو الغرب حتى تصب مياهها بنهر الأردن – بعد أن تأخذ منها قنوات الرى المياه اللازمة لرى أراضى إسرائيل بمنطقة الحولة ومساحتها ٧٨,٠٠٠ دونم تحتاج إلى ٦٦ مليون متر مكعب من مياه النهر سنويًا .

ومنطقة إيليت هاشاهار ومساحتها نحو ٣٠ ألف دونم تحتاج إلى ٣٠ مليون متر مكعب .

أما منطقة يافنيل فتبلغ مساحتها نحو ٢٢,٠٠٠ دونم ويمكن ريها ريًا كاملا من الآبار .

ثالثاً – استغلال نهر الأردن وروافده جنوب بحيرة طبرية

● إن كميات المياه التى تستقطع من التصرفات الواردة إلى نهر الأردن وروافده شمال بحيرة طبرية هى كالآتى :

٣٥ مليون متر مكعب لرى الأراضى اللبنانية بحوض نهر الحصبانى .

٢٠ مليون متر مكعب لرى الأراضى السورية بحوض نهر البانياس .

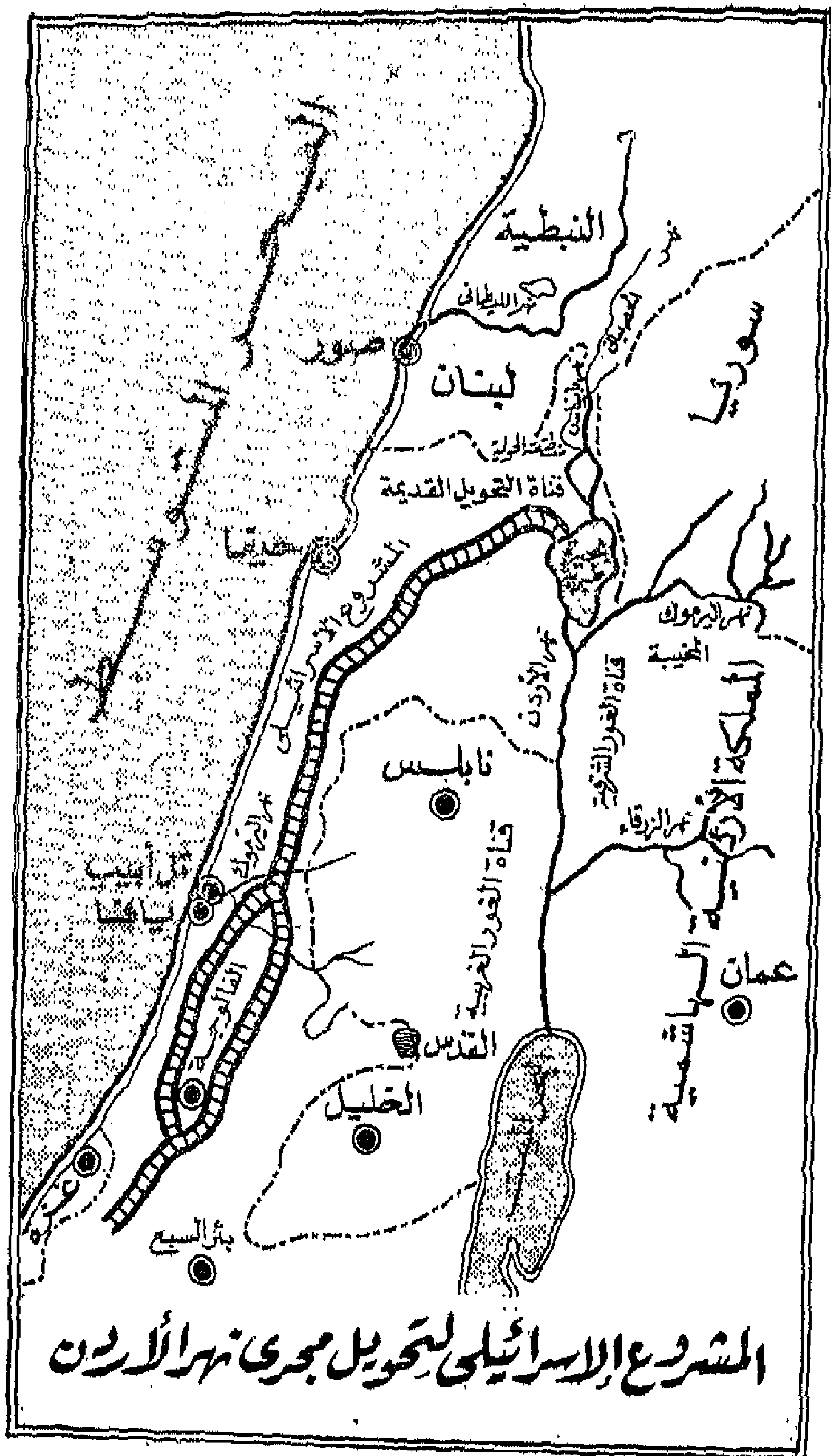
٢٢ مليون متر مكعب لرى الأراضى السورية بمنطقة البطيحة .

٦٦ مليون متر مكعب لرى أراضى إسرائيل بمنطقة الحولة .

٣٠ مليون متر مكعب لرى أراضى إسرائيل بمنطقة إيليت هاشاهار .

فيكون المجموع ١٧٣ مليون متر مكعب من المياه .

أما باقى تصرف نهر الأردن وروافده شمال بحيرة طبرية فينساب إلى هذه البحيرة حيث يصير تخزينه تخزيناً مستمرًا لتأمين الاحتياجات اللازمة لرى المساحات الآتية :



المشروع الإسرائيلي لتحويل مجرى نهر الأردن

بالنسبة لإسرائيل (جزء من النهر يمر فيها) :

● مساحة ٢٦,٠٠٠ دونم بمنطقة مثلث اليرموك تحتاج إلى ٤٥ مليون متر مكعب من المياه سنوياً .

● مساحة ٧٨,٠٠٠ دونم بمنطقة الغور الغربى تحتاج إلى ٣٩ مليون متر مكعب من مياه النهر سنويّا .

وبجموعهما معاً ٨٤ مليون متر مكعب .

بالنسبة للأردن :

● استكمال رى الغور الشرقى . وتقدر المياه اللازمة خلف بحيرة طبرية لهذا الغرض كما يلى :

٣٩٥ مليون متر مكعب سنويّا لرّى أراضى الغور الشرقى .

٢٧٠ مليون متر مكعب سنوياً كمية المياه التى يمكن سحبها من نهر اليرموك للرى فى أراضى الغور الشرقى .

١٢٥ مليون متر مكعب سنويّا يلزم سحبها من خزان بحيرة طبرية لاستكمال رى أراضى الغور الشرقى .

● ريّ أراضى الغور الغربى . وتقدر كميات المياه اللازمة خلف بحيرة طبرية لهذا الغرض بـ ٣٠٥ ملايين متر مكعب من المياه سنوياً .

إذن ١٢٥ + ٣٠٥ = ٤٣٠ مليون متر مكعب من المياه سنويّا ، وعلى هذا الأساس تكون كميات المياه اللازم سحبها خلف خزان بحيرة طبرية ٨٤ مليون متر مكعب لإسرائيل + ٤٣٠ مليون متر مكعب للأردن ، فيصبح المجموع = ٥١٤ مليون متر مكعب .

رابعاً — استغلال مياه الوديان والآبار

شملت موارد المياه التي اعتمد المشروع العربي على استغلالها بخلاف مياه نهر الأردن وروافده الموارد التالية :

١ — التصرف المستمر بالوديان وهو مستغل فعلا للري في الوقت الحاضر ويقدر بنحو ٢٦٨ مليون متر مكعب من المياه سنويا .

٢ — تصرف الآبار ويقدر بنحو ٤٠ مليون متر مكعب .

٣ — التصرف الذي يمكن الحصول عليه بعد التحكم في مياه فيضانات الوديان ويقدر بنحو ٧٤ مليون متر مكعب .

إذن يصبح المجموع الكلي ٣٨٢ مليون متر مكعب من المياه سنويا .

الأعمال العاجلة المقترحة لتحويل المياه العربية

أولا — في لبنان

● إنشاء سد تحويلي على نهر الحصباني وفتح نفق تحويلي ما بين السد ووادي الليطاني لجر مياه الحصباني إلى الليطاني في الأراضي اللبنانية . وقد قدرت النفقات بنحو ٦ ملايين ليرة لبنانية والتنفيذ يستغرق ١٨ شهراً .

● إنشاء محطة ضخ على مجرى الحصباني عند نبع الوزاني لرفع مياهه إلى السهول المرتفعة لري الأراضي اللبنانية والسورية . النفقات ٣ ملايين ليرة لبنانية — مدة التنفيذ ٢٤ شهراً .

ثانياً — في سوريا

تحويل مياه نهر البانياس إلى الأراضي المقابلة وذلك عن طريق قناتين : قناة غربية وأخرى جنوبية . . النفقات ٨ ملايين ليرة سورية

و ١٢ مليون ليرة أخرى لمد المشروع حتى مجرى اليرموك .

ثالثاً – فى الأردن

سرعة إنجاز قناة الغور الشرقية لتحويل مياه اليرموك وقطعها عن محطات الضخ القائمة فعلا فى المنطقة المحتلة بإسرائيل سواء فى مثلث اليرموك أو على الضفة الغربية من الأردن وكذلك التعجيل بتخزين مياه اليرموك على نهر اليرموك .

تطوير المشروع العربى

اتضح للجنة العربية بعد أن قامت بدراساتها بعد مؤتمر القمة الأول أن المياه التى ستحول إلى اليرموك من الروافد لا تتحملها قناة الغور الشرقية التى تم تنفيذها فعلا فى الأردن ، فإن الفيضان الذى يفيض طوال الشتاء يتجه إلى جانب المياه القادمة من تحويل نهرى الحصبانى وبانياس .

وبعد الدراسة اتضح أنه لا بد من إنشاء سد تخزين تخزن خلفه هذه المياه لمد أراضى الأردن بالمياه التى تحتاج إليها وبذلك اتفق على إنشاء سد خالد بن الوليد (المخيبة) .

مصير مشروعات تحويل مياه نهر الأردن

لعله ينبغى لنا أن نتساءل عن مصير مشروعات تحويل مياه نهر الأردن . .

● والحقيقة الأولى التى تفرض نفسها هى أن مشروعات استثمار مياه نهر الأردن وروافده هى فى أساسها – وإن كانت تستهدف حرمان إسرائيل من مياهنا العربية – تعكس آثاراً اقتصادية (زراعية وصناعية) على الدول العربية التى تقوم بالمشروع فى أراضيها .

● والحقيقة الثانية . . أن الشعب العربى فى الأردن أو فى سوريا أو فى لبنان لم يعد تخفى عليه – وقد تابع تشكيل وإنشاء ورصد الاعتمادات المالية لهيئة استثمار مياه نهر الأردن وروافده – الآثار العميقة التى ستلحق باقتصادياتها فى التنمية الزراعية واتساع رقعتها أو فى الكفاية الكهرو – صناعية المأمولة .

● فى ضوء هاتين الحقيقتين اللتين أصبح الشعب العربى يملك فيهما حق الرقابة والتوجيه ، فإن الحكومات العربية لتوقن تماماً مدى السخط الشعبى المرتقب ، من جراء أى محاولة لتمييع أو تجميد هذه المشروعات .

فى الأردن

١ – يعتبر مشروع سد خالد بن الوليد (سد المخيبة) أضخم مشروعات تحويل الروافد الذى يقع على بعد ١٤٠ كم من عمان وبعمق ١٣٠ متراً تحت سطح البحر فى منطقة المخيبة .

٢ – هذا المشروع هو الجزء الفورى لتحويل مياه اليرموك – وهو أهم روافد الأردن لمنع تدفق مياهه فى بحيرة طبرية .

٣ – إذا كان مشروع السد العالى فى ج . ع . م هو العمود الفقرى فى التنمية فإن مشروع سد خالد بن الوليد يعتبر أساس التنمية فى الأردن ، وقد طرح المشروع فى مناقصة عالمية رست على الشركة العربية (المقاولون العرب) ويتكلف ٨ ملايين دينار (الأيدى العاملة أردنية) .

٤ – إن الشعب العربى فى الأردن يدفع بالمشروع فى خطوات مرحلية حثيثة وينتظر الانتهاء منه فى أواخر عام ١٩٦٨ .

● أما بالنسبة للمشروعات التكميلية الأخرى (هندسية – ميكانيكية

إقامة الخرسانات والأبواب الحاجزة) فإنها تسير جنباً إلى جنب مع تعلية قناة الغور الشرقية التى انتهى من نصف حجم العمل فيها تقريباً .

وعلى هذا

فإن أى تنفيذ جزئى لمشروع استثمار مياه نهر الأردن وروافده . . إنما يعود الفضل فيه للشعب العربى فى الأردن الذى يؤمن بأن إنجاز هذه المشروعات سيضاعف قدرات الأردن الاقتصادية بالإضافة إلى حرمان إسرائيل من المياه العربية .

بالنسبة لسوريا ولبنان

إن المشروعات المقررة تسير سيراً حثيثاً برغم ما يقابلها من صعوبات هندسية ، وقد أمكن لسوريا أن تنجز حوالى ٦٠٪ من الأعمال الإنشائية المقررة .

المطمع الثالث

التسلل إلى القارة الإفريقية

- مقدمة
- أهمية القارة الإفريقية للاستعمار
- أهداف إسرائيل من التسلل إلى إفريقية
- دور الاستعمار فى التسلل الإسرائيلى
- وسائل التسلل الإسرائيلى
- دور دول الاستعمار فى التسلل الإسرائيلى إلى إفريقية
- إسرائيل صفحة سوداء فى القارة الإفريقية
- تجارة إسرائيل مع الدول الإفريقية .
- الدول الإفريقية التى لها علاقات دبلوماسية مع إسرائيل (حتى عام ١٩٦٤)
- دور ج . ع . م فى كشف ومحاربة التسلل الإسرائيلى إلى القارة الإفريقية
- المؤتمرات الأفرو ــ آسيوية

التسلل إلى القارة الإفريقية

مقدمة

ترجع مطامع اليهود فى القارة الإفريقية إلى زمن بعيد فقد اتجه تفكير زعماء الصهيونية إليها منذ أواخر القرن التاسع عشر حين ظهرت الدعوة الصهيونية الحديثة تحت زعامة « تيودور هرتزل » حين نادى اليهود بإنشاء الوطن القومى اليهودى فى أوغندة أو صحراء العريش بمصر ، وحينما انعقد المؤتمر الصهيونى الرابع عام ١٩٠٣ تقدم تشمبرلن وزير المستعمرات البريطانى بمشروع لتهويد أوغندة أو قبرص ، كما تقدم وزير خارجية بريطانيا وقتئذ بمشروع آخر لتهويد منطقة العريش بصحراء سينا .

وحينما قامت الشعوب الإفريقية تطالب باستقلالها فى العصر الحديث ، أدرك الاستعمار وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة فى إفريقية حاجته الماسة إلى من يحل محله بعد رحيله فلم يجد غير إسرائيل لتقوم بنفس الدور الذى لعبته ولا تزال تلعبه بين الأمة العربية .

أهمية القارة الإفريقية للاستعمار

١ — تعتبر إفريقية سوقاً كبيرة لمنتجات الدول المستعمرة .

٢ — تعتبر إفريقية مصدراً هائلا وهاماً للخامات بالنسبة للدول المستعمرة .

٣ — تعد القارة الإفريقية مجالا واسعاً لاستثمار رؤوس الأموال الضخمة التى تعود بالأرباح الطائلة على الدول المستعمرة .

٤ — تمثل القارة الإفريقية موقعاً استراتيجياً هاماً بالنسبة للدول الاستعمارية .

أهداف إسرائيل من التسلل إلى إفريقية .

١ — تحطيم الحصار الاقتصادى العربى وتدعيم المركز الاقتصادى لإسرائيل فى دول إفريقية .

٢ — الحصول على تأييد الدول الإفريقية حديثة الاستقلال فى المحافل الدولية وكسب أصواتها خصوصاً فى مشكلة فلسطين .

٣ — عزل سياسة ج . ع . م والدول العربية المتحررة عن المجتمع الدولى بخصوص قضية فلسطين وذلك عن طريق كسب اعتراف دول العالم بإسرائيل وتوطيد علاقتها معهم وبالتالى يتضاءل أمل العرب فى حل عادل للمشكلة .

٤ — تأمل إسرائيل أن تستطيع فى يوم من الأيام أن تنضم إلى مجموعة الدول الإفريقية ، لذلك فهى تعمل على التمهيد لهذا الطابب بكسب صداقة أكبر عدد ممكن من هذه الدول .

٥ — أخطر من ذلك أن إسرائيل — ومن ورائها الدول الغربية — تروج لفكرة أن إسرائيل تعتبر نموذجاً مثالياً للدول الإفريقية والآسيوية .

والخطورة ليس مصدرها الدعوى نفسها ولكن فيما يترتب عليها من خلق بيئة فكرية للجيل الجديد من الشباب الإفريقى بأن إسرائيل النموذج الجديد الذى يحتذى به ، وحين يأتى دور هذا الجيل فى حكم بلاده تجد إسرائيل منهم التأييد والمعونة .

دور الاستعمار فى التسلل الإسرائيلى

١ – تمويل الدول الاستعمارية للمخطط التوسعى الصهيونى ليكون تحت تصرف إسرائيل رأس المال اللازم ، والسماح لأصحاب رؤوس الأموال وغيرهم بالاشتراك فى هذا التمويل .

٢ – إصدار الأوامر إلى البنوك الأوربية والأمريكية لضمان القروض والمساعدات التى تقدمها إسرائيل إلى الدول الناهضة فى القارة .

٣ – تقدم البنوك الأوربية والأمريكية الأموال اللازمة لتمويل المشاريع الاقتصادية والشركات التى تقوم إسرائيل بإنشائها فى الدول الآسيوية والإفريقية .

٤ – مد إسرائيل بالخبراء والفنيين لإرسالهم مع الخبراء والفنيين الإسرائيليين إلى أقطار آسيا وإفريقيا .

٥ – إنشاء مشاريع إنتاجية للبضائع اللازمة لدول آسيا وإفريقية بإقامة هذه المشاريع فى إسرائيل وفى البلاد الأفرو – آسيوية ووضعها تحت إشراف إسرائيل .

٦ – تشجيع إسرائيل للزعماء والعناصر المعتدلة والزعماء المتطرفين واستمالتهم للتعاون مع الدول الاستعمارية .

٧ – سعى إسرائيل لجعل استقلال الشعوب الإفريقية مزيفاً يسيطر عليه الزعماء الإفريقيون المسايرون للاستعمار .

٨ – سعى للدول الاستعمارية إلى خلق صداقة بين زعماء الدول الأفرو – آسيوية وبين إسرائيل .

وسائل التسلل الإسرائيلى

١ ـ إنشاء شركات الملاحة البحرية المشتركة .

٢ ـ إمداد الدول بالخبراء والفنيين المدنيين والعسكريين .

٣ ـ إعطاء الدول الإفريقية قروضاً طويلة الأجل والقيام ببعض المشروعات الاقتصادية لتلك الدول .

٤ ـ منح الدول الإفريقية منحاً دراسية مجانية فى المجالين العسكرى والمدنى .

تنفيذاً لهذا المخطط الصهيونى قامت إسرائيل بالآتى :

١ ـ العناية بتحسين وسائل المواصلات الخارجية لزيادة النقل البحرى والجوى تحقيقاً للأهداف التوسعية فى التسلل إلى دول إفريقية حديثة الاستقلال .

٢ ـ اضطرت إسرائيل ـ نتيجة للحصار الاقتصادى العربى ـ إلى زيادة عدد سفنها وطائراتها ، فأمكن للأسطول الإسرائيلى البحرى فى عام ١٩٥٩ أن ينقل حوالى ٣٥ ٪ من مجموع النقليات الإسرائيلية المختلفة .

٣ ـ تحسين الموانى والمطارات وإنشاء الخطوط الملاحية الجديدة ، فقد أقامت فى حيفا حوضاً لبناء السفن حمولة ٢٩,٠٠٠ طن وأدخلت أحدث الأجهزة الألكترونية فى مطار اللد.

٤ ـ بفضل النفوذ الصهيونى أصبحت إسرائيل متغلغلة فى معظم

أجهزة الملاحة البحرية الدولية فى مختلف أقطار العالم ، وهى تبذل أعظم الجهود لحمل الشركات البحرية العالمية على التعاون معها ، ولكى تستطيع إسرائيل التخلص من المقاطعة العربية ، فإنها تقوم بإنشاء شركات ملاحة مشتركة بينها وبين مختلف الدول .

دور دول الاستعمار فى التسلل الإسرائيلى إلى إفريقية

١ — بريطانيا

(ا) أوحت بريطانيا إلى إسرائيل بإرسال رجالها للدخول فى مفاوضات مع حكومة غانا — عندما قررت الرحيل عنها لعرض خدماتهم لتدعيم استقلالها ، مع الأموال اللازمة لتمويل مشروعاتها ، فوافقت غانا فى مبدأ الأمر .

(ب) وهكذا خرجت بريطانيا من غانا لتبقى فيها إسرائيل وأصبحت شركة « ديزنجوف » الإسرائيلية — البريطانية أكبر شركة استعمارية فى غانا تساعدها شركات بريطانية أخرى مثل « سوليل يونية » وزعيم ماير . . إلخ .

(حـ) لم تلبث غانا أن تنبهت إلى الدور الذى تلعبه إسرائيل كقناع بريطانى ، فأقامت سياسة تحررية اقتصادية تهدف إلى التخلص من النفوذ الإسرائيلى وأجرت مفاوضات مع الهستدروت الإسرائيلى بشأن شراء حكومة غانا لنصيب إسرائيل من شركة الإنشاءات الأهلية وحصتها كذلك من شركة النجمة السوداء للملاحة البحرية .

٢ — الولايات المتحدة الأمريكية

كشف دافيدهورتنيس مدير بنك إسرائيل القومى عن حقيقة الدور الذى تلعبه إسرائيل لحساب أمريكا فى دول إفريقية فى شهر أغسطس

عام ١٩٦١ حينما قال ما ترجمته عن العبرية : « إن الشركات الإسرائيلية التي تعمل في إفريقية إنما تعمل في الواقع كفروع للاحتكار الأمريكي ، وعلى سبيل المثال نرى أن جزءاً كبيراً من رأس المال الخاص بشركة (سوليل بونيه) تابع لبعض شركات أمريكية وللوكالة اليهودية ومقرها الرئيسي الولايات المتحدة . . » وأضاف : « إن إسرائيل تعمل كأداة لتسلل المحتكرين الأمريكيين إلى اقتصاديات الدول الإفريقية » . كما أكد بأن الدبلوماسيين الإسرائيليين ورجال الأعمال الإسرائيليين الذين يشتغلون بالأعمال الاقتصادية في إفريقية ليسوا إلا عملاء تجاريين لأمريكا حيث إنهم يقومون بهذا العمل في نطاق الدعاية الصهيونية الأمريكية ويسعون إلى المحافظة على بقاء إفريقية تحت النفوذ الاستعماري » .

٣ — بلجيكا

فقد ذكرت صحيفة « بديعوث إحرانوت » الإسرائيلية في عددها الصادر في فبراير سنة ١٩٦١ أن مراسلها الذي كان يرافق بن جوريون في رحلته لأوربا عام ١٩٦١ والتي زار فيها بلجيكا حصل على تصريح من مسئول بلجيكي رفض ذكر اسمه يقول فيه :

إن إسرائيل هي أكبر عماد لبلجيكا في الكونغو — وإن الحكومة البلجيكية تميل إلى استغلال إسرائيل في الكونغو وإمدادها بالمال اللازم لذلك . وقال المسئول البلجيكي إنه بحث هذا الموضوع مع بن جوريون في بروكسل لتحديد كيفية تنفيذه بدون إثارة للشبهات .

إسرائيل صفحة سوداء في القارة الإفريقية

موقف إسرائيل من الحركات التحررية فى إفريقية :

١ ـ صوتت إسرائيل فى الأمم المتحدة سنة ١٩٥٢ ضد استقلال تونس .

٢ ـ صوتت إسرائيل فى الأمم المتحدة سنة ٥٣ / ١٩٥٤ ضد استقلال المغرب .

٣ ـ عارضت إسرائيل مشروع ليبريا فى تحكيم الأمم المتحدة بين الدول الاستعمارية والدول المستعمرة .

٤ ـ امتنعت إسرائيل عن تأييد الكتلة الأفرو ـ آسيوية فى طلب إجراء انتخابات فى الكاميرون قبل إعلان استقلالها .

٥ ـ أيدت اتحاد جنوب إفريقية فى محاولة ضم إقليم جنوب غرب إفريقية دون إجراء انتخابات أو استفتاء . . وأيدته كذلك فى مسألة التفرقة العنصرية .

٦ ـ وقفت ضد استقلال الجزائر عام ١٩٥٦ وكذا فى عام ١٩٥٧ كما صوتت إلى جانب فرنسا ضد القرار الذى أعدته دول إفريقية لاستقلال الجزائر عام ١٩٥٨ وأيدت فرنسا ضد القرار الأفرو ـ آسيوى الذى اعترف بحق الجزائر فى الاستقلال فى ديسمبر عام ١٩٥٨ .

٧ ـ هاجمت إسرائيل الاتحاد بين غانا وغينيا الذى صدق عليه برلمان غانا فى ١٢/١٢/١٩٥٨ كنواة للولايات المتحدة الإفريقية ، كما هاجمت الاتفاقيات الثلاث التى وقعتها غانا مع غينيا فى ٧/١/١٩٥٩ لتسوية مشاكل العملة بين البلدين والتعاون الفنى والاقتصادى .

٨ ــ عارضت إسرائيل المشروع الأفرو ــ آسيوى الخاص بتصفية الاستعمار وهو المشروع الذى وافقت عليه الجمعية العمومية للأمم المتحدة فى دورتها الخامسة عشرة عام ١٩٦٠ ، وقبل ذلك أعلنت معارضتها منح الشعوب حق تقرير مصيرها .

٩ ــ تمد إسرائيل قوات الاستعمار الهولندى فى كل من أنجولا وموزمبيق وإيريان الغربية بالأسلحة والعتاد للقضاء على الحركات الوطنية فى تلك البلاد ، فنى ٢٨/٥/١٩٦١ نشرت صحيفة « الأوبزرفر » نبأ الصفقة التى باعتها ألمانيا الغربية للبرتغال من المدافع الأوزى الإسرائيلية والتى تبلغ ١٢٠ ألف مدفع ، ومعنى هذا أن الأسلحة البرتغالية التى قتل بها الوطنيون فى أنجولا صنعت فى إسرائيل .

١٠ ــ كشفت صحيفة مورننج بوست النيجرية أهداف إسرائيل العدوانية فى مقالها المنشور يوم ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٦٢ الذى ذكرت فيه أن أهداف إسرائيل الاستعمارية التى حاول بن جوريون وجولدا مائير إخفاءها عن طريق تصريحات السلام التى يدلون بها لا يمكن أن تظل حقيقتها خافية عن الرأى العام أكثر من ذلك .

تجارة إسرائيل مع الدول الإفريقية

الدولة	صادرات إسرائيل		واردات إسرائيل	
	١٩٦٠	١٩٦١	١٩٦٠	١٩٦١
	جنيه	جنيه	جنيه	جنيه
أوغندا	٢٣,٠٠٠	١٣,٠٠٠	١٣٣,٠٠٠	٢٦٩,٠٠٠
تنجانيقا	—	٨٠,٠٠٠	—	١٢٩,٠٠٠
أنجولا	—	٢٠,٠٠٠	—	—
جابون	—	—	—	٣٥٧,٠٠٠
غانا	٨٦٣,٠٠٠	١,٠٢٨,٠٠٠	٥٦٣,٠٠٠	٧٧١,٠٠٠
غينيا	—	—	٢٦٣,٠٠٠	١,٢٠٤,٠٠٠
اتحاد جنوب إفريقية	٧٧٩,٠٠٠	١,١٩١,٠٠٠	٤,٠١٣,٠٠٠	٣,٨٧٩,٠٠٠
اتحاد روديسيا ونياسالاند	١٨٨,٠٠٠	٢٨٣,٠٠٠	١٤٦,٠٠٠	١٥٦,٠٠٠
مدغشقر	٦٠١,٠٠٠	١١٨,٠٠٠	١٨٠,٠٠٠	—
أثيوبيا	٣٩٩,٠٠٠	٥٣٧,٠٠٠	١,٣٧٤,٠٠٠	١,٢٠١,٠٠٠
ساحل العاج	—	—	—	٩٤٢,٠٠٠
ليبريا	٢٢٧,٠٠٠	٢٣٣,٠٠٠	—	٦٠,٠٠٠
مالى	—	١٢٠,٠٠٠	—	—
موزمبيق	٤١,٠٠٠	٢٦,٠٠٠	٤١٣,٠٠٠	٧٢٥,٠٠٠
نيجيريا	٧١٤,٠٠٠	١,٠٧٨,٠٠٠	٤٧,٠٠٠	١٤١,٠٠٠
الصومال (الفرنسى)	—	٢٦,٠٠٠	—	—
السنغال	—	٦٧,٠٠٠	—	—
الكونغو (البلجيكى)	٥٢,٠٠٠	٤٠,٠٠٠	١٣,٠٠٠	—
الكونغو (الفرنسى)	—	—	—	٧,٠٠٠
الكاميرون	٣٧,٠٠٠	٣,٠٠	—	٢٢,٠٠٠
كينيا	٣٧٣,٠٠٠	١٥٨,٠٠٠	—	—
دول أخرى	٢٦٥,٠٠٠	٣٢٤,٠٠٠	١,٦٥٧,٠٠٠	٦٠٣,٠٠٠
الجملة	٤,٧٠٧,٠٠٠	٥,٣٢٠,٠٠٠	٩,٨٣٢,٠٠٠	١٠,٩٤٧,٠٠٠

الدول الإفريقية التي لها علاقات دبلوماسية مع إسرائيل (حتى عام ١٩٦٤)[١]

١ — إثيوبيا
٢ — بورندى
٣ — الكمرون
٤ — تشاد
٥ — وسط إفريقية
٦ — الكونجو (برازافيل)
٧ — الكونجو (ليوبولدفيل)
٨ — داهومى
٩ — جابون
١٠ — غانا
١١ — غينيا
١٢ — كينيا
١٣ — ساحل العاج
١٤ — ليبريا
١٥ — مدغشقر
١٦ — مالى
١٧ — النيجر
١٨ — السنغال
١٩ — سيراليون
٢٠ — تنجانيقا
٢١ — توجو
٢٢ — جنوب إفريقية
٢٣ — جامبيا

---

(١) فى مواجهة إسرائيل : سامى منصور

دور الجمهورية العربية المتحدة

فى كشف ومحاربة التسلل الإسرائيلى إلى القارة الأفريقية

بعد أن تحررت مصر من الحكم الفاسد فى ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ وبدأت تظهر بكيانها الحر كدولة ذات أثر فعال فى المجتمع الدولى وخصوصاً بعد انعقاد مؤتمر باندونج ، وجدت أن إسرائيل قد بدأت تتغلغل داخل القارة الإفريقية بمعاونة الاستعمار .

فكان من الطبيعى أن تزيد تبعاً لذلك اتجاهاتنا العربية امتداداً ونشاطاً بحيث يمتد معها النضال ضد الصهيونية إلى قلب القارة الإفريقية بمزيد من التساند مع الدول المستقلة صيانة لكيانها القومى وتمكيناً للمد القومى فى القارة من بلوغ أهدافه بالقضاء على الاستعمار نهائياً .

وكان لابد من إيجاد طريقة لإقناع زعماء إفريقية جميعاً بأن أوربا الاستعمارية تقف خلف التسلل الإسرائيلى ،وكان لابد من كشف الدور الذى تلعبه إسرائيل داخل القارة ، ولقد قامت ج . ع . م بدور الطليعة للتمهيد لتحقيق هذا الغرض ، فقامت بكشف دور إسرائيل الحقيقى ، خلال المؤتمرات التالية :

المؤتمرات الأفرو ـ آسيوية

١ ــ مؤتمر تضامن الشعوب الأفريقية الآسيوية (١٩٥٧)

وكان قراره بالنسبة لإسرائيل حاسماً :
(ا) أعلن المؤتمر أن إسرائيل قاعدة استعمارية تهدد تقدم الشرق الأوسط وسلامته ، وبين سياستها العدوانية التى تكون خطراً يهدد السلام العالمى .
(ب) أكد المؤتمر حقوق عرب فلسطين فى بلادهم كما أعلن عطفه على اللاجئين العرب وأيد جميع حقوقهم فى عودتهم إلى وطنهم .

٢ ــ مؤتمر كوناكرى (١٩٦٠)

حضره مندوبو ٤٩ دولة إفريقية وآسيوية يمثلون ١٥٠٠ مليون نسمة واتخذ القرارات التالية :
(ا) أيد المؤتمر بقوة الحقوق الشرعية لشعب فلسطين بصفة خاصة فى طلبه العودة إلى وطنه .
(ب) ساند المؤتمر شعب فلسطين فى عزمه على تنظيم نفسه فى كيان مستقل على أرض فلسطين .
(حـ) أيد المؤتمر القرار المتخذ فى عام ١٩٥٧ والخاص بإدانة إسرائيل .

٣ ــ مؤتمر الدار البيضاء (١٩٦١)

وكان من الطبيعى أن يمتد النضال العربى فى القارة الإفريقية إلى مرحلة جديدة بدافع تطور الظروف ومن ثم تهيأ الوسيلة أمام ج . ع . م ، فما لبث

المغرب أن تبنى ذلك الاتجاه ، ودعا الملك محمد الخامس لعقد المؤتمر فى الدار البيضاء بالمغرب فى الفترة من ٤ إلى ٧ يناير عام ١٩٦١ .

وقد استطاع الرئيس جمال عبد الناصر إدخال قضية فلسطين ضمن أعمال المؤتمر لبيان حقيقة الخطر الصهيونى على القارة الإفريقية حتى يمكن الحد من توغلها ، وبذلك قرر المؤتمر العمل على القضاء على التسلل الإسرائيلى فى القارة كما يلى :

(ا) التحذير من الخطر الناتج عن حرمان عرب فلسطين من حقوقهم المشروعة التى تهدد السلام والأمن فى الشرق الأوسط .

(ب) ضرورة حل القضية حلا عادلا متمشياً مع قرارات الأمم المتحدة والمؤتمر الإفريقى الآسيوى والخاصة بإعادة حقوق عرب فلسطين الشرعية كاملة .

(حـ) التنديد بإسرائيل باعتبارها أداة فى خدمة الاستعمار ليس فقط فى الشرق الأوسط بل فى إفريقية وآسيا .

(د) دعوة كافة الدول فى إفريقية وآسيا إلى مقاومة هذه السياسة الجديدة التى يستخدمها الاستعمار فى خلق القواعد له .

٤ ــ مؤتمر تضامن الشعوب الإفريقية الآسيوية (١٩٦٣)

وحضره مندوبو ٦٠ دولة من إفريقية وآسيا و ٢٠ منظمة من دول صديقة كمراقبين وعقد بتنجانيقا وكان من ضمن قراراته الخاصة بفلسطين :

١ ــ أعلن المؤتمر تأييده للقرارات التى اتخذت من قبل وتأييد حق العرب فى العودة إلى ديارهم واستعادة بلادهم .

٢ ــ أيد المؤتمر اللاجئين العرب فى إقامة كيان متحد فى فلسطين .

٣ ــ أكد المؤتمر من جديد القرارات السابقة التى اتخذتها مؤتمرات تضامن الشعوب الأفرو ــ آسيوية والتى أدانت إسرائيل ووصمتها بأنها قاعدة استعمارية وأنها تهدد السلام فى الشرق الأوسط وأنها وجدت فى قلب العالم العربى بمساعدة الاستعمار كى تحمى المصالح الاستراتيجية ومصالح البترول الخاصة بالدول الاستعمارية فى هذه المنطقة وحتى تقف حائلا دون قيام الوحدة العربية وبناء المجتمع الحر ؛ لهذا فإن المؤتمر يدين وجود إسرائيل فى فلسطين ويؤيد تحرير فلسطين .

٦

الاقتصاد الإسرائيلى

- فى مجال الزراعة
- فى مجال الصناعة
- فى مجال التجارة الخارجية

الاقتصاد الإسرائيلى

برغم الهبات والمساعدات والمنح والقروض التى تنهال على إسرائيل منذ عام ١٩٤٨ حتى الآن فإن الاقتصاد الإسرائيلى يعانى من المرض المزمن فهو اقتصاد غير طبيعى لدولة غير طبيعية ولا يزال ميزانها التجارى يسجل باستمرار عجزاً مضطرداً ، وكان الظن أن هذا العجز سيزول متى ثبتت تلك الدولة الدخيلة أقدامها ، ولكن لم تتغير الحال ، بل زاد سوءاً على سوء مما جعل البطالة تنتشر فى الأيام الماضية حتى بلغت حداً لم تصله من قبل. الأمر الذى دعا ليفى أشكول رئيس الوزراء الإسرائيلى إلى أن ينذر بخطر الانهيار الاقتصادى ويدعو إلى تطبيق برنامج التقشف لمدة ثلاثة أعوام قادمة لتجنب الانهيار المتوقع .

فى مجال الزراعة

● يكرس اليهود جهودهم منذ قيام دولتهم الدخيلة عام ١٩٤٨ لتطوير الزراعة وزيادة المساحات المزروعة وتحسين وسائل الرى .

● وترتب على اتباع هذه السياسة زيادة الإنتاج الزراعى ، وتمثل صادرات الموالح حوالى ٧٥ ٪ من مجموع الصادرات الإسرائيلية ، فى حين لا يفى الإنتاج الزراعى بحاجة السكان من الحبوب وعلف الحيوانات والزيوت النباتية فإسرائيل تنتج ٢٥ ٪ من حاجتها من القمح فى حين أن استهلاكها السنوى منه حوالى ٣٠٠ ألف طن .

● برغم ذلك فإن إمكانيات إسرائيل وقدرتها الطبيعية محدودة للغاية ، فالبقعة الصغيرة من الأرض التى تعيش فوقها إسرائيل اليوم محدودة القدرة على استيعاب يهود العالم .

الصعوبات

١ – الأرض الصالحة للزراعة فى إسرائيل لا تتجاوز ٢٠ ٪ من مجموع المساحة الكلية للبلاد .

٢ – معظم الأراضى الزراعية تعتمد على مياه الأنهار وهى تجف صيفاً (عدا نهر الأردن) .

٣ – معظم اليهود الذين هاجروا إلى فلسطين قبل عام ١٩٤٨ و بعدها لا يميلون إلى الزراعة و بالتالى لا يعرفون عنها شيئاً وتنحصر ميولهم فى أعمال التجارة والصرافة إلخ ..

فى مجال الصناعة

● لم تتجه إسرائيل إلى الصناعة الثقيلة كالحديد والصلب . . ولكنها اعتمدت فى مبدأ الأمر على صناعات متقدمة من ناحية الخبرة الفنية كصناعة صقل الماس والصناعات الكيماوية والبتروكيماوية والألكترونات والأدوات الكهربائية ، وذلك بإنشاء المصانع الصغيرة والمتوسطة لإنتاج السلع المتنوعة .

الصعوبات

١ – **ضرورة تشغيل المهاجرين** : مما اضطر إسرائيل إلى إنشاء بعض الصناعات التى لا مقومات لها على الإطلاق وتفوق قدرة الاقتصاد الإسرائيلى مما كان له أكبر الأثر فى تدهور الحالة الاقتصادية .

٢ – **الافتقار إلى المواد الخام** : وتفتقر إسرائيل إلى المواد الخام اللازمة لإقامة الصناعة فتضطر إلى استيرادها من الخارج بنفقات باهظة تصل إلى ٥٠ ٪ من نفقات الإنتاج فى بعض الصناعات .

٣ ـ الافتقار إلى الوقود : فلا يزيد إنتاج إسرائيل من البترول على ١٣٠ ألف طن سنوياً أى ما يعادل ٨ ٪ فقط من حاجتها إلى هذه المادة الحيوية الأمر الذى يضطرها إلى استيراده من الخارج ويكلفها حوالى ٥٠ مليون دولار سنوياً وهذا بطبيعة الحال يؤدى إلى زيادة تكاليف الإنتاج الصناعى .

٤ ـ الافتقار إلى رؤوس الأموال اللازمة للصناعة

فبالرغم من أن إسرائيل تمنح امتيازات كثيرة للمموِّلين الأجانب الذين يرغبون فى استغلال رؤوس أموالهم فيها ، إلا أن هناك عزوفاً مستمراً عن الاستثمار فى إسرائيل ، لضعف الثقة فى اقتصادياتها .

● فى مجال التجارة الخارجية ـ

١ ـ العجز فى الميزان التجارى

ولعل الطابع الطفيلى الهزيل لاقتصاديات إسرائيل يبدو أكثر وضوحاً بإلقاء نظرة سريعة على بعض أرقام التجارة الخارجية ، فمنذ قيام إسرائيل وهى تعانى من العجز المضطرد فى ميزانها التجارى . والجدول التالى يعطينا صورة عن مدى تطور التجارة الخارجية الإسرائيلية خلال الفترة من عام ١٩٤٩ إلى عام ١٩٦٥ موضحاً مدى العجز فى الميزان التجارى بآلاف الدولارات:

السنة	واردات	صادرات	العجز (بالألف دولار)
١٩٤٩	٢٥٣.١	٢٩,٧	٢٢٣,٤
١٩٥٠	٣٠١,١	٣٦,٩	٢٦٤,٢
١٩٥١	٣٨٨,٩	٤٦,٧	٣٤٢,٢
١٩٥٢	٣٠٩,٦	٤٥,٤	٢٦٤,٢
١٩٥٣	٢٨١,١	٥٩,٦	٢٢١,٥
١٩٥٤	٢٨٦,٥	٨٨,١	١٩٨,٤
١٩٥٥	٣٢٥,٥	٨٨,٢	٢٣٧,٣
١٩٥٦	٣٥٣,١	١٠٣,٢	٢٤٩,٩
١٩٥٧	٤١٠	١٤٣,٣	٢٦٦,٧
١٩٥٨	٤٣٤	١٣٧,٩	٢٩٦,١
١٩٥٩	٤٢٣,١	١٧٩,٧	٢٤٣,٤
١٩٦٠	٤٣٦,٢	١٨٥,٤	٢٥٠,٨
١٩٦١	٥٩١,٩	٢٤٥,٣	٣٤٦,٦
١٩٦٢	٦٢٨,١	٢٧٩,٩	٣٤٨,٢
١٩٦٣	٦٧٧,٨	٣٤٩,٨	٣٢٨
١٩٦٤	٨٢٦	٣٦٩,٧	٤٥٦,٣
١٩٦٥	٨١٤,١٥٠	٤٠٥,٧١٣	٤٠٨,٤٣٧

٢ ــ صعوبات التصدير

ضرورة توافر كفايات عالية لإنتاج سلع بتكاليف أقل من ثمن السلع المماثلة فى الخارج وبدرجة جودة لا تقل عنها ، وقد لجأت الحكومة الإسرائيلية إلى رفع أجور العمال كحل مصطنع ، ولكن هذه الوسيلة أدت إلى ارتفاع تكاليف الإنتاج .

٣ ــ مشكلة التسويق

(ا) فإن إسرائيل تعتمد فى تصريف منتجاتها على بعض دول آسيا وإفريقيا من جهة ، وعلى دول أوربا وأمريكا من جهة أخرى ، وذلك بسبب إغلاق أسواق الدول العربية فى وجهها نتيجة للحصار الاقتصادى الذى تفرضه الدول العربية على إسرائيل ، الأمر الذى يجبرها على محاولة تسويق منتجاتها بعيداً عن الوطن العربى والأسواق القريبة مما يرفع من أسعار تلك المنتجات لإضافة تكاليف الشحن والنقل إليها ، وبذلك تعانى إسرائيل من منافسة الأسعار فى الأسواق العالمية .

(ب) يبين الجدول التالى حجم صادرات إسرائيل ، ويبين أن الدول الأوربية هى السوق الرئيسى الذى يستهلك ٦٣ ٪ مجموع صادرات إسرائيل :

القارة	عام ١٩٦٣ مليون دولار	عام ١٩٦٣ النسبة المئوية	عام ١٩٦٤ مليون دولار	عام ١٩٦٤ النسبة المئوية
أوربا	٢٧٧,٢	٪٦٤,٧	١٣٤,١	٪ ٦٣
أمريكا الشمالية والجنوبية	٥٥,٣	٪١٥,٧	٦٦,٨	٪١٨
آسيا	٤٢,٥	٪١٢,٣	٤٨,٥	٪١٣
إفريقيا	١١,٢	٪٣,٢	١٢,٧	٪ ٣,٥
أستراليا ونيوزيلندا	١٣,٢	٪٤,١	٧,٦	٪ ٢,٥
	٣٤٩,٤	١٠٠	٣٦٩,٧	١٠٠

ويلاحظ من دراسة هذا الجدول أن الدول الإفريقية تحصل على ٣,٥٪ فقط من الصادرات الإسرائيلية وهذه النسبة محدودة جداً ، ولا تتمشى مع الدعاية التى تروجها إسرائيل فى أنها تغزو أسواق إفريقيا .

٤ — الصادرات

من حيث السلع التى تصدرها إسرائيل ، فالملاحظ أن الماس يفوز بالمرتبة الأولى من الصادرات حيث يشكل ٣٧٪ منها ، ثم تأتى الموالح فى المرتبة الثانية ثم الأسمنت والكاوتش وكلوريد البوتاسيوم وباقى المنتجات .

٥ — الواردات

١ — تستورد إسرائيل كميات كبيرة من المواد الغذائية والمنتجات الزراعية والصناعية والسلع الرأسمالية والاستهلاكية نظراً لأن إنتاجها من المواد الغذائية لا يكفى الاستهلاك المحلى .

٢ — يلاحظ أن قيمة الواردات الإسرائيلية من الخارج تزيد على ضعف الصادرات ، فقد بلغت قيمة وارداتها عام ١٩٦٤ نحو ٦٧١,٥ مليون دولار وفى عام١٩٦٤ بلغت نحو٨٢٦ مليون دولار .

٣ — يلاحظ أن الواردات آخذة فى الازدياد بالرغم من أن السياسة الاقتصادية التى تسير عليها السلطات الإسرائيلية تقضى بالحد من زيادة الاستيراد لتخفيض العجز فى الميزان التجارى .

٤ — تعتبر الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وألمانيا الغربية الدول الرئيسية التى تمد إسرائيل بحاجتها من السلع حيث تغطى هذه الدول الأربع نسبة ٥٩ ٪ من واردات إسرائيل .

وفيما يلى بيان بالواردات الإسرائيلية عام ١٩٦٢ :

الرقم	السلعة	عام ١٩٦٢ آلاف الدولارات	النسبة المئوية
١	مواد غذائية	٨٢,٩٣٤	١٣,٣٪
٢	ماس خام	٧٢,٤٣٤	١١,٥٪
٣	آلات صناعية مختلفة	٤٤,٢٩١	٧٪
٤	أدوية ومواد خام ومواد كيماوية	٤٢,٩٨٥	٦,٩٪
٥	منتجات معدنية وحديدية	٤٢,٤٨٥	٦,٩٪
٦	أخشاب وجلود وورق كرتون	٣٦,٩٩٣	٥,٩٪
٧	بترول خام ومشتقاته	٣٥,٦٩٤	٥,٧٪
٨	عربات وتراكتورات وقطع غيار	٣٣,٨١٦	٥,٤٪
٩	قطن وغزل وصوف	١٧,٨٢١	٢,٨٪
١٠	طائرات ركاب مدنية وشراعية	١٧,٠٧٠	٢,٧٪
١١	محطات سنترال وأجهزة تليفونية	٥,٢٨٢	٠,٨٪
١٢	سفن ركاب وبضائع صيد	٤,٦٧١	٠,٧٪
١٣	بضائع مختلفة أخرى	١٩١,٦٤٩	٣٠,٤٪
	المجموع	٦٢٨,١٢٥	١٠٠٪

ويمكننا من هذا الجدول أن نستخلص الآتى :

١ ــ تمثل المواد الغذائية ١٣,٣٪ من الواردات الإسرائيلية إذ أن الإنتاج الزراعى لإسرائيل لايكفى حاجة السكان . .

٢ ــ الماس الخام المستورد يمثل ١١,٥ ٪ من الواردات .

٣ ــ تعتمد إسرائيل على استيراد كثير من المواد الخام والمنتجات الصناعية لاستخدامها فى الإنتاج الصناعى .

٦ ــ علاقات إسرائيل بالسوق الأوربية المشتركة

١ ــ لا تزال إسرائيل تبذل جهوداً كبيرة للانتساب للسوق الأوربية المشتركة بصفة رسمية على قدم المساواة مع الدول الأعضاء الأخرى نظراً للمزايا الاقتصادية الكبيرة التى ستعود عليها من جراء ذلك ولتضمن استمرار تصدير منتجاتها الزراعية والصناعية للدول المشتركة فى هذه السوق ولكنها لم تصل إلى نتيجة إيجابية حتى الآن فى هذا الشأن .

٢ ــ والمعروف أن الاتفاق الحالى بين إسرائيل ودول السوق والذى توصلت إليه فى ١٩٦٤/٧/١ يمنحها بعض الامتيازات والتسهيلات المتعلقة بخفض الرسوم الجمركية على بعض السلع من الصادرات الإسرائيلية لهذه الدول .

وعلى الرغم من ذلك فقد واجهت المنتجات الإسرائيلية فى العام الماضى المنافسة داخل السوق وخاصة فى الموالح حيث تعرضت إسرائيل لخسائر كبيرة وطالبت بزيادة نسبة التخفيض فى الرسوم الجمركية على الموالح الإسرائيلية لإمكان مواجهة هذه المنافسة ولتصريف كميات كبيرة من الموالح فى نفس الوقت ، غير أن بعض الدول المنتجة للموالح وخاصة إيطاليا عارضت مطالب إسرائيل .

الاضطراب الاقتصادى فى إسرائيل

١ ــ الإضرابات

ونتيجة للأزمة الخانقة التى تجتازها إسرائيل انتشرت حركات الإضراب بين الطوائف المختلفة وذلك تعبيراً عن استيائها من السياسة الاقتصادية التى تنتهجها الحكومة الإسرائيلية واحتجاجاً على سياسة تثبيت الأجور والارتفاع المستمر فى نفقات المعيشة .

وقد شملت حركات الإضراب كثيراً من الطوائف العمالية وخاصة العاملين فى مجال الخدمات والمدرسين وطلبة المعاهد العليا (٢٧٧ إضراباً عام ١٩٦٥) . مما زاد معه عدد المسجونين إلى درجة أن مفتش السجون صرح بأنه لم يعد يستطيع استقبال نزلاء جدد [١] .

٢ ــ البطالة

بلغ عدد العاطلين المسجلين من عمال المصانع حتى ١٣ / ٣ / ١٩٦٧ ٣٠ ألف عاطل فضلا عن ٩٦ ألفاً غير مسجلين .

والمتعطلون المسجلون هم المدرجة أسماؤهم فى الإحصائيات التى يجريها المكتب المركزى الإسرائيلى للإحصائيات .

٣ ــ انخفاض قيمة العملة الإسرائيلية

(ا) تعانى إسرائيل من انخفاض قيمة العملة الإسرائيلية وقد أدى ذلك إلى تذمر كثير من العمال والموظفين واضطرارهم إلى القيام بإضرابات

---

(١) صحيفة الإكسبريس الفرنسية .

تحذيرية ، لتلبية مطالبهم وزيادة أجورهم ، وكثيراً ماتتدخل السلطات الإسرائيلية لإجبار العمال والموظفين لإنهاء الإضراب .

(ب) فقد كانت العملة الإسرائيلية مرتبطة بالجنيه الإسترليني حتى ١٨ / ٢ / ١٩٥٢ وكانت قيمة الليرة الإسرائيلية حتى ذلك الوقت تعادل جنيها إسترلينيا كما كانت تعادل ٤ دولارات حتى عام ١٩٥٠ .

(حـ) بعد انفصال الليرة الإسرائيلية عن الجنيه الإسترليني أخذت قيمتها تنخفض بسبب زيادة الإصدار ، واضطرت السلطات الإسرائيلية إلى تخفيضها ٤ مرات وفيما يلي جدول يبين تطور قيمة العملة الإسرائيلية بالنسبة للجنيه الإسترليني والدولار خلال الفترة منذ قيام إسرائيل حتى الآن :

السنة	قيمة الليرة بالعملة الإنجليزية			قيمة الليرة بالعملة الأمريكية	
	بنس	شلن	جنيه	سنت	دولار
٤٨—٥١	—	—	١	—	٤
٥١—٥٢	—	١٠		٨٠	٢
٥٢—٥٣	٢	٧		—	١
٥٣—٦١	—	٤	—	٥٥	—
٦٢—٦٥	٥	٢		٣٣	—

٤ ـ التضخم النقدى وفوضى الأسعار

تضاعفت كمية الكتلة النقدية فى الفترة منذ قيام إسرائيل حتى عام ١٩٦١ عشر مرات تقريباً .

ونتيجة لهذا التضخم النقدى ، قد ارتفعت الأسعار ارتفاعاً فاحشاً بالرغم من مراقبة الأسعار ومنح السلطات الإسرائيلية إعانات لخفض تكاليف الإنتاج .

وفيما يلى جدول لأسعار بعض المواد الغذائية الإسرائيلية التى تدل على تفشى الغلاء فى إسرائيل :

المادة الغذائية	ثمن الكيلو	المادة الغذائية	ثمن الكيلو
لحم	٩ ليرات	فراخ	٢,١٥ ليرة
روى	٢,٧ ليرة	فلفل	,٥٠ ليرة
خيار	٠,٨ ليرة	عنب	٠,٥٠ ليرة
برقوق	١ ليرة	رومان	٠,٤٠ ليرة

هذا وقد أدى ارتفاع أسعار المواد الغذائية علاوة على النقص فى المواد الاستهلاكية إلى أن أصبح ٦٠ ٪ من سكان إسرائيل يعانون من سوء التغذية[١].

---

(١) صحيفة هآرتس الإسرائيلية (١٩٦٧/٣/١)

٧

المجتمع الإسرائيلى الخليط

- الفوارق الاجتماعية بين اليهود الشرقيين والغربيين
- الخلافات الحزبية فى إسرائيل
- الخلافات الدينية فى المجتمع الإسرائيلى

المجتمع الإسرائيلي

● المجتمع الإسرائيلى مجتمع متنافر إلى أبعد الحدود فهو مجتمع مؤلف من خليط عجيب من الجماعات اليهودية الوافدة من شتى المجتمعات والأقطار والدول من جميع أنحاء العالم .

● إن هذا المجتمع الغريب يضم فى مجموعه عشرات الشعوب التي وفدت من عشرات الدول لا تربط بينهم وحدة ما ولا تجمع بينهم حتى لغة أو عقيدة واحدة . . .

● يتجلى هذا التنافر الاجتماعى بأجلى مظاهره فى النزاع القائم بين اليهود الشرقيين واليهود الغربيين أى بين « السفاراديم » و « الإشكنازيم » من ناحية و بين اليهود المتدينين واليهود غير المتدينين من ناحية أخرى .

الفوارق الاجتماعية بين اليهود الشرقيين والغربيين

● يطلق اسم « سفاراديم » على اليهود الشرقيين واسم « الإشكنازيم » على اليهود الغربيين . والخلاف بين الطائفتين يرجع أصلاً إلى نظرة الترفع والاحتقار التى ينظر بها يهود الغرب لليهود الشرقيين ، فيهود الغرب الذين وفدوا من أوربا وأمريكا يرون فى اليهود الشرقيين الذين جاءوا من بلاد كاليمن وشمال إفريقية والبلاد العربية والهند وإيران طوائف متأخرة وعلى شيء كبير من الانحطاط الاجتماعى ومن ثم لا ينبغى أن يكونوا معهم على مستوى واحد حيث يتفوق أولئك عنهم بالذكاء والخبرة والعلم والمستوى الاجتماعى وفى مختلف مظاهر الحياة الروحية والمادية .

● وهكذا تولد النفور والعداء بين هؤلاء وأولئك ، وإن الكراهية التى

يضمرها اليهود الشرقيين لليهود الغربيين هو رد فعل طبيعى لما يلقونه من هؤلاء من زراية واحتقار .

● يشكل اليهود الغربيون ٩٠ من رئاسة المناصب الرئيسية فى البلديات والحكومة والهستدروت والكنيست والبنوك كما يشكلون ١٠٠٪ من رجال إدارة الوكالة اليهودية بالرغم من أن اليهود الشرقيين يشكلون أكثر من نصف السكان فى إسرائيل .

● فمن بين أعضاء البرلمان الإسرائيلى البالغ عددهم ١٢٠ نائباً لا نجد سوى ٢٠ نائباً من اليهود الشرقيين .

والوزارة الإسرائيلية فى تاريخها كله لم يدخلها وزير شرقى .

الخلافات الحزبية فى إسرائيل

وتنعكس صورة التنافر فى المجتمع الإسرائيلى على الحياة السياسية فى داخل الدولة الدخيلة فنجد التنافر الشديد بين مختلف الطوائف اليهودية علاوة على ازدياد الخلافات الحزبية ، فما زال الخلاف محتدماً داخل حزب الماباى الذى يعتبر من أكبر الأحزاب الإسرائيلية الأمر الذى أدى إلى انفصال بن جوريون ومؤيديه عن الحزب ، وتكوين حزب جديد ، كما حدثت خلافات داخل حزب الأحرار والحزب الشيوعى .

الخلافات الدينية فى المجتمع الإسرائيلى

والخلافات الدينية داخل المجتمع الإسرائيلى لا تقل خطراً عن الخلافات العنصرية السابقة ، وهذه الخلافات الدينية تقوم بين اليهود المتدينين (ومعظمهم من اليهود الشرقيين) ، وبين الفئات الإشكنازية الصهيونية (اليهود الغربيين) .

● ولا تقتصر الخلافات الدينية على المظاهر الدينية فحسب ، وإنما

تظهر هذه الخلافات أيضاً داخل الفئات اليهودية المتدينة نفسها من حيث تمسكها بتعاليم الدين اليهودى وحرصها عليه ودفاعها عنه ، حيث تختلف الجماعات فى درجة شعورها الدينى ويمكن أن نقسم هذه الجماعات إلى فئات ثلاث .

١ ــ الجماعات الدينية التى تؤمن بالدين اليهودى ويقف تدينها عند حد المطالبة بتطبيق التعليم الإلزامى الدينى وتخصيص ساعات إضافية له ، واستنكار الإجراءات المتعمدة العلنية التى تؤذى شعور المتدينين .

٢ ــ الجماعات الدينية التى تمزج الدين اليهودى بالصهيونية ، أى تؤمن بما يسمى (الصهيونية الدينية) وتقوم بإنشاء مجتمع صهيونى على أسس دينية ، وتعترف بدولة إسرائيل كأساس لليهودية العالمية ، وتنادى بالتعاون بين يهود إسرائيل ويهود العالم ولا تفصل بين الدين والسياسة ، وتتمثل هذه الجماعة فى (الحزب الدينى القومى) .

٣ ــ الجماعات الدينية اليهودية التى لا تتسامح مع السلطات الإسرائيلية بسبب المبادئ الصهيونية الإلحادية التى تحاول أن تبثها سياسة هذه الدولة وهى لا تتسامح فى انتهاك الحرمات وتطالب بوقف الأعمال يوم السبت وتناضل بقوة ضد كل ما يتعارض مع تعاليم التوراة ويمس جوهر الدين وتنتظم هذه الجماعات فى منظمة تعرف باسم (منظمة كارتا) .

● هذه هى صورة المجتمع الإسرائيلى . .

صورته العجيبة المؤلفة من المتناقضات والتى لا يمكن أن تجتمع لها فى يوم من الأيام وحدة قومية سليمة . . وكان من أبرز نتائج هذا التناقض والتنافر خلق جو من التفكك والطائفية العنصرية والانحلال .

ومجتمع على هذا النمط لا يمكن أن يبقى . . أو يستمر . .

٨

إسرائيل تمارس التفرقة العنصرية

- إسرائيل تمارس التفرقة العنصرية مع أصحاب البلاد الشرعيين :
- سياسة إسرائيل نحو العرب المقيمين فيها :
  - الاستيلاء على أراضي العرب
  - اضطهاد العرب لإجبارهم على ترك ديارهم

« يوم ١١ أغسطس رجالكم نسفوا بيوتنا بالديناميت بالجملة وقطعوا ألوفاً من أشجارنا المثمرة—المحكمة العليا حكمت لنا وسلطاتكم أدخلت المعتدين وساعدتهم . . شكونا للسلطات وليس من مجيب . أنحن فى دولة أم بين عصابات . اقتلونى . فقد كرهت البقاء تحت ظلمكم هأنذا عمرى ثمانون سنة ولم أسمع ولم أر أفظع استبداداً وظلماً منكم .

ادفعوا ثمن أموالى لأخرج أو اقتلونى لأرتاح . أشكوكم إلى الله » .

التوقيع : محمد نداف

مختار (عمدة) قرية الجلمة بإسرائيل

(برقية أرسلها إلى السلطات الإسرائيلية)

إسرائيل تمارس التفرقة العنصرية مع أصحاب البلاد الشرعيين

● تعامل إسرائيل — الأقلية العربية فيها ... أصحاب الحق الشرعيين معاملة وحشية تفضح مزاعمها فى الديمقراطية ، وتصمها بالخروج على المبادئ الإنسانية التى قام عليها ميثاق الأمم المتحدة ووثيقة حقوق الإنسان ومبادئ العدالة والمساواة . . .

● ويبلغ عدد العرب فى فلسطين المحتلة حوالى ٢٠٠,٠٠٠ عربى (كان عددهم ١٩٢,٠٠٠ عام ١٩٥٥ حسب ما جاء فى مجلة الإحصاء الإسرائيلية الشهرية) .

● ويتركز السكان العرب فى منطقة الجليل حيث يقيم حوالى ١٠٠,٠٠٠ نسمة منهم فى الجليل الغربى .والشرقى ، كذلك يقيم عدد كبير من العرب — يبلغ حوالى ٣٥ ألفاً — فى منطقة سهل الشارون والسامرة الشمالية كما يقيم بها حوالى ١٥,٠٠٠ بدوى.

● والعرب فى إسرائيل يؤلفون حوالى ١١٪ من مجموع السكان ويملكون ٤٣٠ ألف دونم من الأراضى الزراعية .

سياسة إسرائيل نحو العرب المقيمين فيها

إن سياسة السلطات الإسرائيلية فى فلسطين المحتلة نحو الأقلية العربية

لها هدف واحد : هو القضاء على العرب الباقين بها : إما بالهجرة إلى الدول العربية المجاورة أو الفناء . . وذلك خلال طريقتين :

أولا : بالاستيلاء على أراضى العرب بكل الوسائل وإعطائها للمهاجرين اليهود أو ضمها إلى المستعمرات اليهودية المجاورة .

ثانياً : اضطهاد العرب بشكل لم يسبق له مثيل فى التاريخ لإجبارهم على الرحيل من ديارهم .

أولا ـ الاستيلاء على أراضى العرب وذلك خلال القوانين التالية :

١ ـ قانون الطوارئ

وقد أجاز هذا القانون مصادرة أراضى العرب فى المناطق الحربية بدعوى المحافظة على سلامة الدولة .

ـ والمناطق الحربية حسب قرار الكنيست الصادر عام ١٩٤٩ هى مناطق الحدود التى يسكنها ٨٠٪ من العرب وتشتمل على :

(ا) الجليل

(ب) النقب

(ح) المثلث الصغير : وهى المنطقة المحيطة بقرى الطيرة والطيبة وطولكرم .

٢ ـ قانون زراعة الأراضى الخراب

- يخول هذا القانون وزير الزراعة الحق فى أن يستولى على أراضى العرب

المهجورة وأن يوزعها بمعرفته على مزارعين من اليهود ، ويتم ذلك بعد إنذار كتابى لصاحب الأرض يعلق فوقها فإذا مضت مدة الإنذار ولم تستغل الأرض صادرها الوزير ومنحها لمن يستغلها من المهاجرين اليهود .

● إن هذا القانون فى ظاهره لا تبدو مساوئة فظاهره يهدف إلى زيادة الإنتاج ودفع السكان إلى استغلال أراضيهم ، فإن تكاسل أحدهم أو عجز عن ذلك حق للحكومة فى سبيل المنفعة العامة أن تستولى على الأرض بعد أن تكون قد أنذرت صاحبها وعجز عن إصلاحها .

● ولكن هذا القانون فى باطنه يحوى كل الشر للعرب لأنه يتجاهل أن هذه الأراضى غير المستغلة أصحابها محجوزون داخل قراهم بموجب قانون الطوارئ ونظام منع التجول المفروض على المناطق التى يتكتل فيها العرب فى منطقتى المثلث والجليل حيث يحظر على السكان العرب وحدهم الانتقال من منطقة إلى أخرى وحتى من قرية إلى أخرى إلا بإذن من الحاكم العسكرى ، والحصول على هذا الإذن له إجراءات طويلة تكون النتيجة فى أغلبها الرفض ، لذلك فإن أصحاب هذه الأراضى لا يستطيعون الذهاب إلى أراضيهم لاستغلالها وزراعتها ، فتمضى مدة الإنذار ويطبق عليهم نص القانون الجائر ويستولى الوزير على أراضيهم ويوزعها على اليهود ، وهو ما يهدف إليه واضعو القانون .

٣ ــ قانون أملاك الغائب سنة ١٩٥٠

● وبموجبه يوضع تحت تصرف الحاكم الذى تعينه حكومة إسرائيل

جميع الأملاك التى هى فى الدولة أو فى الأراضى التى تحتلها قوات إسرائيل والتى كان يملكها غائبون أو كانت تحت إشرافهم أو محلا لسكناهم ، ويحدد الغائب بكل صاحب ملك كان بتاريخ ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ من رعايا لبنان — مصر — سوريا — المملكة السعودية — شرق الأردن — العراق — اليمن أو أنه كان فى ذلك التاريخ مقيماً بإحدى تلك الدول أو فى أى قسم من فلسطين لا يتبع دولة إسرائيل أو أنه كان يتمتع بالجنسية الفلسطينية وترك محل إقامته بها دون أن يحصل على إذن بذلك — وكل شركة أو جمعية يكون نصف أعضائها أو نصف رأسمالها فى الخارج تعتبر غائبة ، وتشتمل كلمة الملك على كل منقول أو غير منقول وحقوق الملكية والموجودات الجارية .

وللحاكم الحق فى بيع الملك الموضوع تحت تصرفه بموافقة اللجنة التى يعينها وزراء المالية والزراعة والأقليات ويحرر الملك حينئذ من قيوده السابقة وينزع من مالكيه ويبقى ثمنه تحت تصرف الحاكم الذى تعينه حكومة إسرائيل .

وحيث إنه لم يكن فى حيازة اليهود فى تاريخ ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ الذى يحدده القانون إلا جزء صغير مما وقع تحت أيديهم فيما بعد ، فإن عدد كبيراً من العرب الذين بقوا فى فلسطين المحتلة اعتبروا (غائبين) وكذلك كل من انتقل منهم إلى قريته أو إلى قرية أو بلدة مجاورة تحت ضغط ظروف الحرب يعتبر غائباً وتصادر أملاكه ، وكذلك الثلاثون ألف عربى سكان المثلث الصغير الذى انتقل إلى اليهود بموجب اتفاقية الهدنة مع الأردن

اعتبروا غائبين . وبحكم هذا القانون الجائر فقد العرب نحو ٢٠٠ ألف دونم من أراضيهم وضعها الحارس العام تحت تصرف المستعمرات اليهودية المجاورة، وحتى سكان الأحياء الجديدة فى مدينة عكا الذين انتقلوا إلى المدينة القديمة داخل السور اعتبروا غائبين وفقدوا أملاكهم .

● إن فى نصوص هذا القانون خروجاً على العرف الدولى الذى ضرب به اليهود عرض الحائط ، وذلك لأن تعيين حارس على أملاك العدو تدبير يتخذ فى حالة الحرب فقط ضد الأعداء ، فالنتائج المترتبة على الحروب أن تمنع التجارة مع العدو وأن توضع أموال رعايا العدو تحت الحراسة وتدار بمعرفة الحارس .

● ولكن القانون المذكور ذهب إلى أكثر من ذلك فأجاز بيع العقارات فى حين أن العرف الدولى لا يسمح بذلك وصلاحيات الحارس لا تعطيه الحق فى بيع الأملاك التى يعين حارساً عليها .

٤ ــ قانون امتلاك الأراضى لسنة ١٩٥٢

وهذا القانون يجيز مصادرة الأراضى اللازمة للمشروعات العسكرية والإنشاء وبناء المستعمرات .

واشترط القانون أن تكون الأراضى المصادرة مستغلة خلال الفترة بين ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ ويوم بدء العمل بهذا القانون لغايات الأمن أو الإنشاء أو التعمير ، غير أنه أعطى الوزير المختص سلطة مطلقة فى إعطاء

شهادة بأن الأراضى كانت خلال تلك الفترة مستغلة للأغراض المذكورة وليس لأحد الحق فى الاعتراض على هذه السلطة .

٥ ــ قانون التصرف لسنة ١٩٥٣

وينص هذا القانون على :

أنه إذا لم يتصرف صاحب الملك بأرضه تصرفاً فعلياً (أى بنفسه وبيده) وكانت الحكومة محتاجة إليها للأغراض الدفاعية أولأغراض التوطين فإنها تصبح بأمر من وزير المالية ملكاً للدولة وتسجل باسم سلطة التعمير والإنشاء ، ويكون قرار وزير المالية قراراً قاطعاً بحيث لا يخضع لمراقبة المحاكم !

وهذا يعنى أن جميع الأراضى العربية الواقعة فى المناطق التى يطبق عليها قانون الطوارئ ، والتى يطبق على العرب فيها نظام منع التجول سنؤول حتما إلى سلطة التعمير والإنشاء ، فعندما ترغب السلطات اليهودية فى الاستيلاء على أرض عربية ما ، يمتنع الحاكم العسكرى عن إعطاء الإذن لأصحابها بالتنقل فينطبق عليها نص القانون وتصادر .

وبهذه الوسيلة وغيرها استطاع اليهود الاستيلاء على مئات الألوف من الدونمات من أراضى العرب المقيمين فى إسرائيل .

نسب ملكية الأراضى بفلسطين حتى عام ١٩٤٥

(ويلاحظ أن اليهود لم يستطيعوا شراء أراض جديدة بعد عام ١٩٤٥ وحتى عام ١٩٤٨)

المنطقة	عرب	يهود
صفد	٦٨٪	١٨٪
عكا	٨ ٪	٣ ٪
طبرية	٥١٪	٣٨٪
بيسان	٤٤٪	٣٤٪
الناصرة	٥٢٪	٢٨٪
حيفا	٤٢٪	٣٥٪
جنين	٨٤٪	أقل من ١ ٪
نابلس	٧٦٪	أقل من ١ ٪
طولكرم	٧٨٪	١٧٪
رام الله	٩٩٪	أقل من ١ ٪
القدس	٨٤٪	٢ ٪
الخليل	٩٦٪	أقل من ١ ٪
يافا	٤٧٪	٣٩٪
الرملة	٧٧٪	١٤٪
غزة	٧٥٪	٤ ٪
بئر السبع	١٤٪	أقل من ١ ٪

ثانياً ــ إجراءات اليهود للتخلص من عرب فلسطين

١ ــ نسف القرى والمدن العربية

سار اليهود على خطة نسف القرى وتدميرها وهدم أبنية العرب فى المدن إمعاناً منهم فى التضييق على العرب وإجبارهم على ترك البلاد مثل نسف قرية « إقرت » قرب لبنان وقرية « كفر برعم » وحرق كنيستها وقرية « الريحانية » .

وقد نشر الكاتب اليهودى «هال لهرمان» مقالاً فى مجلة « كومنترى » الأمريكية عن أحوال العرب فى إسرائيل جاء فيه :

« أما وقد زرت جميع أنحاء البلاد فقد بدا لى أن الجندى الإسرائيلى كان قاسياً فى معاملته بلا ريب حتى مع غير المحاربين من العرب إذ نجد كثيراً من القرى العربية التى تهدمت بفعل الديناميت وقد هجرها أهلها ، وهى قرى لم تمسها الحرب ، قد دخلها اليهود وحطموها ، ويظهر أن اليهود حينما شعروا بهجرة العرب تمادوا فى تخريبهم ليتأكدوا من أن العرب لن يعودوا إليها » .

٢ ــ قتل الأبرياء

(أ) تلجأ القوات اليهودية المسلحة إلى الاعتداء على السكان العرب بالضرب والتعذيب والتقتيل ، وقد بلغ من وحشية اليهود فى هذه الأعمال البربرية أن الصحف اليهودية اعترفت بوقوعها واحتجت عليها ، فلقد

ذكرت جريدة « كول هاعام » اليهودية فى عددها الصادر فى أول سبتمبر سنة ١٩٥٣ :

« إن السلطات اليهودية أعدمت ١٦ شاباً من قرية عيلون (قضاء الناصرة) برصاص الرشاشات بعد أن اختارتهم من بين ذكور القرية وأجلت سائر الشبان من القرية وطردتهم عبر الحدوداللبنانية ولم تبق فى القرية غير الشيوخ والعجزة ، وقد أحرق الجنود اليهود عائلة آل زريق من نفس القرية فى داخل بيتها إرهاباً لسائر السكان وترويعاً لهم لحملهم على الخروج من البلاد » .

٣ ــ طرد السكان

نشرت جريدة « الصنداى أوبزرفر » التى تصدر فى لندن لمراسلها « فيليب توينبى » برقية. بعث بها من بيروت فى ١٢ يونيو ١٩٥٠ جاء فيها ما يلى :

« أحاط بوليس إسرائيل بمائة عربى وسلمهم إلى الجيش بحجة أنهم خالفوا نظام الحدود ، وظل الجنود يسوقونهم من ساعة مبكرة فى الصباح إلى ساعة متأخرة من الليل إلى مكان سحيق خطر على الحدود وقد عصبوا عيونهم ، وكانوا إذا تلكأوا فى السير ضربوهم على وجوههم وظهورهم بعصى غليظة من المطاط ومنعوا عنهم الماء ثم رفعت العصابات عن أعينهم ودفعهم الجنود إلى الجرى وأخذوا يطلقون النار من المدافع الرشاشة فوق رؤوسهم وفيما بينهم . . وكانت المنطقة التى دفعوا إليها هى وادى عربة المرعب الواقع

جنوب البحر الميت حيث لا يستطيع الحياة فيه إلا الحشرات . . وقد ضل أغلبهم الطريق عدا السعداء منهم الذين وجدهم بعض البدو فأخذوهم إلى أقرب مخفر للحدود للجيش الأردنى » ، ويقول المراسل : « وقد رأيت بعينى الجروح والتسلخات الناشئة عن ضربهم فى السجن ورأيت أرجلهم متورمة محترقة ورأيت أحدهم وقد نزع ظفران من أصابعه أثناء التعذيب » .

● جاء أيضاً فى جريدة الأهرام يوم ١٢ يونيو سنة ١٩٥٠ أن فرقة من الجيش الأردنى تبحث الآن عن ١٦٠ عربياً أخرجهم اليهود من ديارهم وألقوا بهم فى الصحراء بالنقب حيث لا ماء ولا طعام .

وقد عثرت فرق الجيش على ٨٠ منهم حتى ذلك الوقت .

٤ ــ تحديد حرية التنقل

وقد استعملت السلطات اليهودية قوانين الطوارئ لفرض الأحكام العسكرية على المناطق التى يكثر فيها العرب فى منطقتى المثلث والجليل ، ونتج عن ذلك أن تحولت كل واحدة من هاتين المنطقتين إلى سجن كبير يحظر الخروج منه أو الدخول إليه إلا بتصريح من الحاكم العسكرى ، وفى الغالب يرفض الحاكم إصدار الإذن بذلك ، وليس هذا فقط بل إنهم منعوا الاتصال بين أهل القرى الواقعة فى المنطقة الواحدة فأصبحت كل قرية ضمن هذا السجن الكبير (زنزانة) لا يجوز الخروج منها حتى إلى ساحة ذلك السجن ، وتفرض عليهم السلطات اليهودية كذلك الإقامة الجبرية فى قراهم أو مدنهم وتحرمهم من الخروج بأى حال من الأحوال ،

ويقيم اليهود على مداخل المدن والقرى العربية مراكز عسكرية وبوليسية لتفتيش السكان الداخلين والخارجين .

٥ — التضييق الاقتصادى على العرب

● بالإضافة إلى هذه الإجراءات التى تهدف إلى نزع البقية الباقية من أراضى العرب وسلب كل ما يملكون فإن إسرائيل تسلك معهم سبيلاً اقتصادياً لا قبل لهم به ، من ذلك أنها تجبرهم على بيع محصولاتهم الزراعية إلى شركات التسويق اليهودية بالأسعار التى تفرضها عليهم هذه الشركات الاحتكارية وبذلك يضطر العرب إلى بيع منتجاتهم بأقل الأسعار وأبخسها .

● ويقع العرب تحت رحمة موظفى تقدير الضرائب وكلهم من اليهود ، وهؤلاء يترسمون سياسة حكومتهم وخطاهم فى إفقار العرب والتشديد عليهم استجابة لمشاعر الحقد التى تكنها نفوسهم للعرب ، علاوة على أن إسرائيل تغلق أبواب العمل فى المؤسسات اليهودية فى وجه العرب على اعتبار أنهم ليسوا أعضاء فى « الهستدروت » ومن ثم يتعرضون للبطالة والفقر ، وهكذا يطارد « الهستدروت » العمال العرب كما يتحكم فيهم أصحاب الأعمال من اليهود حيث يعطون أجراً للعامل العربى أقل بنسبة ٤٠ ٪ من العامل اليهودى ، كما أغلقت حكومة إسرائيل أبواب الوظائف فى وجه العرب على الرغم من أنهم يؤلفون نحو ١١ ٪ من مجموع سكان إسرائيل وعلى الرغم من أنهم يدفعون الضرائب والقروض الإجبارية ويساهمون فى التبرع لصندوق

التسلح أسوة بالسكان اليهود .

● ومن الأساليب الغريبة التي تلجأ إليها السلطات الإسرائيلية للإضرار بالسكان العرب إعلان ما يعرف (بالمناطق المغلقة) بحجة إجراء مناورات عسكرية فيها أو بالقرب منها ، وكثيراً ما تكون هذه المناطق زراعية ويحول هذا الأمر دون تمكن أصحابها الذين يعملون فيها من دخولها أياماً وأسابيع وأحياناً لعدة أشهر مما يعرض حاصلاتها للتلف وضياع الموسم الزراعي كله عليهم ، الأمر الذي أثار شكاوى المواطنين العرب وجعلهم يجأرون بالشكوى دون جدوى .

● وقد أشارت مجلة « الرابطة » في عددها الصادر في ٢ فبراير سنة ١٩٥٦ إلى ذلك بقولها :

« لقد أصدر القائد العام للجيش الإسرائيلي أمراً بإغلاق عدة مناطق بينها ما يقرب من ٧٠,٠٠٠ دونم من الأراضي العربية بالجليل ولم يفكر صاحب الأمر بما يبقى للمزارعين العرب من وسائل المعيشة ، إن هذا الأمر الجديد يحرم العرب من القشور الباقية في أيديهم ويحكم على ألوف السكان بالموت جوعاً » .

ملحق

نص الخطاب الذى ألقاه بن جوريون رئيس وزراء إسرائيل السابق فى حفل تخريج المدرسة الحربية (عام ١٩٤٩)

« ستخرجون من هنا لتصبحوا ضباطاً فى الجيش الإسرائيلى وفى هذا شرف عظيم ولكنه ينطوى على المسئولية الكبرى أيضاً . . إذ أنكم ستكونون قواداً لذلك الجيش الذى خرج إلى النور منذ عام بعد أن نفض عنه ثوب المقاومة السرية . إن جيشنا بشكله الحالى لم يتم تدريبه ولم يجمع أسلحته إلا بعد الخامس عشر من مايو أى بعد قيام الدولة ولكن هذا لا يخجلنا أمام الجيوش العربية السبعة المدربة ، جيشنا جند ونظم خلال إعصار الحرب معهم واجتاز اختبار الدم والحديد بتفوق مشرف ، فالعمليات الحربية أمثال تحشون والأيام العشرة ومعارك النقب والساعات الستون فى الجليل دلائل على قوتنا ، لقد أصبحت انتصاراتنا جزءاً من تاريخنا ، ولكننا لم نصل بعد إلى غايتنا ، أى إلى النصر النهائى ، فنحن لم نحرر حتى الآن من بلادنا سوى قسم واحد . . وأما الأقسام الباقية فسيكون مصيرها مصير القسم الذى تسيطر عليه قواتنا الباسلة الآن . .

« ولا تنسوا أيها الضباط أن الدسائس والمؤامرات السياسية لا تزال تحاك هنا وهناك ضدنا ، ومما لا شك فيه أن الصعوبات الكثيرة ستكتنف طريقنا ، إلا أن استقلالنا وحريتنا وإمكانيات الهجرة والاستعمار وتقرير

مصير دولتنا الكبرى هذا كله رهن بقوة جيشنا ، فلا يجوز أن نركن إلى الراحة وأن نكتفى باحتلالنا وانتصاراتنا التى انتزعها جيشنا ، إنه لم ينته بعد من إتمام رسالته وما زلنا ننتظر يوماً بعد يوم استخدام قوة هذا السلاح ومضاء عزيمته فى إنقاذ أراضى الآباء والأجداد . إن مستقبلنا مستقبل الشعب اليهودى بأسره ، وسيكون اعتماده الأول على انتصارتنا العسكرية فى الحرب القادمة ، نعم سنجعل الحرب حرفة يهودية حتى يتم تحرير بلانا بأجمعها ، وسنقاتل ما لاح لنا خطر يمنعنا من تحرير تلك البلاد ، بلاد الآباء والأجداد . . أجل سنحقق رؤيا أنبياء إسرائيل ولن تتحقق تلك الرؤيا إلا إذا عملنا بهذه الكلمات " أحب لأخيك ما تحب لنفسك وهيئ له الاستيطان فى المكان اللائق به " .

« هذه هى شعاراتنا التى يجب أن نعمل بها ونحميها من العدوان . . أما السيف الذى أغمدناه ، فإنه لم يغمد إلا مؤقتاً ، إننا سنخرجه من جديد حين تهدد حريتنا فى وطننا وحينما تهدد رؤيا أنبياء التوراة ، فالشعب اليهودى بأسره سيعود إلى الاستيطان فى أرض الآباء والأجداد الممتدة من الفرات حتى النيل[1] » .

المراجع

١ — أزيلوا إسرائيل — إيلين بيتى
٢ — فلسطين والضمير الإنسانى — محمد على علوبة
٣ — الصهيونية العالمية — عباس محمود العقاد
٤ — تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم — محمد عزة دروزة
٥ — الصهيونية وربيبتها إسرائيل — فريق أول محمد فوزى وعمر رشدى
٦ — الصهيونية أعلى مراحل الاستعمار
٧ — هذه هى الصهيونية — دار التحرير
٨ — إسرائيل والدول الكبرى — د . يحيى عويس
٩ — وهكذا ضاع الشرق الأوسط — ألفريد ليلنتال
١٠ — الجامعة العربية بين القوى الرجعية والشعبية — محمد فريد على .
١١ — فى مواجهة إسرائيل — سامى منصور
١٢ — فلسفة الثورة — الرئيس جمال عبد الناصر
١٣ — ميثاق العمل الوطنى — تقديم الرئيس جمال عبد الناصر
١٤ — اضطهاد العرب فى إسرائيل — (الأمانة العامة لجامعة الدول العربية — إدارة فلسطين) .
١٥ — وثائق الجامعة العربية
١٦ — مشروعات استغلال نهر الأردن — شريف المنياوى
١٧ — جريدة الأهرام المصرية . .
١٨ — نشرات إدارة التوجيه المعنوى .

تم طبع هذا الكتاب
على مطابع دار المعارف بمصر